

رفعه د. عبد الباري فتح الله المدني

188



حركة الانضباط الفكرى و جهود الشاه ولي الله فى التجديد

للمدرة محمد اسماعيل السلفى رحمه الله

(١٨٩٥ - ١٩٦٨ م)

ترجمته

الدكتور مقتدى حسن ياسين الازهرى

الناسخ

ادارة البحوث الاسلامية بالجامعة السلفية بنارس



دائرة المعارف بيروت

تكملة
(١٩٨٠ - ١٩٨١)

الطبعة
الاولى

١٩٨٠
بيروت



حركة الانضباط الفكري
و
جهود الشاه ولي الله في التجديد



مكتبة جامعة القاهرة

بيوتها في القاهرة ١٩٥٠

حركة الانضداد الفكري و جهود الشاه ولي الله في التجديد

للمدونة محمد اسماعيل السافى رحمه الله

(١٨٩٥ - ١٩٦٨ م)

ترجمتها

الدكتور مقتدى حسن ياسين الأزهرى

الناشر

ادارة البحوث الاسلامية بالجامعة السلفية ببنارس

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى : عام ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

الطبعة الثانية : عام ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

بالمطبعة السلفية ، بنارس ، الهند

يطلب من

المكتبة السلفية ، ريورى تالاب ، بنارس - ٢٢١٠١٠

عادة معروفة

جرت عادة الكتاب و المؤلفين بأنهم يهدون مؤلفاتهم إلى بعض الشخصيات تقديرا لمواقفها وتنويها بأعمالها وعرفانا بحميلها . وقد حدثت حذوهم في الطبعة الأولى من الكتاب ، ثم نهني بعض الإخوة على أن الإهداء لا يستحسنه مشايخنا حفظهم الله تعالى . ودون الاطلاع على دليلهم في ذلك ألغيت عنوان الإهداء وعبارته ، ولكن مع ذلك أرى الواجب على نفسى إثبات سطور عدة تقديرا لموقف قرينتى التى كانت لى بتضحيتها وتشجيعها أكبر عون فى بناء المستقبل العلمى وتكريم منزلة العلم والعلماء ، جزاها الله تعالى عنى وعن العلم خير الجزاء ، وكتب لها الفوز والسعادة فى الدارين ، ونفع بهذه الترجمة طلاب الحق جميعا ، إنه ولى التوفيق ، وصلى وسلم على رسوله خاتم النبیین ، والحمد لله رب العالمين ؟

(الأزمهرى)

تعاريف و اصطلاحات

در اینجا به تعاریف و اصطلاحات مربوط به روش تحقیق و روش گردآوری داده‌ها پرداخته می‌شود. در این بخش، روش‌های مختلف گردآوری داده‌ها، روش‌های مختلف تجزیه و تحلیل داده‌ها، روش‌های مختلف اعتبار سنجی و روش‌های مختلف کنترل کیفیت مورد بررسی قرار می‌گیرد. همچنین، روش‌های مختلف گردآوری داده‌ها، روش‌های مختلف تجزیه و تحلیل داده‌ها، روش‌های مختلف اعتبار سنجی و روش‌های مختلف کنترل کیفیت مورد بررسی قرار می‌گیرد. همچنین، روش‌های مختلف گردآوری داده‌ها، روش‌های مختلف تجزیه و تحلیل داده‌ها، روش‌های مختلف اعتبار سنجی و روش‌های مختلف کنترل کیفیت مورد بررسی قرار می‌گیرد.

(ادامه دارد)

كلمة الطبعة الثانية

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه ،
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله
فلا مضل له ، ومن يضله فلا هادي له ، أما بعد :

فقد وفق الله تعالى القائمين على إدارة البحوث الإسلامية لخراج
الطبعة الثمانية من كتاب حركة الانطلاق الفكري ، وكانت نسخته قد نفذت
منذ سنتين أو أكثر ، ولكن الأعمال الأخرى تراكمت على مطبعة
الجامعة فتأخر طبع هذا الكتاب ، وتقدم ما كان له أهمية أكبر .

والقبول الذي حظى به هذا الكتاب في الأوساط العربية يرجع
بعد فضل الله ومثته إلى الموضوع الذي يتناوله ، وإلى الأسلوب
الذي اختاره مؤلفه لشرح القضايا الواردة ، وإلى التزامه بالرزانة
والموضوعية في بسط الأدلة والرد على المعارضين ، وإلى دقة نظره
وسعة اطلاعه وحسن عرضه للإراحل التي مرت بها دعوة العمل
بالكتاب والسنة وعدم التقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية التي
يصاب أتباعها بالتعصب والجمود في أغلب الأحيان .

واستعراض سريع لأحوال المسلمين في الهند وغيرها من البلاد
يؤكد لنا أهمية هذا الكتاب ومدى حاجة الناس إليه ، فإن طبعة

منهم لا تزال بمعزل عن المنهج الذي دعا إليه الشاه ولي الله الدهلوي رحمه الله في سبيل اتباع الكتاب والسنة ، ولا تزال بعض الألسنة تردد القول بوجوب التقليد ، وتطعن في الطائفة المنصورة التي التزمت العمل بالكتاب والسنة ، وتحاول الانتصار لبدع العقيدة والعمل . وهذا الوطع هو الذي يدفع إلى نشر هذه الكتابة القيمة ، لعل الله تعالى يهدي بها أصحاب العقول السليمة والنوايا الطيبة . وبما يبشر بالخير بهذا الصدد أننا نرى مجموعة من العلماء والكتاب ينادون في هذا العصر بوجوب اتباع الكتاب والسنة وبضرورة فتح باب الاجتهاد وتشجيع اتجاه التوسع والانفتاح ، ولعل هذا التغير نتج عن مثل هذه الكتابات .

هذا ، وقد أضفت إلى هذه الطبعة مبحثين آخرين نشرنا في الطبعة الثانية لأصل الكتاب ، وهما مبحث : حياة النبي ﷺ ، وزيارة القبور . وكذا ورد فيها بعض الأسئلة والرد عليها من المؤلف رحمه الله . وهكذا صار الكتاب أوسع وأنفع إن شاء الله .

وشكرا لمن أبدى توجيهاته لهذه الطبعة وقدم عونه في تحسينها ، والله تعالى أسأل يكتب القبول لهذه الطبعة كسابقاتها ، ويجزى المؤلف والناشر أحسن الجزاء ، ويوفق الجميع لاتباع الحق والخضوع له حيث كان ، وصلى الله على نبينا وسلم .

(مقتدى حسن الأزهرى)

١٤٠٩/٦/١٨ هـ





تقديم الطبعة الأولى للكتاب

بقلم : سماحة الشيخ العلامة المحدث عبيد الله الرحمان حفظه الله
رئيس الجامعة السلفية ، بنارس ، الهند

إن التاريخ الديني والثقافي للحركات والجماعات ، مثل التاريخ السياسي للأمم والبلاد . يكون دائماً في حاجة إلى البحث والتنقيب ، ويتطلب من الباحثين الجهود المضاعفة لاستنطاق الحوادث واستنباط النتائج وتصويب الأخطاء وتفنيذ المزاعم ، فإن المؤرخين لا يكونون على مستوى واحد من دقة النظر ، ولفاذ البصيرة ، وقوة الاستنتاج ، ومراعاة الأمانة العلمية ، فقد يخلط بعضهم الخطأ بالصواب ، ويستدل بالأحداث على ما لا تدل عليه ، ويغفل ذكر ما لا يرضاه ولو كان مهماً ، وينوه بما يحبه ولو كان تافهاً ، وهكذا تتشوّه معالم التاريخ ويحد التحريف إليه سبيلاً .

وهنا يأتي دور الباحثين الأمانة الذين يتمتعون بالإخلاص العلمي ، ويتجردون من الميول والنزعات الشخصية في سبيل الوصول إلى الحقائق العلمية الثابتة ، حتى ينهضوا بتدوين التاريخ على أسس سليمة بدون البغس والإطراء ، ويصححوا الأخطاء ، ويردوا الحق إلى نصابه ،

ويذكروا ما أهمل ذكره من قبل المؤرخين بتعمد أو دونه ، مما يجدر بالإشادة والتنويه .

ومن هؤلاء الباحثين الأفاضل فضيلة الشيخ العلامة محمد إسماعيل ابن محمد إبراهيم السلفي ، رحمه الله تعالى ، أمير جمعية أهل الحديث في باكستان الغربية ، الذي ألف كتابه على موضوع الحركة السلفية ، وما مرت به من المراحل المختلفة في الهند ، وما ذا كان موقف أصحاب المذاهب الأخرى معها ، وما هي الآثار التي ترتبت على جهود الشاه ولي الله ضد التقليد والجمود ، وكيف إنه دعا الناس إلى العمل بالكتاب والسنة والتحرر من أغلال التقليد والجمود ، ومن هم الذين حملوا راية البحث والتحقيق ، وقاوموا البدع في العقيدة والعمل فيما بعده من الزمن ؟ هذه وغيرها من النقاط المهمة يبحثها ويفصلها كتاب الشيخ محمد إسماعيل السلفي ، الذي يحمل بالعربية عنوان « حركة الانطلاق الفكري وجهود الشاه ولي الله في التجديد » .

وكما أشار المؤلف — رحمه الله — كانت لوضع الكتاب مناسبة خاصة من إثارة بعض المقلدين في باكستان المسائل التي اختلفت فيها وجهات نظر أهل الحديث وأهل التقليد ، فرأى نفسه مضطرا إلى الدفاع عن موقف أهل الحديث وتمسكهم بالأحاديث الصحيحة بدون التحيز والتقليد . ولكنه في بحثه القيم الأصيل لم يقتصر على الرد على الخصم بطريق الجدل والمناظرة ، بل قد تناول المسائل الخلافية بأسلوب علمي

دقيق ، وصور الحالة الدينية للمسلمين ، ونشأة المذاهب والفرق ، والتطورات التي مرت بها حركة العمل بالكتاب والسنة منذ زمن الرسول ﷺ إلى يومنا هذا ، ثم أشار إلى أصل الخلاف الذي يوجد بين أهل الحديث وغيرهم من الطوائف التي ترى وجوب تقليد إمام من الأئمة ، رحمهم الله تعالى . وكل ذلك في صورة التوضيح والتحقيق ، وبمنظرة الباحثين المخلصين بدون الطعن في أحد والتعامل على مذهب .

ويكتسب الكتاب أهميته إذا نظرنا في علماء الهند وغيرها من البلاد الإسلامية من يشتغل بالحديث وعلومه بدافع من التعصب المذهبي ، ويحاول النيل من أعلام المحدثين الذين أفنوا أعمارهم في جمع حديث الرسول ﷺ وشرحه ، والذب عنه والتمييز فيما بينه ، والاستنباط منه والكلام على رجاله ومؤلفيه . كان لهؤلاء الأعلام - ولا شك - فضل كبير ويد عظيمة على الأمة الإسلامية ، في جمع الحديث وشرحه واستنباط الأحكام منه . ولكن هذه الخدمة الجليلة لم تعجب أصحاب الأغراض المتحيزين فشكوا في نيات المحدثين وردوا على كلامهم مدافعين عن المذهب الذي اختاروه . وهذا الموقف هو الذي شجع اتجاه إنكار الحديث وحججه في الشريعة الإسلامية ، في الهند وباكستان .

وردا على مثل هذه المحاولة الخاطئة ، ودفاعا عن السنة النبوية الشريفة ، وعن السلفيين في الهند ألف صديقنا - رحمه الله - كتابه القيم مخلصا مدافعا ، فلقى قبولا في الأوساط العلمية ، وأفاد كل من

أقبل عليه سليم النية حسن الإرادة .

وكان الكتاب بأسلوبه العلى الرصين و ببحوثه الجادة الأصيلة
جديرا بأن يطالعه كل من يريد الإمام بتاريخ المذاهب ، وتطور حركة
العمل بالكتاب والسنة ، وخاصة فى البلاد العربية ، فاقترحت إدارة
البحوث الإسلامية بالجامعة السلفية بنارس على الدكتور مقتدى حسن
الآزهرى المدرس فى الجامعة ورئيس تحرير مجلتها بنقل الكتاب إلى
اللغة العربية حتى يتمكن القراء العرب من الاطلاع عليه . وقد قام
المذكور بأداء مهمته على طريقة مرضية .

أسأل الله تعالى أن يحزى المؤلف والمترجم عنا وعن العلم أحسن
الجزاء ، ويسهل للمترجم طريق العلم والخير ، ويوفق الجميع لما يحب
ويرضى ، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين .

عبيد الله المباركفورى

رانى فورہ - مبارکفور - اعظم گڑھ

۱۹ / شوال ۱۳۹۶ ھ

۱۴ / اکتوبر ۱۹۷۶ م



توطئة

بقلم : فضيلة الأستاذ علي شامي

حلب ، سوريا

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور
أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضال
فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد
أن محمدا عبده ورسوله ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته
ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم
من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ،
واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا .
يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم
ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ .

أما بعد : فإن خير الكلام كتاب الله تبارك وتعالى ، وخير
الهدى ، هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ،
وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

تسلمت كتاب « حركة الانطلاق الفكري » وسارعت لقراءته
يدفعني إلى ذلك أمران اثنان :

الأول : رغبة بعض الاخوة في التعليق حول مواضيع الكتاب .
والثاني : حب الاطلاع على مايعانيه إخواننا السلفيون في شبه
القارة الهندية من التعصب المذهبي الذي يعيشه معاشر الحنفية ، والجمود
الفكري الذي يتصف به الغالبية العظمى من مسلمي العصر الحاضر في
دنيا المسلمين .

وأحمد الله تبارك وتعالى أن وفقنا لاتباع منهج السلف الصالح ،
رضى الله عنهم ، وجعلنا من أنصار سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم
وان لاقينا في اتباع هذا المنهج الصعاب والعقائيل التي لا تزال
تلاقيها يوميا . فهذه سنة الله تبارك وتعالى : ﴿ لِيُؤْكَمَ أَيْكَمَ أَحْسَنَ
عَمَلًا ﴾ . ولقد وقفت من خلال صفحات الكتاب على مايعانيه
السلفيون في الهند وباكستان من إخوانهم المسلمين ومن غيرهم ممن
يعيش معهم في تلك البلاد ، ولكن العجب العجيب أن يتألب جمهرة
من المسلمين على إخوانهم السلفيين لمجرد مخالفتهم الرأي والمنهج ،
وعند التحقيق نرى تعصب هؤلاء تعصبا أعشى لما ورثوه من علمائهم
ومشايخهم دون روية ولا تمحيص علميين ، وليس هذا من الاسلام في
شيء ، فالاسلام دين علم وبصيرة كما قال تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ
سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ، ولكن وبالاأسف
لقد بدل المسلمون وغيروا ، فحكموا على أنفسهم بالموت حينما زعموا
إغلاق باب الاجتهاد ، وصموا أنفسهم بالجمال حينما ارتضوا التقاليد ،

وركنوا إلى الكسل حينما جمدوا على نصوص لا روح فيها ، وخالفوا نصوص القرآن الصريحة ، ونصوص السنة الصحيحة ، ترى ما موقفهم أمام ربهم يوم الفرع الأكبر ؟ وما جوابهم عن هذه المخالفات التي يعيشونها في العقيدة والأحكام والمعاملات ؟؟ .

إن جل ما عابه الله على المشركين في الكتاب العزيز تقليدكم الأعمى للآباء والزعماء . وعدم استعمال الفكر والعقل فيما يعتقدونه أو يفعلونه ، أيقع المسلمون اليوم وقبل اليوم فيما نهوا عنه ؟؟ بل ويشنعون على من يحذرهم عن الوقوع فيه ؟؟ سبحان الله ، إن هذا شيء عجيب !!

أين الاستجابة لله وللرسول : بل أين التحاكم لله وللرسول عن الاختلاف ، بل أين أفراد الله بالعبودية وإفراد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالاتباع ؟ وهما غاية الإسلام وأصله ، بل أين المسلمون من منهج اسلام محمد وصحبه عليه السلام ورضى الله عنهم ؟؟ والكتاب الذي نحن بصددده ، يصور حالة المسلمين أصدق تصوير ، فيظهر الداء الذي نخر في جسد الأمة ، ويصف الدواء الناجع المجرب ويتلخص فيما يلي :

- الرجوع بالمسلمين إلى كتاب الله عز وجل والسنة الصحيحة وفهمها على النهج الذي كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم .
- تعريف المسلمين بدينهم الحق ، ودعوتهم إلى العمل بتعاليمه

وأحكامه ، والتحلي بفضائله وآدابه التي تسكفل لهم رضوان الله وتحقق لهم السعادة والمجد .

— تحذير المسلمين من الشرك على اختلاف مظاهره ، ومن البدع والأفكار الدخيلة ، والأحاديث المنكرة والموضوعة التي شوّهت جمال الاسلام ، وحالت دون تقدم المسلمين .

— إحياء التفكير الاسلامي الحر في حدود القواعد الإسلامية وإزالة الجود الفكري الذي ران على عقول كثير من المسلمين وأبعدهم عن منهل الاسلام الصافي .

— السعي نحو استئناف حياة اسلامية وإنشاء مجتمع اسلامي ، وتطبيق حكم الله في الأرض .

وقد بذل المؤلف رحمه الله جهدا مشكورا في معالجة هذه المواضيع ، ورد باسمه وأسلوب علمي رصين على دعاة الجود والتقليد ، وقد أحسن المترجم حفظه الله ، فأعطى الكتاب ما يستحق من الجهد في تقريبه للغة العربية ، فجزي الله المؤلف والمترجم عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ، ونفع الله بهذا الكتاب طلاب الحق وعشاق الحقيقة^(١) .



(١) أورد الأستاذ المكرم بعد هذه السطور ثمانية تعليقات على مواضع مختلفة من الكتاب ، وقد أثبتناها في مواضعها مع التصريح باسم المعلق .

الإسلام والحرية الفكرية

كلية فضيلة الأستاذ محمد نافع (حلب سوريا)

للطبعة الثانية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور
أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل
فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد
أن محمدا عبده ورسوله . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق
تقائه ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي
خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا
ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم
رقيبا . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وقولوا قولا سديدا ، يصلح
لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد
فاز فوزا عظيما .

أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي
محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ،
وكل ضلالة في النار .

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ،
 قِيْلَ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ
 أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله بالهدى ودين
 الحق وشرفنا بأن جعلنا من الذين دانوا به واستمعوه ولم يتولوا عنه
 أو يعرضوا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا
 عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .
 إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمْ بِكُمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ^(١) ﴾ .

أما بعد : فلا شيء كالإسلام يربي متبعيه ومعتنقيه على حرية
 الفكر فهو الدين الوحيد الذي حرر العقول من سيطرة الأباطيل
 والخرافات ومن أسر التبعية العمياء . وخلص النفوس بعبوديتها لله من
 حبال الشيطان ومن ضغط الشهوات السيئة وجعلها نفوساً مطمئة تلند
 بطاعة الله وجعل من المؤمنين بالله خير أمة أخرجت للناس .

ومن الواضح أن الحرية كلمة محببة لكل الناس ولاكنهم يختلفون
 في حدودها وتفسيرها . والشئ الذي لايجوز أن يختلفوا فيه هو عدم
 وجود حرية مطلقة بأن يفعل الانسان ما يشاء بغير قيد أو شرط
 فالقيود ملازمة للحرية وفيها وقع الاختلاف وليبان ذلك نقول :

إن الله جعل الخلق أى البشر صنفين مؤمنين وكافرين ليظهر أثر الحرية بالإيمان والكفر إذ لو انعدم اختيارهم لكانوا مجبورين ولبطل الثواب والعقاب وهذا ما أوضحته الآية الكريمة: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾^(١).

فالمرحومون هم الذين اختاروا الإيمان وتقيّدوا به فلم يختلفوا، وسواهم هم الذين كفروا وحكموا أهواءهم فاختلفوا، وبمعرفة حرية المؤمن تتضح حرية غيرهم وحرية المؤمن تنحصر في عبوديته لله وحده وبذلك يتحرر من العبودية لغيره فهو يخاف الله ولا يخشى سواه ومتى كان كذلك انتفى خوفه من أن يصيبه ما يكره وانتفى خوفه على ما في حوزته أن يفوته لأنه مطمئن إلى قول الرسول الكريم ﷺ «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك»^(٢).

وقد أثبت الله هذه الحرية لعباده المؤمنين في قوله جل شأنه: ﴿إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين .

(١) هود: ١١٨-١١٩

(٢) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد.

والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون .
والذين لغروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم
فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون .
والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون .
والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك في جنات مكرمون^(١) .

إن هذه الآية الكريمة قد ارتفعت بالمسلم إلى مستوى من
الحرية لا يكون لغيره إذ أخرجه عن حدود المخاوف البشرية ووضعته
في مخافة واحدة لا بد منها ولا يحيد عنها هي الخوف من الله وحده
دون سواه حيث يتلذذ بطاعته وتقواه ويجانب الهلع ويقارب بجامع
الخير التي وصفته بها الآية الكريمة .

أما أن يخاف من الشر أن يدركه وعلى الخير أن يفوته أو
يفلت من يده فهذه صفة الانسان الهلوع الذي يقطع صلته بالله
فلا يصلي له ولا يؤدي واجباته المالية ولا بحسب ليوم الله يوم الدين
حسابه وينطلق وراء شهواته المختلفة بلا قيد ولا يرعى الأمانات والعهود
ويكذب ما شاء له هواه ، فهذا عبد رقيق لجهات مختلفة وكثيرة ،
هلوع طوال حياته إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ،
ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن ما وصفنا به المؤمن لا ينافي وجوب الحيطة
والحذر لأن ذلك مشروع للمؤمن ، ومأمور به في قوله تعالى :

(١) المعارج : ١٩-٣٥

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون^(١)﴾ فالأمر بتقوى الله يقتضى اجتناب ما يغضبه ويسخطه والأمر في ابتغاء الوسيلة إليه يقتضى التقرب إليه بطاعته وفعل ما يرضيه والأمر بالجهاد في سبيله يقتضى اتقان العمل وسد الثغرات الاجتماعية ليتوفر الحب في الله ويتمكنوا به من الجهاد في سبيله ويبقى الفلاح منوطاً بإخلاص الدين لله . فإذا أصيب بعد ذلك المؤمن بمكروه فهو الابتلاء من الله لتمحيص عباده ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون^(٢)﴾ ، وفي الحديث الشريف «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل^(٣)» ، ولكي يخصهم بمزيد من الأجر والثواب ﴿ولنبونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون^(٤)﴾ ، وهم بذلك يتميزون عن جميع الناس بما نالوه من صلوات الله ورحمته وهدايته ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون^(٥)﴾ .

(١) المائدة : ٣٥

(٢) الأنبياء : ٣٥

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه والدارمى .

(٤) البقرة : ١٥٥-١٥٦

(٥) البقرة : ١٥٧

وخلاصة القول في حرية المؤمن أنها انطلاق إلى جميع مقومات الحياة الكريمة مقرون بتفكير وحذر مشفوع بمراعاة رضا الله تعالى بناء على نص إن وجدته في معلوماته أو اجتهاد إن فاتته النص .

والإسلام بوصفه الدين الخاتم لسائر الأديان الدائم إلى نهاية البشرية قد اشتمل على كل أسباب السمو الإنساني ووفر في تعاليمه الحلول لكل ما يعرض من المشاكل حيث فتح مغالق العقول ودعاها للاجتهاد وأجرأ واحداً لمن يخطئ في اجتهاده ومنعها من التقليد الأعمى للغير لسوء نتائجه في المجتمع الإسلامي .

انظر كيف عاب الإسلام على الإنسان أن يدرج على منوال من تقدمه دون تأمل وتعقل في إخبار الله رسوله ﷺ عن مواقف الجامدين من الأمم السابقة حيث قال : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ولنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ^(١) 》 .

وقد نعى على المقلدين تقليدهم الخالي من التفكير في عدة مواطن من القرآن الكريم وأطلق العنان للعقل ليستنبط الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ودعا إلى النظر في السكون ليستفيد مما أودعه الله فيه من كنوز ومعادن ومنافع ونواميس جعلها الله مشاعاً

(١) الزخرف : ٢٣-٢٤

بين عباده ينال حظه منها كل من أدرك سر العمل والسعي والتفكير.
قال تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء^(١)﴾. ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون^(٢)﴾. ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون^(٣)﴾. ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا^(٤)﴾.

أترونه خلق لهم ذلك ليهملوه أم ليستفيدوا منه ﴿أفلا يتدبرون^(٥)﴾، ﴿أفلا يعقلون^(٦)﴾، ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم^(٧)﴾ ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون^(٨)﴾، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون^(٩)﴾.

وكفى الإسلام شرفاً أنه محا ظلمات القرون الوسطى التي تمثلت في تأليه بعض البشر وتحكمهم في رقاب الأكثرين تحكما أفقدهم جل

(١) الأعراف : ١٨٥

(٢) العنكبوت : ٤٣

(٣) الروم : ٢٨

(٤) البقرة : ٢٩

(٥) النساء : ٨٢

(٦) يس : ٦٨

(٧) الروم : ٨

(٨) الرعد : ٣

(٩) النحل : ١٢

صفات الانسان وجمد عقولهم حتى جعل منهم حيوانات ولكنهم - تنطق . تنطق بغير إرادة أو إدراك ألفوا الذل والهوان واستساغوا عبادة البشر الأقوياء وتعظيمهم دون أن يقابلوا منهم بأى احترام ، وأصبحوا يشعرون بأن تذلهم لا كبرهم وخضوعهم لهم هو جزء من كيانه لا يمكن أن يتخلوا عنه أو يعيشوا بدونه ، ولا زالت فى عالمنا اليوم بقية من هذا الشعور أبرهن عليه بالقيام ، فقد كان معروفا فى الجاهلية يقام للكبراء والاسياد والامراء فى العرب وغيرهم وحاسب رسول الله ﷺ هذا القيام وهدد من يحبه بقبوه مقعده فى النار وكرهه لنفسه من أصحابه ولم يعتبره أداة تعظيم واحترام ومع ذلك فهو أمر منسحب على مجتمعاتنا حتى اليوم وكثير منا لا يحيز لنفسه ترك القيام لفئات كثير من الناس رغم أنهم لا يقابلونه بالمثل واو فرض أن واحدا منهم قام له لسبب ما لعدّ قيامه عملا كبيرا خطيرا واستغفر الله منه مرة من هذا القيام .

وقد استغل اليهود شعور الناس بوجوب التبعية العمياء من المشروف للشريف والمسود للسيد والجاهل للعالم وظنوا أن الإسلام لم يستأصل هذا الشعور السيء بالتبعية العمياء من نفوس المسلمين ، فراحوا يدفعون بعضهم ليدخلوا فى الإسلام ثم يخرجوا منه حيث يخرج معهم عدد من المسلمين بحكم نظرهم إلى اليهود أنهم أهل كتاب وأعلم منهم فيحملون خروجهم من الإسلام بعد دخولهم فيه على أنهم

وجدوه غير صالح فتركوه وهذا ما حكاه الله عنهم بقوله :
 ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين
 آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ولا تؤمنوا إلا
 لمن تبع دينكم^(١)﴾ .

والواقع في كل مجتمع وفي كل زمن وجود التبعية في الناس
 والإسلام حاربها حيث اعتبر الناس في الحقوق سواسية كأسيان
 المشط ولم يميز أحداً على أحد وأمر المسلمين جميعاً باتباع ما أنزل
 إليهم من ربهم فلم يسمح بالتبعية العمياء لغير رسول الله ﷺ ذلك
 لأنه معصوم من الخطأ في الدين ومن يتبع المعصوم يأمن الزلل .
 قال الله تعالى : ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من
 دونه أولياء قليلاً ما تذكرون^(٢)﴾ ، وقال أيضاً : ﴿قل إن كنتم
 تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله^(٣)﴾ ، وقال أيضاً : ﴿ما آتاكم الرسول
 فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا^(٤)﴾ .

وقد سار المسلمون بتوجيهات دينهم سيراً حميداً طيلة قرون
 ثلاثة أطلق عليها رسول الله ﷺ وصف الأخيرة والأفضلية على غيرها

(١) آل عمران : ٧٢-٧٣

(٢) الأعراف : ٣

(٣) آل عمران : ٣١

(٤) الحشر : ٧

حيث قال : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »^(١) ،
وبشرنا رسول الله ﷺ بأن المسلمين لا يحرمون أبداً من أناس
ينصرون الحق ويؤيدونه وينشرونه في الناس فقال ﷺ : « لا تزال
طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم
الساعة »^(٢) .

وقال ﷺ : « إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة لهذه الأمة
من يحدد لها أمر دينها »^(٣) ، فالإسلام والحمد لله قد ظهرت معالمه
وارتفعت في الآفاق أعلامه واستبان حقائقه لكل ذي لب غير أن
التقليد الأعمى قد دب في المسلمين بعد القرون المفضلة واستفحل
تدريجاً حتى قعد بالمسلمين دحوراً طويلة فأصيبوا بشلل أفكارهم وجمود
عقولهم وقبلوا من أفسد التعاليم والأفكار ما يدهش له العاقل ويأباه
الجاهل ، والذي حمل هذه التعاليم الفاسدة إلى المسلمين فيما يظهر
هم أناس يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، ولكن بعد تمكن هؤلاء
من تلبس الحق بالباطل انخدع بها أناس مسلمون طيبون لا يشك في
أخلاقهم فحملوها إلى تلاميذهم وهؤلاء إلى غيرهم حتى أحيط بالمسلمين
وفشا فيهم التقليد الأعمى بشكل موحش فقبلوا ما لا يقبل وصدقوا

(١) متفق عليه .

(٢) رواه ابن ماجه .

(٣) رواه أبوداود .

ما لا يصدق وفعلا ما يفعله المجانين . ومن أمثلة ذلك ما هو منشور في كتب بعض الفقهاء والمتصوفين من تحريم الاعتراض على الشيخ وجوب الطاعة المطلقة له ولو أمر بفعل الحرام فقد قالوا : ليس للمريد أن يعترض على شيخه ولو رآه يفعل المنكر . وقالوا : يجب على المريد أن يسكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي الفاسل .

وقالوا : من يعترض يطرد . وقالوا : من أراد الوصول إلى الله فليتخذ شيئا عارفا بميزان كل حركة وسكون ويسلّمه نفسه بحيث لو قال له شيخه طلق زوجتك اخلع مالك ، تخلّ عن وظيفتك ، فتردد بعض الشيء لا يشم رائحة الوصول إلى الله ولو عبد الله ألف عام .

ونقل عن الإمام الشعراني في كتابه الميزان صفحة ١٨ / قال : (فصل) إن قال قائل كيف الوصول إلى الاطلاع على عين الشريعة المطهرة التي يشهد الانسان اغتراف جميع المجتهدين مذاهبهم منها ويشهد تساويها كلها في الصحة كشافا وبقينا لا إيمانا وتسليما فقط ولا ظنا وتخميناً؟ فالجواب : طريق الوصول إلى ذلك هو السلوك على يد شيخ عارف بميزان كل حركة وسكون بشرط أن يسلمه نفسه يتصرف فيها وفي أموالها وعبادها كيف شاء مع انشراح قلب المريد لذلك كل الانشراح . وأما من يقول له شيخه طلق زوجتك أو

أسقط حقتك من مالك أو وظيفتك مثلاً فيتوقف فلا يشم من طريق الوصول إلى عين الشريعة المذكورة رائحة ولوعبد الله تعالى ألف عام . بحسب العادة غالباً إن هذه التربية التي تجلى سوءها وفسادها في الأقوال التي سمعتها وأمثالها تدل طرقه على موت الضمائر وشلل العقول في أصحابها وأن التبعية العمياء المائلة في أهل عصور الانحطاط هي نتيجة جهود العواملين ضد الإسلام من المذاهب الصوفية التي استهدفت الإباحية المطلقة في تعاليمها وزينتها وحلتها بالآلغاز حتى أساغتها لأربابها وردا يتلى ودعاء يردد « اللهم انشأني من أحوال التوحيد وأغرقني في بحر الأحدية » .

لقد سيطروا على أتباعهم في حلقاتهم وانضاف إليهم ساذجون كثيرون فاستسلموا لهم، وقد أحكموا رباط هذا الاستسلام وأحاطوه بتأكيد التوصيات لأتباعهم أن لا يصغوا لأقوال المنكرين عليهم .

وإليك شاهداً على صدق ما ذكرت ما نقله عبد الوهاب الشعراني في مقدمة طبقاته عن الخواص : والجنيد وغيرهما من مشايخ الصوفية قال وهو يتكلم عن الخواص : وكان رضى الله عنه يقول : إياك أن تصغى لقول منكر على أحد من طائفة العلماء أو الفقهاء فتسقط من عين رعاية الله عز وجل وتستوعب المقت من الله عز وجل ، وكان الجنيد رضى الله عنه يقول : من قعد مع هؤلاء القوم وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله منه نور الإيمان . قلت : (أى المؤلف الشعراني)

نور الإيمان بذلك الكلام الذي خالفهم فيه لا نور سائر أنواع الإيمان كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فافهم .
ونظير ذلك « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »^(١)، أى بأن الله يراه حال الزنا وهكذا . وإلما نهى القوم عن المنازعة لأن علومهم مواجيد لا نقل فيها .

ومن كان يخبر عما يعاين ويشاهد لا يجوز للسامع منازعته فيما أتى به بل يجب عليه التصديق به إن كان مريداً والتسليم له إن كان أجنبياً فإن علوم القوم لا تقبل المنازعة لأنها وراثية نبوية وفي الحديث : « عند نبي لا ينبغي التنازع »^(٢) ، ونهى ﷺ عن الجدل وقال في المجادل « فليتبوأ مقعده من النار »^(٣) ، هـ .

ثم ذكر بعده من كلام محي الدين ابن عربي ما يدعم هذه الفكرة الهدامة ، فانظر يا أخى هذا الكلام الذى يفتح الباب على مصراعيه للكذابين والدجالين ويراد به قتل الفكر فى المسلمين وتقويض دعائم الإسلام ، وحسبى فى الاستدلال على تقويض دعائم الإسلام وجعله أباطيل وأضاليل أن أنقل للقارىء الكريم كلاماً قليلاً مما ذكره الشعراوى فى طبقاته عن الشيخ إبراهيم الدسوقي ليرى بأم عينه الكفر البواح

(١) متفق عليه .

(٢) رواه أحمد والشيخان .

(٣) البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى وابن ماجه والدارمى .

ويحكم بعد ذلك كيف يجوز أن يسكت عليه أو يرتضى منه .

قال الشعراني في الجزء الأول من طبقاته صفحة / ٢٠٠ / وكان
رضي الله عنه يقول (أى الشيخ إبراهيم الدسوقي) : المرید مع شيخه
على صورة الميت لا حركة ولا كلام ولا يقدر أن يتحدث بين يديه
إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة
أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة في الزاوية أو غير ذلك .

هكذا كانت طريق السلف والخلف مع أشياخهم فإن الشيخ هو والد
السر ويجب على الولد عدم العقوق لوالده ولا نعرف للعقوق ضابطا
نضبطه به إنما الأمر عام في سائر الأحوال ، وما جعلوه إلا كالميت
بين يدي الغاسل فعليك يا ولدي بطاعة والدك وقدمه على والد
الجسم فإن والد السر أنفع من والد الظهر لأنه يأخذ الولد قطعة
حديد جامد فيسبكه ويذيه ويقطره ويلقى عليه من سر الصنعة سرا
فيجعله ذهباً ابريزاً فاسمع يا ولدي تنتفع ، وكثير من الفقراء صحبوا
أشياخهم حتى ماتوا لم ينتفعوا لعدم الأدب ، وبعضهم مقتوا الله من
صدود الرجال ومن صحبة الأضداد ومن سماع المرید للحال ، وكان
رضي الله عنه يقول : أنا موسى عليه السلام في مناجاته أنا على رضى
الله عنه في حملاته أنا كل ولى في الأرض خلقت بيدي ألبس منهم
من شئت . أنا في السماء شاهدت ربي وعلى الكرسي خاطبته ، أنا بيدي
أبواب النار أغلقتها وبيدي جنة الفردوس فتحتها ، من زارني أسكنته

جنة الفردوس . واعلم يا ولدى أن أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون متصلون بالله . وما كان ولي متصل بالله إلا وهو يناجى ربه كما كان موسى عليه السلام يناجى ربه وما من ولي إلا ويحمل على الكفار كما كان على بن أبي طالب رضى الله عنه يحمل . وقد كنت أنا وأولياء الله تعالى أشياخا فى الأزل بين يدى قديم الأزل وبين يدى رسول الله ﷺ وأمرنى أن أخلع على جميع الأولياء بيدي فخلعت عليهم بيدي . فقال لى رسول الله ﷺ : يا ابراهيم أنت نقيب عليهم فكنت أنا ورسول الله ﷺ وأخى عبد القادر خلقى وابن الرفاعى خلف عبد القادر ثم التفت لى رسول الله ﷺ وقال لى : يا ابراهيم سر لى مالك وقل لى يغلق النيران وسر لى رضوان وقل لى يفتح الجنان ففعل مالك ما أمر به ورضوان ما أمر به . واطال فى معانى هذا الكلام . ثم قال رضى الله عنه وما يعلم ما قلته إلا من انخلع من كثافة حجبـه وصار مروحنا كالملائكة . قلت — أى الشعرانى — وهذا الكلام من مقام الاستطالة تعطى الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق . وقد سبقه لى ذلك عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه وغيره فلا ينبغي مخالفته إلا بنص صريح والسلام . ١ هـ

ونكل لى القارىء الفطن معرفة ما فى هذا الكلام من الخروج عن الإسلام ومن الهذيان والغريب أن يمنح العلماء لى تأويل هذا الخلط .

إن هذا الموت الأدبي الذي منى به المسلمون في خلال سلسلة من سلاسل الحداث استحكمت حلقاتها في الضغط على خناق الفكر الإسلامي بصنع الحاقدين على الإسلام المنحدرين من الأصول الحاقدة الفارسية واليهودية والمجوسية لابد أن يتقشع وتنجاب عنهم سخائبه التي تلبدت زمناً طويلاً . وقد ظهرت الآن بوادر تؤذن بحلول الحياة محل الموت المذكور كجهود الشاه ولي الله في التجديد التي ظهرت في مؤلفاته ومنهما حركة الانطلاق الفكري وغير ذلك من العلماء المجددين .

وقد رأيت في القرآن الكريم آية تشير إلى حياة الميتين موتاً أدبياً بنور هذا الإسلام ثم يقعون في الموت ثانية ثم يحضون بالحياة التي تستمر حتى ينتهي العالم . تلك هي قول الله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ^(١) ﴾ .

فالإشارة فيها واضحة جلية وهي من خير البشائر للمسلمين ، نسألك

اللهم أن تعز الإسلام وأهله يا رب العالمين ؟



كلمة الناشر للطبعة الأردنية

الحمد لله الواحد الفرد الذي يوفق عباده بحكمته وإرادته للعمل
لتقوية الدين المحكم ، ويكرمهم بإلهامه الخاص إياهم إتمام المقاصد
المشودة ، ويتم عمل المحافظة على دين المصطفى ﷺ من انتحال العصور
السيئة . وهكذا يقوم عباده بفضلہ بإتمام الأعمال التي يؤدي تركها
إلى الخسران العظيم في حق البشرية . والصلاة والسلام على النبي الحق
الذي علمنا ديننا بأحاديثه الحقة ودعوته الصادقة .

وبعد : فكنت أرغب منذ مدة طويلة في نشر كتاب تطور
حركة الحرية الفكرية وجمود الشاه ولي الله التجديدية الذي ألفه الشيخ
الأستاذ الكبير محمد اسماعيل السلفي أمير جمعية أهل الحديث لباكستان
الغربية ، على طريقة علمية حديثة ، في العصر الذي قلت فيه العناية
بالمؤلفات الدينية . ونظرا لاحتواء الكتاب على أدلة محكمة ، وبراهين
قاطعة في موضوعه أحببت أن يطلع عليه الناس في عصر التقاليد
الجامد ، مدافعا عن الحق ، ومتوكلا على الله تعالى في إتمام هذا العمل
المضني ، ولا يخفى على أهل العلم أن هذا الكتاب عبارة عن مجموعة
مقالات للشيخ محمد اسماعيل ، التي نشرت في جريدة « الاعتصام » ،

الأسبوعية بـلاهور في أعداد سنة ٦٢ - ١٩٦١ م باسم «تطور حركة أهل الحديث وجهود الشاه ولي الله التجديدية» ثم غير الشيخ هذا الاسم إلى «حركة الانطلاق الفكري الخ». ثم نشرت له مقالات أخرى باسم «ترك التقليد وأهل الحديث» و«نشاط الموحدين في شبه القارة: الهند وباكستان» و«الموقف التاريخي لحركة أهل الحديث وخدماتها». وكان محبو العلم يرغبون في طبعها في صورة كتاب، فالتمسست من الشيخ المحترم الإذن فأذن وكتب بنفسه مقدمته.

ولم أكن قد بذلت قصارى جهدي لتصحيح الكتاب وتزيينه، فمن وجد فيه سقما يداني عليه حتى أقوم بالاصلاح في الطبعة القادمة.

(محمد حنيف اليزداني)

في ١٧ / محرم الحرام ١٣٨٦ هـ



مقدمة المترجم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على الرسول
النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .
وبعد : فهذه ترجمة لكتاب العلامة محمد اسماعيل السلفي
(١٨٩٥ = ١٩٦٨ م) ألفه باللغة الأردنية مدافعا عن السنة النبوية والحركة
السلفية . وقد أعجبنى الكتاب ببحوثه العلمية الجادة وبتناوله المسائل الخلافية
بروح التسامح والاحترام ، فقممت بترجمته إلى اللغة العربية على رغبة المسؤولين
عن إدارة البحوث الإسلامية .

وبما أن الكتاب أمام القراء لا أريد وصفه وتصويره . أما المؤلف
فهو الأستاذ الكبير محمد اسماعيل بن إبراهيم السلفي - رحمه الله - من
أبرز العلماء السلفيين في القرن العشرين . ولد في قرية قريبة من وزير آباد في
كوجرانواله (باكستان) وهناك نشأ وتعلم وقضى حياة حافلة بالنشاط
والعمل ، إلى أن توفي في فبراير سنة ١٩٦٨ م . قد أجمع معاصروه على
أنه كان إماما في علوم الكتاب والسنة ، كاتباً مجيداً ، غزير الانتاج ، واسع
الاطلاع ، متقد الفكر . له عدة مؤلفات ، وهي تجمع بين غزارة العلم وأصالته
الفكر وإصابته الرأي وحماية الحق . قام بالتدريس والتوجيه والارشاد نحو
نصف قرن من الزمن ، وبجانب هذا النشاط الديني والعلمي له مواقف رائعة
محمودة في حركة التحرير ضد الانجليز ، وفي الدفاع عن مبدأ ختم النبوة في
الإسلام . وقف حياته لنشر دعوة العمل بالكتاب والسنة ولخدمة الحركة

السلفية بالهند . كان من أكبر دعاة الاتحاد بين المسلمين وتوحيد كلمتهم على أساس المصدر الأصلي لأحكام الشريعة ، وكان يكره كل ما يثير الخلاف بين المسلمين ويضر وحدتهم ، ونرى أثر ذلك في هذا المؤلف الذي يتناول المسائل الخلافية ولكنه مع ذلك لا يتحامل على أحد ولا يطعن في مذهب . وقد حاولت في الترجمة الدقة والأمانة وألا يفقد النص معناه وروحه ، بدون تقييد بالترجمة الحرفية . ولكن لا أدعى الكمال ، فهو لله وحده ، بل أرجو من القراء الصفح عن الأخطاء والتنبيه على المواضع التي قد تبدو غامضة . ثم إنى رجعت إلى المصادر التي نقل منها المؤلف بعض الكلام فقارنت وصححت ما وقع فيه من الأخطاء المطبعية ، وهكذا فعلت نحو الأعلام والأسماء الواردة في الكتاب ، وألحقت في نهايته فهرس المصادر التي استقى منها المؤلف ، مشيراً إلى مكان الطبع وتاريخه حيث تيسر ذلك .

وختاماً أقدم خالص شكرى إلى سماحة الشيخ المحدث الكبير عبيد الله الرحمن حفظه الله تعالى (رئيس الجامعة السلفية ومؤلف مرعاة المفاتيح) الذى تكرم بتقديم الكتاب ، وإلى فضيلة الشيخ عبد الوحيد السلفى أمين عام الجامعة الذى تكرم بالامر بطبع الكتاب على مطبعة الجامعة ، فجزاهما الله عنى وعن العلم خيراً ، وتقبل هذا الجهد المتواضع الذى بذلته فى الترجمة وينفع به القراء الكرام ، إنه سميع مجيب .

(مقتدى حسن الأزهرى)

٢٢ / شوال ١٣٩٦ هـ



ترجمة المؤلف

الشيخ محمد اسماعيل السلفي رحمه الله

بقلم: نجله الكريم الأستاذ محمد

كانت حياة الوالد، رحمه الله، مجموعة صالحة للحاسن والمحامد، وكان نموذجا طيبا للسلف الصالح، رضى الله عنهم. كان اتباع السنة غاية وحيدة لحياته، وكان ذهنه ثاقبا، يفهم الأمور ويصل إلى أعماقها، انصف بالنظر في العواقب وبالتيدير والذوق السليم. وبجانب ذلك كان كريم الخلق سمح المعاملة طاهر الذيل بعيدا عن الأثرة متجليا بالجود والاخلاص، كل ذلك بتوفيق من الله تعالى ومنتته.

تحمل مسؤولية الدعوة إلى دين الحق ونشر التوحيد الخالص بين الناس، كان ذلك همه الوحيد فصبر على الصعاب والشدائد كلها في هذا الصدد بعزيمة وهمة.

مولده: كانت ولادته على وجه التقريب عام (١٣١٤ هـ المصادف

١٨٩٥ م) في قرية دهونيكى بمديرية كوجرانواله بمحافظة وزيرآباد.

كان جدنا (والد صاحب الترجمة) الشيخ محمد ابراهيم ناسخا مجيدا وعالما معروفا وطيبا حاذقا، وقد تتلمذ على العلامة الحافظ عبد المنان الوزير آبادى، فانتقلت آثار هذا التلمذ إلى الوالد رحمه الله.

دراسته : تلقى الوالد دراسة الابتدائية من الجد الشيخ محمد ابراهيم رحمه الله ، وفي هذه المرحلة أتيحت له فرصة الاستفادة من عالم صالح اسمه الشيخ عمر الدين الوزير آبادي . وهكذا حصلت للوالد معرفة كافية بكتب النحو والصرف في سن مبكر ، ودرس من كتب الفارسية : گلستان وبستان وغيرهما .

وبعد الدراسة الابتدائية الأساسية اتصل بالعلامة الحافظ عبد المنان الذي اعتنى بالوالد عناية بالغة وقام بتعليمه وتربيته على طريقة ناجحة .

سافر صاحب الترجمة من وزيرآباد إلى دهلي حينما بلغ الثاني عشر أو الثالث عشر من عمره ، وكانت هذه المدينة في ذلك الوقت مركزا للعلوم والفنون ، وكانت هناك آثار الشاه ولي الله وحركته العلمية بارزة ملوثة . نزل الوالد في مدرسة الشيخ المحدث السيد نذير حسين المتوفى (١٣٢٠هـ) رحمه الله ، وتلمذ على الشيخ عبد الجبار العمر فوري وعلى غيره من العلماء الكبار واستفاد من علومهم وتوجيهاتهم .

وفي هذه الأيام كانت مدينة أمرتسر قد عرفت بنشاط علمي وعمل كبيرين بجمود بعض الأكابر من الأسرة الغزنوية ، فتوجه الوالد إلى أمرتسر ، ودرس على الشيخ عبد الغفور الغزنوي والشيخ عبد الرحيم الغزنوي رحمهما الله ، ودرس كتب الفنون (العلوم العقلية) على المفتي محمد حسن الذي أسس فيما بعد الجامعة الأشرفية

بلاهور. كان إعجاب الوالد بالمفتي كبيرا ، فكان يثنى كثيرا على ذوقه السليم .

مساهمته في الدعوة والنشاط السياسي : كانت شهرة العلامة الشيخ ثناء الله الأمرتسرى قد بلغت ذروتها في تلك الأيام ، بالجهود الواسعة التي كان يبذلها في نشر التوحيد والسنة . تأثر الوالد بهذه الجهود ، واستفاد كثيرا من مقابلته مع العلماء ، وهكذا بدأ يساهم في حركات التحرير الوطنية مع ممارسة نشاطه في العلوم الدينية ، وكان إمام الهند العلامة أبو الكلام آزاد بين الزعماء السياسيين قدوة له ، فكان يثنى على بصيرته السياسية .

وبعد إقامته في أمرتسر ذهب إلى سيالكوت ، وتلمذ على الشيخ محمد ابراهيم مير السيالكوتي أيضا .

علم الحديث : كانت اجازة الحديث حصلت لصاحب الترجمة من المحدث عبد المنان الوزير آبادي الملقب بأستاذ بنجاب ، وبجانب ذلك حصل على اجازة من عالم مكة المكرمة الشيخ أبو بكر خوقير صاحب المؤلفات العديدة والمتمسك بالسلفية ، وكانت سلسلة منند الوالد تتصل بالنبي ﷺ بأربع وعشرين واسطة .

تعيينه في كوجرانواله : كان صاحب الترجمة وصل إلى كوجرانواله مع الشيخ محمد ابراهيم السيالكوتي عام (١٣٣٩ هـ المصادف ١٩٢١م) ،

وكان أفراد جماعة أهل الحديث فيها يعدون بالأصابع ، فقال لهم الشيخ السيالكوتي : إني جئت إليكم بكرة فريدة فاحفظوها ، وبعد ذلك توطن الوالد مدينة كوجرانواله ، وتولى مسؤولية الإمامة والخطابة في مسجدتها ، واستمر فيها نحو نصف قرن مع ثقل الأيام وحدث الحوادث ، دون أن تفتر همته وتنحل عزيمته وتزل قدمه حبا للجاه والثروة .

إن سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كان قد وجه الدعوة بواسطة الشيخ عبد القادر شيبه الحمد إلى الوالد يستقدمه إلى المدينة المنورة ، ولكنه أثر البقاء في كوجرانواله وأرسل مكانه الشيخ الحافظ محمد الغوندلوي ، رحمه الله .

أسس صاحب الترجمة في جامع أهل الحديث بكجرانواله المدرسة المحمدية التي قامت بتدريس العلوم العربية الإسلامية نحو نصف قرن للوافدين من ضواحي كجرانواله بل من بنجاب كلها . لم يقيم الوالد بالتدريس في هذه المدرسة فحسب ، بل عين فيها مدرسين أكفاء ، والمؤسف أن جمعية أهل الحديث بكجرانواله لم توفق للحفاظ على هذه المدرسة بعد رحيل مؤسسها (الشيخ محمد إسماعيل) من الدنيا ، وهكذا حرمت هذه المدينة فوائدها ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

تلامذته : تخرج في هذه المدرسة ألوف من الطلاب ، واشتغلوا
بنشر التوحيد والسنة في باكستان ، ومن الذين برزوا منهم في ناحية
أو أخرى :

الشيخ محمد حنيف الندوي الذي اشتغل بالفلسفة الإسلامية
وأجاد في التأليف فيها ، والشيخ الطيب عبد الله نصر ، والشيخ
الحافظ محمد إسماعيل الذبيح الذي فاق في الخطابة والتدريس ، والشيخ
معين الدين اللكهنوي الذي عرف ببصيرته السياسية وملكته في الخطابة ،
والشيخ محمد سليمان الكيلاني الذي اشتغل بالتأليف وترجمة الكتب
العربية والفارسية ، والشيخ خالد الكرجاكي الذي أسس إدارة
أحياء السنة ، وألف عدة كتب ، ونشر بعض التراجم . ذكرت هذه
الاسماء على سبيل المثال ، ويطول فهرس تلامذة الوالد الذين
برعوا واشتهروا .

قدرته على التأليف : جمع صاحب الترجمة إلى براعته في الخطابة
التفوق في الكتابة والتأليف ، فكان فارس هذه الحلبة ومعروفا بالرزانة
في الكتابة ، كان يفيد فوائد جمعة تحت عناوين بسيطة ، ولكن
الشواغل الأخرى الكثيرة قللت إنتاجه في التأليف ، ومع ذلك تمتاز
كتاباتة بالجودة والابتكار ، وقد تم جمع مقالاته الكثيرة المتنوعة
التي نشرت في مجلة « الاعتصام » وغيرها من الجرائد والمجلات ،

وذلك سوى مؤلفاته المستقلة ، وهي تطبع بعد التنقيح والتهذيب ،
إن شاء الله تعالى .

مؤلفاته : ومن مؤلفاته المستقلة المطبوعة :

١ - ترجمة مشكاة المصابيح مع التعليق ، إلى نصف الكتاب ، باللغة
الأردية .

٢ - ترجمة المعلقات السبع مع الشرح ، بالعربية والأردية .

٣ - صلاة رسول الله ﷺ .

٤ - نظرية الجماعة الإسلامية في الحديث .

٥ - مسألة حياة النبي ﷺ (نشرت في حركة الانطلاق) .

٦ - مكانة السنة التشريعية .

٧ - السنة في ضوء القرآن الكريم .

٨ - حركة الانطلاق الفكري .

٩ - مسالك الإمام البخاري رحمه الله .

١٠ - زيارة القبور .

١١ - ملامح الحكومة الإسلامية .

موقفه من الأمة والجماعة : ينبغي أن أقدم هنا قطعة من افتتاحية مجلة

« الاعتصام » بـلاهور بتغير يسير ، وقد نشرت في جزء أول مارس

عام (١٩٦٨ م) .

« إن الشيخ محمد إسماعيل شارك مشاركة قوية في جميع النشاطات الدينية والسياسية لجماعة أهل الحديث فيما مضى من نصف قرن ، وما يدل على سعيه وحمته أيام الشباب أنه استضاف الجلسة السنوية لجمعية أهل الحديث المركزية عام ١٩٢٤ م ، وترأس الشيخ الحافظ محمد الكوندلوى لجنتها الاستقبالية . كان صاحبنا ذا عناية بالغة بتنظيم الجماعة ، وبهذا الصدد تم انشاء جمعية أهل الحديث لمنطقة بنجاب ، فلعب فيه دورا ملموسا . وفي عام (١٣٤٩ هـ = ١٩٣١ م) تم انشاء منظمة أهل الحديث برئاسة الشيخ الشاه محمد شريف الكريالوى رحمه الله ، فساهم فيه صاحبنا مساهمة فعالة ، وجعل مكتبها في كوجرانواله تحت إشرافه ، وعين الشيخ القاضى عبد الرحيم رحمه الله أمينها العام .

وفي عام ١٩٤٠ م انعقدت الجلسة السنوية لجمعية أهل الحديث في دهلى ، وتم فيها انشاء مجلس العمل لأهل الحديث ، وانتخب صاحبنا مكنتيرا له ، وبعد تأسيس دولة باكستان اعتمدت جمعية أهل الحديث في باكستان الغربية ، بعد عون الله تعالى ، على جهود صاحبنا وسعيه المتواصل إلى حد كبير ، وهو الذى أقنع الشيخ السيد محمد داود الغزنوى رحمه الله لقبول رئاسة جمعية أهل الحديث بعد التخلي عن ورطة السياسة فى البلاد ، فلم يزل معه فى السراء والضراء ولما قامت مطالبة تطبيق الشريعة الإسلامية فى باكستان وقف صاحبنا

مع السيد محمد داود يمثلان الجمعية ، ثم انتخب عضوا في لجنة وضع القوانين الإسلامية التي تكونت عام ١٩٥٢ م .

وفي عام ١٩٥٣ م أنشئت الحركة التاريخية للحفاظ على عقيدة ختم النبوة . فانتخب في مجلسها التنفيذي ثلاثة أعضاء من جمعية أهل الحديث هم : الشيخ السيد محمد داود الغزنوي ، والشيخ محمد إسماعيل السافى ، وكاتب هذه السطور (محمد عطاء الله حنيف) ولكن صاحب الترجمة وحده « تشرف » بالقيود والسلاسل (انتهى من الافتتاحية) .

وفي عام ١٩٢٤ م بدأت في الهند حركة « شدهى » أى إدخال المسلمين في الهندوكية بإكراه ، فخرج وفد دعوى اسلامى من بنجاب إلى منطقة الملكانيين في وسط الهند ، فكان الوالد رحمه الله عضوا بارزا من أعضاء هذا الوفد .

منهجه وتعامله في الحياة : كانت حياته مليئة بالعمل والنشاط ، حتى إن الناس كانوا يتعجبون من تمكنه من أداء هذه المسؤوليات الكثيرة ، كان خطيبا وإماما في جامع ، وكان يواظب على إلقاء درس القرآن الكريم بعناية بالغة حتى لم يتخلف عنه إلا نادرا ، وحينما كان يقوم بجولاته الدعوية حاول العودة سريعا كي لا يحصل الانقطاع في الدرس . ثم كانت هناك جماعة من أهل العمل والتجارة في المدينة تتلقى منه درسا في القرآن ، وبعد ذلك كان يقوم بالتدريس في المدرسة المحمدية ،

وخلال هذه الأعمال كان يهتمز الفرصة لكتابة مقالاته وبحوثه
الإجابة على الاستفتاء، وفوق ذلك كله كانت له مشاركة في الحركات
السياسية والاجتماعية على مستوى مدينة كجرانواله وعلى مستوى
باكستان كلاً، وكذلك كان يقدم خدماته في الحوادث والنوازل.

خدماته بعد تأسيس باكستان : قام بخدمة كبيرة في إسكان المهاجرين
من الهند عام ١٩٤٧ م في مدينة كجرانواله، وجمع المساعدات
وزعها من قبل جمعية أهل الحديث على المصابين والمنكوبين
بالآفات والحوادث.

وكانت له عناية بالغة بإنشاء المساجد وتعميرها، وما يدل على
ذلك أن نحواً من خمسة وعشرين مسجداً قد تأسست بجهوده في
كجرانواله وحدها.

الجامعة السلفية : كان الوالد يعتنى دائماً بإنشاء المدارس العربية، حتى
أنه أنشأها في الأرجاء النائية للبلاد أيضاً، ويجدر بالذكر الرحلات
التي قام بها بهذا الصدد لمنطقة بلتستان وكشمير الحرة، ولكن المؤسسة
التعليمية التي شغف بها قلبه خاصة وواصل الليل بالنهار لنهضتها ورفيها
هي الجامعة السلفية بلائل فور، فقد ساهم في بنائها واعتنى بنظام تدريسها
وإدارتها وتنسيق مكتبتها والشئون الأخرى بالغ الاعتناء.

ولرفع مستوى هذه الجامعة قام بالمراسلة مع سماحة الشيخ

عبد العزيز بن باز حفظه الله نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ورجا منه التكرم بإيفاد المدرسين إلى الجامعة ، وكانت الإجراءات الخاصة بالموضوع على وشك الانتهاء حتى وقعت حادثة وفاته ولم ير بعينه ثمرة جهوده ، ولكن الله تعالى بارك في جهوده فتمت الموافقة على إيفاد المدرسين ، وهم يأتون إلى الجامعة منذ سنوات .

مرضه ووفاته : كان يشتكى منذ سنوات من المرض العصبي ، ولكن حاله لم تكن تبعث القلق ، ولكن فوجئنا يوم الثلاثاء بعد العصر في (٢ / ١١ / ١٣٨٧ هـ = ٢٠ / ٢ / ١٩٦٨ م) بتدهور في حالته الصحية حتى لبي دعوة ربه ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

أولاده : ترك الوالد ثلاثة من الأبناء ، وهم :

محمد (كاتب هذه السطور) وأحمد ومحمود رعاهم الله تعالى ووفقهم لكل خير .



مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على رسوله محمد خاتم النبيين ،
والسلام على أصحابه وأتباعه أجمعين .

إنى لست متعودا على مواصلة الكتابة ، وأميل بفطرتى إلى
الدين ، وأرغب بطبعى فى عقيدة السلف ، وعلى هذا المنهج الدينى تمت
دراستى ، فلست أستاذس ولا أتاثر بالمدارس الحضرية والدراسة على
المنهج الإنجليزى . وإذا مست الحاجة فأكتب على الموضوعات الدينية .
وأرى فى نفسى أنى لست مناظرا ، ولا أعرف طرق المناظرة المصطلحة
اليوم ، فلست متعودا ألبتة على تغيير وتحريف النص عند الترجمة حتى
يوافق مذهبي ورأى . أحب مذهب أهل الحديث ، وأرتبط كطالب
بالحديث النبوى ، وفى بيئته كتبت ما كتبت . وبما أن أساس الحديث
هو القرآن ارتبطت به كأصل ، ولم أر وجها للمحاولة التى ترمى إلى فهم
القرآن بدون الحديث . وأعلم عن حركة إنكار الحديث التى تأسست فى
البلاد منذ سنوات ومرت بمراحل ، وتغير أصحابها حسب الظروف .
وفى بدايتها قرأت مؤلفاتهم بنظر الباحث ، فلم أزد منها إلا نفورا
وكرها ، وأرى فى الاشتغال بها إضاعة للوقت والطاقة . والمؤلفات :
« صلاة القرآن » ، و « بيان القرآن » ، و « طلوع الإسلام »^(١) ، عبارة
عن مراحل مختلفة لعجز هذه الحركة . ويتلخص عمل قواد هذه الحركة

(١) صلاة القرآن لعبد الله الجكز الوى وبيان القرآن لاولى أحمد الدين
الأمرتسرى ، ومجلة طلوع الإسلام لغلام پرويز .

وتفكيرهم في أن القرآن — مع كونه مفصلاً — يحمل ، وفي حاجة إلى الشرح والتفسير ، فهم ينشرون مؤلفات لشرح القرآن وتفسيره ، مما يدل على أن القرآن في حاجة إلى شرحهم . وقبول هذا الشرح يعنى عندهم الإيمان بالقرآن . ولكنهم لا يرون حاجة إلى قبول التفسير الذى ورد عن النبي ﷺ وأصحابه ، بل يكرهونه بشدة . وينكرون الحديث ولو لم يفهموه . ومن المعروف أن أئمة الحديث أنكروا الأحاديث التى لم تكن على شروطهم ، وكذلك دلوا على الأحاديث الموضوعة . ولكن إنكار الحديث بأسره بحجة أن يتعذر فهم بعض الأحاديث ، موقف غير معقول .

وهكذا نرى بعض الأشخاص قد تمسكوا بعادات واختاروا هتافات يدعون بها حب رسول الله ﷺ وخدمة الإسلام ، ويظنون أن هذه العادات هى أساس الإيمان ، والإنكار عليها معارض للإسلام ، ومناف لحب النبي ﷺ ، وهذا أمر عجيب ، فإن هذه العادات لم يرد ذكرها فى قرون الخير ولدى أئمة الإسلام وفقهاء المحدثين ولو ذكرت فعلى سبيل الذم والإنكار . والحقيقة أن ديننا عملياً مثل الإسلام لن ينحصر فى عادات وهتافات ، فإن الضمير يأباه .

وكذلك بداية التقليد السائد والجمود هو التأثير الطبعى الذى يحصل للطالب من المدرس ، وهذا أمر طبيعى ، ولا فائدة فى المناقشة حول جوازه أو عدمه . فهذا التأثير لا بد منه ، ويكون دائماً بطريق البحث والتحقيق ، ولا يودى إلى الجمود أبداً ، ولا يرمى إلى نفي الصواب لدى أئمة الاجتهاد الآخرين ، ولا يحمل على التنفر منهم ، بل التأثير المبني

على التحقيق ينسجم مع طرق النظر والتفكير ، فالصواب لا ينحصر في الفروع الفقهية مع أحد ، ولا المنافرة والمباغضة تجوز فيما بينهم . فالأئمة بأنفسهم لم يقولوا قط بأن الصواب معهم دائماً ، ولا طالبوا بأن يقبل قولهم بدون دليل على أساس حسن الظن والاعتقاد الجميل . والانباء عليهم السلام كانوا يدعون إلى النظر والتفكير ، فكيف يدعون أتباعهم إلى التقليد والجمود ؟ وأرى أن المواقف الثلاثة واضحة بيّنة لا تحتاج إلى نقاش طويل ، ولكن مع ذلك يوجد في العالم أشخاص يحاولون تكوين حركة حول نظرية إنكار الحديث . والنقطة التي يرتكزون حولها أن قول النبي ﷺ وفعله وسكوته واجتهاده ليس حجة في الدين ، ولو فسر النبي ﷺ آية فلنا أن نفسرها خلاف تفسيره ﷺ ، وأن نعتقد صحة تفسيرنا . وسترا لهذا الموقف الشنيع قالوا : إن القرآن مكمل ، ولا يعتمد على الحديث نظراً للإسناد ، فإنه موضع شبهة . وهكذا حال الآخرين فإنهم يسمون عادات الشرك والتقاليد البدعية بحب النبي ﷺ وبتكريم الصالحاء ، ويسمون الاستفادة العلمية تقليداً ، وبينهما مفاوز تنقطع فيها أعناق الأبل .

وفي الأيام الماضية كنت قد كتبت بعض المقالات بدوافع مختلفة ، ونشرت في جريدة « الاعتصام »^(١) . وكانت هذه المقالات موضع إعجاب كبير لدى البعض ، بينما أغضبت الآخرين كثيراً . ويتأكد

(١) مجلة إسلامية أسبوعية باللغة الأردية أنشأها العلامة المحدث محمد

عطام الله حنيف الفوجياني رحمه الله صاحب التعليقات السلفية على

سنن النسائي عام (١٩٤٩ م) من لاهور .

تأثير العمل - ولا شك - إذا تكونت حوله أوساط مختلفة ، وصار هدفا للنقد والمناقشة . وأثناء نشر المقال انتقده بعض الأصدقاء المحترمين انتقاد باحث وصديق ، جزاهم الله أحسن الجزاء .

وكان بعض الأصدقاء يرى أن « أهل الحديث » اسم لحفاظ الحديث ، وليس مدرسة فكرية مستقلة . وقد أشرت بالايجاز إلى هذه النقطة في هذه المقالات ، وأنوى أن أبحث هذا الموضوع بشئ من التفصيل ، وأرجو من الله التوفيق .

ولعل الشيخ محمد حنيف اليزداني اطلع على هذه المقالات ، وأراد طبعها في صورة كتاب ، فأذنت له في ذلك ، وفقه الله تعالى لأعمال الخير . وأرجو من القراء الكرام ، إذا أعجبهم هذا العمل المتواضع ، أن يخلصوا الدعاء لأستاذي المحترم المحدث الكبير الحافظ عبد المنان^(١) الوزير آبادي رحمه الله تعالى ، فتربيته الغالية الهادفة هي التي دفعتني إلى حب التوحيد والسنة والتمسك بمذهب السلف رحمهم الله . اللهم اغفر له وارحمه واجعل الجنة الفردوس مأواه ، واجعله من ورثة جنة النعيم .

محمد إسماعيل

مدرس وخطيب جامع أهل الحديث

چاه شاهان - گوجرانواله

٣ / ذو القعدة ١٣٨٥ هـ

٢٦ / مارس ١٩٦٦ م

+++++

(١) من كبار أساتذة الحديث في عصره توفي (١٢٦٧ م = ١٣٣٤ هـ)

انظر: جهود مخرصة في خدمة السنة المطهرة ص ١٣٣

الفصل الأول

في

تطور حركة أهل الحديث وجهود الشاه

ولي الله في الإصلاح والتجديد

بسم الله الرحمن الرحيم

في

الشيخ الفاضل

الشيخ الفاضل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تطور حركة أهل الحديث وآثار جهود الشاه ولي الله في الإصلاح والتجديد

إن العلامة ابن خلدون قد قرر أن الأمم الماضية كانت على اختلاف في التفكير ، فكان فيها من يتمسك بظواهر الالفاظ ، ومن يحاول الوصول إلى حقيقة الحكم وحكمة الشرع . وكذلك كانت مختلفة في العمل ، فكان فيها من يحاول الجمع بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة ، ومن يركز همه حول نعيم الآخرة . وقد زاد هذا الخلاف في التفكير والعمل ، وغلا كل فريق إلى أن وقعوا في الإفراط والتفريط ، فضلوا سواء السبيل .

يقول ابن خلدون : « قال ابن كربون : وكان اليهود في دينهم يومئذ ثلاث فرق : فرقة الفقهاء وأهل القياس ، ويسمونهم الفروشم ، وهم الربانيون ، وفرقة الظاهرية المتعلقة بظواهر الالفاظ من كتابهم ، ويسمونهم الصدوقية ، وهم القراءون . وفرقة العباد المنقطعين إلى العبادة

والتسبيح والزهاد فيما سوى ذلك ، ويسمونهم الحيسيديم^(١) .

هذا ، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لتتبعن من من كان قبلكم حذو النعل بالنعل^(٢) » .

عقول مختلفة :

ونرى هذه الأنواع الثلاثة توجد الآن في الأمة الإسلامية ، فمنهم من يتعمق في النظر إلى الشريعة ويجعل دائما مصالح الدين نصب عينيه ، ومنهم أهل الظواهر قصار النظر الذين لا يصلون إلا إلى القشور ، ومنهم طبقة الزهاد الذين لهم سيطرة على تفكير الناس . وكان نظام المعابد والزوايا في البداية مقبولا إلى حد ما ، وذلك معروف عند الجميع . ولكن اليوم نرى أن معظم البدع والخرافات تنشأ فيهم وتبيض الفتن هناك وتفرخ .

وكان في الصحابة - رضوان الله عليهم - بعد مبعث الرسول ﷺ طبقة الفقهاء وأهل الظواهر والزهاد . وكانت هذه الطبقات توجد في الأمة بعد الرسول ﷺ ، وكانت لها مذاهب ومناهج في التفكير والسلوك ، وكان أحيانا يوجد فيهم الانحراف ويتسرب إليهم

(١) تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) ج ١

ص ١٨٠

(٢) فتح البازي ١٣ / ٣٠٢

الجمود . مع أن الجمود كان بطبيعته معارضا لفطرة الإسلام ، ولكنه قد منيت به هذه الطبقات الثلاث ، فكان الغلو في الأخذ بظاهر الألفاظ إلى أن ركزوا على الظاهر كل تركيز ، وصرفوا النظر عن المصالح والمقاصد التي كانت مرعية في الدين . وأحيانا تأثر العلماء بآراء الرجال وقياسهم فحمدوا على التقليد ، وأوجبوه^(١) على الأمة كانوا يقدسون آراء العلماء وينزلونها منزلة أحاديث الرسول ﷺ ومكانتها في التشريع . ولم يكن هذا وذاك إلا غلوا في الدين . وقد منيت طبقة الزهاد والأتقياء بهذا المرض ، فجعلوا المرشد مظهراً لله

(١) ومن المعلوم أن الجمود الذي نراه اليوم على التحزب والتجمع حول الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة السنة وحول علومهم ، وكذلك التمسك بأقوالهم وآرائهم لم يوجد في القرون الأولى ، والأئمة أنفسهم وأصحابهم لم يرضوا بذلك بل اعتبروه مضادا لمصالح الدين ، فقد رفض الإمام مالك رحمه الله ما عزم عليه الخليفة العباسي هارون الرشيد من جعل الموطأ دين الدولة وفرض فقهه وآرائه على الأمة في ذلك الوقت (الديباج ص ١١٨) ونرى في كتابي حجة الله البالغة للشاه ولي الله الدهلوي ، وجامع بيان العلم لابن عبد البر الأندلسي عددا من أقوال الأئمة تمنع من التقليد والتقيد بآراء إمام أو عالم مخصوص . ولكن العجب من أكابر ديوبند الذين يجترئون اليوم على الدعوة إلى التقليد والجمود ، ويزعمون أنه واجب على الأمة ، وأن لهم الحق في فرضه عليها .

تعالى وعوضا عن الرسول ، وأنزلوا عادات الصالحين وتقاليدهم منزلة الوحي الإلهي ، بل اعتمدوا على سلوكهم وحالاتهم ، واستغنوا عن الشريعة وهدايتها . فاستحلوا ما أحلوه ، وحرموا ما حرموه . وكان موقفهم هنا مبعثا للجمود ومعارضا لروح الإسلام الذي هو دين الحركة والانطلاق ، دين يجعل الكتاب والسنة أساسا ، ثم يقرر مبدأ الحرية الفكرية ويمهد لها سبيلها ، ويقدر الجهود التي تبذل لمقاومة اتجاهات التقليد والجمود والتحجر العقلي .

حركات علمية للقضاء على الجمود :

كان الإسلام في مختلف العصور ، بتأثير من تفكير أتباعه وميولهم وعواطفهم ، متطورا غير جامد ، فأحيانا رجحت كفة أهل الظاهر فأبطلوا القياس والعمل بمقتضاه ، وأحيانا زاد إقبال الناس على الرأي والقياس فتركوا بإزائها النصوص الصريحة ، وجعلوا الدين عبارة عن المسائل والصور المتخيلة المفترضة .

ونشأ عن ذلك ظاهرية الحافظ ابن حزم الأندلسي (م-٤٥٦هـ) . وكذا كتاب الحيل للفقهاء الذي قد أفسد الدين ، وشوه معالمه من العبادات إلى الاقتصاد ، وأدخل في الدين الفواحش باسم العبادات والتفقه . وقد تأثرت بذلك من العبادات الصلاة والزكاة والحج . وهناك من يزعم أن الظاهرية ترتبط بالحديث ولذلك غلبت على

ابن حزم ، ولكن الحقيقة أن الظاهرية والحيل الفقهية كلاهما قد نتجا عن تفكير واحد وعقلية متماثلة . إن ابن حزم وأتباعه قد غرهم ظاهر الألفاظ ، وأصحاب الحيل قد انخدعوا بظواهر القواعد الفقهية ، تخفيت مصالح الشارع وأهدافه على أنظار الفريقين ، وظاهرية الألفاظ قد حالت دون الوصول إلى لب الموضوع وحقيقته .

والنظائر إذا لم تدرس بالقياس ولم تراع أهداف الشريعة فلا فائدة إذن من الاعتراف بالقياس والتسليم بأدلته . والاحترام لآراء السكبار وأفوالهم بمجرد كونهم كبارا ليس إلا نوعا من الظاهرية ومظهرا لجود غير مرضى .

نظرة على تاريخ المذاهب :

كان الاشتغال بالحديث شائعا بالحجاز ، وبخارى ، ومصر ، والمغرب في القرون الماضية ، وكان الناس يدرسون الحديث ويحفظونه بنشاط واجتهاد ، والمدارس كانت مرتجة بأصوات « حدثنا ، وأخبرنا » إذ اشتهر الإمام الشافعى (رحمه الله) فى الحجاز ومصر بحفظه وذكائه . وساد الفقه المالكي فى المناطق بين السودان والأندلس ، والفقه الحنفى قد انتشر بين الكوفة إلى إيران ، وأقصى بلاد الهند . وكانت نجد وما يجاورها من المناطق تحت تأثير مذهب الإمام أحمد ابن حنبل (رحمه الله) . وكان هناك أئمة آخرون قد تركوا آثارهم

ملبوسة في المناطق الأخرى ، مثل الإمام الأوزاعي ، وابن جرير الطبري ، والحافظ ابن خزيمة ، وداود الظاهري ، رحمهم الله تعالى . وقد أدى ذلك إلى أن الحديث لم يفهم مجرداً عن آراء هؤلاء الأئمة ، بل كانت دراسة هذه الآراء وفهمها واجبا لفهم الأحاديث النبوية . وكان هناك في البداية زعم بأن اتباع هؤلاء الأئمة في التفكير قد يعصم الذهن عن الأخطاء ، ويمهد له سبيل الحق ، ولكن هذا التفسير نفسه قد أدى إلى الخطأ ، وتحولت النقطة الدالة على الغاية إلى حجر العثور . فكانت البحوث والمناقشات بين الحنفية والشافعية قد أضرت في بعض المواضع بالإسلام أكبر مما نفعت ، وبينهما اقتسمت النصوص .

الحركات الإصلاحية :

والتاريخ يشهد أنه كانت هناك حركات إصلاحية ، وكان العلماء في كل عصر يبذلون قصارى الجهود ليتفادوا من هذا المرض ، فقد منوا بالجمود إذا تجنبوا الفوضى ، وأخذتهم الفوضى إذا تجنبوا الجمود . ونذكر هنا من العلماء الأعلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، والحافظ ابن القيم ، ومحمد الشاطبي ، وعبد الرحمن بن إسماعيل ، وأبا شامة المقدسي ، الذين بذلوا جهوداً قيمة مشكورة في مجال الإصلاح والتجديد .

الشاه ولي الله الدهلوي :

ونحن هنا نحاول إبراز المعالم والمساعي التي بذلها الشاه ولي الله

المحدث الدهلوى ، وكان يعيش فى نهاية العصر المغولى حينما ساد الجمود وتحجرت العقول . والمملك الصالح أوردنكزيب نفسه لم يستطع أكثر من أن يأمر علماء عصره بتأليف « الفتاوى الهندية » .

وكان الشاه ولي الله وأتباعه يحملون مشعل العلم والهداية فى ذلك الوقت ، ويرشدون إلى طريق المحدثين والفقهاء : وكانت المحاولة تجرى لتقريب الحنفية والظاهرية إلى منهج المحدثين .

والمسلمون فى الهند — سواء كانوا من أهل الحديث أو الحنفية — يجب عليهم لتصحيح نسبتهم إلى الشاه ولي الله أن يسلكوا مسلك الفقهاء والمحدثين ، فذلك هو خدمة الإسلام الكبرى فى هذا العصر . رزقنا الله تعالى التوفيق للعمل والقصد فى العقيدة . ونحن نحاول فيما يأتى تسليط الأضواء على الدور الذى قامت به حركات الإصلاح من أهل الحديث والفقهاء والصوفية فى سبيل الدفاع عن الإسلام ، وكيف كان تأثرهم بجهود الشاه ولي الله الإصلاحية .

كانت حركة « أهل الحديث » تعنى فى البداية أن الأمور الاجتهادية لا يدخلها التقيد والجمود ، بل ينظر فى القضايا بعد مراعاة المصالح والاستئثار باجتهادات الصحابة والأئمة من بعدهم ، وذلك مع الابتعاد عن التحزب والجمود ، والتركيز التام حول نصوص الكتاب والسنة عند الاستنباط .

وإذا لم يوجد حكم فى الكتاب والسنة لحادثة جدت فى هذا

العصر، فلا يقضى فيها برأى فرد أو جماعة من العلماء تنتمي إلى منطقة معينة، بحيث يفرض هذا الرأى الشخصى على الأمة، بل ينظر إلى منهج الصحابة رضوان الله عليهم، وموقفهم من الحرية الفكرية حتى لا تقع الأمة فى الحرج، ولا يتسرب إلى تفكيرها الجود.

ومن المعلوم أن الاجتهاد لا بد منه إذا لم تكن هناك نصوص من الكتاب والسنة تحكم فى الحوادث الناجمة. وهذا هو ما نرى عند الصحابة والأئمة المجتهدين من بعدهم، فكانوا يجتهدون ويستنبطون كلما عرضت لهم قضية لم يجدوا لها حكما فى الكتاب والسنة. ولذلك نقول: إن القضايا الناجمة يجب أن نحاول فهمها وحلها فى ضوء الاجتهاد كما كان هو دأب أهل الحديث والفقهاء، ومن هنا وجدت الحلول للمسائل الحديثة.

ولم يجد منهج الحافظ ابن حزم والإمام دارود الظاهري، فى الاستغناء الكامل عن القياس، قبولا لدى المحدثين وبالأولى لدى فقهاء العراق. وبذلك نرى أنه ليس هناك خلاف بين المحدثين وبين فقهاء العراق فى الاستفادة من القياس، أو توحيد الأحكام فى النظائر، فالجميع يرون القياس ضروريا وواجبا لدى الحاجة.

وكان الشاه ولي الله قد أدرك هذين الاتجاهين المتضادين المتطرفين وما يترتب عليهما من الآثار فأوصى تلامذته وأصحابه بما معناه: «وصية هذا الفقير هى الاعتصام بالكتاب والسنة فى العقيدة

والعمل ، والاشتغال بهما دائماً ، وقراءة جزء منها كل يوم ، فإن لم يستطع القراءة فلاستماع إلى ترجمة جزء منها ، واتباع مذهب أهل السنة القدماء فى العقيدة ، والإعراض عن بحث وتفصيل ما لم يبحثوا عنه ولم يفصلوه ، ونبذ التشكيك الزائف من أهل المعقول ، واتباع العلماء المحدثين فى الفروع ، فإنهم قد جمعوا بين الفقه والحديث ، وعرض التعريفات الفقهية دائماً على الكتاب والسنة ، كى يقبل ما يوافقهم ويرد ما يخالفهم ، فإنه لا غناء للأمة عنهم ، وعدم الإصغاء إلى الفقهاء المتكشفين الذين أوجبوا تقليد بعض العلماء معرضين عن الكتاب والسنة ، والنقريب إلى الله بالابتعاد عنهم .

وهذا الاعتراف الجرىء الحكيم من الشاه ولي الله قد يحملنا على الاستغراب المختلط بالتقدير والإعجاب ، فإنه كان قد تربى وعاش فى بيئة تأصلت فيها جذور الجود الفقهى ، وكان الملك أورنگزيب عالمكير قد اشتهر بورعه وتنوره وسعة ذهنه ، وكان جمعه للفتاوى الهندية يعتبر من أهم ما قام به من خدمة الإسلام ، وكان الملك قد جمع علماء عصره لشرح قانون الإسلام ، وتدوينه فى أحسن صورة ممكنة . وكان هؤلاء العلماء قد خدموا الفقه الحنفى حسب ما اهتموا به بفضل اطلاعهم الوافر ومعرفتهم الواسعة .

ومزية هذا الكتاب تنحصر فى أنه يحتوى من أقوال الفقهاء على ما هو أوفق بالمصالح وعلى ما هو مختلف فيه ، حتى يسهل العمل بما

هو الأنسب . وكان ذلك محاولة بسيطة للانطلاق والتحرر ضد الجود القديم ، ولكن الجهود لم تبذل لاستعراض وبحث المصالح الشرعية في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الأئمة الآخرين ، وكان الشاه ولي الله قد تلقى دراسته في هذه البيئة ، ثم جلس للتدريس في حياة أبيه .

ويبدو أن دروس الشاه ولي الله ومنهجه في الفتيا كانا مقنعين للطلبة ولعامة الناس ، ولكن الشاه ولي الله نفسه لم يكن مقتنعا ولا راضيا بهذا القدر من الجهود وبهذا المنهج الذي كان يسير عليه . إنه كان يروى بمنهل علمه خلقا كثيرا ولكن نفسه كانت متعطشة ومتطلعة إلى المزيد . إن جهوده كانت ترضى عامة المقلدين والجامدين وكانوا يزعمون أن الفقه الحنفي يحظى بالاهتمام الكافي والعناية الوافرة بفضل هذه الجهود . على أن الإمام ولي الله لم يكن يرضى بأن يتقيد بآراء الأئمة السابقين الذين وصلوا إلى ما وصلوا من الآراء والأقوال في ضوء الكتاب والسنة بعد مراعاة الظروف واعتبار المصالح . إن الأئمة المجتهدين قد خدموا الإسلام بعد النبي ﷺ ، وجهودهم في هذا الباب لن تجحد ، ولكن هذا لا يعنى أن نفضل آرائهم وأقوالهم على نصوص الكتاب والسنة .

والغريب أن الفقهاء كانوا يرون وجوب التقليد ، ويسكفرون من لا يقول بذلك ، ثم إنهم كانوا يأولون نصوص الكتاب والسنة إذا تعارضت مع آراء الفقهاء وأقوالهم . ولاشك أن موقفهم هذا

لم يكن بحيث يطمئن إليه عالم مثل الشاه ولي الله ويقر الناس على حالتهم هذه ، فدعا إلى النظر في الكتاب والسنة وصرف النظر عن الأمور الأخرى . وكان تفوقه في العلوم الشرعية قد ساعده على تحقيق أهدافه ، وكان أحيانا ينتقد ويعترض على الأئمة الكبار مثل الإمام ابن حزم والعز بن عبد السلام ، ويسبق الإمام الرازي والإمام الغزالي في الإحاطة بأسرار الشريعة ومعرفه حكمها ، وكان هذا التفوق المثلالي في العلوم هو الذي جعله لا يطمئن إلى كتب الفقه التي كانت متداولة بين الناس في عصره ، مثل التوضيح وكشف الأسرار ، فإنه كان يهدف إلى ما هو أرفع من ذلك ، ويريد أن يرجع الناس إلى ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم من الاستدلال بالكتاب والسنة ، والاستقاء بينايبعها الصافية العذبة ، ولم تكن القواعد والفروع المتعارضة فيما بينها في كتب الفقه وأصوله بحيث يطمئن إليها الشيخ ويعتمد عليها .

علة الظاهرية :

وكانت تعقيدات القياس والتعمق في فرض المسائل وصورها قد أدى كلا من الحافظ ابن حزم والإمام داود الظاهري رحمهما الله إلى إنكار القياس ورفض كونه حجة شرعية ، وكان هدفهما الاكتفاء بالكتاب والسنة واعتبارهما مصدرا للأحكام .

وكانت طريقة الظاهرية هذه سهلة غير خطيرة ، فإن المرء لم يكن فيها مسؤولاً إلا في القليل . وكذلك لم يكن في حاجة إلى أن يتعب نفسه في مجال القياس والتأويل ، فالمعول في الدين على النقل ، ومن الواجب أن يطمئن الانسان عليه ، أما العقل فلا يضر تقصيره في أمور الدين لأن الأصل هو النقل . إن الحكم إذا وجد في الكتاب أو السنة فلا حاجة بنا إلى أن نصير إلى العقل وموافقته أو إلى النظائر ، أو أن يضيف المرء شيئاً جديداً من قبل نفسه ويقبل تحمل المسؤولية عليه .

ولكنه من المعلوم أن النصوص محدودة ، فإن الأحاديث الصحيحة الثابتة لا تزيد عن عدة آلاف ، وآيات الأحكام في القرآن قليلة ، والحوادث غير متناهية لا تقف عند حد إلا إذا انتهت الدنيا ، وهذا المحدود لا يكفي لمعرفة أحكام الحوادث غير المتناهية ، ولذلك اضطر أهل الظاهر إلى التكلف والتعسف ، ولم تبق طريقةهم ملائمة للحياة وتطورها المتزايد المتجدد ، إن الاختلاف في الحكم بالنظائر المماثلة لا يمكن أن يعد حسن المنهج والمنهج . ومن هنا فإن المذهب الظاهري كان سهلاً آمناً من ناحية ، ولكنه كان مهملاً مضحكاً من ناحية أخرى .

طريقة القياس والفقه :

وكان لابد للتقدم في الحياة العملية والدفعها إلى الامام من

التوفيق بين النظائر وأحكامها ، ومن تعرف الأسباب لأحكام الشارع وتبين وجوهها وعللها التي صدرت لأجلها .

ثم إن القرآن قد جاء يخاطب العقل ويدعو إلى استخدامه في أمر التوحيد والنبوة والمعاد ، ولذلك وجب ألا نهمل العقل ولا نبعده عما خلق له ، يقول الله تعالى : ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب ^(١) ﴾ وفي هذا مدح وثناء على الذين يستمعون بالعقل السليم ويحاولون الوصول إلى حقيقة الأمر . والتوازن في حكم الأشياء والنظائر نتيجة للقياس الصحيح واقتضاء حتمى للعقل ؛ ﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ^(٢) ﴾ .

وهذا الميزان قد نزل مع الكتاب ، ولا يراد به الميزان الذى يوزن به الأشياء المادية الجسمية ، بل هو ميزان يساعد فى فهم الكتاب والأداة الشرعية الأخرى ، وفى معرفة أحكام النظائر والتسوية بينها فى الحكم ، وقد سمي ذلك فى اصطلاح الفقهاء بالقياس ، ولكنه فى الحقيقة ميزان .

وعلى هذا لا يسوغ لنا إنكار القياس وضرورته ، ولا يصرف

(١) الزمر : ١٧-١٨

(٢) الشورى : ١٧

النظر عن حجتيه وفائدته . وكان الأئمة المحدثون - مع اعتنائهم بظواهر الحديث وألفاظه ومعانيه واحترامهم له - يعتبرون القياس حجة شرعية ، وكانوا يستفيدون تماما من أدلته ويواونه ما يستحق من العناية والاهتمام ، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يرضون بترجيح هذه الأدلة على النصوص الشرعية كما يتضح من الأمثلة الآتية فيما بعد . وقد زلت أقدام الفقهاء في هذا الباب ، ووقع منهم نوع من التفريق ، وخاصة فقهاء الحنفية رحمهم الله . وهذا هو الموقف الذي يقلق الشاه ولي الله . وقد حصل التعارض بين النصوص والأصول الفقهية في بعض المواضع ، وفي أخرى لم تبق هذه الأصول مطردة منعكسة . وحينما وجدت هذه الأصول طريقها إلى القلوب قاس بها الفقهاء النظائر ، ولكنها لم تتحمل ما حملها الفقهاء ، فتعارضت أحكام النظائر ، وتقطعت هذه الأصول . وهنا نريد ذكر بعض الأمثلة لتوضيح ما قلناه :

قد ورد في صحيح الإمام البخاري رحمه الله « كانت عائشة يؤمها عبدها ذكوان من المصحف^(١) » .

وكان ابن سيرين ، والحسن البصري ، والحكم ، وعطاء يجوزون القراءة في الصلاة من المصحف . وكان بعض من يصلي خلف أنس

(١) عمدة القاري ٢ / ٧٥٦ ، وفتح الباري ٢ / ١٨٤

يمسك بيده القرآن ويذكره إذا نسي . والامام مالك رحمه الله يجوز ذلك في الصلاة التراويح . ويقول الحافظ العيني رحمه الله : « قلت : القراءة من مصحف في الصلاة مفسدة عند أبي حنيفة لأنه عمل كثير ، وعند أبي يوسف ومحمد يجوز ، لأن النظر في المصحف عبادة ، لكنه يكره لما فيه من التشبه بأهل الكتاب^(١) » .

وفي الجامع الصغير « وأما من قرأ في المصحف فصلاته فاسدة . قال أبو يوسف ومحمد : تامة ويكره^(٢) » .

والقلب يطمئن إلى أن القراءة في المصحف لا تناسب الصلاة ، وإنها بدون شك عمل كثير (مهما كان حده) مع أن أم المؤمنين عائشة وكبار التابعين قد ذهبوا إلى جوازها ، فإن الذي يقلب أوراق القرآن في الصلاة لا يستطيع أن يركز عنايته حول الصلاة ، ولا يحصل له الخشوع التام ، ولذلك ينبغي أن يقرأ في الصلاة عن الحفظ . والذي يقال عن التشابه بأهل الكتاب غير مفهوم ، ولو سلمناه لكانت دلالاته على أمرين : الأول أن العمل الكثير لا يجوز في الصلاة فإنه يشغل المصلي .

والثاني : أنه يجب الاحتراز عن التشبه بأهل الأديان الأخرى .

(١) عمدة القارى ٧٥٧/٢

(٢) الجامع الصغير للإمام محمد ص ١٥

والآن يجب أن تسمعوا إلى نقطة أخرى وهي :

« لو نظر المصلي إلى المصحف وقرأ منه فسدت صلاته ، لا إلى فرج امرأة شهوة ، لأن الأول تعليم وتعلم فيها لا الثاني^(١) .

ومن الواضح أن هذا تحكيم للعقل وإنزال للفقه منزلاً فوق مستواه ، لا يستطيع أحد أن يعرف سرهما ، ويظفر بمبرر لهما ، فمن يسلم بأن النظر في القرآن ينافي الخشوع ويعتبر من العمل الكثير ، في حين أن النظر إلى الفرج بداعية الشهوة لا يفسد الصلاة !

وما لاشك فيه أن العلماء يمكن لهم الاستدلال على حل الذنب وحرمة الدجاجة إذا دخلوا في ميدان الجدل والمناظرة ، ولكن العقل السليم والميزان العادل لا يجاريان هذا التدقيق والتعمق في الفرض والتخييل ، ولذلك نرى المحدثين محتاطون حتى لا يقعوا في مثل هذا الازدواج العملي والتحكم مع التسليم بحجية القياس .

وتوجد في الهند طائفة في الحنفية تسمى « البريلوية » لا يزيد عمرها على نحو سبعين سنة . والذين ينتمون إلى هذه الطائفة يريدون إدخال « التعديل الجوهري » في تعاليم الإسلام وتغييرها عما كانت عليه في المدينة النبوية ، وتاوينها باللون الذي ألفوه لدى أئمتهم ومشايخهم في مدن « بريلي » و « لاهور » و « فيصل آباد » وغيرها .

(١) الأشباه والنظائر ص ٤٣٤

وهؤلاء يعيبون على السيد أحمد الشهيد كلامه في كتاب
«الصراط المستقيم» الذي قال فيه: إن تصور البقر الوحش لا يضر
الحشوع في الصلاة مثل ما يضره تصور النبي ﷺ.

وهذا المعنى صحيح صواب مهما كان عنوانه وتعبيره، فإن الشيء
الذي يألفه الإنسان ويحبه يتملك عليه مشاعره ويشغله في فكره وخياله
فيصعب عليه في هذه الحالة أن يتفرغ للصلاة وينشع فيها، بخلاف
ما إذا تصور شيئا لا يحبه مثل البقر الوحش وغيره. ومن المعلوم أن
حب النبي ﷺ وشغف القلب به أمر يثاب عليه المؤمن، ولكنه من
الواجب أن لا يتصادم هذا الحب مع توحيد الله تعالى ولا يغلب عليه.
أما النبوة ومكانتها فلا سبيل إلى تسويتها وتشبيهها بالبقر الوحش.
وكذلك لا يمكن أن يتطرق خيال حبيب إلى الصلاة التي هي مناجاة
مع الرب وتقرب إلى جنابه.

كان أصل المسألة صحيحة، والتعبير عنه إذا لم يعجب أحدا فعليه
أن يغيره، فإن ترجمة الأستاذ عبد الحى البدهانوى لم يكن وحيا لا يجوز
تغييره، ولكنه العداوة المضمرة في القلوب هي التي حملت على
الكلام الذي أنجر إلى الطعن في الشهيد محمد إسماعيل وإثارة الجاهلين
ضده، مع أن المسألة التي نقلناها فيما قبل لم يبينها الشهيد محمد إسماعيل،
بل قالها الشهيد السيد أحمد بالفارسية، وترجمها الشيخ عبد الحى إلى
الأردية، ولكن المسؤولية قد أقيمت على الشهيد محمد إسماعيل من قبل

المبتدعين ، فكفروه وحاولوا الإزدراء والاستخفاف بالأعمال
الجليلة التي قام بها في سبيل الرد على البدع والمنكرات ، وبالدور
المشرق الذي لعبه في سبيل إنقاذ المسلمين من براثن الوثنيين . ولكن
هذه المحاولات الخبيثة قد باءت بالفشل وأشاد الناس بموقف الشهيد ،
وقدروا دماء الشهداء الصالحين التي أريقَت على أرض بالاكوت ،
وسجلت في التاريخ صفحة مشرقة للتضحية والتفاني في سبيل الله .

والسيد الشهيد قد رمى بالكفر مع حبه البالغ للرسول ﷺ
بمجرد أنه فرق بين مكانة الرسول العالمة ، وبين منزلة البقر الوحش ،
في تأثيرهما في خشوع الصلاة ، ونصح بأنه يجب أن ترتفع هذه العبادة
الروحية عن أدران الشرك . أما التدقيق الفقهي الذي جعل النظر إلى
المصحف مفسدا للصلاة دون النظر إلى الفرج وتجاهل الفارق الكبير
بين الشيمين ، فلم يثر حمية أحد ولم يحمل على التكفير والطعن ، والذي
يقول بذلك يبقى مسلما صادقا ، ولكن الشهيد مع جهوده الطيبة
وتضحيته بنفسه في سبيل الحق صار كافرا صريحا :

من كان هذا القدر مبلغ عليه فليستتر بالصمت والمكتان

ونحن نجزم بأن هذا النوع من التفكير لمنفقهى البربلوية لا يقدر
له البقاء والانتشار في هذا العصر في مملكة إسلامية مثل باكستان ،
وهذا الموقف المخزى للعلم لا يستمر أكثر من ذلك .

والذي يجب أن نفكر فيه هو أن هذا «الاتجاه التمسكفيري» ما ذا أفاد الإسلام والدولة الباكستانية؟ وما الذي حصل عليه هؤلاء المكفرون في الدين والسياسية؟ لأنهم صوبوا سهام السب والشتيم إلى الموحدين (أهل الحديث والسلفيين) وهؤلاء تحملوا منهم ذلك صابرين شاكرين، ولكن هذا الطعن والظلم لم ينفعا الطاعنين والظالمين شيئاً:

(إن الغزلان في الصحراء منتظرة، واطعة رؤوسها على الأكف، مع الأمل بأنك تأتي يوماً للصيد^(١)).

وللظن أهمية خاصة في الأحكام، فالشرع قد أصدر حكمه مستنداً إلى القرائن في مواضع كثيرة، والولد ألحق بأبيه، واللقيط قد ضم مع الورثة بالقيافة، وقد روى أن النبي ﷺ قد أبدى فرحه وطمأنينته، حينما سمع رأى القائف في أسامة بن زيد. وقد أنكر بعض الفقهاء هذه القرينة بسبب أن الحكم قد بني فيها على الظن والتخمين ومن المؤكد أن اليقين له أهميته، والظن ليس بشيء في جانبه (إن الظن لا يغني عن الحق شيئاً^(٢)) والغريب أن بعض الفقهاء قد أنكر هذه القرائن لمكوناتها ظنية، ولما كانه انقلب فقال إلى الظن وبالغ

(١) ترجمة بيت فارسي شهير.

(٢) النجم : ٢٨

فيه بحيث أقام الشك والوهم مقام اليقين ، يقول ابن القيم رحمه الله :
 « قال بعض الفقهاء : ومن العجب إنكار لحوق النسب بالقيافة التي
 اعتبرها النبي ﷺ ، وعمل به الصحابة من بعده وحكم به عمر بن
 الخطاب - رضى الله عنه - وإلحاق النسب في مسألة فيمن تزوج بأقصى
 المغرب امرأة بأقصى المشرق ، وبينهما مسافة سنين ، ثم جاءت بعد العقد
 بأكثر من ستة أشهر بولد^(١) .

وهذا من غرائب القياس وتحكماته ، فقد أنكر القرائن الثابتة
 المستندة ، وأثبت النسب وألحق الولد بأبيه على أساس الظن والوهم .
 فالأوهام صارت معتبرة مستندة لدى الفقهاء ، ورفضوا مجموعة الأخبار
 الأحاد بسبب القيافة فإنها ظنية ، وليس من المعقول أن يطمئن رجل
 مثل الشاه ولي الله إلى هذا التفكير المنحرف .

والأصوليون قد وضعوا قاعدة قالوا فيها : « الخاص لا يشمل
 البيان^(٢) » ، ومعنى هذه القاعدة أن الخاص معناه واضح بين ، ولذلك
 لا يحتاج إلى شرح وبيان من الخارج . وبناء على هذه القاعدة قد
 أقيمت الحجة على الشافعية في مواضع عديدة ، وقيل إنهم على خطأ ،
 ونحن (الحنفية) على صواب ، بل إنهم قد تركوا الحديث الصحيح

(١) اعلام الموقعين ١ / ٢٧٧ ، ط اشرف المطابع دهلي .

(٢) الحسامي ص ١٠ ، نور الأنوار ص ١٥ ، كشف الأسرار مبحث

الخاص ، التلويح على التوضيح ص ٣٤

إذا عارض هذه القاعدة وحافظوا عليها، ومثال ذلك أنه قد ورد في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾^(١).

يقول فقهاء الحنفية: إن الركوع معناه الانحناء، وكذلك معنى السجود وضع الجبهة على الأرض، فالذي انحنى قليلاً أو وضع جبهته على الأرض كيفما كان، تصح صلاته ولو لم يحصل التعديل والطمأنينة. أما الشافعية فيرون التعديل فرضاً في الصلاة مثل الركوع والسجود، وإن لم يكن هناك تعديل بطلت الصلاة عند الشافعية وأئمة الحديث. والحنفية تقول إن الصلاة تصح، لأن المعنى اللغوي للركوع والسجود قد تحقق، والشافعية على خطأ، فإن الخاص (أي الركوع والسجود) لا يحتمل البيان ولا يحتاج إلى شرح من الخارج.

وفي الحديث أن النبي ﷺ رأى رجلاً قد صلى بحضرته ولم يتم الركوع والسجود، فقال له النبي ﷺ ثلاث مرات: «صل فإنك لم تصل». أي إن صلاتك لا وجود لها شرعاً. وعلى هذا الحديث قد بنى أهل الحديث والشافعية وغيرهم رأيهم في أن الطمأنينة لا بد منها في الركوع والسجود في الصلاة. والحنفية تقول: إن معنى الركوع والسجود معلوم، ولذلك أسنا في حاجة إلى الحديث اشرح هذا المعنى، ولا نقول ببطلان الصلاة.

عظمة القرآن :

وحماية لهذه القاعدة قيل: لو سلمنا بناء على الحديث أو مذهب الشافعية أن النعمـد يل فرض في الصلاة فيلزم من ذلك الزيادة على القرآن ، وهو مرادف للنسخ . والقرآن إذا بين معنى بكلمة خاصة فلا تجوز عليه الزيادة أصلا ، ولو فعلنا ذلك لكان منافيا لعظمة القرآن ومكانته الرفيعة .

ومما لاشك فيه أن تعظيم القرآن واجب على كل فرد من المسلمين ولكن لا يكون ذلك على حساب السنة وتعطيل مكانة الرسالة بحيث لا يبقى للرسول ﷺ حق تبين وتحديد معنى القرآن ، أو إظهار الهيئـة الشرعية لعمل ، أو توضيح حكم سكـت عنه القرآن . وبعبارة أخرى لا يجوز لصاحب الوحي تبين معنى وحيه والكلام المنزل عليه . أما الفقيه والمجتهد والصوفي فلهـم جميعا أن يفسروا ويوضحوا المعنى حسبما يفهمون ويستطيعون ، ولكن الرسول ﷺ فمحظور عليه أن يتكلم بشيء في القرآن ، (إن هذا شيء عجاب^(١)) .

ومن المعلوم أن هذه القواعد قد وضعت لفهم القرآن وتفهمه ، ومعظم الجهود في وضع هذه القواعد قد بذلها أهل الحديث والمعتزلة ،

كما ذكر صاحب كشف الظنون^(١)، ومن الغريب أن تراعى هذه القواعد ويصرف النظر عن الحديث ولا يسمح له بأن يوضح ويبين معنى القرآن الكريم، مع أن القرآن يحدد مكانة الرسول ﷺ فيقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ^(٢)﴾ ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لَتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(٣)﴾.

وهاتان الآيتان صريحتان في أن التبيين والإظهار من مسؤوليات الرسول ﷺ، وواجباته التي لا يمكن أن يصرف عنها بصره، وفي سورة المائدة قد دعا الله أهل الكتاب إلى تبیین الرسول ﷺ فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ^(٤)﴾.

وما يبعث على التعجب أن البيان الذي يدعى إليه أهل الكتاب يحاول المسلمون أن يحرموا منه أنفسهم صيانة للقوانين التي وضعها أهل الاعتزال. لأنهم لا يبالون بأن يعمل بالحديث أو يترك، ويقبل أو يرد، بل الذي يهمهم هو أن تبقى القواعد والأصول الموضوعية

(١) كشف الظنون ١ / ٨٩

(٢) النحل : ٤٤

(٣) النحل : ٦٤

(٤) المائدة : ١٥

سارية المفعول ، واجبة العمل .

ثم إن مسؤولية التبيين هي مسؤولية الأنبياء كلهم ، يقول الله تعالى : ﴿ ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ، وهو العزيز الحكيم ^(١) ﴾ .

هذا وقد جعل الله تعالى بيان الرسول بيانه هو حتى لا يظهر أثر المغايرة بين الخالق والمخلوق على البيان فقال : ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ^(٢) ﴾ .

وكان الشاه ولي الله يعجب من أن النبي ﷺ يوضح أحكام الله تعالى بأمره ، ثم لا يكون هذا التوضيح مساويا للأصول التي وضعها أفراد الأمة ، ولذلك قد تكلم هو في مواضع عديدة من كتبه : حجة الله البالغة ، والخير الكثير ، والتفهيمات الإلهية ، والمصنف ، والمسوى ، وعقد الجيد ، والإنصاف وغيرها عن هذا الموقف ، وحاول القضاء على هذا الجمود الفقهي وعارض هذه المعاملة الجائرة والترجيح غير العادل مع السنة النبوية ، فإنه ليس من المعقول أن تجعل الأصول التي وضعها أشخاص غير معصومين أساسا للدين ، وتترك السنة التي هي أساس الوحي والدين ، في الحقيقة بإزاء هذه

(١) إبراهيم : ٤

(٢) القيامة : ١٧

الأصول المصطنعة ، ويأتى كل ذلك من الذين يؤمنون بكون الرسول ﷺ خاتم النبيين .

صحة الحديث :

وموضوع صحة الحديث أو ضعفه خارج عن البحث هنا ، فإن سيطرة هذه الأصول لا تترك مكانا للحديث سواء كان صحيحا أو ضعيفا ، ولكن الذى تلقيناه هو أن الحديث - ولو كان ضعيفا - مقدم على القياس ، ومن الممكن أن نجد لذلك مثالا أو مثالين فى كتب أصول الفقه من حديث القمهقهة وما يشبهه . والأصل أن فقهاء العراق وخاصة أتباع القاضى عيسى بن أبان يسخطون على السنة ، ويريدون أن يتركوا أبواب الرأى مفتوحة على مصاريعها ، ولو انغلقت أبواب السنة وتقلص ظلها وانكمش ضوءها . وكيف يظمن رجل فطن خبير بالأمور وعواقبها متمتع بالذهن التجديدى مثل الشاه ولى الله على هذا الوضع الغريب غير الملائم للجمع كله ؟ فنرى أنه قد انتقد هذه الاتجاهات لأصول الفقه ، وهذا الانتقاد الآن بمثابة الأساس للأذكياء الذين يسمون أهل الحديث أو السلفيين .

وليس من أهداف هذه الحركة (حركة أهل الحديث) قطعا إلغاء مساعى الأئمة أو تحريم الاستفادة من علومهم أو الالتزام بانتقاد علومهم واجتهاداتهم فى الحياة ، بل تريد هذه الحركة تقرير

أن اجتهاداتهم ومسائلهم المستنبطة ببحث علمي وجهد مشكورة ولكنها لا تصل إلى درجة النبوة ، فكما أننا نتبعها ونعمل بها إذا كانت صحيحة فكذلك يجوز لنا انتقادها في ضوء الكتاب والسنة ، وصرف النظر عنها أحيانا . وكما أن أبواب البحث والتحقيق كانت مفتوحة لهم فكذلك هي مفتوحة لاتباعهم وتلاميذهم حتى يتفكروا في نصوص الكتاب والسنة بضوء العلم والنظر ويعملوا بها بعد مراعاة مصالح العصر ، ومن الممكن أن يحصل الخلاف في الاتجاه وتظهر آثارهما متنافية فيما بينها ، فلا يشترط في البحث والتحقيق بعد العلم وإخلاص النية أن يراعى واحد العلوم والمبادئ المفروضة ، فإن هذه المصطلحات لم توجد في عصر الرسول ﷺ وكذلك وجدت هذه العلوم بعد عصر النبوة بقرون ، ولم يكن الأئمة المجتهدون أنفسهم قد حصلوا جميع هذه العلوم ودرسوها . نعم ! تهدف هذه الحركة إلى أن تمنع محاولة اصطلياد الأغرار بهذا الشرك المصطنع ، وتجعل العلم يسلم بالطريق العلمي لا بطريق الفتيا أو بضغط الأغلبية أو بفرض من الحكومة .

مثال آخر: القراءة خلف الإمام

ورد في القرآن العزيز : ﴿ فاقروا ما تيسر من القرآن ﴾^(١)

وهذه الآية من سورة المزمل ، وقد جاء فيها ذكر صلاة الليل فقال :
 فاقروا ما تيسر من القرآن في صلاة الليل (التهجد) . ويظهر من
 الأحاديث أن المراد مما تيسر من القرآن هو سورة الفاتحة ، فإن كلمة
 « ما تيسر » قد ورد في الحديث ، وقد جاء في طريق من طرقه أن المراد
 مما تيسر هو أم القرآن ، وهذا يكون توضيحا لما أجمل في طريق من
 طرق الحديث ، وهذا يقتضى أن قراءة سورة الفاتحة واجبة على
 المصلي سواء كان إماما أو مأموما أو منفردا^(١) .

أما فقهاء الحنفية رحمهم الله فيرون أن تحديد ما تيسر بسورة
 الفاتحة لا يستقيم ، فإن لفظ « القرآن » خاص لا يحتاج إلى البيان ،
 وعلى هذا فالفرض يكون قراءة أى جزء من القرآن ، وبيان الأحاديث
 لا يكون مقبولا معمولا به .

ولكن الفقهاء لم يستطيعوا أن يلتزموا بهذا الأصل ، واضطروا
 في تحديد كمية القراءة في قوله : « فاقروا ما تيسر من القرآن » إلى
 القياس . فقد حددوا به مقدار آية أو ثلاث آيات . ثم إن قوله :
 « فاقروا » يعم الإمام والمأموم ، والفقهاء قد استثنوا منه المأموم
 بحديث « من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة^(٢) » . مع أن هذا

(١) جزء القراءة للبيهقي ص ٣-٤

(٢) الدارقطني ١/ ١٥٤

الحديث ضعيف باتفاق الأئمة ، ولم يصح له طريق^(١) . ونحن نقول : إذا

(١) قلت : ليس هذا على إطلاقه بل صح للحديث طرق عديدة كما ذكر ذلك المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في كتابه «صفة صلاة النبي ﷺ» (ص ٩٥) قال هناك : رواه ابن أبي شيبة (١ / ٩٧ / ١) والدارقطني وابن ماجه والطحاوي وأحمد من طرق كثيرة مسندة ومرسلة وقواه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في الفروع لابن عبد الهادي (ق ٤٨ / ٢) ، وصح بعض طرقه البوصيري وقد تكلمت عليه بتفصيل وتبعت طرقه في «الأصل» ثم في إرواء الغليل رقم (٤٩٣) انتهى .

ومن ذلك يتبين خطأ من ذهب إلى تضعيف هذا الحديث ، ثم إن دعوى الإجماع على تضعيف الحديث باطلة ، وقد ذكرت آنفا بعض من صححه ، ثم أن الأمر حول قراءة المأموم للفاخرة ، قد كثر فيه القيل والقال قديما وحديثا ، ورأيت من تمام الفائدة أن أنقل ما قرره شيخنا المحدث محمد ناصر الدين الألباني في كتابه المذكور سابقا صفحة ٩٣ وما بعد :

قال : . . . وكان صلى الله عليه وآله وسلم قد أجاز للأوتمين أن يقرأوا بها وراء الإمام في الصلاة الجهرية ، حيث كان «في صلاة الفجر فقرأ ، فتعلمت عليه القراءة ، فلما فرغ قال : لعلمكم تقرأون خلف إمامكم ؟ قلنا : نعم هذا^(١) يا رسول الله ! قال : لا تفعلوا إلا [أن

(١) الهذ : سرعة القراءة ومداركهما في سرعة واستعجال .

.....

يقرأ أحدكم [بفاتحة الكتاب ، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها ^(١)] .
ثم نهـاهم عن القراءة كلها في الجهرية خلف الإمام ، وذلك
حينما د انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة (وفي رواية أنها صلاة
الصبح) فقال : « هل قرأ معي منكم أحد آتفا ؟ » فقال رجل : نعم ،
أنا يا رسول الله ، فقال : إني أقول : ما لي أنازع ^(٢)] قال
أبو هريرة [: فانهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم ، فيما جهر فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقراءة
حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [وقرأوا
في أنفسهم سرا فيما لا يجهر فيه الإمام ^(٣)] .

(١) رواه البخارى فى جزء القراءة وأبوداود وأحمد ، وحسنه الترمذى
والدارقطنى .

(٢) قال الخطابى : معناه أداخل فى القراءة وأغالب عليها ، وقد تكون
المنازعة بمعنى المشاركة والمناوذة .

(٣) رواه مالك والحميدى والبخارى فى جزئه وأبوداود والمحاملى
(١/١٢٩/٦) وحسنه الترمذى ، وصححه أبوحاتم الرازى وابن حبان
وابن القيم وله شاهد من حديث عمر وفى آخره « ما لي أنازع القرآن ؟ »
أما يكفى أحدكم قراءة لإمامه ؟ إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا قرأ
فأنصتوا ، رواه البيهقى فى كتاب « وجوب القراءة فى الصلاة » كما
فى الجامع الكبير (٣/٣٣٤/٢) .

.....

وجعل الانصات لقراءة الإمام من تمام الانتماء به فقال : وإنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فانصتوا^(١) ، كما جعل الاستماع له مغنيا عن القراءة وراءه فقال : « من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة^(٢) » .

وأما في السرية ، فقد أقرهم على القراءة فيها ، وإنما أنكر التشويش عليه بها ، وذلك حين « صلى الظهر بأصحابه فقال : أيكم قرأ » ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، فقال رجل : أنا [ولم أرد بها إلا الخير] ، فقال : قد عرفت أن رجلا خالجنيتها^(٣) ، وفي حديث آخر : كانوا يقرأون خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم [فيجهرون به] فقال : خلطتم على القرآن^(٤) ، وقال : « إن المصلي يناجي ربه فلينظر بما يناجيه به ، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن^(٥) » انتهى .

وفي تفسير ابن كثير رحمه الله عند قوله تبارك وتعالى : ﴿ وإذا =

(١) رواه ابن أبي شيبة (١/٩٧/١) ، وأبوداود ، ومسلم ، وأبو عوانة والرويانى فى مسنده (١/١١٩/٢٤)

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواه مسلم وأبو عوانة والسراج ، والخليج : الجذب والنزع .

(٤) رواه البخارى فى جزءه وأحمد والسراج بسند حسن .

(٥) رواه مالك والبخارى فى « أفعال العباد » بسند صحيح .

صح استثناء المأموم من حكم القراءة يصح كذلك تعيين سورة الفاتحة في قوله: « فاقروا الخ » أما تبين معنى القرآن بالحديث إذا كان مؤيدا للذهب، وترك هذا التبيين واعتباره منافيا لعظمة القرآن وحرمة إذا كان معارضا للذهب فطريق للفقهاء غير سليم.

ومثال آخر: الولاية في النكاح

قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ^(١) 〉 . والفاعل في قوله: « تنكح » ضمير المؤنث، وهو عبارة عن المرأة، ومعنى ذلك أن مسؤولية العقد الثاني - كفاعل - على المرأة، فإذا لم تنكح زوجا غير الأول لا تحل له بعد الطلقات الثلاث. وفقهاء الحنفية رحمهم الله ظنوه خاصا وفهموا منه الحصر فقالوا: إن المرأة حرة في أمر العقد ولا تحتاج إلى الولي، فإذا بلغت فلها أن تنكح من تريد، ولا يجبرها الولي. أما حديث « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، باطل، باطل ^(٢) » فإنه يوجب ضرورة

= قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴿ شرح واف للوضوح، فإيراجعه من شاء، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل. (الأستاذ علي شامي) .

(١) البقرة: ٢٣٠

(٢) سنن الترمذي ٢ / ١٧٥

الولى وليكن الفقهاء لم يقبلوه لأن الآية « حتى تنكح زوجا غيره » لا تحتاج إلى بيان الحديث .

ولاشك في أن عقد النكاح ينعقد ويتم بأربعة أشخاص : الناكح، والمنكوحه، والولى، والشاهدين . وليكن الحصر المذكور الذى فهمه الفقهاء فلا دليل عليه، لأن أحدا من هؤلاء الأربعة لا يغنى عن الآخر، وكل منهم يقوم بواجبه ويؤدى مسؤوليته، فلو بلغى قوله : « تنكح » أهمية الولى فلماذا لا يلغى ضرورة الناكح والشاهدين بحيث تكون المرأة كاملة الحرية والاختيار فى العقد ولا تحتاج إلى رضا الزوج ولا إلى الشاهد ؟

ثم إن القرآن قد نسب فعل النكاح إلى الرجال فى مواضع فقال :
﴿ فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع -
النساء : ٣ ﴾ .

﴿ ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء - النساء : ٢٢ ﴾ .
﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن - الأحزاب : ٤٩ ﴾ .
﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن - البقرة : ٢٢١ ﴾ .
﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن -
الممتحنة : ١٠ ﴾ .

﴿ وانكحوهن بإذن أهلن وآتوهن أجورهن - النساء : ٢٥ ﴾ .

ففي جميع هذه الآيات الناكحون هم الرجال ، وقد نسب إليهم الفعل ، فلوجوزنا الاستدلال بالفاعلية على الحصر لحصل التعارض في القرآن ، بأنه قد فوض الأمر مرة إلى المرأة ، وأخرى إلى الرجل . ولا بد في النكاح من الشاهدين لأنه من العقود ، وقد صرح بذلك في الحديث ، وحينئذ يجب أن تكون الآية ﴿ حتى تنكح زوجا غيره ﴾ لكونها خاصة معارضة لهذا الحديث أيضا كما جعلوها لحديث الولي ، وإلا فلا .

هذا ، وقد جعل الفقهاء المرأة البالغة حرة مخيرة بناء على هذه الآية ، ولكنهم من ناحية أخرى قد سلبوا التي لم تبلغ الحرية والاختيار كاملا ، فجعلوا ولاية الأب والجد إجبارية حتى حرموها من خيار البلوغ ، مع أن الآية لم تخصص البالغة من غيرها ولم تشترط أمرا من الأمور .

والحق أن الفقهاء قد راموا حماية أصل واحد من الأصول فابتعدوا عن الكتاب والسنة معا . ولو أعطيت المرأة خيار النكاح في الآية فبماذا صح استثناء التي لم تبلغ ؟ إنما لا نرى وجهها لهذا الترجيح . ويقول صاحب فصول الحواشي متناهرا برزانه وثقة : ونحن تركنا الخبر الواحد بمقابلة الخاص من الكتاب^(١) .

ولكن الفقهاء قد استفادوا من هذا الخبر الواحد في المرأة التي لم تبلغ ، وكذلك سلوا بقبول الرجل ، مع أنه لم يذكر في قوله تعالى «تنكح» وكذلك اعترفوا بضرورة الشاهدين مع أن الآية لم تذكرهما البتة . فكان الآية ما وردت — كما يظهر من صنيع الفقهاء — إلا لإلغاء ضرورة الولي فقط .

ولم يكن موقف الفقهاء هذا بحيث يرضى الشاه ولي الله ويطمئنه ، لأنهم قد عاملوا هذه المعاملة مع أصول الدين ، فكيف مع الفروع التي تفرعت عليها ؟

ومثال آخر : حرمة الرضاع

إن حكم القرآن في حرمة الرضاع قد ورد مطلقا في قوله تعالى : ﴿وَأُمَّهَاتِكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾^(١) . أما الحنفية والمالكية فيقولون : إن الحرمة تثبت بشرب قطرة من اللبن ، لأن القرآن لم يحدد كمية الرضاع ، فالحرمة ثابتة سواء شرب جرعة أو شرب سنتين ، أما أئمة الحديث والشافعية فيقولون : إن الحديث قد ورد بتحديد خمس رضعات ، فلو شرب أقل منها لا تثبت الحرمة ، وإلى هذا يبدو ميل الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله ، ولكن الحنفية يقولون : إن هذا خبر الواحد ، ولا يجوز به تخصيص القرآن ، فيصرف النظر عن هذا الحديث ويقال

(١) النساء : ٢٣

بثبوت الحرمة بالقليل والكثير في الرضاعة .

مع أن الأمر ليس كما ظنوا فإنه ليس ههنا تخصيص القرآن بالحديث ، بل هو تقييد ما ورد مطلقا من القرآن بالحديث . فإن القرآن قد أطلق حرمة الإرضاع والحديث قيد هذا الإرضاع بخمس رضعات .

أما الاعتذار بكون خبر الواحد ظنيا فليس بناجح مقبول ، فإن فقهاء الحنفية أنفسهم خصصوا القرآن بالخبر الواحد في عدة مواضع وقد استدل على فرضية الجمعة بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ^(١) ﴾ ثم استثنى منها العبد والمسافر والمرأة وغيرها بخبر الواحد ، ولاستثناء المكروهات من الجمعة لم يظفروا بحديث مرفوع فركنوا إلى أثر على رضى الله عنه ، وخصصوا به القرآن الكريم .

وكان الشاه ولي الله يفهم أن مثل هذه الأصول وضعت ومعها ما يبطلها ، فلا يمكن أن تكون أساسا للدين ومدارا للفقهاء والاجتهاد . على أن الفقهاء وأئمة الأصول لم يفوا بما أدعوه من احترام القرآن . ومن المعلوم أن الآية لم تذكر لإلحاح حرمة الأم من الرضاع ، ولم يرد في النص القرآني ذكر أى قرابة أخرى ، ولكن ورد في

(١) الجمعة : ٩

سنن الترمذى عن على رضى الله عنه مرفوعا : « إن الله حرم من الرضاع ما حرم من النسب ^(١) » .

فالحديث هنا قد وضح معنى الآية ووسع في التوضيح ، وهذه الزيادة مبنية على خبر الواحد ، وكذلك لم تذكر الآية شيئا عن مدة الرضاع ، ولكن جمهور الأئمة قرروا أن المعتبر المؤثر في الحرمة من الرضاع ما يكون غذاء للطفل ، ففي حديث أم سلمة رضى الله عنها : « لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء وكان قبل الفطام . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ^(٢) » .

والتصريح بأن الرضاع لا يؤثر بعد سنتين لم يرد في القرآن بل ورد في السنة ، والقاعدة التي وضعها الفقهاء بخصوص تعيين الرضعات قد انتهكوها في مدة الرضاع وحرمة سائر القرابات الرضاعية . ومهما تكن الظروف صعبة والموقف محرجا لا يمكن أن يطمئن الشاه ولي الله إلى مثل هذه الأصول ويرضاها .

ومن المعروف أن أهل الحديث أيضا يدرسون هذه العلوم ، ولكنهم لا يرون أصلا من الأصول جديرا بالقبول بإزاء السنة ، وإذا صرح القرآن أو السنة أمرا من الأمور فلم يبق هناك سبيل للالتفات

(١) سنن الترمذى ٢ / ١٩٧

(٢) تحفة الأحوذى ٢ / ٢٠١

إلى أصل من الأصول . أو قبوله بإزاء هذا التصريح .
 أما أصول الفقه فدراستها على مستوى ذهن الطالب يمكن أن
 تسبغ عليها نوعاً من جودة البيان والمنطق ، وتبدو مأخذها قوية
 لا تقبل الرد والاعتراض . ولكن النظرة العميقة تكشف أنها ليست
 بهذه المثابة ولا تنصف بالصحة والقوة اللتين تنسبان لها ، وبناء على
 ذلك قد رفضها الشاه ولي الله بصراحة وجراءة ، وأعلن بأنه يعجبه طريق
 الفقهاء المحدثين ، ثم أوصى تلاميذه وأصحابه باختيار هذا الطريق .

منهج المحدثين نحو القياس :

والفرق بين المحدثين وبين الفقهاء العراق أن المحدثين لم يكونوا
 يرون الحاجة ماسة إلى القياس ، ما دامت هناك نصوص خاصة بالموضوع ،
 ولو كانت أصول الاجتهاد والاستنباط تقتضى خلاف ذلك . أما فقهاء
 العراق فكانوا يرون أن هذه الأصول لا يجوز أن نصرف عنها النظر ،
 فاتخاذ الخل من الخمر حلال ، واستعماله جائز ، لأن حكم الشيء يتغير
 بتغير صورته ، ولكن المحدثين يرون أن اتخاذ الخل من الخمر لا يجوز ،
 ولو اتخذ أحد تبقى حرمة كما كانت ، ولا يجوز استعماله ، لأن الحديث
 قد صرح بمنع اتخاذ الخل من الخمر .

والمال المسروق إذا تغيرت صورته مثل الحبوب إذا دقت ،
 والأنعام إذا ذبحت وتحولت إلى لحم ، فالفقهاء يرون أن هذا التصرف

من السارق يكون مثل تصرف المالك في ماله .

أما المحدثون فلا يسلهون للسارق حقوق الملكية مع هذه التغييرات الظاهرة في المال المسروق ، ولا يبيحون له التصرف فيه . إنهم يقولون :
حقا قد ظرأ التغير على المال ، ولكن السارق ما زال سارقا ، ومادام وصف الموضوع معلوما ثابتا لا يمكن أن نجعل السارق مالكا بناء على التأويل والمصالح . والغرض من قوله تعالى : ﴿ السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ^(١) ﴾ أن السارق مادام سارقا يبقى المال مسروقا ، فكما أن بيعه وشرائه كان محرما في صورته الأصلية ، فكذلك يكون بعد حدوث التغير فيه إذا علم كونه مسروقا .

وإني لا أقصد أن فقهاء العراق لا يوجد لديهم دليل يؤيد مذهبهم ، فإنهم قد أكثروا من الاستدلال لتصحيح هذه المسائل وأثبتوا عمقهم في الفكر والنظر ، ولكن المحدثين لم يطمئنوا إلى هذا التدقيق الفقهي لأن وجهة أنظارهم مختلفة تماما ، إنهم يرون هذه المسائل مخالفة لظاهر السنة ، ويعبرون عن هذا التدقيق بـ «الرأى» وأدلة أهل الرأى لم تطمئن عليها قلوبهم بإزاء الحديث . والفقهاء قد صرفوا أنظارهم عن الحديث محافظة على أصولهم ، ولكن العجب أنهم قبلوا منه الضعيف والموقوف إذا احتاجوا إليه .

(١) المائدة : ٣٨

أصول فقه الحديث:

قد ذكر الشاه ولي الله رحمه الله تعالى من الأصول الأساسية لفقه أئمة الحديث ما يأتي:

- ١ - إذا وجد في المسألة قرآن ناطق فلا يجوز التحول منه إلى غيره .
- ٢ - وإذا كان القرآن محتملا لوجوه فالسنة قاضية عليه ، والمعنى الصحيح هو الذي تؤيده السنة .

- ٣ - فإذا لم يجدوا في كتاب الله أخذوا^(١) سنة رسول الله ﷺ سواء كان مستفيضاً دائراً بين الفقهاء أو يكون مختصاً بأهل بلد أو أهل بيت أو بطريق خاصة وسواء عمل به الصحابة والفقهاء أو لم يعملوا به .

(١) قلت: يشعر كلامه هذا الفصل بين الكتاب العزيز والسنة المطهرة في مجال البحث والاستنباط، وليس هذا مذهب أهل الحديث والسلف الصالح رضي الله عنهم، بل مذهبهم في ذلك عدم التفريق بين الكتاب والسنة في الاستنباط والحجية، فهم يعودون إليهما كليهما في كل مسألة ولا يستغنون بأحدهما عن الآخر لأن السنة قاضية على القرآن مقيدة لإطلاقه، مفصلة لمجمله كما هو معروف، وذهاب المؤلف رحمه الله وغيره إلى هذا الرأي اعتماداً منهم على حديث معاذ الذي ذكره في الصفحة ١٥٤ من نفس الكتاب وصححه تبعاً لغيره من صحيح الحديث .

.....

وهذا مستند واه ، فحديث معاذ لا يصح ، أفاد ذلك شيخنا المحدث محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الضعيفة والموضوعة رقم (٨٨٥) . قال : حديث معاذ هذا إسناذه ضعيف ، رواه ابن سعد والخطيب والعقيلي والطبرسي وأحمد وأبو داود والترمذي والبيهقي وغيرهم ، وكلامهم رَوَوْه عن شعبة عن أبي عون عن الحارث ابن عمرو ابن أخي المغيرة بن شعبة ، عن أصحاب معاذ عن معاذ . وقد ضعفه البخاري فقال : لا يصح ، ولا يعرف إلا بهذا مرسل . وكذلك ضعفه الترمذي فقال : لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس لإسناده عندي بمتصل ، وضعفه الذهبي لجهالة أبي عون ، وكذلك جزم الحافظ ابن حجر بجهالة الحارث ، كما ضعف الحديث الحافظ العراقي لثلاث علل : الإرسال ، وجهالة أصحاب معاذ ، وجهالة الحارث . وقال ابن حزم : هذا حديث باطل ساقط وإنه لم يأت قط من غير طريق الحارث ، وهو وشيوخه مجهولون . كما ضعف الحديث عبد الحق الاشبيلي وابن الجوزي وابن طاهر الذي بحث عنه طويلا ، فوجد أن له طريقا آخر عند ابن ماجه ولكن فيها كذابا وضاعا هو محمد بن سعيد المصابوب الذي وضع أربعة آلاف حديث ، فقتله المنصور وصابه والظاهر أن هذا اشتبهه على ابن القيم رحمه الله بمحمد بن سعيد بن حسان الحمصي ، وليس هو لاختلاف طبقتيهما واختلاف الرواة عنهما ثم إن الحمصي هذا مجهول ، كما ضعف الحديث البوصيري في زوائده ، وقد رواه ابن عساكر من طريق فيها وضاع وكذاب أيضا . =

٤ - ومتى كان في المسألة حديث فلا يتبع فيها خلاف أثر من الآثار، ولا اجتهاد أحد من المجتهدين .

٥ - وإذا فرغوا جهدهم في تتبع الأحاديث ولم يجدوا في المسألة حديثاً أخذوا بأقوال جماعة من الصحابة والتابعين ، ولا يتقيدون بقوم دون قوم ، ولا بلد دون بلد ، كما كان يفعل من قبلهم .

= وأما قول ابن القيم : إن جهالة أصحاب معاذ لا تضر ، فالجواب على ذلك : إن هذا صحيح لو كان سبب الضعف محصور بهذه الجهالة ، أما وهناك علتان أخريان ، فالحديث ضعيف على كل حال ، وهاتان العلتان لم يتعرض ابن القيم لهما فكأنه ذهل عنهما . وقد ظهر بعد البحث أن ابن القيم رحمه الله تبع في ذلك الخطيب البغدادي فوهما . انتهى ملخصاً .

وضعف الحديث أيضاً صاحب تحفة الأحوذى (٢ / ٢٧٦)
فليراجع من شاء .

وبهذا يتبين خطأ من يرى الفصل بين الكتاب والسنة في القضاء أو البحث أو الاستنباط ، وكان من هدى السلف رحمه الله عدم التفريق أو الفصل بينهما ، بل الرجوع إليهما كليهما لفهم المراد .

وأحب لمن أراد زيادة الاطلاع حول الموضوع هذا ، أن يراجع الرسالة الثالثة والرابعة والسادسة من رسائل الدعوة السلفية الصادرة بدمشق . (الأستاذ علي شامي) .

- ٦ - فإِنْ اتَّفَقَ جُهورُ الخلفاء والفقهاء على شيء فهو المقنع .
- ٧ - وإن اختلفوا أخذوا بحديث أهلهم علماً وأورعهم ورعاً أو أكثرهم ضبطاً أو ما اشتهر عنهم .
- ٨ - فإِنْ وجدوا شيئاً يستوى فيه قولان فهي مسألة ذات قولين (أى يعمل بأيهما شاء بدون ضيق و حرج) .
- ٩ - فإِنْ عجزوا عن ذلك أيضاً تأملوا في عمومات الكتاب والسنة وإيماءاتهم واقتضاءاتهم ، وحملوا نظير المسألة عليها في الجواب إذا كانتا متقاربتين بادية الرأي لايتمدون في ذلك على قواعد من الأصول ، ولكن على ما يخلص إلى الفهم ويثليج به الصدر ، كما أنه ليس ميزان التواتر عدد الرواة ولا حالهم ، ولكن اليقين الذي يعقبه في قلوب الناس .

وكانت هذه الأصول مستخرجة من صنيع الأوائل وتصريحاتهم^(١).

حركة أهل الحديث حينذاك :

لم يوجد في القرون الأربعة الأولى التقليد الشخصي أو الجمود إلا قليلاً ، بل لم يكن هناك تقليد في القرن الأول البتة ، وفي نهايته قد ظهر الإمام أبو حنيفة والإمام مالك رحمهما الله تعالى ، ثم بدأت مذاهب الأئمة تنتشر شيئاً فشيئاً . وكان الذي يهم علماء أهل الحديث في ذلك

(١) حجة الله البالغة ١ / ١٤٩

الوقت هو أن يتبع الناس القرآن والسنة. فإن تعمس عليهم فهمهم رجعوا إلى طريقة الصحابة والتابعين بدون جمود وتقليد وخروج ومخالفة، بل بحيث تبقى السعة في فتاوى الصحابة نظرا إلى مصالح العصر، ولا يظن أن فتاوى العلماء حلت محل القرآن والسنة.

عن الحسن بن بشر عن معاذ عن الأوزاعي قال: كتب عمر بن عبد العزيز أنه لا رأى لأحد في كتاب الله، وإنما رأى الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ، ولا رأى لأحد في سنة منها رسول الله ﷺ^(١).

ولم إليكم أثرا آخر: «إن عمر بن عبد العزيز خطب فقال: يا أيها الناس! إن الله لم يبعث بعد نبيكم نبيا، ولم ينزل بعد هذا الكتاب الذي أنزله عليه كتابا، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة، ألا وإنني لست بقاض، ولمكني منفذ، ولست بمبتدع، ولمكني متبع، ولست بخير منكم، غير أني أثقلكم حملا، ألا وإنه ليس لأحد من خلق الله أن يطاع في معصية الله، ألا هل أسمعتم^(٢)».

وهذه الآثار تدل على حالة ذلك الوقت الفكرية، وعلى الأخطار

(١) منن الدارمي ص ٦٢

(٢) نفس المصدر.

التي كانت تحرق بأفكار العلماء ، لأنهم كانوا يحاولون مع اعتمادهم على اتباع السلف ، الابتعاد عن التقيد الجامد وعن الفوضى ، ويحاولون الاجتناب عن البدع مع رفضهم أن يفرضوا على الناس أمرا مستنديا إلى السلطة الحاصلة لهم في الحكم . لأنهم معنيون بأن لا تنتشر في الناس البدعة والفوضى ، ولا يستند لنشر الحق إلى الإكراه بل إلى الوازع النفسي والإخلاص لله .

ولنتفكر في الأبواب البدائية التي عقدها الإمام الدارمي في سنته:

« باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة » .

« باب اجتناب الأهواء » .

« باب فضل العلم والعلماء » .

« باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله » .

ويظهر من جميع هذه الأبواب ومن صنيع أهل العلم المتقدمين

أنهم يرون اتباع طريقة أئمة السلف واجبا بعد الكتاب والسنة ،

ويهدفون إلى تحرير العقول من الآراء والأفكار الشخصية ومن

التقليد الجامد ، ولسكنهم في نفس الوقت لا يرضون بأن تتسرب فوضى

المبتدعين إلى العقول .

وعلماء أهل الحديث في ذلك الوقت كان يهتمهم حفظ وجمع

الأحاديث النبوية والتفقه فيها واستنباط المسائل منها والاجتناب

الكامل عن بدع الأعمال والعقيدة .

وقد سئل الشاه عبد العزيز الدهلوى (م - ١٢٣٩ هـ) رحمه الله عن مذهب أئمة الحديث فقال : « إن أئمة الحديث لا يتقيدون بمذهب من مذاهب المجتهدين ، بل لأنهم يستفيدون من الفقهاء ومن المصادر العلمية الأخرى على السواء^(١) » .

وتصریح الشاه عبد العزيز هذا يدل بوضوح على أن هذه مدرسة مستقلة ليس فيها تقليد ولا جمود .

فتنة الاعتزال :

إن أهل العجم حينما تأثروا بالمسلمين غلبت عليهم بساطة الإسلام من ناحية ، ولكنهم قد أثروا في الإسلام من ناحية أخرى . إن العلوم اليونانية والنظريات الفلسفية قد تعارضت واصطدمت مع بعض العقائد الأساسية للإسلام : ما هي حقيقة صفات الله ؟ ما هي نوعية عدل الله ؟ الصفات عين الذات أو غيرها ؟ ما هي صورة الاتصال بين الحادث والقديم ؟ وهكذا عشرات من الأسئلة قد ظهرت أمام الأذهان .

ومن هنا بدأت تظهر البدع العقدية ، وقام علماء أهل السنة متسلحين بالأسلحة اليونانية للإجابة عن هذه الأسئلة ولحل هذه المشاكل ، وقد أوقع انتشار البدع العلماء في الحيرة ، وفي مثل هذه

(١) الفتاوى العزیزية ٢ / ١١٧

الظروف قد وقف الإمام أحمد بن حنبل والعلامة عبد العزيز الكيناني وغيرهما مواقف جريئة ثابتة، وكان من الخلفاء العباسيين المأمون والواثق بالله والمعتصم بالله قد تأثروا بهذه النظريات فوقع أئمة الحديث في محن شديدة متتالية.

وقد بقي هذا الاتجاه إلى القرن الثامن الهجري، واستمرت معارضة أئمة الحديث للفلسفة اليونانية ونجحوا في هذه المعارضة. ويحسن لمعرفة الطائفية والتفرق في ذلك العصر الرجوع إلى كتاب «الفصل» لابن حزم (م - ٤٥٦ هـ)، و«الملل والنحل» للشهرستاني (م - ٥٤٨ هـ)، و«الفرق بين الفرق» لأبي طاهر عبد القادر البغدادي (م - ٤٢٩ هـ) و«المواعظ والاعتبار» للقريزي (م - ٨٤٥ هـ) من صفحة (١٤١ إلى ١٨٦).

والقرن الثامن يرينا مدى انتشار الفرق البدعية ونفاق سوقها في الإسلام، ولكن علماء أهل السنة قد هزموا الفلسفة اليونانية هزيمة تكراة وأبطلوا نظرياتها، والمحدثون قد أوضحوا بلغة الفلاسفة وأساليبهم أنهم على خطأ، وعليهم بذات الله وصفاته تنقصه الصحة والعمق، والذي يوردونه على العقائد الإسلامية من الإيراد والاعتراض ليس إلا تلبيسا وتسويلا من أنفسهم.

المتكلمون :

وفي هذه الحرب الطويلة الشاقة للعقائد قد تأثر بعض الناس بالفلاسفة مع المعارضة ، فأولوا بعض النصوص ، وحاولوا بعضها على المعاني التي كانت معارضة لمذهب التفويض ومختلفة عنه ، ولكن أئمة السلف والأئمة الأربعة قد اختاروا مذهب تفويض الكيفية . والحنفية قد اتبعوا في العقائد الإمام أبا منصور محمد بن محمد الماتريدي ، والشافعية قد مالوا إلى الأشعرية . أما أئمة الحديث والحنابلة فقد بقوا على مذهبهم القديم ولم يصرفوا أنظارهم عن طريقة الإمام أحمد وسائر المحدثين ، إنهم حافظوا على بساطة مذهب تفويض الكيفية ، واتفقوا في العقائد مع الأئمة الأربعة .

الطرق الثلاثة للتقليد :

ومن المصادفة^(١) العجيبة أن العلماء وأهل النظر قرب القرن الرابع قد اختاروا تقليد الأئمة الأربعة مجتنبين التافيق واتباع الهوى في الفروع ، وقرروا سد باب الاجتهاد . وهكذا قد قضوا بالتقليد الشخصي والجمود الفكري على السعة التي ألغناها في عصر الصحابة والتابعين ، وأكرهوا الناس على اختيار تقليد أحد من الأئمة

(١) قلت : حبذا لو استعمل عبارة أخرى بدل المصادفة ، لأنها مستمسك الملاحدة وأهل المصادفة (الأستاذ علي شامي) .

الأربعة ، وقالوا: إن ذلك ليس بواجب شرعا ولكن الضرورة تقضى
بوجوبه الآن .

ثم لا نمضى طويلا إلا نرى أن الماتريدى والأشعرى قد احتلا
في خلاف العقائد محل الإمام أبي حنيفة ومالك والشافعى في الفروع،
وصارا إمامين في العقائد ، ومعنى ذلك أنه كان هناك لكل فرد من
أفراد الأمة إمامان ، واحد في العقائد ، وآخر في الفروع .

وهكذا حينما وجدت الطبقة سبيلها إلى التصوف ، وتسربت البدع
إلى الزهد والورع والإحسان في الإسلام ، وتحول نظام الزوايا
والمعابد إلى الحرفة والتجارة اختار المتصوفون في ذلك الوقت أئمة
وفرقا . وهكذا قد صار كل حنفي ومالكي وشافعى وحنبل نقشبنديا
أو قادريا أو سهرورديا أو جشتيا في التصوف . كأن أتباع الأئمة
قد اختاروا أئمة عديدة في جهات ثلاث ، فأنحصرت إمامة الإمام
أبي حنيفة وأصحابه في الفروع ولم يرض الناس بهم أئمة في التصوف
والعقائد . وفي بلادنا الطائفة البريلوية من الأحناف ينتسبون للقادرية
مع أن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كان حنبليا في الفروع . والشاه
ولى الله قد ذكر عشر فرق في التصوف .

طريقة أهل الحديث :

أما أهل الحديث فلم تختلف طريقته في هذه المراحل كلها ، بل كانوا يتبعون الصحابة في الفروع والعقائد والتصوف ، ويحاربون بدع المتصوفين ، ويكرهون التقليد الجامد في الفروع ، والإلحاد في العقائد ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء :

أهل الحديث هم أهل النبي وإن

لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا

وهكذا كانت حال الحنابلة ، فإنهم لم يتأثروا بالأشعرية والماتريدية إلا قليلا . وأهل الحديث لم يعتمدوا على فرد في فهم الكتاب والسنة ، بل نظروا إلى الصحابة وأئمة السلف واتخذوهم أئمة مقتدين ، وكذلك تمسكوا بهم في الفروع والعقائد والإحسان والتصوف ، لأنهم لم يستبدلوا الآراء الشخصية بالصحابة والسلف ، وكان هذا هو الحل الصحيح في أيام الفتنة والطريق الوسط بين الجود والفوضى ، وبين التجرد والتقييد ، فعمل به أئمة الحديث وقاوموا كل ما يعارضه وينافيه .

وجهود شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (م - ٧٢٨ هـ) بهذا الصدد لا تزال تذكر في صفحات التاريخ ، إنه قضى على الاعتزال والتهجم من ناحية ، ومن ناحية أخرى قبل تحدى الوثوب في النار من الفرقة الرفاعية فأتى على بدع التصوف من القواعد ، وحسبه

قدوة ، اللهم ارحمه رحمة واسعة .

وهذا النضال الجريء قد جاء في وقت كان فيه معظم أصحاب التقليد والجمود قد ابتلوا بالبدع ، بل لأنهم قد عارضوا جهود الإصلاح في كل مرحلة وأخرى ، وما أحسن ما قال شيخ الإسلام بهذا الصدد : « أهل الحديث في الفرق كالأسلام في المال^(١) » .

ومؤلفات الشيخ مثل « منهاج السنة » ، و« كتاب العقل والنقل » ، و« رد المنطق » ، تنضمن معلومات نافعة في هذا الموضوع . وكتابه « رد المنطق » يفوق كتابه « الرد على المنطقيين » فهو في هذه الرسالة الموجزة قد توسع في ترجيح مذهب أهل الحديث وتأييده توسعا لم نجده في مؤلفاته الأخرى ، وهذا الكتاب يدل على تنور فكره وسعة عقله .
انهزام الفلسفة اليونانية وتراجعها :

إن شيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه ما عارضوا الفلسفة اليونانية فحسب ، بل هاجموا مهاجمة قوية بحيث فقدت هذه الفلسفة قيمتها العلمية أمام العلماء والعامة : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب^(٢) » . لأنهم قضوا على الأغلال العقدية والمنازعات التقليدية وفرق المعتزلة والجهمية ، ولم يبق لها ذكر إلا في كتب الجدل والمناظرة ، وهذا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/١٤٠

(٢) سورة ص : ١١

أثر مهم خالد في آثار الشيخ التجديدية ، وخدمة عظيمة من خدمات
أئمة الحديث الإصلاحية . اللهم تقبل منهم كما تقبل من عبادك الصالحين .

ونرى أن جهود شيخ الإسلام وأصحابه في الرد على الهجوم
الفلسفي اليوناني قد نجحت تماما ، ولكنهم لم ينجحوا في جهودهم ضد
التقليد الجامد كما اقتضت الظروف والأحوال بل ازداد هذا الجود
الفقهى يوما بعد يوم ، وصارت الطوائف الأربعة — بعد اتفاقها على
صحة الأئمة الأربعة — تتناحر فيما بينها ، وظنت كل طائفة منها أن الحق
دائر فيها ولا يعدو إلى غيرها ، وصحة مذاهب الأئمة الآخرين ليست
إلا نوعا من الظن . يقول العلامة علاء الدين الحصكفي في الدر المختار
نقلا عن الأشباه والنظائر : « وفيها إذا سألنا عن مذهبنا ومذهب
مخالفنا قلنا وجوبا : مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب مخالفنا خطأ
يحتمل الصواب . وإذا سألنا عن معتقدنا ومعتقد خصومنا قلنا وجوبا :
الحق ما نحن عليه ، والباطل ما عليه خصومنا^(١) . مع أن الاستدلال
في العقائد لم يكن إلا نوعا من خداع الزيف والتأويل .

وهذا الاتجاه في التفكير لا يستحسن وخاصة بعد الإيمان بأن

الأئمة الأربعة على الحق ، ومن المعلوم عن الأئمة المجتهدين أنهم ليسوا رسلا معصومين ، بل إن جهودهم متصفة بالإخلاص ، فلامعنى للجمود وضيق النظر اللذين نراهما في الأتباع ، ولكن التقاليد هو الذى يبعث على ذلك ، إن الغلو فى حب شخصية يستلزم التفريط فى حق غيرها ، فتقلب محاسنه إلى المعائب فى عيون الآخرين ، وهذا هو الأثر السيئ من آثار التقليد والجمود ، ومن العسير أن يتجنب المقلد عن التعصب وإساءة الأدب ، والغريب أن مثل هؤلاء المقلدين يسيئون الأدب ولكنهم يتهمون الآخرين بذلك .

موقف غريب نحو الإمام الشافعى :

ونظرا إلى ذكاء الإمام الشافعى ومكانته العلمية الرفيعة قد حاول بعض الحنفية أن يجعله تلميذا لدرسة الحنفية وهذا لاضير فيه . فإن العلم أمانة تؤخذ حيثما توجد . ولاشك فى أن الإمام الشافعى قد تلقى العلم لدى كبار العلماء فى عصره ، وأخذ الحديث والفقہ من الأساتذة البارعين ، يقول العلامة علاء الدين الحصكفى : « ومن تلامذته (أى الإمام محمد) الشافعى رضى الله عنه ، وتزوج بأمة الشافعى وفوض إليه كتبه وماله ، فبسببه صار الشافعى فقيها^(١) » .

ولكنه كان دائما يعارض فقه الإمام محمد .

(١) الدر المختار على هامش رد المختار ٥٢/١

ثم ينقل الحصكفي اعتراف الإمام الشافعي : « والله ما صرت فقيها إلا بكتب محمد بن الحسن ^(١) » .

وقد ذكر الإمام الذهبي أيضا « وكتب عن محمد بن الحسن الفقيه وقر بخطه ^(٢) » .

واستفادة الإمام الشافعي من الإمام محمد ليس أمرا معيبا ، فإن الإمام محمدا من كبار أئمة السنة ، وقد ذكر عن المحدثين أنهم كانوا يتصفون بسعة النظر بالنسبة للعلم ، حتى كانوا يأخذون العلم عن المبتدعين بعد النقد والتفحص ، ولا يرون في ذلك عيبا ، وفي كتب الحديث المعتمدة توجد الأحاديث التي رويت عنهم مع أن المحدثين لم يسكنوا يرضون بحالتهم الدينية ، وعلى هذا فالتلذذ للإمام محمد يعد من محاسن أئمة السنة .

وقد كان الإمام الشافعي تلميذا أسكت بمواهبه الجدلية أستاذه الإمام محمدا مرات عديدة ، ويعتبر كلام الإمام الشافعي عن حججة أخبار الآحاد ، والقضاء بالشاهد واليمين ، وعدم الوصية للوارث في غاية الاقتناع والاستدلال ^(٣) .

(١) المصدر السابق

(٢) تذكرة الحفاظ ١ / ٣٦٢

(٣) انظر للتفصيل حجة الله البالغة ١ / ٣٠٩

ولابأس لدى العلماء في ممارسة التعليم والتعلم والبحث والمناقشة ،
فالتبادل العلمي بين الإمام محمد والإمام الشافعي ليس نقصا ولا عيبا ،
بل هو أمانة الفضل والكمال ، ومثل هذا التلميذ جدير بأن يفتخر به
الاستاذ أيا كان .

محاولة النيل من الإمام الشافعي :

إن الحنفية يفتخرون بتلمذة الإمام الشافعي لدى الإمام محمد من
ناحية ، ومن ناحية أخرى ينقمون منه ويسخطون عليه بسبب أنه
انتقد فقهاء العراق ، انهم يوردون عليه إيرادات شتى ويرمونه بالجهل ،
ففي الكتب الحنفية مثل أصول البزدوى وشرحه كشف الأسرار وفي
أصول الشاشي وغيرها من الكتب نرى أن مؤلفيها يعتبرون مساعي
الإمام الشافعي الاجتهادية والفقهية غير مجدية ويرمونه بالجهل ، والفرق
أن البعض صرح باسم الإمام الشافعي والبعض الآخر ذكر المسائل
ورماها بالجهل .

« وكذلك جهل من خالف في اجتهاده الكتاب والسنة من علماء
الشريعة وأئمة الفقه أو عمل بالغريب من السنة على خلاف الكتاب
والسنة المشهورة فردود باطل ليس بعذر أصلا ، مثل الفتوى ببيع
أمهات الأولاد ، ومثل القول في القصاص في القسامة ، ومثل استباحة
متروك التسمية عمدا والقضاء بالشاهد واليمين » .

١ - وتفصيل ذلك أن الإمام داود الظاهري يرى أنه يجوز بيع أم الولد أي الجارية التي تلد من مولاها ، والجمهور يرون أن بيع هذه الجارية بعد موت سيدها لا يجوز، ولكن الإمام داود الظاهري يرى بناء على بعض الأحاديث ذلك جائزا ، فهذا من جهله ، عند هؤلاء !

٢ - وإذا وجد قتيل في قرية ولم يعلم قاتله فيقول الأئمة مالك وأحمد بن حنبل والشافعي : إن القاضي إذا علم عداء سابقا أو مشاجرة بين القتيل وبين أهل القرية فإنه يستحلف ولي القتيل خمسين حلفا ثم يعين القاتل ويأمر بالافتصاص منه . ولكن الحنفية وأئمة الأصول يقولون : إن هذا من جهالة الأئمة المذكورين (إنا لله وإنا إليه راجعون) .

٣ - ويرى الإمام الشافعي أن المسلم إذا ذبح ذبيحة ولم يسم الله عليه متعمدا يحل أكلها ، وإن لم يحز هذا الفعل . والحنفية يرمون رأي الشافعي هذا أيضا بالجهل .

٤ - وكذلك يرى الإمام الشافعي أن المدعى إذا لم يتمكن من إحضار الشاهدين ، فعليه أن يحلف هو ويحضر شاهدا واحدا ، والقاضي بعد ذلك يقضى له ولكن الحنفية يرون ذلك أيضا من جهله .

إن الخلاف في المسائل يمكن وطبيعى ، وللأئمة المجتهدين أن يفتوا وفق اجتهادهم وتحققهم العلمى ، وكذلك لا يتبع أن يعملوا وفق مذهب إمامهم ، ولكن الرى بالجهل والطعن على عالم من علماء الدين ينافيان مكانة العلماء وتمجها الأسماع ، إن المسلم لا يلبق به أن يتكلم فى أخيه المسلم بهذه اللهجة النابية ، فضلا عن الأئمة المجتهدين ، والغريب أن الذين يعملون هذا يرمون السلفيين بإساءة الأدب إلى أئمة الدين والتفريط فى شأنهم ! أليس ذلك من تتأج وآثار الجود التقليدى والغلو فيه ؟

وقد ذكر العلامة الشيخ عبد العزيز (م - ١٤٨١ هـ) فى كشف الأسرار أثناء شرحه لآتن أسماء الأئمة الذين رعى العلامة البزدوى اجتهادهم بالجهل . ولكنه لم يقل شيئا عن لهجة العلامة البزدوى الحادة النابية .

وقد نقل محمد بن محمد الأخسيكى فى الحسامى بإيجاز عبارة أصول البزدوى وكذلك ذكر نفس الأمثلة التى سردها البزدوى . والله يرحم هؤلاء العظام ، فإنهم قدموا لنا نموذجا مرا كريها لعصر الجود منشئوه الغلو فى محبة بعض الأئمة الكرام .

وقد أبدى شارح الحسامى الأستاذ عبد الحق الحقانى ، رحمه الله ، فى كتاب النامى إنكاره لهذا الأسلوب وهذه اللهجة بكلمات وجيزة

فقال: «وكل واحد يجهل الآخر فيما خالفه ويقول إنه يخالف للسنة^(١)». وقد ذكر صاحب المنار في المتن أمهات الأولاد فقط، ولكن الشارح الملاحيون قد فصل الكلام في الأمثلة وسمى الإمام داود الظاهري صريحاً ثم قال في النهاية: «وقد نقلنا كل هذا على نحو ما قال أسلافنا وإن كنا لم نجترأ عليه^(٢)».

ومعنى ذلك أنه أغلظ الكلام متبعاً سلفه ولم يكن ارتضاه لنفسه. وهذا الاعتذار والتبرؤ من الذنب يبدو أسوأ من الذنب نفسه. والباعث على ذلك كله هو الجود والعصبية، فإن الإمام الشافعي وأتباعه لم يبلغوا قط من الجهل والإهمال بحيث يفتوا بخلاف الكتاب والسنة، في حين أننا نعلم أن أنظار أئمة الشافعية كانت أوسع وأعمق بالنسبة للكتاب والسنة من أنظار فقهاء الحنفية المتأخرين وأئمة الأصول، وعدد علماء الحديث في الشافعية كبير جداً، ولكن الجود والتقليد هما قد يحملان على ما ذكرنا، والإنسان حينما يفرط في المحبة فيغلظ الكلام ويسئ الأدب إلى من يخالفه.

وقد حارب هذا الجود علماء أهل الحديث في ذلك العصر وأبلوا في ذلك بلاء حسناً، ويمكن لنا أن نعرف هذا الجود وآثاره الضارة

(١) النامي ص ١٢٠

(٢) نور الأنوار ص ٢٩٨

وتناجيه السيئة من كتب الحافظ ابن القيم رحمه الله^(١).

وتلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية وأقرب العلماء إليه الحافظ الذهبي (م - ٧٤٨ هـ) يذكر البدع المذكورة ويصور موجة الاحاد العقديّة في العصر العباسي فيقول: «وفي هذا الزمان ظهر بالبصرة عمرو بن عبيد العابد وواصل بن عطاء الغزال، ودعوا الناس إلى الاعتزال والقول بالقدر، وظهر بخراسان الجهم بن صفوان، ودعا إلى تعطيل الرب عز وجل، وخلق القرآن، وظهر بخراسان في قبالة مقاتل بن سليمان المفسر، وبالعراق في إثبات الصفات حتى جسم، وقام على هؤلاء علماء التابعين وأئمة السلف، وحذروا من بدعهم، وشرع الكبار في تدوين السنن، وتأليف الفروع، وتصنيف العربية، ثم كبر ذلك في أيام الرشيد. وكثرت التصانيف، وألفوا في اللغات، وأخذ حفظ العلماء ينقص، ودونت الكتب، واتكوا عليها، وإلما كان قبل ذلك علم الصحابة والتابعين في الصدور، فهي كانت خزائن العلم لهم رضى الله عنهم^(٢)».

وكان ذلك عصر البدع العقديّة، وقد ذكر الحافظ الذهبي بالايجاز جهود أئمة الحديث في مقاومة هذه البدع، وقارن بين الفقهاء وأئمة

(١) «إعلام الموقعين»، و«زاد المعاد»، و«الطرق الحكيمة»، وغيرها.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٥٠-١٥١

الحديث في عصره وبين علماء السلف، ثم أبان عن الآثار الألفية التي ترتبت على التقليد والجمود، ويقول بعد ذكر أبي محمد الفضل بن محمد البيهقي (م - ٢٨٢ هـ):

« ولقد كان في هذا العصر وما قاربه من أئمة الحديث النبوي خلق كثير، وما ذكرنا عشرهم هنا، وأكثرهم مذكورون في تاريخي، وكذلك كان في هذا الوقت خلق من أئمة أهل الرأي والفروع، وعدد من أساطين المعتزلة والشيعة وأصحاب الكلام الذين مشوا وراء المعقول، وأعرضوا عما عليه السلف من التمسك بالآثار النبوية، وظهر في الفقهاء التقليد وتناقص الاجتهاد، فسبحان من له الخلق والأمر، فبالله عليك يا شيخ! ارفق بنفسك وألزم الإنصاف ولا تنظر إلى هؤلاء الحفاظ النظر الشرر، ولا ترمقهم بعين النقص، ولا تعتقد فيهم أنهم من جنس محدثي زماننا، حاشا وكلا، فما فيمن سميت أحد، والله الحمد، إلا وهو بصير بالدين عالم بسبيل النجاة، وليس في كبار محدثي زماننا أحد يبلغ رتبة أولئك في المعرفة، فإني أحسبك لفرط هواك تقول بلسان الحال إن أعوزك المقال: من أحد؟ وما ابن المديني؟ وأي شيء أبو زرعة وأبوداود؟ هؤلاء محدثون ولا يدرون ما الفقه وما أصوله؟ ولا يفقهون الرأي، ولا علم لهم بالبيان والمعاني والدقائق، ولا خبرة لهم بالبرهان والمنطق، ولا يعرفون الله تعالى بالدليل، ولا هم من فقهاء الملة. فاسكت بحلم أو انطق بعلم،

فالعلم النافع هو ما جاء عن أمثال هؤلاء، ولكن نسبتك إلى أئمة الفقه كنسبة محدثي عصرنا إلى أئمة الحديث، فلا نحن ولا أنت، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذو الفضل، فمن اتقى الله راقب الله واعترف بنقصه، ومن تكلم بالجاه وبالجهل أو بالشر والبأ فاعرض عنه وذره في غيه، فمقباه إلى وبال، نسأل الله العفو والسلامة^(١).

وقد ذكر الحافظ الذهبي داء عصره هذا بأسلوب يبعث على الأسف والتألم، ويدل على إخلاصه ونصحه للأئمة، ويبين مدى ما وصل إليه الجمود واتباع الشخصية في القرن الثامن الهجري. وقد أثر هذا الوضع في الحافظ الذهبي فكان على خوف منه، وكذلك كان أئمة الحديث ملهين بالعواقب والآثار التي مستترتب على هذه الحالة.

ومن الغريب أن الناس قد حاربوا أئمة الحديث في القرن الثامن الهجري بنفس الأسلحة التي يحاربونهم بها اليوم، وهي الآن قد كلت، فيقال: إنهم ليسوا فقهاء بل صيادلة، يجهلون الأصول والمنطق والأدلة العقلية، ولا تسمو أفكارهم إلى علم الكلام، وهكذا.

وهذه هي نفس الآلات القديمة الصدئة التي استخدمها فلاسفة اليونان ضد المتكلمين، والمتكلمون استخدموها ضد الفقهاء، والفقهاء استخدموها ضد أئمة الحديث، والآن يستخدمها المقلدون ضد الذين

(١) تذكرة الحفاظ ٢ / ١٨٢ - ١٨٣

ينادون بالحرية الفكرية ، ويريدون أن يلزموا الناس باتباع الأئمة الأربعة ، مع أن هذا التحديد لم يأت من الله ورسوله ، بل اختارته الدول والحكومات حيناً بعد آخر للحفاظ على مصالحها وسلامة بلادها ، ولا يوجد عليه دليل من الشرع .

والذي لا يعرف الكتاب والسنة معرفة مناسبة فله أن يستفيد من علوم الأئمة المجتهدين بدون تعيين ، وإذا كان المجتهدون^(١) كلهم على الحق ، والصواب ، فلهذا يقسم الحق ؟ ولكن تعيين شخص واحد من الأئمة للاتباع لا يعني إلا تقسيم الحق .

(١) قلت : إن كان يقصد أنهم مأجورون أصابوا أو أخطأوا ، فهذا مسلمٌ به لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد^(٢) » ، وإن قصد ما يدعيه المقلدون الجامدون أن كل مجتهد مصيب ، فهذا مردود لا يستند على دليل صحيح . « ولو كان الصواب في وجهين متدافعين ما خطأ السلف بعضهم بعضاً في اجتهادهم وقضائهم وفتواهم ، والنظر يأبى أن يكون الشيء وضده صواباً كله ، ولقد أحسن من قال :
لإثبات ضدين معا في حال أقبح ما يأتي من المحال^(٣) »

(الأستاذ على شامي)

(١) رواه الشيخان .

(٢) صفة الصلاة ص ٤٨

ولاشك أنه يجب المنع من التلقيق ، ولكن محاولة السيطرة على نية المرء لا مبالغ لها ، وكذلك تفويض الغيوب والسرائر إلى الله عالم الغيب ، أو يعتمد في ذلك على تصريف الطاقة التي هي مسئولة عن نظام البلاد وسلامتها ، ثم لا تبذل الجهود لإقفال وتعطيل العقول والأفكار الانسانية ولا إهمال النظر والاجتهاد ، فإن ذلك ظلم عظيم وتحقير للإنسانية وعداء صريح للعلم والبصر .

إن الإمام الحافظ الذهبي حينما يذكر مناقب عبد الله بن مسعود وسعة علمه وما تفرد به وما اختاره ، يصور الجود الشخصي في عصره فيقول : " يمكن أن يجمع سيرة ابن مسعود في نصف مجلد ، فلقد كان من سادة الصحابة وأوعية العلم وأئمة الهدى ، ومع هذا فله قراءات وفتاوى ينفرد بها ، مذكورة في كتب العلم ، وكل إمام يؤخذ من قوله ويترك إلا إمام المتقين الصادق المصدوق الأمين المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، فبما الله العجيب من عالم يقلد دينه إماما بعينه في كل ما قال مع علمه بما يرد على مذهب إمامه من النصوص النبوية ، فلا قوة إلا بالله (١) " .

وقد تكلم العلماء في جميع العصور ضد الجود كثيرا ، فنجد من الأعلام الإمام أباشامة ، والشاطبي ، والإمام ابن قدامة وغيرهم

ينذرون من أخطار هذا الداء، ويقول ابن القيم:

العلم معرفة الهدى بدليله ما ذاك والتقليد يستويان
إذ أجمع العلماء أن مقلدا للناس كالأعمى، هما أخوان

وإني قد فصلت في هذا الموضع آراء الحفاظ الذهبي ووجهة نظره، لأن أهل المذاهب المختلفة ينظرون إليه نظرة الاحترام والتقدير، ونظره هو في التأريخ والرجال وسيع جدا، يقول بحر العلوم في شرحه لمسلم الثبوت عن الذهبي:

« قال الذهبي وهو من أهل الاستقراء التام في نقل حال الرجال (١) ».

والذي كتبه الذهبي في تصوير الجود والتقليد كان عن البلاد

التي كانت تقع مجاورة لأرض الحرم وتعرف كمراكز للعلوم الدينية.

فما ظنك ببلد مثل الهند يقع بعيدا عن علوم النبوة وخلوا من

الأئمة المحققين؟

يقول الغزالي: « فإن خاض المقلد في الحاجة فذلك منه فضول

ومن اشتغل به صار كضارب في حديد بارد وطالب لصالح الفاسد،

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟ »

الإسلام في الهند:

من المعلوم أن الفاتحين المسلمين قد دخلوا في الهند بطريقتين،

الأول طريق السند . والثاني طريق إيران . والجيش الأول قد وصل تحت إمارة محمد بن قاسم في نهاية ^(١) القرن الأول . ولم يكن أحد من الأئمة الأربعة سوى الإمام أبي حنيفة قد ولد في ذلك الوقت ، وكان ذلك العصر عصر التلمذة والتعلم للإمام أبي حنيفة ولم يصل إلى درجة الإمامة بعد ، ومعنى ذلك أن هذا الجيش كان عاملا بالكتاب والسنة على مذهب أهل الحديث اليوم ، بعيدا عن التفرقة الدينية ، وكان الناس فيه يستفتون أهل العلم بدون تحديد وتعيين ، ولذلك لم توجد فيهم العصبية . أما الهجوم الثاني فكان من ناحية إيران ، وهؤلاء الفاتحون كانوا على مذهب الحنفية على الأغلب ، وعلى أيديهم انتشر المذهب الحنفي في الهند وقوى ، وهذا هو سبب كثرة الأحناف في البلاد إلى اليوم ، وتوجد فيهم العصبية الطائفية أيضا ، إلا من رحم .

(١) إن الهجوم الأول على الهند قد وقع في سنة ٩٢ هـ ، وكان الخليفة إذ ذاك الوليد بن عبد الملك ، وكان الحجاج بن يوسف حاكما ، ومحمد بن قاسم قائدا للجيش ، وغزوات محمد بن قاسم هذه قد استمرت إلى سنة ٩٥ هـ ، وقد وصلت جيوشه من ملتان إلى قنوج . أما الهجوم الثاني فقد كان من السلطان محمود الغزنوي في القرن الرابع الهجري ، وكانت المذاهب الأربعة قد انتشرت في ذلك الوقت إلى حد ما ، والحكومة قد انتقلت بعد الغزنويين إلى الغوريين .

وكانت هذه المناطق على بعد شامع عن المركز الإسلامى وخالية من العلوم الدينية وآثارها النافعة ، وكان العلماء فيها يفضلون الهجرة إلى الحجاز والإقامة فيها ، وفي هذه الظروف لا يستبعد الجمود في مثل هذه المناطق وتنسفر العامة من التحقيق والاجتهاد ، بل الجمود طبيعى فيها ، فلا يستغرب لو كانت الحالة الدينية لشبه القارة الهندية الباكستانية أسوء من التى ذكرها الحافظ الذهبي . فكانت الدول جاهلة عن الدين ، وابتعد الحكم وعامة الناس عن تعاليم الإسلام ، وتنازل العلماء والفقراء من مكانتهم الخاصة بهم وحادوا عن طريقهم .

وبعد العلامة الصغانى (م - ٦٥٠ هـ) لا نرى هنا إلا عددا ضئيلا جدا للعلماء المحققين ، ومنهم الشيخ على المتقى (م - ٩٧٥ هـ) والشيخ محمد طاهر الفتى الشهيد (م - ٩٨٦ هـ) وأخيرا الشيخ عبد الحق الدهلوى (م - ١٠٥٢ هـ) ومن الطبيعى أن البلد الذى يحكمه ملك فاسق مثل الأكبر ، وتسيطر على نظامه أسرة الملا مبارك ، ويحصل التشجيع للفجور والفواحش من قبل الدولة ، كيف تتحرر فيه العقول من أغلال التقليد والجمود ، وكيف تنطلق فيه الأفكار ، وكيف يستطيع لفيف من العلماء المخلصين من مقاومة موجات البدع والشرك والإلحاد ؟

وكان وجود الشيخ عبد الحق (م - ١٠٥٢ هـ) فى العصر المتأخر من المغنمات ، وكان هو محدث عصره ، وعلى يديه انتشر علم الحديث

في مدينة دهلي وضواحيها . كان عالما بالرجال مع عدم تثبته في نقل الروايات ، ولعله كان الوحيد بعد الامام السيوطي في عدم الاحتياط والتثبت ، وكتابه « مدارج النبوة » جامع للسيرة ولكنه في نفس الوقت يزخر بالضعاف والموضوعات ، ثم إنه لا يريد أن يتكلم بصراحة ضد مخترعات التصوف وبدع عصره بل يبدو أنه يؤيد ذلك ويميل إلى الظواهر والقشور .

والذي يدل على غرابة اتجاهاته أنه في شرحه لكتاب « سفر السعادة » الذي يعد نموذجا في علم الحديث وفي التحقيق والاستنباط ، قد بذل جهودا كبيرة لأن يجعله ملائما لاتجاه الجود وعدم الانطلاق ، وحيث كانت حال كبار المحدثين هكذا فماذا نتوقع وننتظر من الجهود التجديدية لشيخ الاسلام ابن تيمية والآثار النقدية لتلميذه ابن القيم رحمهما الله ؟ وحقا يشكو مولانا عبد الحى اللكنوي رحمه الله من الاستعمال الخاطئ لكلمة « شيخ الاسلام » فينقل كلام الحافظ السخاوي ويؤيده : « ثم اشتهر بها جماعة من علماء السلف ، حتى ابتدأت على رأس المائة الثامنة ، فوصف بها من لا يخصى ، وصارت لقباً لمن ولي القضاء الأكبر ، ولو عرى عن العلم والسنن ، فإننا لله وإنا إليه راجعون .

قلت : ثم صارت لقباً لمن تولى منصب الفتوى وإن عرى عن لباس العلم والتقوى^(١) .

ولا يخفى دَروس العلم وانحطاطه في نهاية القرن الثالث عشر الهجري ، فكل ما يهم الناس الألقاب والمناصب لا التقوى والعلم ، ومن الطبيعي أن العلم كلما ينقص يزداد الجود ، ويتكل الناس على غيرهم ، ونظراً إلى الحاجة سواء نسمى هذه الحالة بالواجب أو المباح ولكنها لا تعدو إلا أن تكون مظهراً للجمل وأثراً من آثاره ، ولذلك تركز الاهتمام في ذلك العصر حول الألقاب والأسماء .

وبعد جهود شيخ الإسلام ابن تيمية الإصلاحية قد حلت البدع العملية محل البدع العقديّة ، وقد استعيرت العادات والتقاليد عند مناسبة الموت والزواج من الهنادك ، وقد خيمت هذه الظلمة على قصور الملوكة وبيوت الفقراء على حد سواء ، وانصرف هم العلماء إلى طلب الحيل وتصيدها ، وصار تأجيل الأحكام الشرعية من أهداف الفقه . ومن المحاولات الدينية الأخيرة تدوين الفتاوى العالمية ، وهي ليست إلا عبارة عن جمع الآراء المعينة التي استند إليها الناس بحماية من الدولة .

وفيما سبق قد استمعتم إلى الذهبي يشتكى من عصره وبينته وما فيها

من الجمود وتقاليده الامام المعين ، وكانت وفاته في سنة (٧٤٨ هـ) ،
 وإنه قد حكى - طبعاً - عن عصره وما وجد فيه من انصراف الناس
 عن التحقيق إلى التقليد ، ومن أنهم يعتمدون على فهم غيرهم وعلمهم
 ويعيشون متكئين على الآخرين ، بدل أن يعملوا أفكارهم ويعتمدوا
 على علومهم .

ومن الطبيعي أن القوى الذهنية والطاقات الفكرية إذا لم تستخدم
 فإنها تترك عملها ووظيفتها ثم تتعطل ، ولذلك نرى أن بدأ العلم
 والفقهاء ينقصان من بعد أئمة السلف ، وقد ضعفت الذاكرة كثيراً
 بسبب الكتابة وتقييد العلم ، بحيث صار الناس يستغربون إذا ذكرت
 لهم ذاكرة الحفاظ المحدثين المتقدمين واستنباطات الفقهاء وبصيرتهم
 في العلم والاجتهاد .

وكل ذلك بسبب الجمود ، فهو الذي قد حمل كبار أهل العلم على
 الشعور بالنقص في نفوسهم . ولكن مع سيطرة موجة الجمود على العقول
 والأذهان نجد أعلاماً ينظرون بأنظارهم ، ويفكرون بعقولهم ،
 ويعتمدون في فهم العلوم النقليّة على علمهم وفراستهم ، ولا يشعرون
 بحاجة إلى تقليد أحد من العلماء والأئمة ، وحقاً كان موقفهم .

كتاب تذكرة الحفاظ للذهبي :

إن الحافظ الذهبي قد صنف في علم الرجال كتابين مهمين ،

وهما : ميزان الاعتدال ، وتذكرة الحفاظ . أما الميزان فيذكر فيه على الأغلب الرواة الضعفاء والمجروحين . أما تذكرة الحفاظ فيحتوى على أربعة أجزاء ، وقد ذكر فيها الحفاظ ، ولهم إحدى وعشرون طبقة . والمجلدان الأولان من الكتاب يحتويان على عشر طبقات ، والآخرا على إحدى عشرة طبقة ، وكل ذلك إحدى وعشرون طبقة . وهكذا قد تناول تراجم (١١١٩) نفرا من الأئمة ، ومنهم من ذكر أصالة ومن ذكر تبعاً . ولم يلتزم الحافظ الذهبي في كتابه بذكر مذهب جميع الأئمة والحفاظ ، ولكن نظرا إلى أن كتابه يتناول تراجم أئمة الحديث فإنه قد يشير - ولو إشارة عابرة - إلى أن الإمام الفلاني كان لا يحب التقليد ، والإمام الفلاني كان يكره أهل الرأي ، والإمام الفلاني قد نشر في بلاده مذهب أهل الأثر . ونظرة عابرة إلى تذكرة الحفاظ ترى أنه كان يوجد هناك حتى عصر الإمام الذهبي (٥٧٤٨هـ) أناس يتبعون عن التقليد الشخصى والجمود ، ويحاولون فهم الكتاب والسنة مباشرة ، مثل الصحابة والتابعين وأئمة السلف . إنهم كانوا يرفعون نفوسهم عن مضائق الجمود ، وكان عددهم كبيرا في كل عصر ، وكان الناس يحترمونهم ويعتبرونهم أساتذة ينلقون منهم علوم السنة . ونثبت هنا كشف الأئمة المحققين مع سنى وفاتهم نقلا عن تذكرة الحفاظ ، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني والتاج المكل للنواب صديق حسن خان ، وبهذا الكشف نريد توضيح

أمرين : الأول أن نظرية ترك التقليد واتباع طريقة السلف ليست جديدة ، بل اختارها كبار العلماء وخولهم .

والثاني أنه لم ينعقد إجماع قط على التقليد الشخصي بل كان أهل العلم في كل عصر ينشدون التحقيق ويحبون التفحص . وتسمية هذا المذهب بـ « الوهابية » كذب محض وافتراء عظيم ، فالمركز الرئيسى للوهابيين نجد والحجاز ، ومعظمهم السلفيون على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل ، ومنهم العلماء الذين أخذوا علم الحديث من الهند أو استفادوا من الحافظ الشوكاني والعلامة حياة السندهى فى الحديث . فكان الوهابيين أيضا قد أخذوا مذهب أهل الحديث من الهند أو اليمن والحجاز . والعجب أن بعض كبار العلماء الديوبنديين أيضا لا يخافون الكذب فى استخدام هذا اللقب ، إن البريلوية ترميهم بالوهابية ، وهم ينتقمون فى ذلك من أهل الحديث .

ومن المتفق عليه أن تقليد الأئمة لم يكن منتشرا إلى القرن الثالث الهجرى ، بل إنه قد تم انتشاره بطريقة عامة بعد القرن الرابع ، كما صرح به الشاه ولي الله الدهلوى ، لكن باب الاجتهاد لم ينسد لدى الأئمة المحققين حتى فى ذلك الوقت ، فالإمام الذهبى يذكر فى تراجم أئمة عديدة أنهم كانوا مجتهدين ، وأحيانا يقول : « كان لا يقلد أحدا » وأحيانا يقول : « لم يكن يعلم أهل الرأى ، وغير ذلك » .

فهرس الأئمة المحققين مع السنين:

بقي بن كخلد (٢٠٦ هـ) أحمد ابن أبي عاصم (٢٨٧ هـ) قاسم
 ابن محمد الأندلسي (٢٧٦ هـ) الحافظ ابن خزيمة (٣١٠ هـ) العلامة
 ابن المنذر (٣١٨ هـ) حسين بن محمد السنجي (٣١٥ هـ) الحافظ
 أبو يعلى (٣٤٦ هـ) حسن بن سعد القرطبي (٣٢١ هـ) ابن شاهين
 (٣٨٥ هـ) الحافظ محمد علي الساحلي (٤٤١ هـ) الإمام الحميدي
 (٤٨٨ هـ) محمد بن طاهر المقدسي (٥٠٧ هـ) الإمام العبدري (٥٤٤ هـ)
 أبو زرعة بن محمد (٥٦٦ هـ) الحافظ ابن الرومية (٦٣٧ هـ) .
 شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨ هـ) الحافظ مجد الدين الفيروز آبادي
 صاحب القاموس (٨١٧ هـ) محمد بن يوسف أبوحيان الأندلسي
 (٧٤٥ هـ) الشيخ شهاب الدين (٩٥١ هـ) السيد يحيى بن حسين
 (١٠٨٠ هـ) صالح بن محمد الحميدي المقبل (١١٠٨ هـ) عبد القادر بن
 علي البدرى (١١٦٠ هـ) السيد محمد بن إسماعيل الأمير الباني (١١٨٢ هـ) .

ويجب هنا ملاحظة أسماء هؤلاء الأئمة مع سنن وفاتهم ، وأنهم
 مع تبركهم للتقليد يعدون من الأئمة ، ونحن جميعا نستفيد من علومهم
 في نقل الروايات ونعتمد على ما نقلوه إلينا في كتب الحديث ، ونوقن

بعلومهم في مصادر الاستدلال والفروع الفقهية ، فكيف يسوغ الطعن على أحد إذا لم يقلد إماما من الأئمة الأربعة ، رضوان الله عليهم ؟ ولماذا يستخط عليه علماء البريلوية والديوبندية ، ويتنازرونه بألقاب شتى ؟ إن هذا المذهب ليس أقل في القدم ألبتة من مذاهب الأئمة الأربعة ، رحمهم الله بل الحق أن هؤلاء الأئمة قد استفادوا في مذاهبهم من أئمة الحديث .

وتدلنا الشواهد التاريخية على أن مسالك أئمة الحديث كان هو السائد أولا في بلاد خراسان وإيران واليمن والجزائر والبربر والمغرب الأقصى ، والمذاهب الفقهية الحالية قد تم لها السيطرة بسبب الحكم أو بطرق أخرى . أما كيفية انتشار المذاهب المختلفة في الأقطار العديدة فهذا موضوع آخر مستقل بذاته ، ونرى بيانا مفصلا في مقدمة ابن خلدون ، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي (من ص ١٤١ إلى ١٦٣) عن انتشار مذاهب الشيعة وأهل السنة وعن العوامل التي ساعدت في هذا الانتشار . والمقريزي قد ذكر الأئمة والملوك بأسمائهم الذين أسهموا في نشر المذاهب المنتشرة الآن مع عصورهم ، وكذلك قد ذكر الشيعة وتعسفهم في نشر مذاهبهم في مصر وضواحيها ، وبذلك يتبين قدم مذهب السلف وأسباب غربته لدى الناس .

نور في الظلمات :

يبدو أن القرن الثاني عشر الهجري كان زمن رحمة الله الخاص ،
ففي هذا العصر نرى يقظة في العالم الإسلامي ، ونشعر بأن أشعة من
النور تبدد الظلام الحالك السائد حيناً بعد آخر .

وقد ظهر في البلاد العربية حركة نجدية يقودها الشيخ محمد بن
عبد الوهاب النجدي رحمه الله .

وقد رفع السيد جمال الدين الأفغاني صوته في إيران ، فوصل
صداه إلى مصر والاسكندرية والقسطنطينية .

وقبل ذلك بقليل قد سعد حظ الهند واستيقظت فيها القوى الكامنة
للهداية والرشد ، وكانت بداية هذه اليقظة على يد السيد أحمد السرهندي
رحمه الله في القرن الحادي عشر الهجري ، فحارب ضد البدع محاربة
علنية ، وكانت حيلة تقسيم البدعة مستمرة منذ زمن العز بن عبد السلام
وكان الناس يمتثلون لتبرير البدع بتسميتها بالحسنة ، ولكن المجدد
السرهندي قد فند هذا الزعم وأتى عليه من بنيانه وصرح بأن النبي
ﷺ كان يكره جميع البدع فليس لأحد أن يسميها بالحسنة ، ولا تسمى
في الشرع بدعة حسنة .

والدليل الصادق على حب النبي ﷺ هو حب سنته ، والمبتدع
مهما كان عابدا زاهدا لا يستحق أي احترام في حضرة النبوة .

وجهود المجدد السرهندي كانت أنفع بكثير من الحركات المصطلحة اليوم نظرا إلى الآثار والعواقب التي ترتبت عليها .

ومن المعروف أن مجدد الألف الثاني والشاه ولي الله والشاه عبيد العزيز رحمهم الله لم ينشئوا حركة مصطلحة^(١) يرأسونها ويكون لها أعضاء وأنصار في أقطار البلاد ، يعملون بجد ونشاط . بل كان كل منهم علم نور يسلط أضواءه على ما حوله . كان الناس يتأثرون بهم ، ويبلغون تعاليمهم إلى غيرهم باحتساب وإخلاص . وعلى ذلك إذا وردت كلمة « الحركة » في كتابتنا هذه فلا نغني بها معناها المصطلح اليوم الذي هو عبارة عن تكوين مجلس واختيار أعضاء له وغير ذلك ، بل نقصد بها معناها القديم ، وهو أن يقوم أحد لرفع راية الصدق ، والناس ينضمون إليه ، كما أن المصباح يضئ . فيلتف حوله الفراش . إن الوسائل تستخدم حسب الظروف في كل وقت . وإني أرى أن عمل الدعوة الدينية كان على هذا المنهج منذ المجدد السرهندي إلى عصر السيد أحمد الشهيد والشاه اسماعيل الشهيد ، كان الفرد العادي يشعر بمسئوليته ويخلص العمل لتحقيق أهدافه ، كما

(١) وقد أطلق الشيخ عبيد الله السندي رحمه الله على الشاه ولي الله رحمه الله اسم مؤسس حركة بالمعنى المصطلح ، ولكن هذا من خياله الحضري ومن الوهم الذي لم يقيم عليه دليل .

كان يشعر بذلك رجل كبير من أهل المسؤوليات الجسيمة ، وكان هذا هو سر نجاحهم .

مكونات حركة الشاه ولي الله واتجاهها :

العناصر المهمة لهذه الحركة كما يأتي : الشيخ أحمد الفاروقى مجدد الألف الثانى رحمه الله ، القاضى ثناء الله البانى بقى ، الميرزا مظهر جانجاذان ، الشيخ فاخر زائر الاله آبادى ، غلام على آزاد البلكرامى ، الشاه ولي الله ، الشاه عبد العزيز ، الشاه رفيع الدين ، الشاه عبد القادر ، الشاه عبد الغنى ، السيد أحمد الشهيد ، الشاه اسماعيل الشهيد ، الشيخ عنايت على ، الشيخ ولايت على ، الشيخ عبد الحى البدهانوى . ومن هؤلاء من ينتمى إلى الحنفية عملا وإلى أهل الحديث عقيدة ، ومنهم من ينتمى إلى الحنفية فى العقيدة والعمل ومنهم من ينتمى إلى أهل الحديث عقيدة وعملا ، ولكن الذى يشترك فيه الجميع هو أنهم لم يبرزوا هذا الاختلاف قط .

وقد مال القاضى ثناء الله فى تفسيره المظهرى إلى الفقه الحنفى ولكنه مع ذلك لم يسالم قط مع المبتدعين ولم يداهن فى الرد على البدع ، ورأيه واضح جدا فى كتابه : « إرشاد الطالبين » فى مسألة عبادة القبور وتخصيصها وإضاءة المصابيح عليها وإنارتها ، لأنه لم يكن مداهنا مثل الديوبنديين اليوم ، فبعض كبار علماء ديوبند يميلون اليوم

إلى البريلوية ، ويحاولون إرضاء أهل البدع أكثر من إرضاء أهل التوحيد وأصحاب السنة ! ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ، إن كانوا مؤمنين ﴾ .

نظرة إلى أهداف هؤلاء العلماء :

- ١ - مع تمسكهم بالمذهب الحنفي كانوا يكرهون الجود الفقهي والعصبية .
- ٢ - يتوسعون في المسائل الخلافية لدى الأئمة ، ولم يكن يستخطهم العمل بمذهب من هذه المذاهب .
- ٣ - يكرهون البدع وينكرونها إنكاراً شديداً .
- ٤ - لا يرون المسألة مع الشيعة إلا أن يغيروا موقفهم تماماً مع الصحابة رضوان الله عليهم ، والذي يشهد على ذلك هو رسائل المجدد السرهندي ، وكتاب «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» للشاه ولي الله ، و«تحفة الاثنى عشرية» للشاه عبد العزيز ، ففي هذه الكتب انتقد مؤلفوها مذهب الشيعة ولم يداهونوا في هذا النقد .
- ٥ - إنهم متأثرون بالتصوف ، ولكن يتنفرون من بدعه وعاداته .
- ٦ - يرون أهل السنة منقسمين في قسمين : أهل الحديث وأهل الرأي ، فالطائفتان من أهل السنة ، ولكن الشاه ولي الله يحب طريق فقهاء أهل الحديث أكثر ، كما سيأتي .

وقد جعل الشيخ أبو منصور عبد القاهر الدمشقي أيضا أهل الحديث وأهل الرأي كلتيهما من أهل السنة في مواضع من كتابه «الفرق بين الفرق»، وهكذا فعل العلامة عبد الكريم الشهرستاني.

٧ - وهذه الطائفة لا تريد السيطرة السياسية، ولكنه إذا ساد الاتحاد فيفضلون مقاومته بدل أن يجلسوا ساكتين مسلمين مع الذين يساندون هذا الاتحاد.

نظرية أصحاب دهل:

إن الشاه ولي الله يعتبر طريقة الجماعتين في الأمانة صحيحة، ويكره الغلو والتعصب لشخص معين فيقول:

«ليعلم أن السلف اختاروا طريقتين لاستنباط المسائل والفتيا، الأولى: أن يجمع الكتاب والسنة وآثار الصحابة وتستنبط منها المسائل، وهذه هي طريقة المحدثين. والثانية: أن تحفظ القواعد الكلية التي دونها الأئمة وجمعوها بدون الالتفات إلى مصادرها، ثم تطلب وتستخرج منها الإجابة في المسائل التي ترد، وهذه هي طريقة الفقهاء. وكان في السلف من يأخذ بالطريقة الأولى، ومن يأخذ بالطريقة الثانية^(١)». ثم فصل الطريقتين في حجة الله البالغة وكيفية العمل بهما

بإيضاح تام ، و ذكر فيه كتابة الحديث وجمعه وتأليفه والفقهاء
المحدثين فقال :

« فرجع المحققون منهم بعد إحكام فن الرواية ومعرفة مراتب
الحديث إلى الفقه ، فلم يكن عندهم من الرأي أن يجمع على تقليد رجل
من مضى مع ما يرون من الأحاديث والآثار المتناقضة في كل مذهب
من تلك المذاهب ، فأخذوا يتبعون أحاديث النبي ﷺ وآثار الصحابة
والتابعين والمجتهدين على قواعد أحكموها في نفوسهم ^(١) . »

ثم ذكر بعد ذلك بالامحياز قواعد المحدثين التي يعول عليها في
التطبيق بين النصوص أو استنباط المسائل ، وهذه القواعد قد وضعت
عملاً بأثر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يقول القاضي شريح : إن
عمر رضي الله عنه كتب إليه :

إن جاعك شيء في كتاب الله فاقض به ، ولا يلفتك عنه الرجال ،
فإن جاعك ما ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله ﷺ فاقض
بها ، فإن جاعك ما ليس في كتاب الله ، ولم يكن فيه سنة رسول الله
ﷺ فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ، فإن جاعك ما ليس في كتاب
الله ، ولم يكن فيه سنة رسول الله ﷺ ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك
فاختر أي الأمرين شئت ، إن شئت أن تجتهد برأيك ثم تقدم فتقدم ،

(١) حجة الله البالغة ١ / ١٤٩

وإن شئت أن تتأخر فتأخر ، ولا أرى التأخير إلا خيرا لك^(١) .
ثم يذكر الطائفة الأخرى (أهل الرأي) فيقول :
« وكان بإزاء هؤلاء في عصر مالك وسفيان وبعدهم قوم
لا يكرهون المسائل ، ولا يهابون الفتيا ويقولون : على الفقه بناء الدين ،
فلا بد من إشاعته » .

ويقول في الختام :

« فوق تدوين الحديث والفقه والمسائل من حاجتهم بموقع من
وجه آخر ، وذلك أنه لم يكن عندهم من الأحاديث والآثار ما يقدر
به على استنباط الفقه على الأصول التي اختارها أهل الحديث ،
ولم تنشر صدورهم للنظر في أقوال علماء البلدان وجمعها والبحث عنها ،
واتهموا أنفسهم في ذلك ، وكانوا اعتقدوا في أئمتهم أنهم في الدرجة
العليا من التحقيق ، وكان قلوبهم أميل شيء إلى أصحابهم^(٢) » .
ثم ازدادت الحال سوء وظهرت طائفة يذكرها الشاه ولي الله
فيقول :

« ومنها أنهم اطمأنوا بالنقل ، ودب التقليد في صدورهم ديب
النمل وهم لا يشعرون^(٣) » .

(١) المصدر السابق

(٢) حجة الله البالغة ١ / ١٥٢

(٣) " " ١ / ١٥٣

ويذكر الشاه ولي الله لهذا الانحطاط أسبابا فيقول :

١ - « وكان سبب ذلك تراحم الفقهاء وتجاهلهم فيما بينهم ، فإذ هم لما وقعت فيهم المزاخرة في الفتوى ، كان كل من أفتى بشيء فوقض في فتواه ، ورد عليه . فلم ينقطع الكلام إلا بمسير إلى تصريح رجل من المتقدمين .

٢ - جهل رؤس الناس واستفتاء الناس من لا علم له بالحديث ولا بطريق التخريج .

٣ - « أن أقبل أكثرهم على التعمقات في كل فن ^(١) .

ثم يتكلم عن الآثار التي ترتبت على الحالة المذكورة فيقول :
« فكذلك أعقبت هذه جهلا واختلاطا وشكوكا وهما ما لها من أرجاء ، فنشأت بعدهم قرون على التقليد الصرف لا يميزون الحق من الباطل ولا الجدل عن الاستنباط ، فالفقيه يومئذ هو الثرثار المتشدد الذي حفظ أقوال الفقهاء قويا وضعيفها من غير تمييز ، وسردها بشقشقة شذويه ، والمحدث من عد الأحاديث صحيحها وسقيمها وهذا كهذا الأسمار بقوة لحييه » .

وختاما يقول :

« ولم يأت قرن بعد ذلك إلا وهو أكثر فتنة وأوفر تقليدا وأشد

(١) حجة الله البالغة ١/١٥٣

انترعا للامانة من صدور الرجال حتى اطمأنوا بترك الخوض في أمر الدين وبأن يقولوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون^(١)﴾ وإلى الله المشتكى^(٢)،.

نتيجة هذا التصريح:

- ١ - إن أهل الحديث وأهل الرأي مدرستان فكريتان ، وكلتاها معروفتان لدى أهل العلم .
- ٢ - وفي رأى الشاه ولي الله لم تبق أى مدرسة منهما فى المكانة الأصلية فى هذا العصر .
- ٣ - قد سرت موجة التقليد والجمود فى متأخرى أهل الرأى بدل الاستدلال والاستنباط . وهذا يراه الشاه ولي الله غير ملائم .
- ٤ - إن أهل الحديث أيضا قد أهملوا علم الحديث ، ولا يزاولونه إلا كعادة، إنهم لا يرمون إلى الاستنباط والاجتهاد ولا يحاولون التفقه والفهم .

هدف الشاه ولي الله :

إنه يهدف إلى أن تتمسك المدرستان بالحق والحقيقة ، وتبينان على الكتاب والسنة بدل آراء الأئمة الكبار، ويتجنب أهل الحديث

(١) الزخرف : ٢٣

(٢) حجة الله البالغة ١/١٥٤

من الظاهرية ويميلوا إلى التفقه ، فيقول في التفهيمات : ومنها إني أقول لهؤلاء المسلمين أنفسهم بالفقهاء الجامدين على التقليد يبالغهم الحديث من أحاديث النبي ﷺ بإسناد صحيح ، وقد ذهب إليه جمع عظيم من الفقهاء المتقدمين ، ولا يمنعهم إلا التقليد لمن يذهب إليه ، وهؤلاء الظاهرية المنكرون للفقهاء الذين هم طراز حملة العلم وأئمة أهل الدين ، إنهم جميعا على سفاهة وسخافة رأى وضلالة ، وإن الحق بين بين^(١) . وبهذه العبارة قد انتقد الشاه ولي الله الطائفتين بصراحة وأرشد للقضاء على الجود إلى طريقة واضحة سليمة ، رحمه الله رحمة واسعة . ويقول بصراحة أكثر :

«وأشهد لله بالله أنه كفر بالله أن يعتقد في رجل من الأمة من يخطيء ويصيب أن الله كتب على أتباعه حتما وأن الواجب على هو الذي يوجهه هذا الرجل ، وإن الشريعة الحقة قد ثبت قبل هذا الرجل بزمان^(٢)» .

وهنا قد عبر الشاه ولي الله عن التقليد الشخصي والجود بالكفر بالله ، إنه لا يسلم لأحد أن يبلغ منزلة يقلده الناس عندها ، إنه يرى في التقليد انسدادا للذهن وعائقا للفكر فيقول بصراحة تامة : «وترى

(١) التفهيمات ٢٠٩/١

(٢) « ٢١١/١

العمامة سيما اليوم في كل قطر يتقيدون بمذهب من مذاهب المتقدمين ، يرون خروج الانسان من مذهب من قلده ولو في مسألة كالخروج من الملة ، كأنه نبي بعث إليه وافترض طاعته عليه ، وكان أوائل الأئمة قبل المائة الرابعة غير متقيدين بمذهب واحد^(١) .

وفي موضع آخر من التفهيمات اشتدت لهجته حينما يذكر الصوفية والعلماء فيقول : « نحن لانرضى بهؤلاء الذين يبايعون الناس ليشترؤا به ثمنا قليلا أو يشوبوا أغراض الدنيا بتعلم علم إذ لا تحصل الدنيا إلا بالتشبه بأهل الهداية ولا بالذين يدعون إلى أنفسهم ويأمرون بحسب أنفسهم ، هؤلاء قطاع الطريق ، دجالون ، كذابون ، مفتونون ، فنانون ، إياكم وإياهم ، ولا تتبعوا إلا من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله ولم يدع إلى نفسه^(٢) » .

ثم يخاطب طلاب العلم فيقول : « ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به ويقول إنما عمل على مذهب فلان لا على الحديث ، ثم احتال بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن السكمل الماهرة ، وإن الأئمة لم يكونوا من يخفى عليهم هذا الحديث فما تركوه إلا لوجه ظهر لهم في الدين من نسخ ومرجوحية^(٣) » .

(١) التفهيمات ١٥١/١

(٢) " ٢١٤/١

(٣) " ٢١٥/١

ويقول كنتيجة لذلك : « هذا ليس من الدين ألبتة ، فاتبعوا محمدًا ﷺ وحده سواء كان مخالفا للذهب أو موافقا له ، هذا هو رضا الله بأن تتبعوا كتاب الله وسنة رسوله إلخ » .

وفي الظاهر يستأنس الشاه ولي الله بالفقه الحنفي ، ومذهب أمرته — على الأغلب — الفقه العراقي ، ولكنه في نفس الوقت يهاجم هذا النظام الفقهي مهاجمة عنيفة لأنه يكره الجود والفقه التوقيفي فيقول في كتابه « قرّة العينين » عند ذكر مناقب الشيخين (أبوبكر وعمر رضي الله عنهما) : « والحقيقة أن الخلاف قد بدأ بعد عصر الشيخين . وأصل المذاهب الأربعة هو ما أجمع عليه الشيخان ، ولكنه لا يمكن أن يقال هذا الكلام لمن لا يكون مبلغه من العلم سوى القدوري والوقاية^(١) » .

ويقول في موضع آخر بنفس الأسلوب : ولا يمكن أن يفهم هذه النكتة من يقرأ شرح الوقاية والمنهاج ، بل هي تحتاج إلى عالم متبحر^(٢) . و نرى أنه يهدف إلى أن الثقة والتفوق اللذين تحظى بهما متون الفقه وشروحاتها مرجعها إلى حب الأئمة ومؤاني هذه الكتب والثقة بعلومهم ، ولكن يجدر أن يكون هذا الاعتماد والثقة بالنسبة

(١) قرّة العينين ص ١٣٤

(٢) ،، ص ١٣٥

للمصحابة وخاصة للشيخين رضى الله عنهم ورضوا عنه .
وقد ورد هذا الذكر بنفس الأسلوب في «إزالة الخفاء» ،
وليس هذا النظام الفقهي وهذا التقليد — كما يرى الشاه ولي الله —
سوى جهود فردية ، وليس لها أهمية أساسية ، فالبحث عن وجوبها
وفرضيتها بحث لا طائل فيه ولا معنى ، نعم إنهم كانوا علماء صالحين ،
ويحسن أن نستفيد من علومهم حسبما نستطيع .

ومثل هذه التصريحات قد استغرقت عدة صفحات من كتابه
حجة الله البالغة ، بل يبدو في بعض المواضع أنه قد فصل وشرح في
حجة الله بعض ما أجمله في التفهيمات .

أصول الفقه:

لا شك في أن فضل تأسيس أصول الفقه وتدوينها يرجع إلى علماء
أهل الحديث وخاصة إلى الإمام الشافعي رحمه الله ، وفي الأغلب أخذت
هذه الأصول من القرآن والحديث ولغة العرب والعقل السليم .

وقد ورد ذكر مآثرة الإمام الشافعي هذه في كتاب أبجد العلوم
للنواب صديق حسن خان وكشف الظنون لحاجي خليفة والفهرست
لابن النديم وغيرها ، وقد ذكر هذا العلم الشاه ولي الله أيضا في كتابه
حجة الله ^(١) وغيره . وأصول الفقه وكذلك أصول الحديث مثل

المنطق، فالمكانة التي تحتلها أصول الحديث في تصحيح الحديث وتضعيفه، وأصول الفقه في استنباط الجزئيات الفقهية هي نفس المكانة التي يحتلها المنطق في العلوم العقلية. وقد أسس هذا العلم الإمام الشافعي، ولكن إسهام فقهاء الحنفية في هذا الباب كبير جدا، حتى إنهم قد انتقدوا بفضل هذا العلم مؤسسه الإمام الشافعي انتقادا شديدا في بعض المواضع. ومن الصحيح أن ثقة الفقه وأهميته يتوقفان على أصول الفقه. وقد انتقد الشاه ولي الله الفقه وأصوله معا وأزال الستار وكشف عن حقيقتيهما فيقول في قرة العينين^(١):

«إن الحنفية قد وضعوا لإحكام مذهبهم أصولا مثل «الخاص مبين فلا يلحقه البيان» و«العام قطعي كالخاص» و«المفهوم المخالف غير معتبر» و«الترجيح بكثرة الرواة غير معتبر» و«الزيادة على الكتاب نسخ» الخ.

وبنفس الأسلوب قد تكلم الشاه عبد العزيز في الفتاوى العزيزية^(٢) مع تفصيل أكثر ولهجته أشد من لهجة الشاه ولي الله، يقول: «ومن اللطائف التي قلما ظفر بها جدلي لحفظ مذهب ما اخترعه المتأخرون لحفظ مذهب أبي حنيفة، وهي عدة قواعد يردون بها جميع ما يحتاج بها عليهم من الأحاديث الصحيحة».

(١) ص ١٨٦

(٢) ٦٢/١

وبعد ذلك ذكر الشاه عبد العزيز نحو تسع قواعد، منها ما ذكره الشاه ولي الله، وأنا تركتها خوفا من الإطناب، فعلى من يطلب الحق أن يراجع الفتاوى العزيزية^(١).

وقد انتقد الشاه ولي الله في كتابه حجة الله البالغة أصول الفقه انتقادا شديدا، ويقول في باب «حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها» ذاكرا التقليد وانتشاره: «وبعضهم يزعم أن بناء المذاهب على هذه المحاورات الجدلية المذكورة في مبسوط السرخسي والهداية والتبيين ونحو ذلك، ولا يعلم أن أول من أظهر ذلك فيهم المعتزلة^(٢)».

وبعد ذلك ذكر قواعد أصول الفقه العديدة وما يترتب عليها من الآثار في إنكار الحديث ورفضه، ثم أورد عليها نقدا ومعارضة بأسلوب جزل وأثبت أن الحنفية أنفسهم لا يتبعون هذه القواعد، وهذه المباحث مستغرقة عدة صفحات، والباحث الذي يطلب الحق في حاجة إلى أن يطالعها بتدبر وروية.

والذي أريد أن أقوله هو أن الشاه ولي الله كما لا يعتبر الدين والشريعة محصورين في الفروع، فكذلك لا يرى أصول الفقه أصولا خالدة أبدية، لأنها مجرد جهود علمية بذلها العلماء للحفاظ على مذاهبهم،

(١) ٦٢/١

(٢) حجة الله البالغة ١/١٦٠

فلا يلزم الكفر من إنكار الفروع ، ولا الخلل فى الأمانة من رفض أصول الفقه .

موقف الشاه ولى الله من الفروع :

إن الشاه ولى الله وأصحابه إذ يكرهون الجمود فى العقائد والأصول وفى الالتزام بمذهب معين من المذاهب الفقهية ، يريدون أن يعمل الناس بالشرع وفق المذاهب الأربعة وأئمة الحديث بدون التزام وتقيد ، كما نراه أنه مع تمسكه فى الظاهر بالمذهب الحنفى كان يرجح عمل المحدثين والشافعية ويرضاه .

ونرى فى هذه الأيام أن الأغلبية من الديوبنديين تظهر احترامها واعتقادها للشاه ولى الله وأسرته ولكن موقفهم وعملهم يناهزان تماماً موقف الشاه ولى الله وأسرته وأصحابه ، وكأنه لم يبق هناك فرق اليوم بين الديوبندية والبريلوية ، والخلاف الذى نراه لا يعدو أن يكون خلافاً لفظياً .

والملاحظات التالية تبين كيف أن الشاه ولى الله كان يتمتع بسعة النظر وعدم التضيق فى الفروع ، وكيف أن موقف الديوبنديين الحالى يجمع بين ضيق النظر والتحجر ، فإنهم لا يودون أن يسمعوا شيئاً يخالفهم ، مع أن الشاه ولى الله لم يكن يتردد فى العمل بمذهب الإمام الشافعى .

حديث القلتين:

إن الخلاف كبير جدا بين الشافعية والحنفية في طهارة الماء ،
وحديث القلتين هو موضع النقاش وأساس الخلاف بين الفريقين ،
فيقول الحنفية إنه مضطرب ، ويرى الشافعية أنه صحيح ، ولكنه قد
خفي على متقدمي الحنفية أو المالكية ، أو إنهم جميعا قد أخطأوا في
فهم المراد منه ، و « مثاله حديث القلتين فإنه حديث صحيح روى
بطرق كثيرة إلخ (١) » .

ومعنى ذلك أن الشبهات التي نشأت حول مسائل الطهارة بسبب
هذا الحديث يقضى فيها الشاه ولي الله لحق الشافعية ويعتذر عن الحنفية
والمالكية بأن الحديث لم يبلغهم بسبب عدم انتشاره في صدر الإسلام .

قراءة الفاتحة خلف الإمام:

إن الخلاف بين أئمة الحنفية وأئمة الشافعية حول قراءة الفاتحة
خلف الإمام معروف ، وقد ألفت في الموضوع عدة رسائل وكتب
تؤيد أحد الفريقين ، أما الشاه ولي الله فيقول : « وإن كان مأموما
وجب عليه الإنصات والاستماع ، فإن جهر الإمام لم يقرأ إلا عند
الإسكاته ، وإن خافت فله الخيرة ، فإن قرأ فليقرأ الفاتحة قراءة

(١) حجة الله البالغة ١/١٤٧

لا يشوش على الإمام ، وهذا أولى الأقوال عندي ، وبه يجمع بين أحاديث الباب^(١) .

ونرى أن حكم الشاه ولي الله يتسم بالاعتصام والعدالة ، وهو بكره تشدد الفريقين .

رفع اليدين والوتر :

ويقول عند ذكر رفع اليدين في الركوع والوتر : والحق عندي في مثل ذلك أن الكل سنة ، ونظيره الوتر بركعة واحدة أو بثلاث ، والذي يرفع أحب إلى من لا يرفع ، فإن أحاديث الرفع أكثر وأثبت ، غير أنه لا ينبغي للإنسان في مثل هذه الصور أن يثير على نفسه فتنة عوام بلده^(٢) .

ومن الظاهر أن التنفر كان ينشأ في عامة الناس بسبب هذه الأعمال ، وكان الخاصة يشجعونه ، وليكننا نحمد الله تعالى على أن وقت الفتنة لم يبق الآن .

شد الرحال لزيارة القبور :

من المتبع لدى عامة الناس أنهم يشدون الرحال إلى المسافات البعيدة لزيارة الصالحاء ومقاماتهم ، ويلتزمون بهذه الزيارة كشعائر

(١) حجة الله البالغة ٢ / ٩

(٢) " " ٢ / ١٠

الحج ، وبهذا الصدد يقول الشاه ولي الله : « والحق عندى أن القبر
ومحل عبادة ولي من أولياء الله والطور كل ذلك سواء فى النهى ،
والله أعلم ^(١) » .

والمحبون للزيارة من الديوبنديين والبريلويين يتكلمون فى هذه
المسألة بحماس وتجريح ، ولكن الشاه ولي الله يقول بما قال به شيخ
الإسلام ابن تيمية وغيره من أئمة التوحيد رحمهم الله تعالى .
نواقض الوضوء :

إن الفقهاء يختلفون فى نواقض الوضوء ، والشاه ولي الله يبدى
رأيه فيقول : « وأصل موجب الوضوء الخارج من السبيلين ، وما سوى
ذلك محمول عليه ^(٢) » .

الوتر :

وفى الوتر خلاف ، فيراه فقهاء الحنفية واجبا ، والمحدثون سنة .
أما الشاه ولي الله فيقول : « والحق أن الوتر سنة ، هو أوكد السنن ،
بينه على وابن عمر وعبادة بن الصامت رضى الله عنهم ^(٣) » .

(١) حجة الله البالغة ١/١٩٢

(٢) « « ١/١٧٤

(٣) « « ٢/١٧

القنوت :

إن فقهاء الحنفية يرون القنوت واجبا في الوتر ، والشافعية في صلاة الصبح ، وفي ذلك يقول الشاه ولي الله : واختلفت الأحاديث ومذاهب الصحابة والتابعين في قنوت الصبح ، وعندى أن القنوت وتركه سيان ومن لم يقنت إلا عند حادثة عظيمة أو كلمات يسيرة إخفاءة قبل الركوع أحب إلى ، لأن الأحاديث شاهدة على أن الدعاء على رعل وذكوان كان أولا ثم ترك ، وهذا وإن لم يدل على نسخ مطلق القنوت لكنها تؤمى إلى أن القنوت ليس سنة مستقرة^(١) .

الجمع بين الصلاتين :

اختلفت الأئمة في الجمع بين الصلاتين ، وفقهاء الحنفية لا يقولون بالجمع سواء كان مقدما أو مؤخرا ، والجمع الصورى ليس جمعا في الحقيقة بل هو صورته ، ويقول الشاه ولي الله : إن الأوقات الأصلية ثلاثة : الفجر والظهر والمغرب ، وإنما اشتق العصر من الظهر ، والعشاء من المغرب لئلا تكون المدة الطويلة فاصلة بين الذكرين ، ولئلا يكون النوم على صفة الغفلة فشرع لهم جمع التقديم والتأخير لكنه لم يواظب عليه ولم يعزم عليه مثل ما فعل في القصر^(٢) .

(١) حجة الله البالغة ٢ / ١١

(٢) “ “ ٢ / ٢٤

تكبيرات العيدين :

أما تكبيرات العيدين فاختلاف فيها فقهاء الحنفية وفقهاء أهل الحديث ، يقول الشاه ولي الله : يكبر في الأولى سبعا قبل القراءة ، والثانية خمسا قبل القراءة ، وعمل الكوفيين أن يكبر أربعاً كتكبير الجنائز في الأولى قبل القراءة ، وفي الثانية خمسا بعدها ، وهما سنتان ، وعمل الحرمين أرجح^(١) .

العشر في العشر من الماء :

اختلف فقهاء الحنفية وفقهاء الشافعية في الماء الكثير ، فحدده متأخرو فقهاء الحنفية بالعشر في العشر ، وفقهاء الشافعية بالقلتين . ثم لأنهم خاضوا في القياس وأكثروا منه بخصوص عدد الدلاء التي تخرج من البئر التي وقعت فيها النجاسة ، أما الشاه ولي الله فيقول : « وبالجملة فليس في هذا الباب شيء يعتد به ويجب العمل عليه » ثم يقول : « وقد أطال القوم في فروع موت الحيوان في البئر والعشر في العشر ، والماء الجاري ، وليس في كل ذلك حديث عن النبي ﷺ ألبتة^(٢) » .

وهناك مسائل فرعية عديدة في حجة الله والمصطفى والمسوى (مؤلفات الشاه ولي الله) مال فيها الشاه ولي الله إلى فقهاء أهل

(١) حجة الله البالغة ٣١/٢

(٢) “ “ ١٨٥/١

الحديث والشافعية ، الأمر الذي يدل على أنه لم يكن يحب « الحنفية الجافة » والعصبية الجامدة ، بل إننا لا نرى هذا النوع من الجود في قدماء الحنفية ، فإنه قد بدأ في القرن الرابع الهجري ووصل إلى القمة في القرن التاسع ، والمانع الحقيقي من البدعة هو اتباع السلف ، وقد حاربها تقليد الأئمة أيضا ولكن جمود الاعتقاد والتكريم قد دب إليه . أما اتباع السلف وآراء الصحابة المختلفة وفتاواهم فهي متنوعة ولذلك لا يتسرب إليها الجود .

أربع مصلات :

كان البرقوق الجركسي (١٣٨٢ - ١٣٨٩م) قد أنشأ في حرم بيت الله أربع مصلات باسم الأئمة الأربعة . وكان علماء الحق قد عارضوا عمله هذا في ذلك الوقت ، ولكن الحكومة قد ألحت وبقيت على موقفها . وقد اشتد هذا التفريق إلى أن ترك المصلون ائتمام بعضهم ببعض ، فكان الشوافع والحنابلة يجلسون غير مباليين وقت جماعة الحنفية ، كأن هذا الأذان وهذه الصلاة ما أقيمت لهم^(١) . وكذلك كان عمل الحنفية مع الشوافع والحنابلة . وقد أثرت هذه

(١) نحمد الله تعالى على أن الملك سعود بن عبد العزيز رحمهما الله قد هدم هذه المصليات في البناء الجديد لبيت الله ، وقضى على هذه البدعة فالناس يأتمون الآن بإمام واحد .

البدعة في العالم الإسلامي تأثيرا سيئا جدا بأن انتشر التنافر وعم بين أتباع الأئمة . وفي ذلك يقول الشاه عبد العزيز : « إن الله تعالى يعلم أنكم تحدثون بدعة في الزمن الآتي وتقسمون أطراف الكعبة ، ويفتخر كل فريق بجهته فتقوم الحنفية في الطرف الجنوبي وتتجه إلى الشمال ثم تقول مفتخرة بأن قبلتنا قبلة إبراهيم ، وتقوم الشافعية في الطرف الغربي وتتجه إلى الشرق ثم تقول مفتخرة نحن نستقبل باب الكعبة وقبلتنا هي القبلة التي نص عليها^(١) . »

وهذه العبارة صريحة في أن الشاه عبد العزيز يرى التقسيم المذكور بدعة ويكرهه في الإسلام . وقد يحتمل أمر تقليد الأئمة واتباعهم البحث والمناقشة في موضعه ، ولو قام دليل على جواز التقليد الشائع فلا يمكن أن يوجد مبرر للتقسيم المذكور باسم الأئمة رحمهم الله تعالى . أما ملك مسرف مثل البرقوق فلا نتوقع منه إلا مثل هذه الأفعال ، وهو الذي يحمل على عنقه وزر هذا الفعل القبيح وكذلك العلماء الذين وافقوه على ذلك ، ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون^(٢) ﴾ .

(١) تفسير فتح العزيز ٥٤١/١

(٢) الشعراء : ٢٢٧

ماذا يريد الشاه؟

وهناك نتساءل . . . إن هذا الجود خطأ فما هو الصحيح؟ وما هي التغيرات التي يريدها الشاه ولي الله في الأحوال؟ إنه يكره القياس واتباع الرأي ويعيب التمسك بالظواهر ~~فما الذي يرضاه ويحبه؟~~ إنه يبدى رأيه في هذا الأمر مفصلاً وبالحلف المؤكداً فيقول: وأشهد بالله أنه كفر بالله أن يعتقد في رجل من الأمة بمن يخطئ ويصيب أن الله كتب على أتباعه حتماً، وأن الواجب على هو الذي يوجبه هذا الرجل على، ولكن الشريعة الحقة قد ثبت قبل هذا الرجل بزمان قد وعاه العلماء وأداها الرواة وحكم بها الفقهاء، وإنما اتفق الناس على تقليد العلماء على معنى أنهم رواة الشريعة عن النبي ﷺ، وأنهم علموا ما لم نعلم، وأنهم اشتغلوا بالعلم ما لم نشغل، فلذلك قلدوا العلماء، فلو أن حديثاً صح، وشهد بصحته المحدثون، وعمل به طوائف، فظهر فيه الأمر ثم لم يعمل به لأن متبوعه لم يقل به، فهذا هو الضلال البعيد^(١).

وهذا الكلام لا يحتاج إلى تعليق أو توضيح، ولأنه يشير إلى أن الشاه ولي الله يقول بالتقليد بمعنى أن العلماء يروون الكتاب والسنة وباشتغالهم بهذين المصدرين يزداد علمهم ويتوسع فينبغي أن يستفيد

(١) التفهيمات الالهية ٢١١/١

الناس من علومهم ، أما إذا تبين لهم الحديث الصحيح بواسطة سليمة فلا حاجة بهم إلى تقليد العلماء والتمسك بأرائهم . ومن تعصب لعالم أو فتح باب التأويل لا تنصار جماعته بعد علمه بالحديث الصحيح فقد ضل ضلالا بعيدا ، وهذا الذي يكرهه الشاه ولي الله ويؤكد ضلاله .

طريق آخر :

يقترح الشاه ولي الله للقضاء على الجود الفقهي أن يلفق بين المذاهب المختلفة ، ويحاول العمل بالمذهب الحنفي في بعض المسائل وبالمذهب الشافعي في الأخرى ، في ضوء المصالح وما تقتضيه ، يقول : « ونشأ في قلبي داعية من جهة الملاء الأعلى ، تفصيلها أن مذهبي أبي حنيفة والشافعي هما مشهوران في الأمة المرحومة ، وهما أكثر المذاهب تابعا وتصنيفا ، وكان جمهور الفقهاء المحدثين والمفسرين والمتكلمين والصوفية متمذهبين بمذهب الشافعي ، وجمهور الملوك وعامة اليونان متمذهبين بمذهب أبي حنيفة ، وإن الحق الموافق لعلوم الملاء الأعلى اليوم أن يجعل كـ مذهب واحد ، يعرضان على الكتب المدونة في حديث النبي ﷺ من الفريقين ، فما كان موافقا بها يبق وما لم يوجد له أصل يسقط ، والثابت منها بعد النقد إن توافق بعضه بعضا فذلك الذي يعرض عليه بالنواجز ، وإن تخالف تجعل المسألة على قولين ويصحح العمل عليهما ، أو يكون من قبل اختلاف أحرف القرآن ،

أو على الرخصة والعزيمة ، أو يكونان طريقين للخروج من المضيق كتعدد الكفارات ، أو يكون آخذا بالمباحين المستويين ، ولا يعدو الأمر هذه الوجوه ، إن شاء الله تعالى^(١) .

وقد أحس الشاه ولي الله ضرورة التوحيد بين مذهبي أبي حنيفة والشافعي لأنه رأى كثرة الأحناف في الهند وكثرة الشوافع في الحجاز، ولو أمكنه الاطلاع على كثرة الحنابلة في نجد وكثرة الموالك في السودان لأوجب التوحيد بينهما أيضا وكذلك بين الجميع بنفس السبب ، والتوحيد بين المذاهب الأربعة يمكن أن ينفع ويقضى حاجة دينية . والشاه ولي الله يرى المصالح في الأحكام من روح الإسلام ، ويبدو أن جمود الأفكار الفقهية كحمل ثقل على ذهنه ، وهو دائم التفكير فيه ، لأنه ينصح الطلاب ويفرق بين علوم الدين وعلوم الدنيا فيقول : « خضتم كالحوض في استحسنات الفقهاء من قبلكم وتفرعاتهم ، أما تعرفون أن الحكم ما حكمه الله ورسوله ، ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به ويقول إنما عملى على مذهب فلان لا على الحديث ، ثم اختال بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن المكمل المهمة ، وإن الأئمة لم يكونوا بمن يخفى عليهم هذا الحديث ، فما تركوه إلا لوجه ظهر لهم في الدين من نسخ ومرجوحية^(٢) » .

(١) التفهيمات الإلهية ٢١١/١ - ٢١٢

(٢) ٢١٤/١ “ “

✓ إن الشاه ولي الله يحترم الأئمة ولكنه مع سعة علمهم لا يستحسن الاعتماد عليهم وحسن الظن بهم بحيث يلزم صرف النظر عن الحديث الصحيح ، وهذا هو عيب التقليد الشائع الذي يحيك في صدره ، ولذلك نصح الطلاب بأن يفكروا في الحديث بتفكير أعلى من ذلك .

مسلك الشاه ولي الله :

ومن توضيح النظرية السابقة ظهر أن الشاه ولي الله يرى من الواجب أن يتبع عامة الناس العلماء ويطيعوهم ، ولكن لا حاجة إلى تعيين شخص للتقليد مثل الرسول ، ولا يستحسن الجود في ذلك . وقد ذكر الشاه ولي الله في حجة الله وفي المصنف طائفتي أهل الحديث وأهل الرأي ، لو نعلم من كلامه في الكتابين أنه يعتبر الأئمة كلهم سوى أئمة الكوفة من أهل الحديث ، فهم يبنون اجتهادهم واستدلالاتهم على الكتاب والسنة لا على قواعد أسانذتهم وأساطينهم . أما عامة الناس من الشوافع والموالك والحنابلة فلا يرضاهم الشاه ولي الله ، فإن لديهم جمودا وتعصبا ، وانظروا على سبيل المثال إلى الإمام أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي ومكانته الرفيعة في العلم ثم إلى أسلوب كلامه الخشن المرئي في الإمام الشافعي في كتابه أحكام القرآن ، وليس ذلك إلا من التعصب ، ونرى هذا التعصب ومرارة الكلام في جميع المذاهب .

وان ذلك اختار الشاه ولي الله طريقة أخرى للعمل على النظرية السابقة، والحق أنه ليست هناك طريقة غيرها، يقول في المقالة الوفية في النصيحة والوصية: «وصية هذا الفقير الاعتصام بالكتاب والسنة في العقيدة والعمل والتفكير فيهما دائماً، وقراءة جزء منهما كل يوم، وإن لم يستطع القراءة فيسمع ترجمة ورقة من كليهما، واختيار مذهب قدماء أهل السنة في العقيدة، والاعراض عن تفصيل ما لم يفعلوه، وعدم التوجه إلى تشكيك أهل المعقول، واتباع العلماء المحدثين في الفروع، فهم قد جمعوا بين الحديث والفقه، وعرض الفروع الفقهية دائماً على الكتاب والسنة، وقبول ما يوافقهما ورد ما لم يوافق، والامة لا يمكن أن تستغنى في أى وقت عن عرض مسائل الاجتهاد على الكتاب والسنة، وعدم الاستماع إلى أقوال الفقهاء المتكشفين الذين تمسكوا بتقليد عالم وتركوا اتباع السنة، وعدم الالتفات إليهم، وطالب تقرب الحق بدونهم^(١)».

وتناسب طريقة الفقهاء والمحدثين من له إلمام بالشريعة، أما عامة الناس فينبغي أن يلفقوا بين الفقه الحنفى والفقه الشافعى عند مسيس الحاجة ويختاروا ما هو أوفق بالكتاب والسنة، يقول: «ونحن نأخذ من الفروع ما اتفق عليه العلماء، لاسيما هاتان الفرقتان العظيمتان: الحنفية

والشافعية ، وخصوصا في الطهارة والصلاة ، فإن لم يتيسر الاتفاق واختلفوا فنأخذ بما يشهد له ظاهر الحديث ومعروفه^(١) .

واوصرفنا النظر عن المنافرة والمجافاة التي توجد اليوم وعن أسبابها ، لقننا إن مسلك أهل الحديث بالهند كان يهدف إلى الوحدة التي سبقت الإشارة إليها ، ولكن العصبية الطائفية قد شوهتها ، والاهتمام بالتقليد الشخصي والجزئيات الفقهية في دولة حرة ، ومطالبة الحكومة بأن تعتبر المذهب الحنفي مساويا للإسلام أمر يضر الإسلام والمسلمين . ولاشك أن الفتاوى العالمية كيرية عمل ديني وعلمي كبير قام به العلماء في ذلك الوقت ، وكان والد الشاه ولي الله الشاه عبد الرحيم مشتركا في تأليفه وتشكيله ، ولكن الشاه ولي الله رأى بنظرته الثاقبة أن هذا العمل لا يكفي لسد الفتن المنتظرة ، وكان لا يحب أن يسمى الاستحسان الفقهى باسم الدين والشريعة وأن يعتبر أصول الفقه وثيقة شرعية . بل كان يهدف إلى أن يوفق بين المذاهب الأربعة ومذهب الفقهاء المحدثين وتؤسس مدرسة فقهية لا تكون فيها ظاهرية الحافظ ابن حزم التي تشين النصوص وتبعدا عن الفصاحة والبلاغة اللتين عهدناهما لدى النبي ﷺ وصحابته ، ولا الاهتمام البالغ بالقياس والرأى بحيث يتحكم في النصوص تدقيق العلماء وافتراضهم الحيل ولا يبقى لها

معنى واضح كما نرى لدى الفقهاء المتأخرين الذين أنشأوا قصرا جديدا للدين بالفروض والتخييل مثل فتاوى قاضى خان والشامى والأشباه والنظائر حيث لم يبق معنى لتوجيهات تلك العلوم ومستنبطاتها.

مغالطة كبيرة وأهل الحديث:

منذ زمن قليل نرى مغالطة تنتشر بين عامة الناس ، حتى قد أصيب بها المتمعنون أصحاب الجد ، وهى أن أهل الحديث لا يكفونون مدرسة فكرية فى الإسلام بل قد أطلق هذا الاسم على حفظة الحديث والنابعين فى فنه . وقد ساند هذه المغالطة بعض الحركات فى بلادنا وكذلك من له معرفة ناقصة بالمذاهب ومبادئها ، وهو مصاب على ذلك بالعصبية الطائفية .

ومما لاشك فيه أن الاشتغال بفن الحديث وحفظه وضبطه كان معروفا ومستمر فى المذاهب الأربعة ، وقد خدم أصحاب هذه المذاهب علم الحديث وأصوله وعلم أسماء الرجال ولكن كان هؤلاء العلماء يتبعون إمامهم ويسرون على منهجه فى فهم الحديث ، وعلى سبيل المثال نذكر أسماء العلماء الآتية : الحافظ الطحاوى ، والعلامة الترمذى ، والحافظ البيهقى ، والحافظ بدر الدين العيني ، والحافظ ابن حجر العسقلانى ، هؤلاء الأعلام مع إسهامهم الكبير فى خدمة الحديث كانوا متمسكين بالمنهج الفكرى الخاص بالحنفية أو الشافعية ، وكذلك الحال

في المالكية والحنابلة، ففهم من خدم الحديث مع تمسكه بمذهبه التقليدى، وهؤلاء لم يتقدموا خطوة في فهم الحديث ولم يتجاوزوا الحدود التي وقف عندها أنتمهم. ثم إننا نرى أن بحوثهم وأقوالهم تنقسم أحيانا بالشدة ضد مخالفهم ولكنهم مع ذلك يعدون خداما للحديث.

مدرسة أهل الحديث :

ولكن مدرسة أهل الحديث تختلف عن ذلك تماما، وأصحابها أحرار في تفكيرهم من هذه الالتزامات الشخصية، وهم ليسوا متقيدين بالاجتهاد الشخصى سواء كانوا مجتهدين أم لا، بل يبحثون عن الأدلة والأصول، ويفكرون في المسائل التي تواجههم في ضوء الكتاب والسنة وأقوال الأئمة، ولا يبالون سواء خالف موقفهم اجتهاد الأئمة الأربعة أو وافقهم، بل ينظرون إلى المصالح. وقد عقد الشاه ولي الله في حجة الله بابا عنوانه «باب الفرق بين أهل الحديث وأهل الرأي، وبهذا يتبين أنه يريد ذكر مدرستين فكريتين، وفي هذا الباب يذكر أصولا^(١) ثم يقول: فإن عجزوا عن ذلك أيضا تأملوا في عمومات الكتاب والسنة وإيماءاتها واقتضاءاتها وحملوا نظير المسألة

(١) وقد سبق ذكر هذه الأصول، وقد نشر أصحاب الجماعة الإسلامية هذه المغالطة كثيرا، ولعلها تنفعهم، ولكن أدلة العلم والتحقيق تنفي ذلك.

عليها فى الجواب إذا كانتا متقاربتين بادية الرأى لا يعتمدون فى ذلك على قواعد من الأصول ولكن على ما يخلص إلى الفهم ويثلج به الصدر ، كما أنه ليس ميزان التواتر عدد الرواة ولا حالهم ، ولكن اليقين الذى يعقبه فى قلوب الناس ، كما نبهنا على ذلك فى بيان حال الصحابة^(١) .

وهذه القطعة تصرح بأن اسم أهل الحديث لا يطلق على الذين يكتبون بحفظ الحديث ، بل لديهم أصول لفهم الأحاديث والاستدلال بها ، وهى مأخوذة من الكتاب والسنة ، وليست تقليدية بل يحصل بها اليقين والطمأنينة ، ثم يقول : « ومنها أنى وجدت بعضهم يزعم أن هناك فرقتين لا ثالث لهما ، أهل الظاهر ، وأهل الرأى ، وأن كل من قاس واستنبط فهو من أهل الرأى ، كلا والله ، بل ليس المراد بالرأى نفس الفهم والعقل ، فإن ذلك لا ينفك من أحد من العلماء ، ولا الرأى الذى لا يعتمد على سنة أصلاً ، فإنه لا ينتحله مسلم البتة ، ولا القدرة على الاستنباط والقياس ، فإن أحمد واسحاق بل الشافعى أيضاً ليسوا من أهل الرأى بالاتفاق وهم يستنبطون ويقيسون ، بل المراد من أهل الرأى قوم توجهوا بعد المسائل المجمع عليها بين المسلمين أو بين جمهورهم إلى التخرج على أصل رجل من المتقدمين ، فكان

(١) حجة الله البالغة : ١٤٩/

أكثر أمرهم حمل النظر على النظر و الرد إلى أصل من الأصول دون تتبع الأحاديث والآثار ، والظاهرى من لا يقول بالقياس ولا بآثار الصحابة والتابعين مثل داود وابن حزم ، وبينهما المحققون من أهل السنة^(١) .

وتستنبط النتائج التالية من كلام الشاه ولى الله هذا :

١ - إن اسم « أهل الحديث » لا يطلق على أصحاب فن الحديث فقط ، بل هو اسم لمدرسة فكرية .

٢ - سائر الأئمة المجتهدين سوى فقهاء الكوفة منضمون إلى أهل الحديث ، وإن لم نسم أتباعهم ومقلديهم باسم أهل الحديث .

٣ - إن أهل الحديث يسلون بحكم النظائر والقياس الجلى ويقولون بالاجتهاد والاستنباط .

٤ - أهل الحديث وأهل الظاهر مدرستان مختلفتان ، وأهل الرأى مختلفون عنهما .

٥ - إن أهل الحديث يعدون أقوال الصحابة والسلف مع الكتاب والسنة أيضا أصلا من الأصول وبينون عليه فهمهم واستنباطهم .

٦ - إن أهل الرأى يأخذون بأصول علماء معينين فى استنباط المسائل ولا ينظرون إلى الكتاب والسنة .

(١) حجة الله البالغة ١/١٦١

٧ - إن مدرسة أهل الحديث تختلف عن أهل الرأي وأهل الظاهر .
وقد صرح الشاه ولي الله بمثل هذه التصريحات في تصانيفه
الأخرى سوى حجة الله مثل التفهيمات ، والإيضاف ، وعقد الجيد
وغيرها .

وقد كثرت كتابات الشاه عبد العزيز على هذا الموضوع في
الفتاوى العزيرية وتفسير فتح العزيز ، وقد فصل السيد أحمد الشهيد
الكلام عن الجمود والتقليد الشائع في كتاب الصراط المستقيم ، وأيد
الشاه اسماعيل الشهيد ما ذهب إليه السيد أحمد ، وكذلك وضع العلامة
الشوكاني في القول المفيد مسلك أئمة الحديث ، وأيد الإمام صالح بن
محمد الفلاني (م ١٢١٨ هـ) مذهب المحدثين في كتاب إيقاظ همم
أولى الأبصار ، وذكر ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله أهل
الحديث وأهل الرأي وصحح مسلك أهل الحديث ورجحه ، والكلام
عن هذه التصريحات يحتاج إلى وقت ومناسبة ، ومن يطلع عليها من
محبي الحق والواقع يصل إلى أن أهل الحديث ليس اسمًا لحفظة
الحديث فقط ، بل هو يدل على أنهم أصحاب فكرة ومدرسة ، يبنون
فقههم واجتهادهم على الكتاب والسنة وأقوال سلف هذه الأمة رحمهم
الله ، بحيث لا يسع مذهبهم التقليد الشخصي والجمود أصلاً .

والعلامة الشهرستاني المتوفى سنة (٥٤٨ هـ) قد عاش في عصر
قريب جداً من عصر الجمود ، وله نظرة عميقة واسعة في موضوع

اجتماع الفرق والمذاهب وافتراقها ، وكتابه الممل والنحل يعد وثيقة قيمة في هذا الموضوع ، ويبدو من تصريحاته أيضاً أن أهل الحديث مدرسة فكرية ، ولها أهمية كبرى في المدارس الفقهية ، وليس يغنى هذا الاسم خدام الحديث فقط ^١ يقول : « ثم المجتهدون من أئمة الأمة محصورون في صنفين لا يعدوان إلى ثالث : أصحاب الحديث ، وأصحاب الرأي ، أصحاب الحديث - وهم أهل الحجاز - هم أصحاب مالك بن أنس وأصحاب محمد بن إدريس الشافعي وأصحاب سفيان الثوري وأصحاب أحمد بن حنبل وأصحاب داود بن محمد الأصفهاني ، وإنما سموا « أصحاب الحديث » ، لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص ، ولا يرجعون إلى القياس الجلي والخفي ما وجدوا خبراً أو أثراً ^(١) .

وبعد ذلك يقول : « أصحاب الرأي - وهم أهل العراق - هم أصحاب أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومن أصحابه محمد بن الحسن وأبو يوسف يعقوب بن محمد القاضى وزفر بن هذيل والحسن بن زياد اللؤلؤى وابن سماعة وعافية القاضى وأبو مطيع البلخي وبشر المريسي ، وإنما سموا أصحاب الرأي لأن عنايتهم بتحصيل وجه من القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها ، وربما يقدمون القياس

(١) الممل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل في الممل لابن حزم ٤٥/٢

الجلي على آحاد الأخبار^(١)،

✓ ويبدو أن الشاه ولي الله أراد شرح كلام الشهرستاني المذكور
آنفاً في باب الفرق بين أهل الحديث وأهل الرأي، في كتابه
حجة الله. ✓ ونحن الآن نريد أن نصصح الخطأ الفاحش الذي نشره
بعض الأوساط العلمية والذي يذهب إلى أن «أهل الحديث» اسم
أطلق بناء على خدمة فن الحديث. ✓ ولكن كلام الشهرستاني يدل على
أنهما مذهبان فكريان قديمان، كان كل منهما يستفيد من الآخر مع
الخلاف القائم بينهما بدون أن يكفر أحدهما الآخر.

✓ والشهرستاني في العبارتين يصرح بأن أصحاب الحديث مدرسة
فكرية قامت بحفظ الأحاديث متونها وأسانيدها، وبوبتها فقهياً،
واستدلّت بها في العقائد والفروع، وهي لم تكن تهتم بالآراء الشخصية،
فلم تجمع لها مجموعة فقهية يقلدها الناس ويعتمدون عليها، ولكنها
سمت طريقة الاستنباط من الكتاب والسنة وأوضحت منزلة النصوص
الشرعية من الآراء الشخصية وأوصلت إلينا ذخيرة علمية كبيرة هي
فقه الحديث النبوي.

وإليك كلام إمام التاريخ ومؤسس النقد التاريخي العلامة
عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨ هـ) يقول: «وانقسم الفقه

(١) الملل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل في الملل لابن حزم ٢/ ٤٦

فيهم إلى طريقين : طريق أهل الرأي والقياس ، وهم أهل العراق ، وطريق أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز . وكان الحديث قليلا في أهل العراق لما قدمناه ، فاستكثروا من القياس ومهروا فيه فلذلك قيل لهم أهل الرأي ، ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة^(١) .

ان منزلة ابن خلدون في علم التاريخ ليست خافية على أهل العلم ، وهو في كلامه يصرح بأنه لو قصر اسم أهل الحديث على حفاظ الحديث لكان ذلك جهلا بالتاريخ أو نقصا في الأمانة بسبب التعصب . وهكذا قد مر كلام العلامة أبي المنصور عبد القاهر البغدادي المتوفى (٤٢٩ هـ) .

وللعلامة حاجي خليفة بصر بأصحاب المذاهب ومؤلفاتهم كما يدل عليه كتابه « كشف الظنون » وهو يقول : « وأكثر التصانيف في أصول الفقه لأهل الاعتزال المخالفين لنا في الأصول ، ولأهل الحديث المخالفين لنا في الفروع »^(٢) .

ومن البين أن المؤلفين في أصول الفقه ليسوا مقصرين على حفظ الألفاظ بل لهم نظرة علمية إلى فهم الألفاظ ، وبصر بأصول الفقه ، ولذلك لا يسميهم بأهل الفن إلا متفني ، أما العالم فلا يجترئ عليه .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٩

(٢) كشف الظنون ١١٤/١ ، وانظر أبعاد العلوم أيضا ٣٢٥/١

أهل الحديث والمتكلمون :

لا يخفى على علماء تاريخ المذاهب ما قام به الفلاسفة والمتكلمون نحو صفات الله تعالى في القرن الثاني من الدجل والتلبيس ، وقد قاوم أهل الحديث في ذلك العصر هذه الفتنة مقاومة جريئة سجلها التاريخ ، وليست مصائب الضرب والحبس التي نزلت بأهل الحديث وتحملوها بصبر واحتساب درسا ينسى . وقد بدأت هذه الفتنة في القرن الثاني الهجري واستمرت إلى القرن الثامن . وقد ورد ذكر أهل الحديث كثيرا في مؤلفات المتكلمين وفقهاء المحدثين في ذلك العصر . ولم يكن التمسك بظواهر النصوص أمام أرباب التأويل ومواجهة المخالفين أمرا هينا ، ولكن أهل الحديث قد أبلوا في ذلك بلاء حسنا ، والذين يدرسون التاريخ يعرفون جيدا ما لاقته هذه الجماعة منذ عصر المأمون إلى عصر المتوكل على الله ، وقد سجلت مؤلفات ذلك العصر الموضوعات التي تناولها الفريقان ، وورد فيها ذكر أهل الحديث بطريقة لا تدع مجالاً للشك في أن المراد بهم ليس من يقتصر بحفظ الألفاظ ، بل الذي ينظر إلى معانيها وينزل في أعماقها .

والحافظ العلامة ابن القيم وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله من جنود تلك المعركة الحادة ، وهما قد تناولا في مؤلفاتهما ذكر أهل الحديث باحترام واعتقاد بما يدل على أنهم ليسوا حفظة

الألفاظ فقط، بل هم الذين سدوا باب فتنة الاعتزال والتجهم والتشبيه والتعطيل، وذلك عمل عظيم.

وكتاب الحافظ ابن القيم «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» يعتبر رجز هذه المعركة ونشيدها، يذكر فيه أهل الحديث ضمن العلماء الذين وقفوا أمام الفلاسفة والمتكلمين وجهاً لوجه ودافعوا عن السنة وأنقذوا عامة المسلمين من تلبيس التأويل، يقول:

لا تبهتوا أهل الحديث به فما ذا قولهم تبها لدى البهتان ١٠٨
هذا هو الحشوى لا أهل الحديث أئمة الإسلام والايمن ١٠٨
أسماء سميت بها أهل الحديث وناصرى القرآن والايمن ١٠٩
من سبهم أهل الحديث ودينهم أخذ الحديث وترك قول فلان ١١٢
وكذلك أصحاب الحديث فإنيهم ضربت لهم ولكم بذا مثلان ١١٣
والى أولى العرفان من أهل الحديث خلاصة الإنسان والأكوان (١) ١١٣
وهكذا لا توجد ورقة من القصيدة النونية إلا وفيها يذكر مدرسة أهل الحديث.

ويقول العلامة البزدوى في خبر الواحد: «قال بعض أهل

(١) شرح القصيدة النونية ص ٣٣٠-٣٤٣ و ١٦٩ المعرفة برون ١١٢-١١٣

الحديث : يوجب علم اليقين^(١) .

ويقول العلامة عبد العزيز البخاري (م - ٧٣٠ هـ) شارح أصول البزدوى : « ذهب أكثر أصحاب الحديث إلى أن الأخبار التي حكم أهل الصنعة بصحتها توجب علم اليقين^(٢) » .

والعلامة عبد العزيز البخاري يطعن في أهل الحديث وهو يذكر حججـة المرسل فيقول : « ولأنهم سموا أنفسهم أصحاب الحديث وانتصبوا أنفسهم لحيازة الحديث والعمل بها ثم ردوا منها ما هو أقوى أقسامها^(٣) » .

ومن المعلوم أن هذا الكلام لم يوجه على أساس حفظ الألفاظ ، بل على أساس مسألة علمية ذهب فيها أهل الحديث إلى خلاف ما ذهبـت الحنفية إليه .

وفي موضع آخر من كشف الأسرار نفسه يذكر جواز استعمال الرأي والاجتهاد فيقول : « هو منقول عن أبي يوسف من أصحابنا ، وهو مذهب مالك والشافعي وعامة أهل الحديث^(٤) » .

(١) أصول البزدوى ٢/١٩٠

(٢) " " ٢/١٩٢

(٣) " " ٢/٢٢٥

(٤) " " ٣/١٢٥

وهكذا ورد فيه ذكر مذهب أهل الحديث في مواضع كثيرة، ومثله في كتاب غاية التحقيق شرح الحسامي.

ومؤلفات القدماء تذكر مع المذاهب الأخرى مذهب أهل الحديث وبخاصة في أصول الفقه فإنه — كما قال العلامة حاجي خليفة — من إنشاء المعتزلة لأهل الحديث، أما المتأخرون فقد ازداد تعصبهم، وانتقلت السلطة إلى أهل العصبية، وفتنوا بها فأقلوا ذكر أهل الحديث وتنفروا منهم، وهذا كله يدل على أن حصر أهل الحديث في حفاظ الألفاظ نوع من الجمل والسذاجة.

وكان مذهب أهل الحديث سائدا في فارس كلها إلى القرن الثالث وفيها نشأ أكثر أصحاب الحديث من مؤلفي الصحاح والسنن وغيرهم، وفقههم الله تعالى لأن ينقلوا العلوم إلى الأجيال القادمة فنقلوا وأدوا واجبههم، جزاهم الله عن المسلمين أحسن الجزاء.

وكان هؤلاء الأئمة على منزلة رفيعة من العلم فقد ذكرت آراؤهم في تجويد القرآن على أساس مذهب مستقل. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله^(١)﴾. فقد اختلف أهل العلم في الوقف على كلمة إلا الله، ويقول العلامة محمد بن محمد الدمشقي المتوفى (٨٣٣هـ) في كتابه القيم المعروف «النشر في القراءات العشر»: «إن الوقف على كلمة إلا الله تام، وهو مذهب أبي حنيفة وأكبر أهل

(١) آل عمران: ٧

الحديث^(١) . ومعنى ذلك أن قداماء أهل الحديث كانوا يجيدون العلوم التي يفتخر بها الفقهاء المتأخرون .

الفقه وأهل الحديث :

كما نسمع أيام الصبا أن مثل أهل الحديث مثل الصيادلة ، ومثل الفقهاء مثل الأطباء . وكنا نفهم من هذا أن هناك فرقتين ، ففرقة الفقهاء لا تشتغل بالصيدلة ، وفرقة أهل الحديث لا تشتغل بالطب ، ولكن الفرصة متى سنحت لدراسة علوم الحديث والاطلاع على كتبه تبين لنا أنهما ليستا فرقتين ، بل الكل سائر في مجال العمل على طريقة خاصة تلائم وطبيعته ، وليس معنى ذلك أن المحدثين لا يعلمون الفقه ، والفقهاء لا يعلمون الحديث . فالله تعالى قد وهب للجميع عقلا واستعدادا فكريا ، ومن استخدمه لأمر أعطى إياه .

وحينما ندرس أحوال أئمة الحديث نشعر أنهم كانوا شاهدي مجلس الرسول ﷺ ، فالاشتغال بكتابة الحديث وحفظه وضبطه والتفقه فيه كان موجودا ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحفظون الحديث ويعاودونه كما يفعل حفظة القرآن ، وكذلك كانوا يجتهدون لفهمه وتفقهه ، ولكن جهودهم بهذا الصدد لم تكن مدونة مثل الكتب ، بل كانت مثل المذكرات والتعليقات ، وهم كانوا يحملون غوامضه بدون أن يروا

الحاجة إلى كتابته مثل كتب الفقه وشروح الحديث ، وهم بعد ذلك كله كانوا يوصفون بالفقه وبالحديث فكانوا أهل الحديث وأصحاب الفقه . ومن المعلوم أن هناك فرقا بين جمع العلم وبين فهمه الصحيح ، وقد نقل الإمام أحمد بن حنبل في مسنده مذكرة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده كاملة ، وقد طبع مسند أبي هريرة عن وهب بن منبه . وفي عصر التابعين قد ازداد المجهود فتضخمت المذكرات وكثرت التعليقات ونجد في عصرنا هذا مذكرات الإمام الزهري وابن عيينة وعمر بن عبد العزيز ، وقد جمعت هذه المذكرات في مسند الإمام أحمد بن حنبل في صورة المسانيد ، وهو موزع في ستة أجزاء كبيرة مطبوعة أو غير مطبوعة منذ قرون . وكان ذلك العصر عصر الفقهاء والمحدثين ، وهم جميعا كانوا يحفظون الحديث ويفهمون معانيه ويفتقون ، وبين أيدينا اليوم كتب كثيرة مثل المحلى لابن حزم والمغنى لابن قدامة والمصنف لابن أبي شيبة تروى لنا كمية كبيرة من آثارهم وأقوالهم ، ولا فرق في أن سميناهم فقهاء أو أثرا ، فهم قد تفقهوا في القرآن والسنة ثم أصدروا هذه الفتاوى ، وهي قد صارت أساسا لفقه المحدثين في اجتهادهم واستنباطهم^(١).

عصر تدوين الحديث :

وقد بدأ بعد ذلك عصر تدوين الحديث ، فجمعت الأحاديث تحت الأبواب كما نرى فى الجامع الصحيح للبخارى ومسنن النسائى والترمذى وموطأ الإمام مالك ومسنن ابن ماجه ، فإن مؤلفيها قد قاموا بالتبويب وباستنباط المسائل من الأحاديث ، وذلك يورث قوة الاستنتاج فى الإنسان . أما الكتب الفقهية للذاهب الأربعة فلم تتضمن إلا نقل المسائل ، وهى لا تؤدى إلى ملكة الاستنباط إلا فى القليل النادر . وبعد وجود كتب الحديث المذكورة كيف يسوغ لأحد أن يقول إن المحدثين ما كانوا فقهاء ، وإنهم كانوا يقتصرون على حفظ الحديث ؟ إن العالم الذى له إمام يكتب الحديث لن يحترى على القول بأن أئمة الحديث كانوا غير فقهاء . وهذا هو الإمام البخارى الذى بوب جامعه الصحيح فأدهش أصحاب الفقه وأهل النظر الكبار وأوقعهم فى حيرة واستغراب ، وكذلك قد دل تبويب سائر المحدثين الأئمة مثل أبى داود والنسائى والترمذى ومالك وابن ماجه لكتبهم على مكانتهم الفقهية وبصيرتهم النافذة ، ونظرا لاستخراج المسائل من الأحاديث وفهمها فنضطر إلى أن نقول إن تبويب أئمة الحديث يشتمل على الفقه الحق الأصيل .

أما إذا كان الفقه عبارة عن الأمور الوهمية الفرضية ، ويتعلق

بالأعمال والأحكام النادرة التي لا يمكن وقوعها فلا شك أن مثل هذا الفقه لا يوجد في الحديث ولا عند أهله ، بل هو يوجد في فقه العراق ، ولكنه ليس بفقه حقا ، أما أئمة الحديث فكانتهم أرفع بكثير من الفقهاء المصطلح عليهم .

أما ترتيب الأحكام على الصور الفرضية فليس بعسير ، ولكن أهل الحديث لا يرضون بأن يسموا « علم ما لم يقع والجهل مما وقع » فقها . ويريد الشاه ولي الله أن يكون الفقه الذائع مؤيدا من قبل الحديث النبوي وآثار السلف ، وكذلك يوفق بين الظاهرية المحضة وبين النفقه والقياس الجلي . وإلى هذا تهدف حركة أهل الحديث الهندية فيبتعد عنها الآخرون ويتنفرون . وقد اشتركت الطائفتان الديوبندية والبريلوية في بغض أهل الحديث ، ولسنا نستغرب موقف البريلوية العدائي من أهل الحديث ولا نشكوه إلى أحد ، فإنهم قد بنوا مذهبهم على العواطف والهتافات ، وحسبوا أن الشريعة عبارة عن العادات والتقاليد التي اتخذها عامة الناس ، وأن المظاهر المصطنعة هي تقديس واحترام ، وهي التي تغنيهم عن الكتاب والسنة . . . فهو لاء لوخافوا صوت التوحيد والسنة فلا غرابة في ذلك ، أما الديوبندية فلا نعلم سببا لا بتعادهم وتوحشهم من كلمة « الوهابية » .

وبعد ما ساء « بالاكوت » حدث تحول ملموس في المسلمين فانضم الديوبنديون إلى التصوف الشكلى ، واشتغلوا بالبيعة والإرادة فاقتربوا

جدا من البريلوية ، وضعف تمسكهم بالآذكار والأوراد التي ثبتت بالسنة ، وقل اهتمامهم بأوقات الصلاة وأداء أفعالها بالسكينة والطمأنينة والخشوع والانتابة . وكان هذا الانحطاط قد بدأ بعد عصر الشاه اسحاق رحمه الله تعالى ، ولكنه ازداد في العصور التالية ، ومع ذلك كان البعض متمسكا بعقيد التوحيد الصحيحة ، ولكن أكثرهم استسلموا أمام القبوليين ، وهكذا قضى على القافلة التي نزلت في عرصة بالاكوت لإعلاء كلمة الدين ولحماية التوحيد والسنة ، والتي التزمت بنشر رسالة الإسلام في ضوء عوامل وأهداف الشاه ولي الله التجديدية وذلك لأنها خافت البريلوية وفضعت من تهمة « الوهابية » التي وجهت إليها ، وهكذا فارقت رفاقها الموحدين وحاولت الصلح مع البريلوية ، فاندحرت بعد ٦ مايو ١٨٣١ م ، ولم تنسحب عن ساحة الحرب فحسب ، بل تخلت عن مبادئ الحرية الفكرية ومقاومة الجود . وفي السطور الماضية قد ذكرت أهداف حركة الشاه ولي الله على لسانه وبكلماته ، والقارىء يستطيع بسهولة أن يحكم بأن الأمانة التي وصلت إلينا من الشاه لم يتم الحفاظ عليها مع كثرة الاحترام والاعتقاد له . نعم إن السيد نذير حسين رحمه الله ، وهو من تلاميذ الشيخ اسحاق ، وكذلك تلاميذه هم قد حافظوا على هذه الحركة وبذلوا الجهود لإحيائها إذا تحولت إلى حركة سرية خفية وصعب تحقيق أهدافها السياسية . ومن هؤلاء المخلصين الذين قدموا تضحيات

كبيرة رائعة في سبيل إحياء هذه الحركة المقدسة : الشيخ ولايت علي، والشيخ عنايت علي، والحافظ عبد الله الغازيفوري، والشيخ عبد العزيز الرحيم آبادي، والشيخ ولي محمد، والشيخ فضل إلهي، والشيخ محمد حسين وغيرهم، رحمهم الله تعالى. أما أصحاب ديوبند فكانوا يعملون في حركات البلاد العامة لأهداف، أما هذه الحركة الدينية المحضة فلم تحظ منهم بعناية وجهد كبيرين. وحينما تم انقسام شبه القارة إلى الهند وباكستان تغير الوضع وابتعد هؤلاء كثيرا عن منهج الشاه ولي الله، والجمود الديني الذي حاول الشاه ولي الله القضاء عليه وجد حماية من الديوبنديين وهم قد تبنا الدعوة إليه ودعموه. والذي أرى وأؤمن به هو أن جماعة أهل الحديث هي التي حافظت على حركة الشاه ولي الله، وحققت أهدافها العلمية والفقهية والسياسية والاقتصادية حسبما ساعدتها الظروف :

« عاهدت الحبيب بأنى كلما حيت أحب محبيه مثل حبى لنفسى^(١) ».

وقد نتج عن مجارة الديوبنديين للصاحبة أنهم لقبوا بالدعاة إلى التوحيد بلقب « الخوارج » وأشاعوا عنهم أنهم ليسوا على مذهب الديوبندية. وتدعيما لموقفهم هذا وإشباعا لنزعتهم الانتقامية قد أبرزوا

(١) ترجمة بيت فارسي نصه :

در عهدیست باجانان که تا جان در بدن دارم
هوا خواهان گویش را چون جان خویشتن دارم

مسائل جديدة لم تكن لها أهمية أو شهرة فيما قبل .
انفصال عن الشاه ولي الله :

وفي هذه الأيام ظهرت طائفة جديدة من الشبان لا تؤمن بأهداف الشاه ولا ترضاها ، بل تثير فيه الشكوك وسوء الظن بصورة غريبة ، ويبدو أن هؤلاء متأثرون بالمدعو محمد زاهد الكوثرى المصرى ، ومن أكبر ميزاتهم أنهم يثيرون الشكوك فى أئمة الحديث ويحملون على إساءة الظن إليهم ، إنهم يزيدون ويحذفون فى تذاكر الرجال حتى يتسنى لهم الطعن فى أئمة الحديث ، ومنهم شخص محترم يقول فى الشاه ولي الله :

« وأما ما قال رحمه الله وإن شئت حقيقة ما قلناه فلخص أقوال إبراهيم من كتاب الآثار لمحمد وجامع عبد الرزاق إلخ ، فهذا دأبه فى تصانيفه إذا أتى بدعوى يأتى بكلام يدهش الناظر إلخ^(١) .

وبعد ذلك يقول : « فنحن بحمد الله قد طالعنا كتاب الآثار ولخصنا أقوال إبراهيم النخعى رضى الله عنه ثم قايسناه بمذهب الإمام فوجدنا الإمام يجهد كما اجتهد النخعى وأقرانه ، ونراه فى كثير من المواضع يترك رأى إبراهيم وراعه ظهريا^(٢) .

(١) ما تمس إليه الحاجة ص ١٤

(٢) نفس المصدر

وهذا الكلام صادر عن «حب علي» كما يقال، ولكن الحقيقة هي ما صرح به الشاه ولي الله، وهذا المؤلف نفسه قد اعترف بها فقال: «وإن كان لا ينكر أن لآراء ابراهيم النخعي أثرا خاصا في تفقيه الإمام أبي حنيفة واجتهاده»^(٣).

والشاه ولي الله حينما يعقد هذه المقارنة في حجة الله لا يقصد القلة والكثرة في العدد والحساب، بل يريد تقرير ما أشرنا إليه من تأثير الإمام بآراء النخعي. فالصاحبان (محمد وأبو يوسف) نعهما مقلدين للإمام أبي حنيفة مع اختلافهما معه في ثلث المسائل للذهب، فماذا لو تأثر الإمام بالنخعي؟ ولو كان التقليد عبارة عن هذا التأثير فهو أمر تقتضيه الطبيعة الإنسانية.

وإني أرى أن هذا هو تغير ثالث طراً على موقف الحنفية (الديوبندية) من طائفة الموحدين، فقبل ٦ مايو ١٨٣١م كان هؤلاء قريبين من أهل الحديث، ومع تمسكهم بالمذهب الحنفي كانوا يكرهون الجود الفقهي بل يحاولون القضاء عليه، وكان هذا هو العمل التجديدي للشاه ولي الله وأسرته.

وبعد سنة ١٨٣١م انفصل أكثرهم عن حركة التوحيد وإقامة الدين واكتفوا من خدمة الإسلام بنشر الفقه الحنفي والجود عليه.

(٣) ما تمس إليه الحاجة ص ١٤

وهؤلاء لم يستطيعوا مجازاة خلفاء الشاه ولى الله فانهم لم يكونوا من حماة التقليد الجامد . وكان قد تم إنشاء مدرسة دار العلوم الديوبندية لنشر الحنفية المحضة ، ولكن هؤلاء المؤسسين كانوا قد ورثوا احترام المحدثين من حركة الشاه ولى الله . أما الذين تأثروا بالكوثرى فيدعون إلى الجود ويكرهون أئمة الحديث متبعين إياه ومترسمين خطاه وهم مع ذلك يرون الحديث حجة شرعية ، وهذا نوع من التضاد والتناقض ، ولكنهم يدفعونه مستندين إلى علمهم ومطالعتهم لتطمئن قلوبهم ، والحقيقة أنهم لا يحترمون الأعمال التجديدية للشاه ولى الله مثل قدماء الديوبنديين . وفقهم الله للقضاء على الجود الفقهي بفضل سعة علمهم ودراستهم حتى يبنوا آرائهم على العلم والتحقيق بدل التقليد ، فهذا يؤيد ويقوى مسلك المحدثين مع ما فيه من المنقصة الظاهرة ، ونحن مهتمون بهذه الحركة الجديدة ، وفقنا الله للإخلاص في العمل .



الفصل الثاني

في

الموقف التاريخي لحركة

أهل الحديث وخدماتها

الموقف التاريخي لحركة أهل الحديث وخدماتها

لا تزال الحركات الطيبة والخبيثة تنشأ وتنفى في هذا العالم ،
وقد بلغت بعض الحركات من القوة بحيث زلزلت الحكومة المعاصرة
لها ، فالحسن بن الصباح والحشاشين كانوا قد أقضوا مضاجع الملوك .
وكذلك كانت الحركات الطيبة مستوايية على النفوس حتى ان الناس
كانوا يتعاونون معها رضوا أم لا .

إن حركة المعتزلة كانت قد استهوت الخليفة العباسي المأمون
الذي اشتهر بعلمه وذكائه ، فتعرض أئمة أهل السنة للخطر إلى أيام
المتوكل على الله ، وابتلى الإمام أحمد بن حنبل والإمام عبيد العزيز
الكنساني رحمهما الله وأمثالهما من الأئمة الكبار بأنواع من البلايا
والحن ، ويدل على تأزم الموقف حينذاك قول الأئمة الكبار في حق
الإمام ابن حنبل : « فاز أحمد وخسرنا » .

حركة أهل الحديث :

وهذه أيضا حركة من الحركات نشأت في وقتها وتبنت رسالة

ملخصها :

١ - المحافظة على بساطة العقيدة والعمل في الإسلام واتباع المنهج الوسط وقت الإفراط والتفريط .

٢ - التوسط والاعتدال في الحب والبغض ، فإنهما ربما يؤديان الإنسان إلى الغلو .

٣ - جمع ونشر تعاليم الكتاب والسنة وعلومهما .

٤ - التمسك بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نواحي الحياة كلها .

وعلى سبيل المثال كان الروافض يغفلون في حب أهل البيت ، والخوارج في بغضهم ، ولكن أهل السنة قد اختاروا الطريق الوسط . وهكذا كان من الناس من يذهب إلى التجسيم ، ومن يذهب إلى نفى الصفات عن الله تعالى ، ولكن أئمة الحديث قد اعترفوا بماهية الصفات ونفوا التشبيه والمماثلة ، وهذا هو المنهج السليم الوسط .

وقد أبطال أثر القياس الشامل النصوص والأحاديث الصحيحة ، وقد طغت الظاهرية فرفضت القياس رفضاً باتاً ، مع أن الأشباه والنظائر ينبغي أن تكون متشابهة الأحكام ، فالعقل السليم يقضى بذلك ، والقرآن الكريم يوضح هذه النقطة فيقول : ﴿ أنزل الكتاب بالحق والميزان ^(١) ﴾ .

وكتاب المحلى للحافظ ابن حزم (م - ٤٥٦ هـ) رحمه الله ، يتضمن عدة مباحث قيمة تقر بها عيون أهل الحق ، ولكنه في نفس الوقت يأتي بتعليل يحمل العلماء على الضحك ، ومن ذلك أنه يمنع البول في الماء الراكد ، ولكن يبيح فيه البراز . وقد أيد الحافظ ابن القيم (م - ٧٥١ هـ) رحمه الله ، موقف أهل الحق تاييدا تاما . وكان من فساد القياس أن الناس حاولوا تحليل الحرام بالاستناد إلى رخصة المحرمات والمسكرات الجزئية ، فقد نرى مباحث النبيذ والطلاء وغيرهما في مستندات الفقهاء ، أما منكرو القياس فقد جعلوا البراز أخف نجاسة من البول . وهكذا ليس من العسير التأكد بأن أهل الحديث هم الذين يملكون الميزان ، وهم قد استنبطوا حكم النبيذ والطلاء بقوله : « كل مسكر حرام » . ولأنهم كما منعوا من استعمال المسكر فكذلك منعوا من اتخاذ الخل من المسكر ، أما النجاسات فقد جعلوا لها حكما واحدا ، وهذا هو الذي يقتضيه القياس الصحيح وتفيده النصوص .

أهل الحديث والحركات الأخرى :

تنشأ الحركات في الأغلب بالعوامل الزمنية ، ولذلك يقضى عليها بالفناء بعد حصول الأغراض الموقته الخاصة ، فمثلا قد ظن محبو أهل

البيت النبوي أن حق الخلافة يجب أن يبقى في هذه الأسرة، يرثه الواحد بعد الآخر، فغلوا في طهارة أهل البيت وعصمتهم، وجعلوا على بن أبي طالب رضى الله عنه وصى رسول الله ﷺ حتى إنهم قد بدلوا كلمات الأذان والصلاة لهذا الغرض، ولكن السلطة الأموية قد أكرهت محمد بن الحنفية وغيره من رجال أهل البيت على ولاء يزيد فذهب الغرض المنشود من الحركة وذهبت عزائمها الثورية، والزعماء الفاشلون لهذه الحركة قد حولوا الحركة إلى عقيدة دينية، فأدى هذا الأمر الموقت إلى افتراق وعداء دائمين، وكان هذا هو السبيل لستر فشل الزعماء، فبولغ في تقديس أهل البيت وعبدت القبور والمشاهد وأقيم مجلس العزاء بحيث قد تحول إلى مهرجان، والاجتماعات العزائية كانت تضارع الاحتفالات الملكية. إن الحركة قد انتهت بالنظر إلى أهداف الحياة، واسكنها زرعت في القلوب عاطفة العداء والفرقة الدائمة التي بعدت بين أهل السنة والشيعة من المسلمين.

والخوارج قد حاولوا القضاء على هذا الغلو، وكان مرادهم أن أهل البيت ليسوا فوق المقتضى البشرى ولا معصومين مبرأين من الأخطاء، بل الواقع أن الأخطاء قد وقعت منهم. والخوارج في هذا التصريح لم يسلبوا من الغلو مثل الشيعة حتى كفروا أهل البيت، وحينما انتهت سلطة أهل البيت انتهت معها حركة الخوارج، وقد حولها الزعماء الفاشلون إلى دين وفلسفة، وأسسوا مذهباً جديداً

لا يمت إلى الإسلام بكثير من الصلة .

المتكلمون والمبتدعون :

وهكذا حاول بعض العقلين خلط الإسلام بالعقل المصطلح والفلسفة العرفانية، فنشأ الاعتزال والجهمية، وظهرت مسألة خلق القرآن والعينية والغيرية في الصفات مما لاجاجة إليه . ثم انتهى الأمر إلى أن كفر أهل البيت ببعض الأمور الأساسية للإسلام، مع أن المتكلمين كانوا قد ادعوا أنهم يريدون فهم الإسلام في ضوء العقل، وما أصوب ما قاله الحافظ ابن القيم رحمه الله ضاحكا على المتكلمين :
« لا الإسلام نصرُوا ولا للفلاسفة كسروا » .

ولما هب علماء الإسلام وأئمة الحديث يردون على الفلسفة اليونانية ويهزمون محاميهي ويهاجمون الفلسفة بعد ما كانوا في موقف الدفاع، رأينا أن حركات الاعتزال والجهمية وتدقيقات المتكلمين كلها قد ذهبت مع الزمن ولم يبق منها إلا اسمها في أوراق الكتب . وهكذا كانت نهاية كل حركة موقفة، إنها قد لعبت دورها في وقتها، أو فقدت فعاليتها بعدم مساعدة الظروف .

أقدم حركة :

وكانت حركة أهل الحديث مستمرة في العمل طوال هذه المدة،

وكانت حركة عامة شاملة بحيث وجد رجالها دائما مجالا لعملهم وخدمتهم ، واحتاج الناس إليهم في كل عصر ومصر . فكان هؤلاء الرجال يعملون في القرن الأول الهجري لحفظ الحديث وكتابته ، وفي القرن الثاني لجمعه وبداية التأليف فيه ، وبجانب هذا كانوا يقاتلون البدع في العقيدة وفي العمل ، ويسدون الطرق الخفية التي تتسرب منها إلى صفوف المسلمين ، وكذلك يحافظون على شئ المسلمين حتى لا يتشتت فتذهب ريحهم . وهذه هي المصالح التي اضطرت العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن يرحب بحياة السجون عدة مرات ، ثم إنه بدافع من الظروف والأحوال قد نزل جنديا في ساحة المعركة يدافع عن الدولة التي ألقته في غياهب السجون ويناضل جيوش هولاكو وچنكيز خان . وهذه الأعمال الجليلة والمواقف الحميدة تدل على الاقتصاد الطبيعي والمحافظة على المنازل ، ولعلها لا توجد إلا عند أئمة السنة وأصحاب الحديث ، فحركة أهل الحديث هي أقدم حركة خرجت حية سالمة من الفتن التي واجهتها ، وذلك لأنها لم تكن حركة موقته ناشئة بالظروف والأحوال ، بل إنها حركة جاءت لخدمة الإسلام كافة .

فتح الهند وأهل الحديث :

إن أول ركب نزل على شاطئ الهند مظفرا منتصرا كان من أهل الحديث ، وتتجدد حتى اليوم في السند ذكرى القرون الماضية

بالشيخ الشاه بديع الدين الراشدي وأسرته وبالمكتبة العظيمة التي تضم كمية كبيرة من كتب الحديث وأسماء الرجال . والموحدون في السند ليسوا أقوياء في هذه الأيام ولكن صفحات التاريخ لن تنسى خدماتهم أبدا . أما الفاتحون المغول فكانوا إلى المدنية الايرانية أقرب منهم إلى بساطة الاسلام ونور دين الفطرة ، ولذلك لم تطل سيادة تعاليم الكتاب والسنة وبساطة الاسلام إلى زمن بعيد في الهند ، ولم يكثر عدد المشتغلين بالحديث مثل البلدان الأخرى ، وكانت شخصية الشيخ علي المتقي صاحب كنز العمال ، والشيخ محمد طاهر صاحب مجمع البحار ، والشيخ المجدد أحمد السرهندي ، والقاضي ثناء الله الباني بتي رحمهم الله مغنمة حينذاك . ومقاومة علماء الحق للفتن التي قامت في عصر الملك أكبر كانت تشبه صيحة في واد لا توجد لها أذن واعية ، ولكن العلماء ما سكتوا وما استكانوا . حقا كان العلماء حينذاك ضعفاء ، وقوى الشر كانت متجمعة ضدهم ، وكانت الفتن تهددهم ، والاتجاه الإلحادي للدولة كان يسبب لهم الحزن ، والأعراس والموايد كانت تحتل محل المبادئ الإسلامية ، ولكن العلماء قد هاجموا مهاجمة عنيفة البدع ، حتى كان لأصواتهم ضد التقاليد والنظريات غير الإسلامية صدى كبير ودوى عظيم في بيئة الهند ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

استيلاء البدع :

وفي تلك البيئة الفاسدة صادف ظهور الملك المغولي الملحد أكبر، فتسكدر الجو تماماً وواجه أهل الحق مشكلات عويصة، وأسرة الملا مبارك كانت تزيد الطين بلة فهي ظلّـمات بعضها فوق بعض، ونظرا لانتشار البدع في ذلك العصر واستيلائها مست الحاجة إلى تطهير المجتمع، وقد بدأ فعلا على يد الشاه ولي الله، وأتممه بعده صاحب السيف والقلم الإمام الشهيد محمد اسماعيل الدهلوي رحمه الله، وبجهوده الطيبة قد تم تطهير المجتمع الإسلامي في الهند وسرت فيه روح الإيمان من جديد.

وكانت تهدف جماعة أهل الحديث حينذاك إلى تأسيس دولة دينية في الهند، يمتاز القائمون بها باتباع الشريعة الإسلامية مثل صحابة الرسول عليه السلام، وتعيش فيها أقليات غير إسلامية آمنة مطمئنة، فإن الإسلام لا يبيح أن يقتص من المظلوم بدل الظالم، والاجراءات التعسفية تقوم بها الحضارات غير الإسلامية، أما الإسلام فلن يقبل ذلك أبدا.

والهدف الثاني هو مقاومة البدع العملية، فحال أهل السنة في ذلك كانت تبعث على الاستغراب، فهم كانوا يحتفلون بمجالس العزاء، ويخرجون التماثيل من بيوتهم، ويظهرون الحداد والمآتم في العشرة الأولى من شهر محرم، مع أن الإسلام لا يبيح إقامة الحداد أكثر

من ثلاثة أيام ، وكذلك ليس من الإسلام في شيء تقديم النذور في شهر محرم ومنع الزواج .

أما المفساد العقدي وعبادة القبور والمزارات فكانت منتشرة جدا ، وكذلك كانت الاخلاق قد فسدت ، فالنساء الغاهرات كانت تدخل بيوت الاشراف للغناء والرقص ، ولم يكن أحد ينكر عليه أبدا . أما أركان الإسلام فكانت مهملة متروكة ، وطواف القبور والمشاهد كان يساوي طواف بيت الله الحرام !

والمؤسسات التعليمية كانت مهتمة بالمنطق والفلسفة اليونانية ، راغبة عن علوم السنة ، اللهم إلا ما كان من دراسة جزء ضئيل من مشكاة المصابيح ليتبرك به . وكان مسؤولية الاصلاح والتوجيه كانت على أسرة الشاه ولي الله فقط ، وقد أحدثت ترجمته لمعان القرآن الكريم ضجة كبيرة وسببت له متاعب جمة ، فكانت قوى الشر متجمعة منتشرة في جميع الأقطار ، وكان أهل الحق مضطرين إلى مراعاة الظروف والمحافظة على المصالح والمجادلة بالحكمة .

النتيجة :

وقد خاض السيد الشهيد رحمه الله المعركة مع الناس على طريقة السنة النبوية لإقامة النظام الإسلامي الحق ، ولمكنها انتهت بانهزام المسلمين ظاهرا ، وبعد ذلك انتشرت بقايا الجيش الإسلامي في ولاية بنجاب وسائر أقطار الهند ، وكان الإنجليز يسكيدون لحركة المجاهدين

ويتابعون أفرادها ، فاضطروا إلى الاختفاء والتستر ، وتعطل نشاط جماعة أهل الحديث .

وكان عالم من علماء أهل الحديث في بنجاب وهو الشيخ محمد حسين البتاوى يذهب إلى التعاون مع الحكومة الانجليزية ويبنى ظاهرا على نظامها ، وكان سبب ذلك تصلب الانجليز وعنفهم من ناحية ، ونشوء الحركات اللادينية من ناحية أخرى . فكانت طائفة القاديانية وطائفة « آرية سماج » (الطائفة الهندوسية) تنشط وتقوى بمساعدة الانجليز وتشى بأهل الحق لدى الحكومة الانجليزية . ولابد لى هنا من الاعتراف بأن المغفور له الشيخ محمد حسين مع كونه عالما كبيرا ومفكرا بصيرا لم يثبت على العزيمة كما ثبت أصحابه الآخرون . وقد انقطع الشيخ عبد الجبار الغزنوى ، والشيخ الحافظ عبد المنان الوزير آبادى وعلماء الاسرة اللكهوية وغيرهم من العلماء وأصحاب الفكر إلى نشر الكتاب والسنة ، وبتأثير من هؤلاء الصالحين قد انتشرت دروس القرآن والسنة فى الأقطار واختفت البدع والعادات العقدية والعملية ، فله الحمد على ذلك .

وقد مرت حركة أهل الحديث فى تلك الأيام بمرحلة خطيرة جدا ، وواجهت المصائب والآلام ، فبنى أهلها إلى البحر المالح ، وعذبوا فى غياهب السجون بأنواع من التعذيب التى لا يمكن أن يتصورها الناس اليوم .

جماعة المجاهدين :

ومن العلماء الذين استمروا في بذل الجهود لإقامة النظام الإسلامي : الشيخ عبد العزيز الرحيم آبادي ، والشيخ الحافظ عبد الله الغازيفوري ، والصوفي ولي محمد الفيروز فوري ، والشيخ أكبر شاه السخاوي ، والشيخ عبد القادر القصورى ، والشيخ فضل إلهى . رحمهم الله تعالى . وكانت جهودهم سرية ، ومعظم أفراد الجماعة كانوا يعملون مع حركات التحرير الأخرى ، فكان انضمام جماعة أهل الحديث إلى حركة الخلافة ، وحزب المؤتمر ، وحزب الأحرار ، والرابطة الإسلامية وغيرها على أساس إعلاء كلمة الله في البلاد . وكان الساسة الأوربيون يركزون نشاطهم للقضاء على هذه الحركة المجاهدة من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت جهود الشاه ولي الله وأسرته تبذل لإقامة الدين وإعلاء كلمة الله ، وكانت مسئولية الإصلاح والتطهير على هذه الفئة القليلة التي لم تكن تملك شيئاً سوى الإيمان بالله ، أما المنهزمون فكرياً فكانوا يتحاشون من كلمة « الوهابى » ، ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ^(١) ﴾

النشاط الجدلى :

ومن العلماء من مال إلى الجدل والمناظرة ، وكان هذا علاجاً

ناجحا مؤقتا ، ومن الممكن أن يشك بعض الأصحاب في نفعه ، ولكن الظروف والأحوال قد برهنت على نجاحه ، فالقاديانية وغيرها من الفرق كانت تبذل جهودا جبارة لنشر الآراء البدعية بين الناس بحيث لو لم يقاومها العلماء لاستفحل أمرها وعظم خطرها وعم ضررها ، وكانت جهود العلماء ضد القاديانية مستمرة حوالى نصف قرن ، ونجحت حتما في سد أبواب الفتن ، ولولا هذه الجهود لصارت هبة النبوة التي وهبها الحكام الإنجليز مصيبة عظيمة للسليين ١١

وكان الهدف من هذا الكلام استعراض خدمات الجماعة التي قامت بها في مختلف المجالات حتى يعرف عامة المسلمين دور هذه الجماعة وميزتها بين الحركات والجماعات التي تعاصرها ، وفقنا الله تعالى للإخلاص والعمل الصالح حتى ينتفع بنا الإسلام وأهله .



نحوه ، وحقاً در باب اول از شعور خلق بر آن در کتاب آمده ، و گفته اند که
 در امری که خیر و شر ندارد ، و خیر و شر را در صورتی که با او هیچ
 شیبی در میان نباشد ، خیر و شر را در میان قلوب اهل حق و باطنی متعالی قرار
 داده اند ، و در این باب گفته اند که : هر چه را که با او هیچ شیبی
 در میان نباشد ، و در آن صفاتی را که در صورتی که با او هیچ شیبی
 در میان نباشد ، و در آن صفاتی را که در صورتی که با او هیچ شیبی
 در میان نباشد ، و در آن صفاتی را که در صورتی که با او هیچ شیبی
 در میان نباشد ، و در آن صفاتی را که در صورتی که با او هیچ شیبی

در میان نباشد ، و در آن صفاتی را که در صورتی که با او هیچ شیبی
 در میان نباشد ، و در آن صفاتی را که در صورتی که با او هیچ شیبی
 در میان نباشد ، و در آن صفاتی را که در صورتی که با او هیچ شیبی
 در میان نباشد ، و در آن صفاتی را که در صورتی که با او هیچ شیبی
 در میان نباشد ، و در آن صفاتی را که در صورتی که با او هیچ شیبی
 در میان نباشد ، و در آن صفاتی را که در صورتی که با او هیچ شیبی
 در میان نباشد ، و در آن صفاتی را که در صورتی که با او هیچ شیبی



الفصل الثالث

في

نشاط الموحدين

في شبه القارة الهندية

نشاط الموحدين في شبه القارة الهندية

إن المبتدعين في باكستان بدؤوا نشاطهم وتحركهم منذ قليل ، وقد عهدنا أهل البدع والشرك في بلاد العرب والعجم يمارسون أعمال الشرك باسم الآداب ، وعبادة غير الله باسم التوسل ، ودعاء غير الله باسم الشفاعة ، وهذا الذي يتكرر في باكستان .

إن البدع وتقاليده الشرك قد عمت وشاعت في كل عصر بسبب التقاليد الجامدة للآباء وبسبب جهل العامة ، وعادات الأسرة وتقاليدها تكون دائماً موضع تمسك العامة والنسوان ، وهم لا يريدون أن ينفكوا عنها ، بل يحسبون أنها حياة لهم ولآبائهم فيعضون عليها بالنواجذ ، حتى لا ينفعهم الكتاب والسنة وتوجيهات الأنبياء عليهم السلام في الابتعاد عن هذه العادات ، وهذا هو التقليد الجامد الذي اعتبره أئمة الإسلام وقادة المسلمين من السلف نوعاً من الشرك .

ومنذ أن هدم النبي ﷺ بناء الشرك وفرق جمع المشركين وكسر شوكة تقليد الآباء وجمود الشرك لم تقم للمشركين وأهل البدع والعادات قائمة ولم تتوحد كلمتهم . وكان للشرك والبدعة انتشار قبل الإسلام

وبعده على أيدي أتباعهما وأنصارهما ولكنهم لم يستطيعوا أن يواجهوا أهل الحق بالأدلة والبراهين .

وفي الأيام الأخيرة للملوك المغول قد صار الجو ملائماً للعادات الهندوكية وأعمال الشرك والبدعة في القصور الملكية ، وواجه المتمسكون بالكتاب والسنة ومذهب السلف مشاكل كبيرة بسبب تواطؤ أهل الرفض والبراهمة ضدهم ، وكان الفساد قد عم حتى فشلت جهود العلماء العادية ، ومست الحاجة إلى توضحية كبرى ، وكانت مؤامرة أهل الرفض قد ظهرت ، وتولى الجيش الإنجليزي المحتل دفاعه وحمايته لأهل البدع والشرك ، وهكذا قوى أولياء الشيطان وأساطين الشرك والبدعة ولم يمكن العلماء العاديين مقاومة الفتن ، وإذا وصلت الحالة إلى ما ذكرنا أوجب أن ينزل العلماء إلى ساحة النضال ، أو ينتظروا قوة خارقة تغير الحال .

أسرة قرشية :

وفي معترك الموت والحياة هذا أصغت أسرة قرشية كريمة الطرفين إلى نداء الوقت وسيطرت على جو المقتل كله ، وقد من سنة التوضحية هذه رجل عمرى فاروقى في بداية القرن الحادى عشر ، فبارز جنود الشيطان شأن المجددين ، وحرك بقوة البالغة سرير الملك شاه جهان والملك جهانكير ، وصرح لدىحكام عصره بأن الملك

ليس إرث آبائكم، بل لأنه هبة الله الرحمن القهار، فلو لم تؤدوا واجبتكم نحوه لسلب وفوض إلى غيركم، ﴿لأن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾^(١) وتظهر قوى الرحمن في صورة القهر.

وأعلن هذا الرجل المخلص بجد تام أن الملك لحماية حقوق الشعب، وللحفاظ على كتاب الله وسنة محمد ﷺ، ومن لا يستطيع من الملوك القيام بما ذكر، فعليه أن يتخلى عن كرسي الحكم، فإن هدفه الخدمة لا الرئاسة، وتطلب فيه العبودية لا الإمارة، وهذا الملك ليس لأن يسجد لكم خلق الله، وتنحلي رقابكم في ترفع، ولأن تلهوا في الرقص والغناء والمجون وينحني الشعب أمامكم.

وقد واجه صاحب هذا النداء المخلص سجننا في حصن «جواليار»، وحبساً لمدة سنوات، ولكن هذا الابتلاء لم يدم، واضطرت السلطات لفتح باب السجن ورفع القيود المفروضة والاستسلام للصدق والحق.

واليقظة الدينية التي بدأت برسائل الإمام الرباني وتعاليم المجدد الأعظم قد عمت وقويت حتى استعدت أسرة هندية وتحملت مسؤولية الإصلاح وتحدثت قوى الشر وأندرتها بأن تنحني عن الطريق فإن محاربة الله لا تحسن عاقبتها.

حكيم الأمة الشاه ولي الله :

كان الشاه ولي الله رحمه الله تعالى قائد العساكر الإسلامية في تلك المعركة ، فقد ألقي نظرة حكيمة على بيئته ، وتألم بما رأى من مظاهر المجون والدعة في قصور الملوك ، ومن مظاهر البدع والعادات ، وانحلال الخدم والحرم ، وكان ينظر بعينه الثاقبة أن الاسرة المغولية قد أوشكت على الانهيار والانقراض ، وهي تنقضى عاجلا أو آجلا .

ومن ناحية أخرى كان يعرف عذر هؤلاء الملوك الجهلة ، فأهل الرفض كانوا يخذعون الناس - وفيهم الملوك وأسرتهم - بادعائهم حب أهل البيت النبوي ، فكانوا بمثابة الإبراهيمية الحسينية ، وكان معظم علماء ذلك العصر والفقراء المحترفين على شاكلتهم .

وفي بداية القرن الحادي عشر كان عدد حزب الشيطان قليلا ، ولكنه ازداد وكثر بعلماء السوء الذين كانوا مستعدين للنيابة عن سلفهم في نشر وتعميم الشر والفساد ، وكان الفتن كانت على وشك الانفجار في ثانية وأخرى . وقد ترك هذا الوضع على الشاه ولي الله أثرا مزيجا من التألم والترحم ، ولذلك نادى بصوت ابن لاخشونة فيه ولا زجر ، بصوت هادئ لا تحدى فيه ، كان يرثي لحال الإنسانية ويستعرض البيئة التي يعيش فيها فيتكلم مرة بلغة التصوف حتى يحسب الناس أن الإمام الغزالي قد جاء برسالة تزكية القلوب ، ويتكلم أخرى بلغة الفقهاء الجامدين في القرن الرابع حتى يحسب الناس أن فقيها

نابغا يخاطبهم ، ويتكلم مرة فيقول : « إن مذهب الفقهاء المحدثين صار مرضيا عندي ، حتى يحسب الناس أن الداعي إلى مذهب السلف قد جاء مع رسالة القرون المشهود لها بالخير لهداية الناس ، وهكذا قد تيقنت كل طائفة بأنه منها ، وحاولت الاستفادة من توجيهاته . ولذلك سموه بـ « حكيم الأمة » .

وكان الشاه ولي الله يحاول توضيح الطريق الوسط مجتنباً الإفراط والتفريط ، ويهدف إلى أن يعلى كلمة الإسلام بدون إثارة الفتن والفوضى ، وأن يعود الناس إلى التمسك بالكتاب والسنة حتى يياس منهم الشيطان ، ويخلى سبيلهم .

ومعنى ذلك كله أنه كان يرمى إلى إصلاح التصوف وإلى القضاء على الجمود الفقهي ، حتى يتمكن الناس من العمل بسنة النبي ﷺ وبطريقة أصحابه . ولا شك أن فهم الدين يتأتى بالآئمة المجتهدين ولكنهم لا يصلون قط إلى منزلة الشارع ، بل يبقى الكتاب والسنة المصدر الأصلي للدين ، نعم يستأنس بمذاهب وأقوال الآئمة المجتهدين ، وإلى هذا الاقتصاد والتوسط أشار الشاه ولي الله في حجة الله البالغة والمصنفي والمسوى وإزالة الخفاء من كتبه القيمة الفريدة ، مما يدل على أن حكيم الأمة كان يرمى إلى ثورة تكون أساساً لإحياء الكتاب والسنة حتى تشرق أرض الهند بنور الله .

جنود إبليس :

طبعاً كان حكيم الأمة يرغب في السلام ، ولكن قوى الشر كانت تقصد الفوضى والفساد ، فإنها بذلك تنجح وبه تنجح أهدافها الخبيثة . إن الشاه ولي الله ترجم معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية فقامت الدنيا وقعدت ، واغتاظ أهل الفساد ، ورد على عباد القبور فاستعدوا للجدال ، وحاول أهل التشيع أن يجعلوا الاحتفال بيوم شهادة الحسين رضي الله عنه من شعائر الإسلام ، وكان هؤلاء المبتدعون يدعون بأن الشاه ولي الله لا يستطيع أن يفهم كتاب الله ، وإنه بترجمة معانيه إلى لغة أعجمية قد أساء إليه ، وكيف يستطيع الإنسان أن يصل إلى مقاصده والمراد منه ؟

ولتذليل هذه العقبات قد امتنعان الشاه ولي الله بالمدرسة الرحيمية ، ولم تكن مدرسة تقليدية يشتغل فيها الأساتذة كأنهم أدوات الانتاج وآلات المعامل ، ولا الطلبة كأنهم منتوجات تعرض في السوق للبيع غالباً أو رخيصة ، بل كانت مدرسة فكرية تدرب الطلاب على المزج بين التصوف والسنة ، وبين فقه العراق وفقه الحديث ، وفي الظاهر كانت مدرسة لفقه العراق ، ولكن الشيخ طاهر المدني كان قد أضاءها بنور الحديث ، فكانت تناضل ضد البدع وتقضي على الجمود الفقهي

بالاجتهاد ، وتحوي مذهب الفقهاء المحدثين . ومن الفحول الذين تخرجوا فيها صاحب دراسات اللبيب ، والشاه عبد العزيز والشاه عبد القادر والشاه رفيع الدين والشاه عبد الغنى رحمهم الله ، وكان كل منهم أمة واحدة وعلماء في رأسه نار ، وكانوا يدعون إلى طريقة شيخهم وسندهم . بعد دراسة كتب المذاهب الأربعة وكتب أصول الفقه والأحاديث التي يتمسك بها يميل القلب بتأييد من الله وهدايته إلى الفقهاء المحدثين^(١) .



(١) اتحاف النبلاء ص ٤٢٩

الفصل الرابع

في

بيان حكم التقليد

وتحقيق القول فيه

ترك التقليد وأهل الحديث :

تجرى هاتان الكلمتان (ترك التقليد وأهل الحديث) على لسان العامة منذ مدة، ويظن على الأغلب أن بينهما ترادفاً، وهما قد استعملتا في الهند ضد الأئمة الأربعة رحمهم الله والتمسك بالمذاهب التي تنسب إليهم، ولكن الحقيقة أن هؤلاء الأئمة الكرام وأتباعهم أيضاً قد خالفوا الجمود، ثم إن المحققين من العلماء قد أبدوا خلافهم مع الأئمة المجتهدين في المسائل الفرعية مع احترامهم وعقيدتهم للأئمة الأربعة.

ونرى أن الإمام أبا جعفر الطحاوي (م - ٣٢١ هـ) والإمام أبا إبراهيم اسماعيل بن يحيى المزني (م - ٢٦٤ هـ) وشيخ الإسلام محمد بن قدامة الحنبلي (م - ٦٠٧ هـ) وشيخ الإسلام ابن تيمية (م - ٧٢٨ هـ) وغيرهم من الأئمة الأعلام مع انتسابهم إلى أحد من الأئمة الأربعة كانوا يختلفون معه في المسائل، ولم يكن هذا الخلاف سبباً للنافرة وتحاشي الأفكار لهؤلاء الأئمة ولا لأتباعهم، ولا يزرى بمكانتهم العلمية.

وقد ذكر العلامة أبو زيد عبيد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي (م - ٤٣٠ هـ) في كتابه «تأسيس النظر» صوراً عديدة لاختلاف الأئمة المجتهدين رحمهم الله تعالى فمثلاً :

- ١ - الخلاف بين الإمام أبي حنيفة وبين صاحبيه .
- ٢ - الخلاف بين الإمام أبي حنيفة والإمام أبي يوسف وبين الإمام محمد رحمهم الله .
- ٣ - الخلاف بين الإمام أبي حنيفة والإمام محمد وبين الإمام أبي يوسف .
- ٤ - الخلاف بين الإمام أبي يوسف وبين الإمام محمد .
- ٥ - الخلاف بين أبي يوسف ومحمد والحسن بن زياد وبين الإمام زفر .
- ٦ - الخلاف بين الحنفية وبين الإمام مالك .
- ٧ - الخلاف بين الحنفية وبين الإمام ابن أبي ليلى .
- ٨ - الخلاف بين الحنفية وبين الإمام الشافعي .

وقد ذكر العلامة الدبوسي أصول هؤلاء الأئمة . وبه نعرف أن الأئمة المجتهدين كانوا مختلفين فيما بينهم في الأصول ، والظن بأن الأئمة الشافعي وأبا حنيفة وأحمد بن حنبل ومالك رحمهم الله كانوا مختلفين في الأصول ولكن لا يوجد بين تلاميذهم خلاف أصولي ، ظن سطحي لا يستند إلى تحقيق .

بل الواقع أن التلامذة كانوا يختلفون مع أساتذتهم مثل خلاف الأساتذة فيما بينهم ، والخلاف بين الأئمة وتلاميذهم خلاف أصولي مثل الخلاف بين الأئمة المجتهدين ، فكثيرهما قد تختلف ولكن النوعية هي هي .

اختراع كلمة «غير المقلد» :

ويبدو أن كلمة «غير المقلد» لم تكن اخترعت بعد، أو لم تستعمل للطعن، ولم تنتشر لدى أئمة الإسلام وصلاح الأئمة، أو لم تدع حاجة سياسية إلى اختراع هذه الكلمة.

وكذلك لم يكن التقليد لقباً يفتخر به ويعاب من يتركه أو يتأسف له، نعم كان أئمة المعقول من الفلاسفة والمتكلمين يلقبون أئمة السنة من الفقهاء وغيرهم ومن المجتهدين وغيرهم بالمقلدين، وينظرون إليهم نظرة الازدراء والاحتقار، وذلك أن منزلة النقليات عندهم لم تكن أعلى من الظن قط وكانوا يحصرون الدليل في العقليات. ويقول الإمام الغزالي في كتابه: «فصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» بصدد المقارنة الإيجابية بين آراء المعتزلة والأشاعرة وما هم فيه من الإكفار والتفكير: فإن تحبط في جواب هذا أو عجز عن كشف الخطاء فيه فاعلم أنه ليس من أهل النظر، وإنما هو مقلد، وشرط المقلد أن يسكت أو تسكت عنه^(١).

ونرى تضارباً واضطراباً غريبين في عالم العمل والعقيدة بعد قرون الخير، فلم يكن هناك تقليد أو جمود، بل نجد في العقيدة والفروع أن الفكر والنظر وكذلك الفقه والاجتهاد قد انقسما إلى نواح عديدة، فمثلاً: كان غسان بن أبان السكوني مرجئاً وإماماً للطائفة

الغسانية مع كونه تلميذا للإمام محمد بن حسن الشيباني ، ثم لأنه كان ينكر نبوة عيسى عليه السلام^(١) ، مع موافقته للإمام أبي حنيفة في زيادة الإيمان ونقصانه . أى كان يقول إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص .

ويقول المقرئ عن بشر بن غياث المريسى أمام الفرقة المرسية : « كان عراقى المذهب فى الفقه ، تلميذا للقاضى أبى يوسف ويعقوب الحضرى » . وكان الإمام الشافعى قد ناظر معه ، وقال ساخرا منه : « نصفك كافر ، لقولك بخلق القرآن ونفى الصفات ، ونصفك مؤمن لقولك بالقضاء والقدر وخلق اكتساب العباد^(٢) » .

مصطلح « المقلد » و « غير المقلد » :

ومع هذا الانقسام والتضارب فى العقائد والفروع لم يستعمل مصطلح المقلد وغير المقلد حينذاك ، مع أن الناس كانوا مقلدين وغيرهم ، وكان يجرى بينهم بحث ومناقشة للمسائل ، ولعل الواحد كان يفتى ضد الآخر على أساس الخلاف فى المسائل ، ولكن مع ذلك كله لم يكن بينهم تنافر ولا تنازع بالألقاب مع الاختلاف الجذرى فى وجهات النظر .

الدولة ونشر المذاهب :

إن قبول المذاهب السائدة بعد انتشار التقليد لم يكن يتوقف على

(١) المواظ والاعتبار للمقرئ ١٧١/٤

(٢) نفس المصدر

العلم والنفقة والتعليم والنلق فحسب ، بل الدولة واتجاهها وكذلك
العوامل السياسية قد لعبت دورا هاما في هذا المجال ، ومنصب القضاء
أيضا قد أسهم كثيرا في نشر العقائد والآراء ، ففي إفريقيا كانت
الأغلبية متمسكة بالسنن والآثار وبمذهب أهل الحديث ، ولكنه حينما
ولى الخليفة المرتضى بن هشام بن عبد الرحمن في سنة (١٨٠هـ) إمارة
إفريقيا عين يحيى بن يحيى قاضيا فيها ، وكان يحيى هذا تلميذا للإمام
مالك وابن وهب (م - ١٩٧هـ) وابن قاسم (م - ١٩١هـ) ، وكان
محترما في الأندلس ولايعين القضاة إلا بأمره ، فكان يختار القضاة من
الذين يعتقدون في الإمام مالك ، يقول المقرئزي : « وعادت الفتيا
إليه ، وانتهى السلطان والعمامة إلى بابه ، فلم يقلد في سائر أعمال
الأندلس قاض إلا بإشارته واعتنائه ، فصاروا على مذهب مالك ،
بعد ما كانوا على رأي الأوزاعي^(١) .

أين التقليد ؟

قام الشيخ محمد تقي العثماني بن المفتي محمد شفيع بإبداء رأيه السامي
حول مسألة التقليد الشائع ، في مجلة « فاران » عدد مايو سنة ١٩٦٥م ،
وقد التزم في مقاله بمنهج سليم واجتنب الطعن والأسلوب النابي ولمنى
أشكر فضيلته على هذا الموقف .

(١) المواعظ والاعتبار ٤/١٤٤

وقد أعلن الشيخ برأته من التقليد بمعناه اللغوي، وأرجو أن ينظر فيه بمعناه العرفي والمصطلح عليه بين أهل العلم أيضا، هو وغيره من العلماء المحققين، فإن الموضوع قد قتل بحثا وكتابة، ولم يبق منه إلا أن يقال إنه خلاف لفظي. والمعنى الاصطلاحي أيضا ليس جديرا بأن يقبله أصحاب العلم بطيب النفس، نعم إنه مناقشة ولاندرى إلى متى تستمر؟ أما نظرية التقليد فلا تحظى بقبول في أي وسط من الأوساط، فإن العالم يتطالع الآن إلى التحقيق ويأبى قبول المسموع المحض ويستثقله.

والشيخ اقترح في مقاله تخصيص لفظ آخر، وإني أقول إنه لا حاجة إلى ذلك، فإن كلمة «الاتباع والإطاعة» تعبر عن فطرة إنسانية وهي تكفي، ولا يمكن الفصل بين معنى التقليد اللغوي ومعناه الاصطلاحي، وكذلك يجب اعتبار الجهل أو قلة العلم فيه.

تعريف التقليد:

ورد في تعريف التقليد في مسلم الثبوت^(١): «التقليد: العمل بقول الغير من غير حجة». وفي مختصر ابن الحاجب^(٢): «التقليد: العمل بقول غيرك من غير حجة». وفي أصول الفقه للخضري^(٣): «التقليد

(١) فواتح الرحموت ٢/٢٢٤

(٢) مختصر ابن الحاجب ص ٢٣١

(٣) أصول الفقه ص ٤١٨

هو قبول قول بلا حجة ، وليس من طريق العلم ، لا في الأصول ولا في الفروع . وفي الأحكام لابن حزم^(١) : « التقليد اعتقاد الشيء لأن فلانا قاله بما لم يقيم على صحة قوله برهان » .

وليس المقصد من هذه التعريفات بيان فوائد القيود أو التحليل النحوي ، بل أريد أن أشير إلى أن القدر المشترك في جميع التعريفات هو أن التقليد عبارة عن الإطاعة والاقتراء بدون دليل ، ويحل فيه حسن الظن (برجل) محل العلم والاستدلال والنظر والبحث ، والعلماء لا يرونه علما .

ومن البديهي أن الإنسان مجبول على حب العلم والتحقيق ، ولا يجب أن يتبع أحدا بدون علم وتفكير ، وكذلك لا يكره أحد أن يرجع إلى العلماء في الأمور التي لا يعلمها ، وأن يحققها . ولكن تستعمل كلمة الشرك وما يماثلها إذا صرف النظر عن الدلائل ويعتمد على حسن ظن محض ، ويستدل بما لا يكون دليلا ، فمن البين أن هذا محاولة لتسوية النبي ﷺ بمن يتبعه في الإطاعة والاتباع .

ونجد في فقه المذاهب السائدة اليوم مسائل لا يؤيدها الدليل ، ولكن الناس سلوها وجرى العمل بها بمجرد حسن الظن أو التزام الطاعة ، ومن ذلك إرسال اليد في الصلاة عند المألكية ، ونكاح الزاني

(١) الأحكام لابن حزم ص ٤٠

بنته التي ولدت بالزنا عند الشافعية ، ووجوب قنوت الوتر واتخاذ
الحل من الخمر واعتبار مدة الرضاعة سنتين ونصف عند الحنفية .
وتدقيق أصحاب المذاهب في هذه الفروع معروف لدى الجميع ، ولكن
لا يوجد فيها نص ، وإنما شاعت هذه المسائل بناء على أصول أصحابها
العلماء أو على حسن الظن بهم ، نعم يوجد في كتب المذاهب ما يسمى
إلزاماً أو لطائف جدلية ، ولكنها لا تسمى دلائل لهذه المسائل .

متى استعمل لفظ التقليد :

قال الشيخ العثماني : « لا نعلم متى بدأ استعمال كلمة « التقليد » ،
ولو علم فيما سبق أنها تؤدي إلى سوء التفاهم لما أجزى استعماله . ونرى
أن كلمة التقليد كانت تستخدم في عصر الأئمة الأربعة ، والصحابة
رضي الله عنهم ، كما في سنن الدارمي وعقد الجيد وحجة الله البالغة
ودراسات اللبيب والميزان للشعراني وجامع بيان العلم وفضله وغيره
من الكتب ، فعن عبد الله بن مسعود أنه قال : « لا يقلدن رجل رجلاً
دينه ، إن آمن آمن ، وإن كفر كفر » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : « لا يقلدن رجل رجلاً دينه ، إن
آمن آمن ، وإن كفر كفر » .

وفي عقد الجيد^(١) : « لا تقلدني ولا تقلدن مالكا ولا الأوزاعي ،

(١) عقد الجيد ص ٤٩

وخذ الأحكام من حيث أخذوا .

وهذا يدل صريحا على أن كلمة التقليد لم تستعمل آنذاك للدلالة على معنى مستحسن ، وكذلك يستعمل لفظ « غير المقلد » للجمل الذي لازم له ، فكلاهما لا ينبئان عن معنى حسن .

الميل الطبيعي إلى التحقيق :

ومع الانتفاء إلى الأئمة المجتهدين رحمهم الله ومع التصالب البالغ فيه نجد في أتباع الأئمة من العلماء من لا يقلدهم في كل مسألة بل يخالفون معهم على أساس التحقيق ، وفي مختصر الطحاوي مسائل كثيرة اختلف فيها الطحاوي مع الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، وفي معاني الآثار أيضا أمثلة لهذا الخلاف . وفي ضوء تعريف التقليد المصطلح عليه نرى أنه لا يصح إطلاق كلمة « المقلد » على مثل هؤلاء الأئمة ، فإن اتجاههم يدل على عدم اهتمامهم بالتقليد .

ونرى في العلماء الأئمة المرغيناني صاحب الهداية ، والكاساني مؤلف بدائع الصنائع ، والسرخسي ، وقاضي خان ، والنسفي ، وابن قدامة ، وابن تيمية ، وأبا إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف صاحب المذهب ، والزرقاني ، والباجي ، وابن رشد ، والشاطبي وغيرهم ، وهم جميعا يقررون مذاهب أئمتهم في ضوء الرواية والدراية ، ولو جاز الاختلاف معهم في طرق الاستدلال فلا يجوز أن يشك في كونهم محققين ، فتعريف

التقليد لا ينطبق عليهم بعد ممارستهم عمل التحقيق والاستدلال . والشيخ
العثماني نفسه قد سلك مسلك التحقيق لإثبات التقليد ، وإذا كان
كذلك فأين التقليد ؟

أهل الحديث أو معارضو التقليد :

إن الذين يدعون ترك التقليد يسمون « غير المقلدين » ، أو
« اللا مذهبيين » ، أو « الوهابيين » ، ولا فرق بين موقفهم وبين موقفكم
(خطاب للشيخ العثماني) والفريقان يؤيدان مواقفهما بالرواية والدراية
فلا تفريق في العمل .

والحقيقة أنه لا غنى عنهم للفقهاء المحدثين وأئمة الدراية وحفاظ
الحديث وأئمة الأصول ، فالجميع يستفيدون من علومهم ، فكيف تسمون
« مقلدين » وهم « غير مقلدين » ، وهذا كما يقال :

« تسكره الخمر وتعيش كالسكران »^(١) ،

وعلى هذا يسأل مخلص : أين التقليد ؟

وقد قلتم عن كلمة التقليد إنها لم تستعمل في محلها ، ولكن الواقع
أن المصطلح بأسره ليس في محله ، فإن « عدم العلم » قد أخذ كجزء

(١) ترجمة شطر فارسي نصه :

منسكر می بودن وهم رنگ مستان زیستن

في تعريف التقليد ، و ورد التصريح بذلك في أقوال الأئمة ، يقول ابن القيم :

« قال أبو عمر وغيره من العلماء : أجمع الناس على أن المقلد ليس معدودا من أهل العلم ، وأن العلم معرفة الحق بدليله . وهذا كما قال أبو عمر رحمه الله ، فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدليل ، أما بدون الدليل فإنما هو التقليد^(١) . »

وجهور الشافعية يرون أنه لا يجوز للمقلد أن يفتي فإنه ليس بعالم : « أحدها أنه لا يجوز الفتوى بالتقليد ، لأنه ليس بعلم ، والفتوى بغير علم حرام ، ولا خلاف بين الناس أن التقليد ليس بعلم ، وأن المقلد لا يطلق عليه لفظ العالم ، وهو قول أكثر الأصحاب وقول جمهور الشافعية^(٢) . »

وقد ذكر ابن القيم بهذا الصدد مذاهب أخرى ، يقول الغزالي : « إنما شأن المقلد أن يسكت أو يسكت عنه^(٣) . » والتقليد ليس بعلم باتفاق أهل العلم^(٤) . وفي الكافية الشافعية لابن القيم :

(١) إعلام الموقعين ١ / ٧

(٢) نفس المصدر ١ / ٤٥

(٣) فيصل التفرقة

(٤) إعلام الموقعين ٢ / ١٦٩

العلم معرفة الهدى بدليله ما ذاك والتقليد يستويان
 إذ أجمع العلماء أن مقلدا للناس والأعمى هما أخوان
 وأنتم - بحمد الله - علماء ولاكنكم مصابون بشعور النقص .
 ولو أثبتتم وجود التقليد في عصر الصحابة والتابعين فهذا يعنى أن ذلك
 العصر أيضا كان خاليا من النظر والتفكير والعلم والبصيرة ، وأى هدية
 هذه تهدونها إلى الصحابة والتابعين وأئمة الهدى ؟ كان ينبغى بدل ذلك
 أن يعترف بالتقصير وقلة العلم بالنسبة للأجيال القادمة ، أما ادعاء التقليد
 لجميع الناس وأكابر الأمة فهذا موقف لا يستحسنه أهل المعرفة .

حال القدماء والعلماء :

هذا هو تصريح العلماء ، المتقدمين منهم والمتأخرين عن التقليد ،
 ومن ناحية أخرى نرى أن أهل العلم يستدلون بالكتاب والسنة لتأييد
 مذهبهم في متون كتبهم وشروحها . وهم يختلفون مع أئمتهم بجرأة
 في المواضع التي خالفت فيها آراء أئمتهم الكتاب والسنة . ففي مؤلفات
 الإمام محمد والإمام أبي يوسف وحسن بن زياد وتلامذة السرخسى
 والطحاوى وغيرهم رحمهم الله مسائل كثيرة اختلفوا فيها واختاروا
 لهم طريقا آخر ، وأحيانا تمسكوا برأى إمامهم في فهم النصوص
 ولم يلتفتوا إلى إمام آخر مجتهد ، وهذا لا يكون إلا من المحقق .
 ونراهم يسلكون مسالك التحقيق في شروح الحديث وشروح المتنون

الفقهية ، و يوردون على معارضيتهم ايرادات واعتراضات ، فهل هذا تحقيق أو تقليد ؟

أما ميالهم إلى التقليد فرجعه إلى أن المقلدين لا يشقون بعلمهم فلا يقدمون على الخروج من وحول التقليد ، ويسمون العلم والفهم تقليدا ليطمئنوا عامتهم ، أما تسميتهم « مقلدين » بالمعنى الاصطلاحي للتقليد فيبدو عسيرا .

حقيقة الحاجة إلى التقليد :

إن الأئمة المجتهدين ليسوا في حاجة إلى التقليد ، فمنزلتهم أرفع من قيود التقليد ، أما العامى فمحروم وقيل فيه : العامى لا مذهب له . يقول الشامى : « قلت : وأيضا قالوا : العامى لا مذهب له ، بل مذهبه مذهب فقيهه ، وعلمه صاحب التحرير بأن المذهب إنما يكون لمن له نوع نظر واستدلال وبصر بالمذاهب على حسبه ، الخ^(١) » .

أما المدرسون الذين يدرسون في المدارس ويملكون كفاءة حسنة فقد قيل لهم إنكم لستم بمحيث تأخذون الأحكام وتستدلون بمصادر الشرع بعد الأئمة الأربعة ، فعلمكم ليس بعلم ، وأنتم مقلدون . وهؤلاء لا يبلغون إلا خمسة في كل ألف ، وهم يصيرون ضحايا للتقليد ، ومعنى ذلك أن عدد المقلدين ينحصر في مئات أو ألوف من الأشخاص فقط .

ولمتعلم أن يسأل: متى انعقد الاجماع على التقليد؟ ومن أجمع وأين؟ وأين يوجد الشيء الذي يتصل وجوده في الخارج بآفاق عدم، ويحرم منه العلماء والعامة معا؟ وماذا يترتب على الاجماع الذي انعقد على إيجاب علم أو معرفة ليس فحول العلماء في حاجة إليها، ولا تستطيع العامة الوصول إليها؟ وماذا يحدث لو رفضنا مثل هذا الشيء؟ إن المجتهد والعامى لا يتأثران به فمن يبقى بعدهما؟ وما هي نوعية هذا الوجوب، شرعى أو اضطرارى؟

مرونة فى المعنى:

كان المظنون أن الشيخ العثمانى يساعد فى إصلاح الحال بالتنازل عن موقفه قليلا. كما أحدث مرونة فى لفظ التقليد، ولكن كلامه لم يزل ذا عنف جدلى كما عهدناه من العلماء، إن طائفة من العلماء تعتبر التقليد بدعة، والشيخ العثمانى يوجبها، فكيف الموافقة؟

سهل وصعب:

وبعد ذلك قال الشيخ العثمانى إن الحاجة إلى التقليد لا تمس فى المسائل السهلة، ولكن لا بد منه فى المسائل الصعبة ذات الوجوه المختلفة. وبهذا الصدد جاء من الشيخ كلام غريب، يقول: «إن الطاعة فى هذه الأمور كلها لله ولرسوله فقط، ومن يقول بطاعة أحد غير الرسول ﷺ ويرى أنه مطاع بنفسه فهو خارج عن الدين».

وهذا كما تقول البريلوية (عباد القبور) إنا لا نقول إن أصحاب القبور والزوايا آلهة بالذات ، بل هم نواب أو مجازون من الله . ثم يفتحون عليهم أبواب الشرك باسم الأدب والوسيلة والشفاعة وغيرها . وهكذا أنتم تؤولون النصوص في دروسكم ، وتبقى أقوال الأئمة على مواضعها ، وهذا اتباع للأئمة في الحقيقة . والرسول ﷺ ينظر يوم القيامة كيف أنهم لووا أعناق الحديث وحافظوا على أقوال أئمتهم ، فما الفائدة من قول « بالذات » بصدد الكلام عن المطاع ؟

« سلام على الصوفية والعلماء ، فقد بلغونا رسالة الله ولكن تأويلهم قد أوقع الله ورسوله وجبريل في الحيرة »^(١) أما أمر السهولة والصعوبة فمن المتضايفين ، فكل صعب سهل بالنسبة إلى ما هو أصعب منه ، وكذلك كل سهل صعب بالنسبة إلى ما هو أسهل منه ، فهذا التقسيم لا يحدث أثرا ملموسا في التقليد ، ولا يكون ميزانا لحقيقة .

وكما قال الشيخ العثماني إن القرء تدل على الحيض والبعوض ومضاربة الأرض ، وبعض الأئمة يجوز معنى وبعضهم يرده . وكذلك

(١) ترجمة بيت فارسي نصه :

زمن بر صوفي وملا سلامی که پیغام خدا گفتمد مارا
ولے تاویل شان در حیرت انداخت خدا و جبریل و مصطفی را

يعسر الجمع بين حديثين مختلفين في الفاتحة ، أولهما حديث : من كان له إمام فقرأه الإمام له قراءة ، وهو يقتضى أن لا تقرأ الفاتحة خلف الإمام ، وحديث : لأصلاة بفاتحة الكتاب ، وهو يوجب قراءة الفاتحة خلف الإمام .

وهذا إشكال ، فالحديث يحتمل وجوها ، فما هي السهولة التي جاء بها التقليد ؟

إنكم (الحنفية) فهتمم من القرء معنى الحيض بناء على قول الإمام ، وتجاهلتم المعنيين الآخرين ، والشافعية فهموا منه معنى البعوض بناء على قول إمامهم ، متجاهلين المعنى الآخر ، ولكن هذا الصنيع لم يوضح معنى الآية ولا حل مشكلة لغوية ، بل الذى رأينا هو أن الحنفية والشافعية قد تكتلوا فى كتلتين قويتين وقام بينهم مجادلة دائمة ومعارك طاحنة ساحتها بطون الكتب الفقهية وشروحها وهوامشها . أما الكتاب والسنة واللغة العربية فلم تحصل منها على طائل ولا انتفعت فى شىء . إن المسائل السهلة لم تكن فى حاجة إلى التقليد ، ولكن المعركة استمرت فى المسائل الصعبة بعد التقليد أيضا ، فما الذى نستفيد من التقليد ؟

ولو نظرنا بعين العدل والحق لقضينا بأن جميع الجهود قد ذهبت سدى ، وبقيت المعركة كما كانت ويؤس الناس من الصلح .

وهكذا كانت الحال فى المعركة التى قامت حول وجوب قراءة

الفاتحۃ ، فالنزاع دام واستمر ، ولم ینفع فیہ التقلید وتركه ، فلو كان التقلید حاسما للنزاع فلما ذا بقیتم فی جبهاتکم متحاربین ؟
 «لو کنت تحسن نظم حبات سبجتک فی سلك الالفۃ فلما ذا بقیتم منشورة مشتتة^(۱) ؟

واعلم ایها الشیخ ! أن مجرد استفهام العلماء وقبول آرائهم فی ضوء الکتاب والسنة لا یعتبره أحد شرکا أو إثمًا ، ولكن النقاش یقوم حینما یوجب اتباع رأى عالم ویحرم الاختلاف معه ولا یسمع قول عالم أو یجتهد غیره ، وبعد هذا کماله ما الذی بقى له فعلا من منصب الرسالة ؟

التقلید المطلق والشخصی :

إن الشیخ العثماني قسم التقلید فی قسمین ، وقد اضطر لإثبات کل قسم إلى تركه . ونحن نشکر الشیخ علی صراحته ، ونتساءل أين التقلید ؟ ثم نقول باحترام : إن التقلید الذی تسمونه «مطلقا» أو عاما ، لیس محل النزاع حتی یحتاج فیہ إلى البحث والنظر .
 ومن البدیهی أن کل متعلم یتأثر بعمله ، وکل جاهل — أو قليل

(۱) ترجمة بیت بالأردیة نصه :

رشتہ الفت میں گر ان کو پروسکتا تھا تو

منتشر کیوں پھر تری تسبیح کے دانے رہے ؟

العلم - يحتاج إلى عالم، بل كل عالم يرجع إلى من هو أعلم منه، وكل مفضول عليه إلى من هو أفضل منه، وهذا من سنة الله وهداية القرآن، ولا يستطيع أحد أن ينكره، وكذا تأسس علم المتأخرين على علم المتقدمين، وهذا لا يسمى تقليدا، بل هو استفادة علمية، فكل فكر يؤيد ويطمئن الآخر، وهذا يقبله على التحقيق لا على التقليد، فخطيء من يسمى هذا تقليدا، ولو أصررتهم على تسميته تقليدا فهذا أمر لا يدخل في نطاق بحثنا ومناقشتنا، ونحن على يقين أن الإمام أبا يوسف والإمام محمدا رحمهما الله تعالى ما قلدا قط الإمام أبا حنيفة، وكذلك لم يكن المزي مقلدا للشافعي، ولا الأشهب وابن وهب للإمام مالك، ولا أبوداود وابن قدامة وابن تيمية للإمام أحمد رحمهم الله. وكل ما كان بينهم هو تأثير التلميذ بشيخه، فاتفقوا مع شيوخهم في مسائل، واختلفوا في أخرى، فسموه بما شئتم ولكن الحقيقة أنه استفادة علمية، وهذا لا خلاف فيه.

ثم قول الشيخ العثماني بأن «التقليد بقسميه ليس إلا أن الرجل لا يستطيع استنباط المسائل من الكتاب والسنة، فيرجع إلى من يراه ماهرا في الكتاب والسنة ويعتمد على فهمه وبصيرته وفقهه ويعمل حسب تصريحاته» ليس إلا كما يقال: كلمة حق أريد بها التمويه. إن المستفيد إذا كان جاهلا كيف يعلم نبوغ الإمام أو المسؤول؟ ولو كان قادرا على اختبار قدرة المسؤول فلما ذا يعتمد على فقهه،

وبعد ذلك كله لا يبقى إلا أن نقول: إن الذي يعتمد على غيره في معرفة الأحكام هو من لم يعط من التفقه والبصيرة الذاتية حظاً.

وبعد ذلك استدلل الشيخ العثماني بآيات وأحاديث على إثبات التقليد المطلق، ولا نرى حاجة إلى البحث عنه، فإن نوع الاتباع والاطاعة الذي أراده الشيخ صحيح، ولو لم تؤيده آية، ولكن الشيخ العثماني قد أصيب هنا بضيق في التفكير ولم يبق وسيع الذهن كما كان في بداية بحثه، إنه نزل إلى المنزلة التي كان عليها الشيخ مرتضى حسن الديوبندي رحمه الله ومن كان مثله في الكلام على هذا الموضوع.

١ - قال الله تعالى: ﴿ولو رددوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعليه الذين يستنبطونه منهم﴾^(١).

وفي شرح هذه الآية ونقل الأقوال ذكر العلامة الجصاص وغيره، العلماء والفقهاء، ولكن السياق يأبى هذا العموم والشمول، فمن الظاهر أن عدداً كبيراً من المرجفين والمنافقين كان في المدينة المنورة، وكان ينشط في نشر إشاعات الأمن والخوف، مما يؤدي إلى تسكدر الجو والفساد، وكان المسلمون أحياناً يصدقون هذه الإشاعات فتضطرب حالة الأمن، فنهى الله تعالى المؤمنين عن ذلك وأمرهم بأن يردوا مثل هذه الأمور إلى الله تعالى وإلى رسوله وإلى أولى الأمر من الصحابة.

(١) النساء: ٨٣.

وقد يسع معنى «أولى الأمر» اتجاه العلامة الجصاص، ولكن
 القرائن في آية سورة النساء تدل على إحياء مؤامرة الإرجاف
 والإشاعات السياسية بدل التدقيق الفقهي في المسائل الشرعية. وعلى
 هذا لا تدل الآية على قسم من أقسام التقليد المصطلح، وكل ما فيها
 هو الإذن لاستنباط الأحكام، وأنه واجب على أولى الأمر وأصحاب
 الحل والعقد، وبعد ذلك ورد ذكر آثار الحرب وفساد المنافقين،
 ولذلك لا يبدو صحيحاً أن يفسر قوله «أولى الأمر» بالعلماء والفقهاء.
 وقد دافع العلامة الجصاص بأسلوب جدلي عن موقفه، ولكنه ليس
 بقوى. ولو تدبر الشيخ العثماني في الآيات التي تأتي بعد الآية السابقة
 لصدق ما أقول، وإن أراد حمل حالة الحرب الخاصة على الحالة
 السلبية لنشر الدين فله حريته.

٢ — قال الله تعالى: ﴿فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا
 في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، لعلهم يحذرون﴾^(١)
 وهي تدل على أن أمر التعليم والتدريس ونشر الدين والتفقه فيه
 يجب أن يستمر في زمن الحرب والسلام كليهما، وعلى العلماء أن يقوموا
 بتعليم أحكام الدين للغزاة الذين يرجعون من جهة القتال، وليس في
 هذا مجال للتقليد السائد، نعم قد أمر بمواصلة نشر الدين وبالاستمرار

في التعليم والتدريس حتى لا تضيق علوم الدين في مشاغل الحرب ، ولا تختفي المجالس العلمية في البلاد الإسلامية . وهذا نوع من توزيع الأعمال ، فطائفة تقوم بحماية المملكة الإسلامية ، وطائفة تقوم على فهم الكتب والسنة والنفقة فيهما ، فحينما يرجع الغزاة من الجبهة يستفيدون من تعليم العلماء . فكيف تسمى مجالس التعليم والتدريس بمجالس التقليد ؟ إنها ليست من التقليد في شيء ، وكل من يغشاها يستفيد منها حسب فهمه وتفكيره .

وقال الجصاص : وفي هذه الآية دلالة على وجوب طلب العلم ، وأنه مع ذلك فرض على الكفاية لما تضمنت من الأمر بنشر الطائفة^(١) ومعنى هذا أن الجصاص أيضا يرى أن الآية لا تفيد في إثبات التقليد ، ثم أليس من الممكن أن تكون الطائفة كلها مجتهدة ؟ ولذلك نقول إن عاقلا لا يفهم من الآية التقليد المصطلح .

٣ - قوله تعالى : ﴿ واتبع سبيل من أناب إلى^(٢) ﴾ .

وإثبات التقليد العام أو المطلق بهذه الآية تعسف ومكابرة علمية لا شك أن قوله : « من » عام ، ولكن الموجب للاتباع هو الانابة إلى الله كما في صلة من ، وهذا لا يفيد الوقوف على العلوم العرفية

(١) الأحكام ١٩٨/٣

(٢) لقمان : ١٥

فضلا عن الاجتهاد المصطلح ، فكيف ترونها نافعة للتقليد السائد ، عليكم بالفقه والدراية والالمانية إلى الله والابتغال إليه في مثل هذه المسائل التي قد انشقت بسببها عصا الأمة المرحومة نصاروا أشتاتا .
 ٤ — قال النبي ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدي ، أبي بكر وعمر ، » (رواه حذيفة) .

والاستدلال على التقليد بهذا الحديث تكلف محض ، إنكم مع اجترائكم على الاجتهاد كيف تثبتون التقليد الشخصي وكيف تحملون الاقتداء على التقليد المصطلح ، وخاصة بعد أن ورد ذكر الإمامين المجتهدين في الحديث ؟ ولو لم تستطيعوا ذلك فابتعدوا عن مثل هذا التكلف ، فإنه لا يليق بشأنكم . وصحيح قولكم : إن المراد بالاقتداء هنا ليس في الشؤون الحكومية فحسب بل فيها وفي الشؤون الدينية ، فيقال : اقتدى بفلان ، أى تسن به وفعل فعله ، فهذه الكلمة تطلق على الاتباع والتتبع في الأخلاق والعادات والأفعال بدون تقليد ، فإن المقتدى يتبع إمامه في أفعال الصلاة ، ولكن المعروف أن الإمام إذا حاد وانحرف عن الطريق المحدد فللمقتدى أن ينبهه بالتسبيح والتصفيق .

ومعروف لديكم ولدى أمثالكم من أهل العلم أن هذا يختلف تماما عن التقليد المصطلح ، فإن في ذلك يمكن عاميا أن ينتقد على المجتهدين وينبههم على خطئه في العمل . ليتكم أيها الشيخ العثماني ، ما كنتم إذ قتم

للاصلاح ، طريقا غير الطريق الجدلية القديمة ، ولكن الأسف أنكم
وطئتم السبيل الموطوء ومضغتم اللقم التي قد مضغها من قبلكم .
أمثلة التقليد المطلق :

قولكم « في توفر أمثلة التقليد ، صحيح ، ويمكن أن تجمعوا كتابا
كاملا من أمثلة التقليد العام هذه ، ولكن أوضح لكم مع الاحترام
أن كتابا مثله لا يساوي شيئا في السوق ، والدلائل الأربعة التي
ذكرتموها في مقالكم لا تجدى ولا تزن شيئا لو حاسبناها محاسبة
علمية مفصلة .

تقسيم الصحابي إلى فقيه وغير فقيه :

ومن النخجل المؤسف تقسيم جماعة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم
إلى فقيه وغير فقيه ، وإبداء مثل هذه الآراء بقية من بقايا الرفض
والتشيع ، وقد أيد أئمة الأصول رأى القاضي عيسى بن أبان هذا
فساعدوا وشجعوا المعتزلة والروافض ، وبالعكس ذلك ينبغي رأى العلامة
السرخسي على التحقيق والصواب ، وينبغي أن تراجعوا كشف الأمرار
وغاية التحقيق شرح الحسامي وتدرسوا هذا الموضوع وتنبهوا الطلاب
على هذه الإساءة إلى الصحابة . وغريب جدا أن تنشروا الاعتزال
والرفض في مدارسكم على حسابكم .

إن الله تعالى قال في كتابه العزيز : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ^(١) ﴾ وهذا يصدق على الصحابة رضي الله عنهم أيضا ، وكان العالم منهم يرجع إلى أعلم منه ، والمفضل إلى من هو أفضل ، وبعد المراجعة والبحث كانت الأذهان أحيانا تنبه والقلوب تتذكر فينتهي البحث ، وأحيانا كان البحث يطول ولا تتضح المسألة إلا بعد الاسناد والدلالة على مصدر الحكم ، فلا يصح قولكم : « لأنه لا يوجد حادث واحد سأل فيه الصحابة دليلا لمسألة » .

ولا يجترئ متعلم عاقل خبير بدواوين السنة على ما اجترأتم عليه . ولعلكم تعرفون أن عمر وعائشة رضي الله عنهما لم يثقا بقول فاطمة بنت قيس بعد الاسناد ، وقالوا : لا ندرى أحفظت أم نسيت ؟ وكذلك ما حدث بين عمار وعمر رضي الله عنهما في التيمم من الجنازة ، فعمار كان يستدل ويسند ويشير إلى حضور عمر ، ولكن عمر رضي الله عنه لم يطمئن وكذلك لم يمنعه من إبداء الحق ، فمن الغريب أنكم تبحثون عن التقليد في عصر التحقيق والنفقه هذا ، إنا لله .

ونرى في متعة الحج أن اختلاف الصحابة عن رأى عمر وعثمان رضي الله عنهما ما زال قائما بعد سماع السند وبقي كل مجتهد على رأيه ، فكيف يصح القول بأن حادثا واحدا لم يدل على السؤال عن

(١) سورة يوسف : ٧٦

الدليل والسند في عصر الصحابة ؟ .

وفي أمر الاستيذان سئل أبو موسى الأشعري عن الشهادة ،
فجاء إلى المسجد وأخذ معه أبي بن كعب وصدق قول أبي موسى وهنا
انتهى الأمر^(١) .

وأظن أن مثل هذا الكلام قد صدر منكم لأنكم تدرسون الحديث
سردا ولا تدبرونه ، وإلا لم يمكن أن تقولوا مثل الكلام الذي قلتم ،
أرجو أن تعيدوا النظر إلى موقفكم .

وكما أن الصحابة كلهم كانوا عدولا فكذا كانوا فقهاء ،
فلم يكن أحد في مجلس رسول الله غير فقيه ولا غير عادل ، ومن
أمن يتأتى لمسكين مثل القاضى عيسى بن أبان أن يرمى الصحابة بعدم
التفقه ، إنه بنفسه مغتر بالمعتزلة . وجراثيم الاعتزال ككلام سرت
بواسطة بشر المريسي والقاضى عيسى بن أبان وغيرهما . فلو بنا ترحف
إذ نسمع مثل هذا الرأي من أهل العلم في الصحابة رضى الله عنهم .

وقد ذكرتم نقلا عن موطأ الإمام مالك قول عبيد بن أبي صالح
بأنه باع من أهل دور النخلة قمحا بالنسيئة ، ثم لأنهم رغبوا في أنه
لو نقص في الثمن المحدد أخذه نقدا ، ولكن زيد بن ثابت قد منعه
من ذلك فامتنع^(٢) .

(١) راجع صحيح مسلم ٢/٢١١

(٢) الموطأ ، البيوع ، باب ما جاء في الربا في الدين .

وأقول: إن عالماً إذا سأل عالماً آخر عن مسألة فهو يهدف إلى الاطمئنان أو التذكر بعد النسيان أو مزيداً من البحث والتحقيق، وحينما يظهر القول الصحيح يقبله بدون جدال، وهذا لا يسمى تقليداً وخاصة لدى عالم مثلكم. والتقليد الذي تجيزونه للذين لا يقدرّون على استنباط الأحكام من الكتاب والسنة ليس شيئاً مستحسننا يسوغ نسبته إلى الصحابة رضي الله عنهم، بل لأنه نوع من الجهل كما يقول ابن القيم رحمه الله:

العلم معرفة الهدى بدليله ما ذاك والتقليد يستويان
إذ أجمع العلماء أن مقلداً للناس كالأعمى هما أخوان

التقليد الشخصي في عصر الصحابة:

إن الشيخ العثماني قد ذكر تحت هذا العنوان ثلاثة أدلة، وقبل أن انتقدها أرجو من القراء أن يدرسوا معنى التقليد الشخصي كما أورده الشيخ العثماني، ثم يتدبروا ما ذا تنفعه هذه الدلائل لإثبات مذهبه. والصورة الثمانية أن يعين عالم أو مجتهد للتقليد ويؤخذ بقوله في جميع المسائل.

الدليل الأول:

«إن أهل المدينة سألوا ابن عباس رضي الله عنهما عن امرأة طافت ثم حاضت، قال لهم: تنفروا، قالوا: لا نأخذ بقولك وندع قول

زيد^(١)، وكان أهل المدينة يرون على أساس فتوى زيد بن ثابت أن تلبث الحائضة إلى طواف الوداع، فأصروا على صحة فتوى زيد وقالوا لابن عباس: لا نأخذ بقولك. قال: إذا قدمتم المدينة فاسألوا، فقدموا للمدينة فسألوا، فكان فيمن سألوا أم سليم، فذكرت حديث صفية الذي يدل على أن طواف الوداع ساقط عنها.

وفي بعض الروايات أن هذا الخلاف كان بين ابن عباس وبين زيد بن ثابت، وأن زيد بن ثابت كان قد أخبر ابن عباس برجوعه. ومن العجب أن رئيس المدرسين لدار علوم يرى في ذلك دليلاً للتقليد الشخصي، مع أنه نموذج رائع ومثال صارخ للتحقيق، فإنهم قد اطمأنوا على فتوى زيد قبل الاختلاف، أما الإصرار على المعلومات والاعتماد عليها فهو شيء طبيعي، ولم يكن هذا الإصرار تقليدياً، فقد مالوا بعد ذلك إلى التحقيق ورجعوا إلى أم سليم وغيرها من فقهاء الصحابة، واستفادوا من آراء عائشة وأم سليم وصفية وابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم. فكيف يسمى الشيخ العثماني الاعتماد على العلم تقليداً؟ ولو كانوا مقلدين ما سمعوا قولاً سوى قول إمامهم، بل كانوا على ذروة التحقيق، ولذلك استعدوا للتحقيق بمجرد أن حصل لهم الشك في الأمر، وبحوثوا عن آراء المجتهدين، فتبين لهم خطأ قول زيد، وقبلوا فتوى ابن عباس، ثم

إن زيد بن ثابت نفسه قد أخبر ابن عباس برجوعه . وينبغي أن تراجعوا عمدة القاري ، ففيه أشياء أخرى سوى كلام ابن حجر ، تساعد في فهم الموضوع . ويبدو أن الحافظ العيني قد قصر عما بلغ إليه أستاذ دار العلوم .

ثم إن البحث في الموضوع المذكور لم يكن عن رأى حتى يقلدوه ، بل المجتهدون كانوا يبحثون عن النص ، فيقول العيني عن المتقني : « فرجعوا إلى ابن عباس وقالوا : وجدنا الحديث كما حدثتنا ^(١) . وفي فتح الباري : « أننا وجدنا نصا يؤيد ما أفتيت به ، فلم تبق أهمية ما أفتى به زيد » .

وقد قلتم في التقليد المختلف فيه : « ينبغي تعيين عالم يقلد ويعمل برأيه في كل مسألة ^(٢) » . فله دركم . قد أثبتتم تقليد زيد بن ثابت في مسألة ثم أثبتتم التقليد الشخصي ، وبما أن الأمر كان خاصا بالبحث عن النص فلا يسمى « ذنبا أو شركا » .

التماس مع احترام :

إن الفطن الذكي الذي يرى التقليد حيث لم يره الحافظ ابن حجر والحافظ بدر الدين العيني كيف يتطفل للاجتهدين السابقين ويسبى

(١) عمدة القاري ٧٧٧/٤

(٢) مجلة فاران عدد مايو ١٩٦٥ م

الظن إلى نفسه بأنه لا يملك صلاحية ، وأقول : قوموا ولا تسيئوا
الظن إلى نفوسكم ، فلو لم تكونوا مجتهدين كاملين فعلى الأقل تتجنبون
التقليد ، إن شاء الله :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم
هذا ، وعليكم أن تدبروا علما لإصرار أهل المدينة على فتوى
زيد بن ثابت ، إنه كان في ذلك الوقت أكثر علما من ابن عباس ،
وذلك لأمر :

الأول : أن النبي ﷺ حينما هاجر إلى المدينة كان زيد بن ثابت
ابن إحدى عشرة سنة ، أى أسن من ابن عباس ، فإنه كان ابن ثمانى
أو تسع سنين وقت وفاة النبي ﷺ .

والثانى : أن زيد بن ثابت كان يكتب الوحي ، وكان يشتغل مع
النبي ﷺ كأمين عام طوال حياته ، وكان يكتب رسائل النبي ﷺ
الخارجية ، وقد تعلم العبرانية بأمره عليه السلام حتى يؤمن من
مكائد اليهود .

والثالث : أن أبا بكر الصديق قد كلفه بجمع القرآن لعلمه وخبرته
الدينية وسعة اطلاعه بحضرة الصحابة الكبار ، رضى الله عنهم .

والرابع : أن زيد بن ثابت كان تلميذ النبي ﷺ وأبي بكر وعمر
وعثمان رضى الله عنهم مباشرة .

والخامس : أن أبا هريرة وأنسا وأبا سعيد الخدرى وسهيل بن

حنيف وطاؤسا وعطاء بن يسار من الصحابة والتابعين كانوا من تلاميذه .
والسادس : أن سعيد بن المسيب قال : شهدت جنازة زيد بن
ثابت ، فلما وضع في قبره قال ابن عباس : من أراد أن ينظر مشهد
فقد العلم فلينظر اليوم ، فدفن فيه قدر كثير من العلم . وقد قال
أبو هريرة يوم وفاته : مات اليوم عالم هذا الزمان ، ونرجو أن يخلفه
ابن عباس^(١) .

وطبيعي أن يتأمل أهل المدينة في الرجوع إلى ابن عباس في
مسألة وزيد بن ثابت فيهم ، وهذا الذي جعلتموه تقليدا .

الدليل الثاني :

وذكر الشيخ العثماني قول أبي موسى الأشعري الذي قاله في
عبد الله بن مسعود كدليل على التقليد الشخصي ، وهو : « لا تسألوني
ما دام هذا الخبر فيكم » . وشرحه الشيخ بأن أبا موسى الأشعري
قد أشار على الناس بالرجوع إلى عبد الله بن مسعود في جميع الشؤون
والمسائل . وإني أطلب منه إعادة النظر في القول حتى يرى هل يدل
على ما ذهب إليه ؟

صحيح أنه لا يسأل أبو موسى ما دام عبد الله بن مسعود ،
ولكن كيف يفهم منه أن يسأل عبد الله نفسه في كل مسألة ولا يرجع
إلى غيره ؟ إنه معنى سخيف لا يتوقع أن يصدر من أبي موسى ، وكيف

يمنع من الرجوع إلى كبار الصحابة الذين كانوا حينذاك ، وكل ما يقال أنه لا يرجع إلى المفضول مآدام الأفضل موجودا ، ولكن لا تخصيص لأحد أو لكل مسألة في قول أبي موسى ، ولعله من اجتهاد الشيخ العثماني ، ويصعب إثبات التقليد الشخصي بدون أن يثبت تخصيص ابن مسعود وكذلك تخصيص كل مسألة .

ويبدو أن الناس في عصر الصحابة كانوا يستفتون العلماء في المسائل بدون تقليد وتحديد ، كما رجعوا إلى أبي موسى وإلى ابن مسعود وهذا ما يجب على العاصي بأن يرجع إلى العلماء وهم يحولونه إلى أعلمهم إذا رأوا ذلك ، ثم ان قول عبد الله بن مسعود قد رجح لأنه ذكر حديثا ولم يفت برأيه ، فكيف يسمى هذا دليلا على التقليد ؟ وكيف ينبغي لمدرس دار علوم أن يقول هذا الكلام ؟

وهنا نقطة أخرى للبحث ، وهي ان المجتهدين الذين كانوا في عصر الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وغيرهما ، من عزلهم عن منصبهم وأي رسول أحل محلهم الأئمة الأربعة ؟ إن الصحابة أرفع منزلة من جميع الوجوه ، فهل كان المجتهدون منهم أقل منزلة من الأئمة الأربعة ؟

الدليل الثالث :

وقد استدلل الشيخ العثماني بالكلام الذي دار بين النبي ﷺ

وبين معاذ بن جبل حينما كان متوجها إلى اليمن . ولا شك أن فيه هداية قيمة للقضاة ، وأساسا عظيما للحكام ، ولكن لا موضع فيه للتقليد ، فإن النبي ﷺ لو بعث معاذًا إلى اليمن لأن يقلده أهلها على أنه مجتهد لم يكن في حاجة إلى أن يسأله « كيف تقضى » ، بل يعطيه وثيقة رسمية تنص على أن المجتهد (معاذا) يتوجه إليكم ، وعليكم أن تقادوه ولكن قول النبي ﷺ على خلاف ذلك ، فإنه ﷺ يقول : « عن معاذ أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما في كتاب الله ، قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال فان لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟ قال اجتهد برأى ولا آلو ، قال : فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى به رسول الله ^(١) » .

وهذا يتعلق بالحكم والقضاء ، لا بالافتاء ، والتقليد يتعلق في الظاهر بالافتاء ، يقول ابن القيم : « قد جوز النبي ﷺ للحاكم أن يجتهد رأيه وجعل له على خطئه في اجتهاده الرأى أجرا ^(٢) » . فالنبي ﷺ قد أذن للمحاكم أن يقضى باجتهاده . ثم إن تعريف التقليد الذي ذكرتموه يقتضى أن يتقيد المقلد برأى الإمام في كل مسألة ، وهذا

(١) إعلام الموقعين ٢٠٢/١

(٢) أيضا ٢٠٣/١

لا يوجد هنا . نعم يجب قبول حكم الحاكم في القضاء لحسم النزاع ،
أما الرجوع إلى العلماء الآخرين للرافعة ضده فلم ينع عنه في أثر
معاذ البتة .

ولمعاذ أثر آخر يوضح ذلك ، وفيه : « تكون فتن فيكثر فيها
المال ، ويفتح القرآن حتى يقرأه الرجل والمرأة والصغير والكبير
والمنافق ، والمؤمن ، فيقرأه الرجل فلا يتبع ، فيقول : والله لأقرأه
علانية ، فيقرأه علانية فلا يتبع ، فيتخذ مسجدا ، ويتدع كلاما ليس من
كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ ، فأياكم وإياه . فانه بدعة
وضلالة ، قاله معاذ ثلاث مرات^(١) . »

وهذا يدل على أن الرأي في غير القضاء بدعة عند معاذ ،
فلا يصار إليه إلا عند ضرورة القضاء والحكم .

صاحبي ! إن معنى إثبات التقليد في القرون المشهود لها بالخير
أن قلة العلم كانت عامة فيها . وهذا ظلم عظيم بالنسبة للصحابة والتابعين
ومن تبعهم . إنكم أهنتموهم حيث ارتبتم في علمهم وتفقههم ، فلو سلمنا
وجود التقليد المصطلح في تلك الأيام أيضا فأى عصر يكون مثاليا
للعلم والاجتهاد ؟ يقول ابن القيم : الذي يختلف معكم في المذهب
ولكن تشهدون له بالغزارة العلمية والدقة : « فانا نعلم بالضرورة أنه
لم يكن في عصر الصحابة رجل واحد اتخذ رجلا منهم يقلده في جميع

(١) اعلام الموقعين ٦٠/١

أقواله فلم يسقط منها شيئاً وأسقط أقوال غيره فلم يأخذ منها شيئاً ،
ونعلم بالضرورة أن هذا لم يكن في التابعين ولا تابعي التابعين ، فليكن بنا
المقادون برجل واحد سلك سبيلهم الوخيمة في القرون الفضيلة على
لسان رسول الله ﷺ ، وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع
المذموم على لسانه ﷺ (١) .

أيها الشيخ ! أنتم من العلماء ، وتدرسون في معهد علمي ، فلكم
الحرية في القول ، ولكن لا تستهزؤا بالصحابة والتابعين وتابعيهم ،
إنكم بررتم للتقليد بأن الذي لا يستطيع استنباط الأحكام من
الكتاب والسنة مباشرة يجوز له التقليد بقسميه (٢) .

وكأنكم تحسبون مزية للقرون المشهود لها بالخير أن يحرم أهلها
النظر والاستنباط ويتلطخوا بالحشوية مثل أتباع الكنز والقديري ،
ويعيشوا عالة على الفقهاء والعلماء . إن اتباع نصوص الفقهاء وآراء
الصلحاء ظاهرة محضة ، والصحابة منها براء ، فكانت أنظارهم عميقة ،
ولم تكن فيهم ظاهرة ولا حشوية .

قيد التقليد العام :

قد مدح الشيخ العثماني التقليد العام كثيراً ، ودعا للأئمة المجتهدين
بالرحمة المتوالية بسبب أنهم سدوا باب التقليد العام . وهذا الجزء

(١) اعلام الموقعين ١٨٩/٢

(٢) مجلة فاران ص ١٧ عدد مايو ١٦٥ م .

من المقال يحملنا على الاستغراب من عالم كبير يتفوه بمثل هذا الكلام ، « ونود لو قاله غيرك » .

يحسب الشيخ أن اتباع باب الهوى قد انسد بمنع التقليد العام ، فلو أجزى لهم هذا الفساد في المستقبل .

ولكن هذا الرأي بجانب للصواب من وجوه ، وأرجو أن الشيخ يفكر وينظر فيها :

١ - ما ذكرتم من الأئمة السكبار من منع منهم من التقليد العام ، ومتى؟ وقد أحاطم في موضع على شيخ الإسلام ابن تيمية . ومن المصادفات السارة أن تعدوا ابن تيمية من الأئمة المجتهدين ، وإلا ما سمعنا أكابر ديوبند يقولون بذلك ، بل كانوا يستفيدون بكلامه وعلومه بدون أن يعترفوا له بهذه المنزلة الدينية .

٢ - والعبارة التي ذكرتموها تدل على أن اتباع الهوى لا يجوز في الدين ، وأنه يجب على الإنسان أن يكون متقيا لا متبعا للهوى . ولكن اتباع الهوى هذا يمكن أن يوجد في التقليد الشخصي أيضا ، فمن الممكن أن يختار أحد المذهب الحنفي لأنه يعامل بمرونة في تعاطي المسكرات والخدرات ، فإنه يحرم أربعة أو خمسة أنواع من المسكرات ، أما الأنواع الأخرى فلا يشدد فيها كثيرا ، فيقول العلامة الشيخ حسن الجبرتي مفتي الديار المصرية (م - ١١٨٠هـ) : إن لخنر العنب أسماء ، ويباح منها تعاطي

الأنواع الآتية: «أما الجمهورى فهو نسبة إلى الجمهور، نظراً إلى الاستعمال. والحميدى نسبة إلى حميد لكونه صنعه، واليعقوبى ويسمى أبا يوسف لأن أبا يوسف رحمه الله اتخذته لهاروب، وكأنه اتخذ له تخلصاً لما هو حرام الشرب، فهو اسم للمثلث إذا صب عليه ماء حتى أدق وترك حتى اشتد، فعلم بما ذكر أن المثلث خالص العصير، وأن الپختج وما عطف بمزوج بالماء بعد ذهاب ثلثيه وصيرورته مثلثاً، وهى حلال الشرب بعد الاشتداد والقذف بالزبد إذا شربت دون القدر الميسر للتقوى للعبادة لا من سبيل الله والطرب وإلا فهى حرام الشرب^(١)».

وهذه الرسالة تحتوى على عدة صفحات. وتتناول تفصيل أنواع الخمر وأحكامها من الحلة والحرمة، وفيها سعة كافية لتعاطى الخمر. وهكذا نجد فى شرح الوقاية: فإن أقر به أو شهدا عليه بعد زوال الريح أو تقيأها أو وجد ريحها منه أى علم الشرب بأن تقيأ أو وجد ريح الخمر منه بلا إقرار أو شهادة أو رجوع عن إقرار شرب الخمر أو السكر أو أقر سكران لا^(٢)».

ثم إن الإمام رحمه الله تعالى قد وسع كثيراً فى تعريف السكر،

(١) الأقوال المعربة عن أحوال الاشرية. ص ٦٠

(٢) شرح الوقاية ص ٣٠٠

وفي ضوء ذلك يجد مدمنو الخمر سعة كبيرة في المذهب الحنفي ، وفي الهداية والدر المختار والشامى نصوص كثيرة تؤيد ذلك ، ونظرا للايجاز نتركها هنا .

وقد قال ملك العلماء العلامة الكاسانى (م - ٥٨٧ هـ) بصراحة :
« وأما الأشربة التي تتخذ من الأطعمة كالحنطة والشعيرة والدخن والذرة والعسل والتين والسكر ونحوها ، فلا يجب الحذر بشربها لأن شربها حلال عندهما وعند محمد ، وإن كان حراما ، لكن هي حرمة محل الاجتهاد ، فلم يكن شربها جنائية محضة ، فلا تتعلق بها عقوبة محضة ولا بالسكر منها ، وهو الصحيح لأن الشرب إذا لم يكن حرامها أصلا فلا عبرة بنفس السكر كشرب البنج ونحوه ، والله سبحانه تعالى أعلم ، الخ^(١) » .

وقد فرق بعض العلماء بأن حرم شرب بعض أنواع الخمر دون بعض ، ولكن السكر حرام ، والعقوبة تجب بالسكر . ولكن العلامة الكاسانى يجوز شرب هذه الأنواع أيضا ولا تجب العقوبة عنده على السكر .

ولا يهمنا هنا وجوه جواز هذه الأنواع وعدمه ، فإن كتب الحديث والفقهاء مع متونها وشروحاتها قد فصلت القول في ذلك ، بل

(١) البدائع والصنائع للكاسانى ٤٠/٧

نريد الإشارة إلى المرونة التي توجد في المذهب الحنفي بصدد الأشربة .
فلو اختار أحد المذهب الحنفي لهذه المرونة في باب الأشربة
والمسكرات لوجب أن يحرم عليه التقايد الشخصى أيضا حسب كلام
الشيخ العثماني .

ويبدو أنكم ما تأملتم في كلام شيخ الإسلام، فإنه قد ذكر
التقليد في موضع وآخر، ولكنه يرمى إلى منع اتباع الهوى، سواء
كان بالتقليد أو تركه، ولكنه أنكم أعجبتم به ظنا بأنه يمنع عن التقليد
العام، مع أن كلام الشيخ لا يرمى ألبتة إلى أن اتباع الهوى يأتي من
التقليد العام أو التقليد الشخصى أو من تركه . ويظهر أنكم ما استوعبتم
كتب شيخ الإسلام وإلا ما وقفتم هذا الموقف .

وقد فصل العلامة قاضى خان القول في باب الأشربة تفصيلا
يوهم أنه كان في معمل المشروبات، فقد تكلم عن أنواعها العديدة
وصفاتها المختلفة ومالها من الأحكام، وقد استغرق هذا البحث في
الطبعة المصرية الصفحات ٢٠٨—٢٢٠ في الجزء الثالث من الكتاب
وأنا شخصا أميل إلى رأى الإمام الشافعى رحمه الله، فأدنى ارتباط
بينت الكرم بأباه الطبع، ولكن مع ذلك لا أرى مبررا لإساءة الظن
إلى الأئمة المجتهدين، وقد فصلت هنا بعض التفصيل لأن كلام الشيخ
العثماني كان يوقع في المغالطة . والشيخ يظن أن التقليد الشخصى يقفل
باب اتباع الهوى، ولكن جذوره توجد في هذا التقليد، وكذا

نجد في سائر المذاهب الفقهية فروعا تؤدي إلى اتباع الهوى .
وكذا توجد مرونة في عقوبات الفواحش والأعمال السيئة ،
فالفقه الحنفي لا يحد في اللواط وفي ارتكاب الفاحشة مع البهائم ،
ومع المحرمات الأبدية بعد النكاح . وقد تركت النصوص الدالة على
ذلك نظرا للإيجاز وإلا فن المعلوم أن الفقه الحنفي قد يفتح أبوابا
سرية لاتباع الهوى . وعلى ذلك لا يمكن القول بأن التقليد يمنع
من الهوى ، فإن ذلك يتوقف على النية ، فإن لم تصح يفتح باب
الهوى على مصراعيه .

الفواحش في باكستان:

ومن المعلوم أن أغلبية المسلمين في باكستان من الحنفية ،
وهم منتشرون في بعض المناطق من هنا إلى هناك ، وهؤلاء جميعا
متمسكون بالتقليد الشخصي ، ولكن دور السينما والمسارح والنوادي
للرقص والغناء التي توجد في البلاد كلها تدار وتنظم بالأشخاص
الاحناف على الأغلب . فإن كان التقليد الشخصي مانعا من اتباع
الهوى فلماذا انتشرت معامل الشهوات هذه هنا وهناك حتى وقعت
البلاد فريسة للأهواء والملذات؟ وإن منع من التقليد العام حسب تعبير
الشيخ العثماني وساد التقليد الشخصي في البلاد فلماذا هذه الفواحش؟
وكذلك نرى في الحجاز الشوافع وفي نجد الحنابلة وفي السودان

والجزائر وإفريقيا الممالك يملكون هذه المصانع ، وينتشر في تلك البلاد التقليد الشخصى أيضا ولكن الفواحش مع ذلك تحيط بالسكان وتسيطر على الأرجاء والأقطار . ومعنى ذلك أن حل المشكلة بالامتناع عن التقليد العام وبانتشار التقليد الشخصى لم ينجح البتة . ثم نرى أن التمييز بين الحلال والحرام قد انعدم اليوم ، فلو صح ما قائم عن التقليد الشخصى لوجب أن يمتلئ العالم صلاحا وتقوى ، ولكن الواقع أن الدين قد اتخذ لهوا ولعبا .

مثال مضحك :

وقد ضرب الشيخ مثالين لمضرة التقليد العام ، الأول مثال انتقاض الوضوء بالدم ، فالحنفية ترى أن الوضوء ينتقض بالدم ، والشافعية لا ترى ذلك ، فالشيخ يحسب أن أصحاب الهوى يعملون في ذلك على مذهب الشافعى في أيام البرد ، والثانى مثال عدم انتقاض الوضوء بمس المرأة عند الحنفية ، وانتقاضه بمسها عند الشافعية ، فأهل الهوى يعملون في ذلك على مذهب الحنفية في أيام البرد . والطلبة قد يستسيغون مثل هذا التمثيل في حلقات الدرس ، ولكن الواقع أن حنفيا متمسكا لا يقرب الصلاة ليلا أو نهارا ، وقد وقع بمناسبة مجالس الميلاء في مواكب الليل من قبل المدعين لحب الرسول مع النساء ما نقشعر الجلود بذكره . واستمعوا إلى المشاهدين لمعرفة ما يجرى في مدن مونتجمرى وكوجرانواله ولاهور . والذين يقومون بهذه

الردائل يتمسكون بالتقليد ويسبون الوهابيين (السلفيين) . إن المس الذي اختلفت حوله الحنفية والشافعية ليس بشيء ازاء ما يجري في تلك المدن ، وبعد القيام بهذه الأعمال نام محبو الرسول وعشاق التقليد عن الصلاة ولم يمنعهم التقليد عن اتباع هذا الهوى .
وليتهم صلوا على مذهب أى إمام من الأئمة ، فالتقليد الشخصى لم ينجح مطلقا فى المنع من اتباع الهوى .

فقد ظهر بهذا ان اتباع الهوى يرجع إلى النية ولايتعلق بالتقليد أو بتركه ، والنية الفاسدة يمكن أن تأتى من المقلد ومن غيره ، وكلاهما يندفعان إلى الهوى .

أما رأى شيخ الإسلام فى مثل هذه الأمور فواضح ، يقول ابن القيم : « وقد سمعت شيخنا رحمه الله يقول : جاعنى بعض الفقهاء من الحنفية فقال : أستشيرك فى أمر ، قلت : ما هو ؟ قال : أريد أن أنتقل عن مذهبي ، قلت له : ولم ؟ قال : لأنى أرى الأحاديث الصحيحة كثيرا تخالفه ، واستشرت فى هذا بعض أئمة أصحاب الشافعى فقال لى : لو رجعت عن مذهبك لم يرتفع ذلك من المذهب ، وقد تقرر المذاهب ، ورجوعك غير مفيد ، وأشار على بعض مشايخ التصوف بالافتقار إلى الله والتضرع إليه وسؤال الهداية لما يحبه ويرضاه .
فأذا تشير به أنت على ؟ قال : فقلت له : اجعل المذهب ثلاثة أقسام ، قسم الحق فيه ظاهر بين موافق للكتاب والسنة فاقضى به

وأفت به طيب النفس منشرح الصدر ، وقسم مرجوح ومخالفه معه الدليل فلا تفت به ولا تحكم به وادفعه عنك ، وقسم من مسائل الاجتهاد التي الأدلة فيها متجاذبة ، فإن شئت أن تفتي به وإن شئت أن تدفعه عنك ، فقال : جزاك الله خيرا^(١) .

فانظروا إلى شيخ الإسلام يشير على عالم حنفي بأن يفحص المذهب ويجعله ثلاثة أقسام ويعمل منشرح الصدر بما يوافق الكتاب والسنة بصراحة . ولو طلبنا في الجمود الذي يدعو إليه أهل ديوبند اليوم العمل بمشورة شيخ الإسلام لارتعش كل صغير وكبير منكم . أما المنشورات التي ينشرها (انظر شاه) ابن المغفور له أستاذ الأساتذة الشيخ أنور شاه عن أبيه فهي مختلق عليه ، ولوسلمنا صحتها فهذا يحملنا على الشك في منزلته الرفيعة وفي علمه وفضله .

إن التقليد أو الحنفية ليسا محل النظر ، بل النظر في الجمود الذي تعودتم عليه ، وهو يوجد على السواء لدى أهل بريلي وأهل ديوبند كبارهم وصغارهم . وأتوقع أن الملامة قد انصببت أو ستنصب عليكم ، على أسلوبكم اللين الذي اخترتموه .

وانظروا إلى قول آخر لشيخ الإسلام وقد سئل هل يقلد الشافعي حنفياً أو الحنفي شافعيًا في صلاة الوتر أو جمع الصلاة من

المطر؟ فقال: «الحمد لله، نعم يجوز للحنفي وغيره أن يقلد من يجوز الجمع من المطر لاسيما وهو مذهب جمهور العلماء كمالك والشافعي وأحمد وقد كان عبد الله بن عمر يجمع مع ولادة الأمور بالمدينة إذا جمعوا في المطر، وليس على أحد من الناس أن يقلد رجلا بعينه في كل ما يأمر به وينهى عنه ويستجبه إلا رسول الله ﷺ. وما زال المسلمون يستفتون علماء المسلمين فيقلدون تارة هذا وتارة هذا، فإذا كان المقلد يقلد مسألة يراها أصح في دينه أو القول بها أرجح أو نحو ذلك جاز هذا باتفاق جماهير علماء المسلمين، لم يحرم ذلك لأبو حنيفة ولا مالك ولا الشافعي ولا أحمد، الخ^(١)».

وهكذا ذكر الإمام التقليد، فانظروا في الجزء الثاني من فتاواه الصفحات ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٣ وغيرها يتضح لكم مذهب الإمام. وإن تبقى هذه المسألة موضعاً للنزاع إذا عالجتموها مراعين رأي ابن تيمية وكونه حنبلياً. أما الأسلوب الذي اتخذه أهل ديوبند نحوها كرهه الإمام أبو حنيفة لو كان حياً.

أما النقل الذي أوردتموه عن الشيخ ابن تيمية فهو نقل في ذكره الإمام لضرورة خاصة، ولا يدل على تحقيقه الذاتي، بل يحسن لذلك المراجعة إلى ما ذكرناه. إن المنزلة العلمية للإمام عالية جداً، والنقل

(١) فتاوى ابن تيمية ٣٨٧/٢

المذكور لا يدل على منع التقليد العام البتة ، ولو تأملتم لظاهر أنه لا ينفعكم قطعاً ولا يمت إلى الموضوع بصلة . والغرض الأصلي أن لا يتخذ الدين وأئمة وسيلة للتلاعب والهوى ، وهذا أمر يرجع إلى النية ، فلا يمنع التقليد الشخصى ولا يوجب تركه . ولو تأملتم فى الأحداث لظهر أن التقليد الشخصى قد ساد وانتشر ، حسب تصريح الشاه ولي الله والحافظ ابن القيم ، بعد القرن الرابع ، وفى القرون المشهود لها بالخير كان مدار الفتوى على ترك التقليد أو على التقليد العام فى قوله . وهذا هو العصر الذى كثرت فيه أهل الله وأئمة الاجتهاد والأئمة المحدثون والصلحاء والمتقون . ومنذ أن بدأ تنفيذ ما اقترحتم بدأ عصر الفتن الذى أشار إليه النبى ﷺ وجعله عصر الفواحش والفتن ، والكنكم تستنزلون عليه الرحمة وتدعون له ، والظاهر أن هذا الدعاء لا يقبل لكونه خلاف ما صرح به النبى ﷺ ، وكذلك لا يمتنع اتباع الشهوات بالوصيفة التى ذكرتم .

الشاه ولي الله والتقليد :

قال الشيخ فى صفحة ١٩ : إن العمل فى عصر الصحابة والتابعين كان على التقليد العام وعلى التقايد الشخصى كليهما (أى كما زعم ، وإلا فالأمر على العكس) ثم لما أحسوا بالخطر المذكور (وهو اتباع الهوى) حصروا التقليد فى التقليد الشخصى . ثم أورد نقولا من كلام الشاه ولي الله أجاز فيها التقليد أحياناً وأوجبه أحياناً أخرى .

والحقيقة أن حياة الشاه ولي الله مراحل عديدة ، وكان قلبه السيال يعمل فيها على السواء ، ويعبر عن اتجاهه في كل وقت . فكلامه الخاص بالنصوف يتضمن ما يؤيد البريلوية ، ولكنهم لا يثقون بالشاه وأسرته ، وإلا فيشجع شفاء العليل وغيره من كتبه الاتجاهات البدعية تشجيعا قويا .

أما أهل الحديث وأهل ديوبند فمن معتقدي الشاه . والأولون لا يغيرون موقفهم معه مع معرفة ميلان الشاه إلى الحنفية بارزا في بعض المواضع ، فالشاه يعارض الجود معارضة قوية ، واليقظة التي نراها اليوم في البلاد قد بدأت بمجدد الألف الثاني ، ولكن الشاه ولي الله هو الذي أبرزها ودعمها ، وحينما وصلت هذه اليقظة إلى الشاه اسماعيل الشهيد وأصحابه المخلصين تحولت إلى ترك التقليد ، وقد دعم هذا الاتجاه العلامة السيد نذير حسين وتلاميذه ، ويتمسك به اليوم مئات الألوف في الهند وخارجها ، وهم يقومون بنشر الحرية الفكرية وطريقة السلف في البلاد . وقد أورد الشيخ العثماني ثلاثة نقول عن الشاه ، اثنين من كتاب الإنصاف ، وواحدا من حجة الله البالغة . ولكن الشاه قد أوجب التقليد في الإنصاف موقتا لاشرعيا ، مما يدل صريحا على أنه يقصد وجوب التقليد في ظروف مماثلة ، فيقول : « لم يجمع الناس في القرن الأول والثاني على تقليد رجل معين ، وقد ازداد الأثر بعد القرن الثاني ، وكان هو الواجب

في هذا الزمان . فانظروا وقولوا هل تجب الواجبات الشرعية موقتا أم دائما؟ أما النقل الثاني فيذكر فيه الشاه النحو والصرف بما لم يكن واجبا في أول الأمر ثم صارت معرفته واجبة في يومنا هذا ، فكان وجوب التقليد الشخصي موقت مثل وجوب الصرف والنحو . وإذا كان الوجوب موقتا فلو أنكروه أحد بناء على أن الأحوال تغيرت فكيف يكون دائما؟ ولوانظرنا إلى الظروف المعاصرة لوضح لنا أن المفاسد التي كانت نخشاها من ترك التقايد في تلك الأيام قد زالت اليوم ، والتغير الذي نلسمه في أسلوبكم اليوم قد نتج من تغير الأحوال ، وذلك بجهود أصحاب الهمم والعزائم . أما كلام الشاه في حجة الله فلا يدل إلا على الجواز ، ولو تأملتم فيه ووصلتم إلى مغزاه لتبين لكم أنه يدل صريحا على معارضة وجوب التقليد ، (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد^(١)) .

ولم أعتبر مثل هذه النقول مؤيدة لترك التقليد ، فلا أرى حاجة للكلام عليها .

وأذكر هنا قولا آخر للشاه معارضا تماما للقول الذي ذكرتموه من أن التقليد قد انحصر في التقليد الشخصي ، يقول الشاه نقلا عن

(١) سورة ق: ٣٧

الشعراني « ثم نقل عن جماعة عظيمة من علماء المذاهب أنهم كانوا يعملون ويفتون بالمذاهب من غير التزام مذهب معين عن زمن أصحاب المذاهب إلى زمانه على وجه يقتضى كلامه أن ذلك أمر لم يزل العلماء عليه قديما وحديثا حتى صار بمنزلة المتفق عليه فصار سبيل المؤمنين الذي لا يصح خلافه^(١) ». ومثل ذلك قال في ص ٢٨ ، وهكذا نقل عن العز بن عبد السلام في ص ٤٠

وقد قلت آنفا إن مراد الشاه من وجوب التقليد ليس وجوبا شرعيا بل يريد الحاجة الموقفة ، فانظروا إلى قوله الآتي : « وأشهد الله بالله أنه كفر بالله أن يعتقد في رجل من الأئمة بمن يخطئ ويصيب أن الله كتب على أتباعه حتما ، وأن الواجب على هو الذي يوجبه هذا الرجل على ، ولكن الشريعة الحقة قد ثبت قبل هذا الرجل بزمان^(٢) » .

وقد ذكر الشاه بعد ذلك الصورة المباحة للتقليد ، ولكن ليس ذلك وجوبا شرعيا ، وهذا الذي نقصد من هذا القول .

أما نوع التقليد الذي يرتضيه الشاه فهو كما يصرح بنفسه : « وأنشأ في قلبي داعية من جهة الملائع الأعلى تفصيلها أن مذهبي أبي حنيفة والشافعي هما مشهوران في الأمة المرحومة ، وهما أكثر المذاهب

(١) عقد الجيد ص ٥٢

(٢) التفهيمات الإلهية ٢١١/١

تأبعا وتصنيفا ، وكان جمهور الفقهاء المحدثين والمفسرين والمتكلمين والصوفية متمذهبين بمذهب الشافعي ، وجمهور الملوك وعامة اليونان متمذهبين بمذهب أبي حنيفة ، وإن الحق الموافق لعوام الملا الأعلى اليوم أن يجعل كل مذهب واحد يعرضان على الكتب المدونة في حديث النبي ﷺ (١) .

ولولا خوف الإطالة لجمعت أوراقا من آراء وأقوال الشاه التي تقرر ذلك . والشاه يكره قطعاً التقليد الذي يدعو له معسكر الديوبنديين اليوم . ثم إنه يستعمل كلمة التقليد في معان شتى ، ولا يتقيد بمعناه الاصطلاحي . ولو تأملتم في حجة الله وعقد الجيد والبدور البازغة والخير الكثير والتفهيمات الإلهية والانتباه والوصية من مؤلفاته لعلمتم قطعاً صراحته في موقفه وكرهه للتقليد السائد :

« لا يعرف الأحياء أن ملك العالم معنا اليوم (٢) » .

شبهات حول التقليد :

قد حاول الشيخ العثماني تحت هذا العنوان الرد على الشبهات التي تثار حول وجوب التقليد من قبل بعض الأوساط ، أو على

(١) التفهيمات الإلهية ٢١١/١ - ٢١٢

(٢) ترجمة بيت فارسي نصه :

عزیزاں را ازیں معنی خبر نیست کہ سلطان جہاں با ماست امروز

الدلائل التي سبقت بالايجاب ضد التقليد السائد .

الآية الأولى :

﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون^(١)﴾ .

يقول الشيخ : هذا في الآباء الذين يكفرون علانية بأحكام الله ، ثم الآباء الذين كانوا مجردين من العقل والهداية . تم يقول الشيخ في الختام : لا ينكر أحد من أهل الحق أن الأئمة المجتهدين الذين يقلدون تسلم لهم منزلتهم العلمية مهما اختلف معهم ، فقياس هذا التقليد على تقليد الكافرين ظلم عظيم .

وأقول في الجواب : أنا معكم يا شيخ في أن التقليد السائد يختلف عن تقليد الكافرين قليلا ، وكذلك لا شك أن علو منزلة الأئمة المجتهدين معترف به من جميع الوجوه ، فعلمهم وزهدهم وتقواهم أرفع من الشبهات ، وكذلك شخصياتهم مع علمهم وإيمانهم لا تدخل في موضع المناقشة ، بل بالعكس لهم أباد علمية على الأمة تجعل سوء الظن فيهم كفرانا لمعروفهم فضلا عن إساءة الأدب ، ولكن بعد ذلك كله نود مناقشة النقاط الآتية :

١ - هل ورد في الكتاب والسنة اسم مجتهد أو إمام صريحا ؟

(١) البقرة : ١٧٠

٢ - وهل كان علم هؤلاء الصالحاء كلهم سواء أم متفاوتا حسب

تصريح القرآن: ﴿وفوق كل ذي علم عليم^(١)﴾ ؟

٣ - وهل ظهرت لديهم جميع مجاميع الحديث التي كانت توجد في

البلدان المختلفة أم خفي بعضها ؟

٤ - ثم هل كان الجميع متفقين في المسائل الاجتهادية ولم يكن خلاف

بينهم في الفروع ؟

والظاهر أن الإجابة على هذه الأسئلة بالنفي ، فالشارع لم يسم

أحدا كإمام ، ولم يكن علمهم سواء ، ولم تكن مجاميع السنة كلها موجودة

في ذاك الوقت ، ولم يكن اجتهادهم خاليا من الخلاف . فكيف يقبل

عامي لقلة العلم أو فقدانه ، اجتهادات إمام معين من الأئمة الذي

اتخذته إماما ومقتدى ، ويصرف النظر عن اجتهادات غيره التي

اختلف فيها مع إمامه . وقد سبق أن قلتم إن التقليد العام قد منع

منه لأنه كان يؤدي إلى اتباع الهوى وقد يمكن أن يرتفع التمييز بين

الحلال والحرام^(٢).

وقولكم هذا يدل صريحا على أنه يوجد في اجتهادات الأئمة

وفروعهم ما يشجع اتباع النفس . حقا إن التقليد السائد يختلف عن

تقليد عصر الوثنية ، ولكن يخشى منه أن يفقد المقلد التمييز بين الحلال

(١) يوسف : ٧٦

(٢) مجلة فاران ، ١٧ مايو ١٩٦٥

والحرام بعد الابتلاء بعبادة النفس .

وكذلك يخشى أن يخالف العامى نصا صريحا لم يبلغ إمامه الذى يعتقد فيه وخفى عليه . ولو أجزأه أن يجتمع مع العلماء للتحقيق ، ولا يحرم عليه المراجعة إلى العلماء بدون تخصيص فيما بينهم لنجا العامة والخاصة من هذه الأخطاء قطعاً .

وعلى هذا تشمل الآية السابقة ﴿ بل تتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ لعموم ألفاظها هذا التقليد أيضاً مع فرق فى الحكم والمنزلة . ويقول الشيخ صالح بن محمد بن نوح الفلانى بعد ذكر آيات كثيرة فى ذم التقليد : « ومثل هذا فى القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء ، وقد احتج العلماء بهذه الآيات فى إبطال التقليد ، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر ، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للتقليد ، كما لو قلد رجل فكفر ، وقلد آخر فأذنب ، وقلد آخر فى مسألة دنياه فأخطأ وجهها كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة ، لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً وإن اختلفت الآثام فيه ^(١) . »

وليس الأمر أمر الكفر والإسلام ، بل السؤال هو أن الحاجة

إذا مست للتحقيق ، وكان ممكناً نظراً للمقام فلماذا يسأل العامى عن

(١) إيقاظ الهمم للفلانى ص ٣٥

مذهب الإمام ولا يستنير بنور الكتاب والسنة ولا يسأل عن حكم الشرع؟ وعلة الحكم في قوله «لا يعقلون» و«لا يهتدون» تتحقق كلها حصلت شبهة في إجابة السائل أو فهمه واهتدائه، وبذلك تظهر ناحية التقليد المذمومة. وقد أوضح الحافظ ابن عبد البر أيضا هذا الموضع هكذا^(١).

الآية الثانية:

والدليل الثاني ضد التقليد هو قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾.

يقول العثماني: «نحن نعتبرهم شارحين لا شارعين».

ولكني أقول — محترما — نحن لا نريد في هذه الآية شيئا أكثر من رواية عدى بن حاتم، فانظروا — لله — جادين ولا تتخذوا أسلوب الجدل، فليس هناك فرق بين الحاليتين. فترى عندنا أن متون الفقه توضع موضع النصوص، وأهل التقليد من العلماء لا يأولون إلا النصوص، أما قول الإمام فيبقى دائما على الظاهر، والنصوص هي التي تكون هدف العمل والتجربة.

والشافعية تجيز نكاح بنت الزنا، مع وضوح شناعته. والحنفية توسع في حد الخمر بحيث يندى له الجبين. أما الاحتيال في ذلك بالقول

(١) راجع جامع بيان العلم ١١٥/٢ — ١١٨

« بالذات أو بالواسطة » فاستعير من البرباوية . والحقيقة أن المغالاة في الاعتقاد في الأئمة هي التي تصد عن التفكير والتأمل .

خطبة الجمعة :

من المعلوم أن الحنفية لا تجيز ترجمة خطبة الجمعة . وحينما بدأ أهل المذاهب الأخرى الخطبة في اللغة المحلية احتاجت الحنفية إلى إعادة النظر في موقفها . وكان الأمر سهلا لو بدؤوا ترجمة الخطبة نظرا للصالح ، أو بقوا على موقفهم متحملين الخسارة . ولكن السذى وقع هو أن أهل ديوبند قسموا خطبة الجمعة في ثلاثة أقسام « الأولى بلغتهم ، والآخرتان بالعربية . ولعل الأجيال القادمة تحسبه بدعة حسنة ، ولكن الحقيقة أن هذا التقسيم قد جاء نتيجة للغلو في احترام آراء الأئمة . ونظرا للاختراع في الخطبة يتساءل الرجل الساذج : أين التقليد ؟ ولاشك أن الغلو في حب الأئمة قد ساق إلى اختراع البدعة .

قيام رمضان :

يعلم بديهيا أن أعداد ٩ و ١١ و ١٣ لقيام رمضان مع الوتر قد وردت في الأحاديث الصحيحة ، أما العشرون ركعة وما فوقها فلم يرد في حديث صحيح مرفوع . وكان بعض الصحابة والتابعين يصلي عشرين أو ثمانين وثلاثين أو إحدى وأربعين ركعة . والأكثار من

النوافل يستحسن ، ولم يحب أحد عليه^(١) . وقد وفق ابن الهمام بأن

(١) قلت: لقد انصف المؤلف رحمه الله حينما قال . « وأما العشرون ركعة وما فوقها فلم ترد في حديث صحيح مرفوع ، وهذا هو الحق وأهل الحديث لا يلتفتون إلى غيره .

فقيام رمضان فضل مقيد وليس فضلا مطلقا ، والدليل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها المروي في الصحيحين ، عند ما سئلت عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رمضان فأجابت : « ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة ، يصلي أربعا فلا تسئل عن حسنهم وطولهن ، ثم يصلي أربعا ، فلا تسئل عن حسنهم وطولهن ، ثم يصلي ثلاثا . أما قول المؤلف رحمه الله : « والإكثار من النوافل يستحسن ولم يحب عليه أحد » ، فليس هذا مكانه كما علمت من تقييد حديث عائشة رضي الله عنها لقيام رمضان ، أما النفل المطلق فلا بأس . أما ما أورده من أن الصحابة زادوا على هذا العدد فصلوا عشرين أو أكثر ، فلا تصح رواية من هذه الروايات عنهم . (وقد حقق ذلك شيخنا المحدث محمد ناصر الدين الألباني في الرسالة الثانية من تسديد الاصابة وعنوانها : صلاة التراويح) .

وأما عن التابعين فإن صحت النقول عنهم ، فالمسلم لا يترك سنة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار لاجتهاد مجتهد أو أكثر أصاب أم أخطأ ، وهل لأحد قول مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ (الاستاذ علي شامي) .

الثانى ركعات سنة ، وما فوقها نافلة ، وهذا توفيق لا كلام عليه ، ولكن المتأخرين قد بالغوا فى ترجيح عمل الأئمة على السنة النبوية بدل أن يعملوا بها ، فمرة فرقوا بين التهجد وقيام رمضان ، ومرة اجترؤا على القول بأن الثانى ركعات بدعة ، وغير ثابتة . وقد صار البعض واقعيا فقال إن الصلاة واحدة (فى رمضان وغيره) فلا يثبت قيام الليل فى رمضان منفصلا عن التراويح ، ولكن السنة عشرون ركعة (الشيخ السيد أنور شاه) .

وقد ابتلى بهذا الغلو والتشتت الفكرى كل من الشيخ حبيب الرحمن الأعظمى^(١) ومن بعده من طلاب اليوم ، وليس ذلك إلا بسبب اتباع الأكابر ، وإلا فالأمر واضح ، أى لا اعتراض على عشرين ركعة من النوافل فلا يعترض على ثمانى أو عشر ركعات ، فكل يعمل على شاكلته .

ومن الممكن أن يسكره الشيخ العثمانى وبعض أصحابه هذا الغلو فى اتباع الأكابر ، فيستثنون من عموم الآية ، ولكن الغلاة يدخلون

(١) عالم حنفى من الهند ألف كتابا بالأردية باسم «ركعات تراويح» حاول فيه اثبات أن السنة فى قيام رمضان هى عشرون ركعة . وقد رد على هذا الكتاب العلامة الشيخ نذير أحمد الأملوى رحمه الله ردا شافيا قويا طبع باسم «أنوار مصابيح» : وبذلك اتضح الحق فى المسألة وأخف المعارضون .

في عمومها ألبته ، يقول العز بن عبد السلام : « ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا ، وهو مع ذلك يقلده فيه ، ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جمودا على تقليد إمامه ، بل يتحيل لدفع ظاهر الكتاب والسنة ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة ، فضلا عن مقلده ^(١) » .

فيوجد مصداق الآية في أهل التقليد ، ولو وقیم لوفقكم الله لمزيد الوقاية ، ولكن النظرية الجامدة التي تدافعون عنها أو تدعون إليها لا توجد لدى قدماء الحنفية ، ولم يرضوا بقيد التقليد الشخصي الذي ذكرتموه . ويؤيد قولي قول الإمام الطحاوي (م - ٥٣٢١) الذي يعد من كبار المؤيدين للحنفية ، يذكر قول الإمام محمد في آداب القاضی فيقول : « وإن كان إنما قضى به بتقليد الفقيه بعينه ، ثم تبين له أن غيره من أقوال الفقهاء أولى بما قضى به ، نقضه وقضى بما يراه فيه ، وبه نأخذ ، ولا ينبغي له أن ينقض قضاء من تقدمه من القضاة إذا كان بما يختلف فيه الفقهاء ^(٢) » .

وهذا يدل صريحا على أن التقليد الشخصي الجامد الذي دعوتكم إليه لم يعرف لدى قدماء الحنفية ، و صفحة ٣٢٧ من مختصر الطحاوي

(١) حجة الله البالغة ١/١٥٥

(٢) مختصر الطحاوي ص ٣٢٧

بأسرها جذيرة بالقراءة والتفكير، وإنى لم أنقلها خوفا من التطويل .
ثم إن دعوتكم إلى التقليد الشخصى تتضمن الصرامة والوثوق،
وفيهما مخاوف، فإنها تشجع العصبية والتباغض والعداء، وهذا شئ
يحمل على التأمل :

فاحفظ، وقيت، فتحت قدمك هوة كم قد هوى فيها من الإنسان
الأئمة يردون على التقليد :

قد اتفق الأئمة المجتهدون على الرد على التقليد، وإنهم قد
نهوا عن تقليدهم وتقليد غيرهم نهيا صريحا مؤكدا. ويقول الشيخ
العثمانى: إن هذا الحكم ليس للذين حرّموا أهلية الاجتهاد، بل للذين
يتصفون بصفة الاجتهاد. وهذا القول باعث على الاستغراب، فإن
المجتهد ليس مكلفا بالتقليد، فكيف يمنع منه؟ وعلى هذا فالخطاب
متوجه إلى الذين لم يصلوا إلى درجة الاجتهاد، وليكنهم متصفون
بالفهم الدينى، مثلكم ومثل العلماء أمثالكم. أما العامى فلا مذهب له،
وهو يقلد إمام مسجده أكثر من تقليده الأئمة المجتهدين، ولا يعرف
ماذا قال أبو حنيفة أو الشافعى. والمثال الحى لذلك شعبنا وعلماء
البريلوية، فالشعب يحسب مزخرفات الفقه مذهباً حنفياً، وإن
الحقيقة أن الإمام أبا حنيفة لم يتفطن قط لهذه الآراء المضطربة،
وقواكم يودى إلى أن الأئمة المجتهدين لا يحتاجون إلى التقليد،

أما أنتم ونحن وأمثالنا فقد منعنا من التقليد من قبل الأئمة ، والعامي لا مذهب له ، بل لأنه يقلد العلماء الذين نهوا عن التقليد ، وهنا نتساءل :
فأين التقليد ؟

وفي الشبهة الرابعة أشرت إلى الشاه ولي الله ، وقد سبق أن
وضحنا مذهبه ، ومن استزاد فلدينا مزيد .

وفي جواب الشبهة الخامسة يقول الشيخ العثماني : إن آيات التذكير
سهلة ، وآيات الأحكام صعبة . وهذه مغالطة قديمة ، والحقيقة أن في
القرآن والسنة مواضع صعبة ومواضع سهلة ، ولكن لا يعنى ذلك
أنها لا يفهمها إلا المجتهد ، فإنكم تدرسون في المدارس ، وتعلقون
الشرح والحاشية على المکتب ، وكذلك يفعل من يخالفكم ، وقد أمرهم
أئمة الاجتهاد بأن يعملوا بالكتاب والسنة حسب الفهم ، واجتنبوا
تقليدنا ، « خذوا الأحكام من المکتب والسنة ، ولا يكاف الله نفسا
إلا وسعها » والمؤاخذة تكون حسب الأهلية والنية ، سواء كانت
المسألة صعبة أو سهلة .

وفي الختام نقل الشيخ العثماني رواية من شرح السنة بخصوص
كون القرآن صعبا : أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظر
وبطن ، ولكل حد مطلع^(١) . وقد نقله صاحب المشكاة عن شرح السنة ،

(١) مشكاة المصابيح ١٩٢/١

والمخرجون نسبوه إلى الكبير أيضا، وهذا الأصل لم يطبع بعد، وقد ذكر له المفسر ابن جرير سنيين، وكلاهما ضعيفان مقطوعان، وجزء سبعة أحرف يوجد في الأحاديث الصحيحة، ولكنه لا ينفعكم، أما جزء «الظهر والبطن» فمخدوش.

الاعتدال أو الجمود في التقليد:

إن الشيخ قد كره التقليد الجامد ورضى بالاعتدال:
«حيّاك الله، هذا مغتّم منك».

وإني قد تأملت كلامكم، وكذلك كلام الشيخ التهانوي (أشرف على رحمه الله)، (م - ١٣٦٢هـ)، وأقول مع احترام: إن الاعتدال لم يوجد بعد في آرائكم وأقوالكم. وحينما تفصلون بين الاعتدال والجمود نعود لكم هناك ولكن الاعتدال المنشود لا يوجد لدى الشيخ التهانوي بل هو أيضا في حاجة إليه. نعم نوافق على قولكم بأن الاعتدال خير في جميع الأمور.

هل الفقه قانون مصطنع؟

قد تأسف الشيخ العثماني على أن بعض الناس حينما يعارضون التقليد يتطرقون من ذلك إلى سب الفقهاء والطعن عليهم. ولو جاء ذلك من أحد لكان عيبا كبيرا. وكذلك نرى أن بعض الناس حينما يدافعون عن التقليد يطعنون في الأئمة المحدثين. ولكن الحقيقة أن

العلماء الكرام أمانة مشتركة للأمة ، ولا يمكن أن نصبر على سبهم والطعن فيهم ، واليوم نرى أن الشيخ أنظر شاه بن الشيخ أنور شاه يحاول النيل من أئمة الحديث . وهذا محاولة لتنمية البذور التي بذرها الشيخ زاهد الكوثري ، وأهل ديوبند من الأصاغر والأكابر مشغولون بذلك منذ مدة طويلة . وموقفهم هذا لا يؤيد إلا منكرى الحديث النبوي . وفي باكستان يحاول بعض الشباب من الكتاب إحياء سنة السب والشتم ، وفي ذلك يحرفون النصوص ويخلطون بين المصادر ، هدام الله تعالى للإصلاح .

وبعد ذلك ذكر الشيخ مسائل ، وحسنا كان لو بقي في الأصول ولم يتجاوز إلى الفروع ، ولكنه أثار المسائل الفرعية أيضا ، وهذا يدل على أنه يريد إعادة المسائل التي كانت موضع جدل ومناقشة لمدة طويلة .

المسألة الأولى : وضع اليدين

ذكر الشيخ العثماني أولا مسألة وضع الأيدي في الصلاة ، وقد ذهب الأئمة المجتهدون في ذلك ثلاثة مذاهب ، الأول وضع الأيدي فوق السرة ، وهو مذهب أهل الحديث والشافعية . والثاني إرسال الأيدي ، وهو عمل المالكية . والثالث وضع الأيدي تحت السرة ، وهو مذهب الحنفية .

وتصح الصلاة في هذه الأوضاع جميعا ، حسبما أعلم . وليس

هناك حديث يؤيد عمل المالكية ، والإمام مالك نفسه ذكر حديث وضع الأيدي في الموطأ ، ولم نعلم كيف شاع الإرسال في الموالك ، ولكن لا أعلم أحدا وصفه بالعمل المصطنع .

وكذلك لا أعلم أحدا وصف عمل الحنفية بالاصطناع . نعم يرجح أهل الحديث وضع الأيدي على الصدر . والحديث الذي استدل به الشيخ العثماني على وضع الأيدي تحت السرة ضعيف متفق على ضعفه ، والشيخ نفسه قد كاد أن يسلم ضعفه . والحديث في بعض نسخ أبي داود ، وكذلك توجد رواية « على صدره » في بعضها ، أما رواية تحت السرة فمرفوع حكما ، ولكنه ضعيف بجميع أسانيدها ، فأسانيدها ترجع إلى عبد الرحمن بن اسحاق الواسطي ، وهو ضعيف باتفاق أئمة الرجال .

وبعض روايات « فوق الصدر » أيضا ضعيفة ، ولكن قد صح من بينها حديثان ، الأول : حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان حدثنا سماك عن قبيصة بن هلب عن أبيه : رأيت رسول الله ﷺ ينصرف عن يمينه وعن يساره ، ورأيت يضع هذه على صدره ، ووصف يحيى اليني على اليسرى فوق المفصل^(١) .

والثاني حديث ابن خزيمة ، وقد ذكره الحافظ ابن حجر في

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢٢٦/٥

باوغل المرام : عن وائل بن حجر قال صليت مع رسول الله ﷺ فوضع يده اليمنى على يده اليسرى على صدره . رواه ابن خزيمة^(١) . وقد نقل تصحيحه أيضا عن ابن خزيمة .

والحديثان يدلان على أن النبي ﷺ قد وضع يده اليمنى على يده اليسرى على الصدر . ومن شاء المزيد من البحث فليراجع عون المعبود (٢٧٦/١) .

والتحقيق أن أحاديث « فوق الصدر » أصح من أحاديث « تحت السرة » ، ولذلك يختار أهل الحديث مذهب فوق الصدر ، وقد نقل عن الإمام أحمد المذهبان ، مذهب فوق السرة ، ومذهب تحتهما . « واختلف في مواضع الوضع ، فعنه فوق السرة وعنه تحتهما ، وعن أبي طالب سألت أحمد : أين يضع يده إذا كان يصلي ؟ قال : على السرة أو أسفل ، وكل ذلك واسع عنده^(٢) » .

والإمام الشافعي أيضا يرجح فوق السرة ، وآثار تحت السرة كلها غير صحيحة . ولكن مع ذلك لا يمكن أن يوصف مذهب الحنفية بالاصطناع والاختلاق ، نعم يقال إنه مؤسس على الآثار الضعيفة ، ولذلك يترجح مذهب أهل الحديث نظرا إلى الإسناد . ولكن البعض يغلو في مثل هذه الأمور ، وهم يوجدون في الطرفين ، وعلمنا لإصلاحهم . ومن

(١) سبل السلام ١٥٩/١

(٢) بدائع الفوائد ٩١/٣ .

العاملين بمذهب تحت السرة من يرخى ويبالغ إلى أن تصل يده فوق العانة . ومن القائلين بمذهب ^{تحت} ~~تحت~~ السرة من يرفع إلى أن يجعلهما تحت العنق . والصورتان نكراهان . أما أمر الأدب والتعظيم فيتحقق بوضع الأيدى على الصدر لا بارسالها ، فانه خلاف الأدب بل مكروه . والأيدى توضع فى الأغلب على الصدر وقت التلاوة وبعد السلام ، ولم نر أحدا يضعها تحت السرة إلى اليوم .

المسألة الثانية : رفع اليدين :

هى رفع اليدين عند الركوع ، وليس معكم دليل فى هذه المسألة ، سوى التحكم والتعنت ، وكنت أظن أن الشيخ العثماني يعترف بذلك عادلا ، ويقول إن الحنفية لا يملكون الدليل فى هذا الباب ، ولكن أسلوب الكلام الذى اختاره الشيخ لا يزيده فضلا . والعلماء يعرفون أن المسائل التى بحثها وناقشها أعلام الأمة عبر القرون لابد وأن تؤيد بدلائل ، سواء كانت صحيحة أم ضعيفة وكنا نود إذا أُرثم المسائل القديمة أن تأتوا بجديد بدل إعادة ما قيل ؛ فان كلا من الفريقين يعلم ما عند الآخر من الدلائل . وبإثارتكم هذه المسائل اضطررت إلى توضيح موقف أهل الحديث منها .

وكما قلت إنكم فارغو الأيدى فى هذه المسألة ، ودلائلكم ضعيفة . وفى الحديث الأول من الحديثين اللذين ذكرتموهما قد تجاسرتم فى تقليد بعض الأكابر من الحنفية ، وإلا لم يرد فيه ذكر رفع اليدين

عند الركوع البتة . إن الأحناف الكبار يتجاسرون فيذكرونه ، وأنتم تعتمدون عليهم فتسلكون مسلكهم . والأمانة العلمية تتطلب ألا يذكر هذا الحديث في مبحث رفع اليدين عند الركوع ، ولا كنكم قاتم ما شئتم .

الحديث الأول :

روى مسلم هذا الحديث بأربع طرق ، وصرفت النظر عن التحويلات وتفرع الأسانيد .

ووردت في سنن أبي داود نفس هذه الأسانيد بخلاف يسير ، منها مختصر الماتن ومنها مطول ، والحديث واحد ، وألفاظه واضحة : عن جابر بن سمرة قال كنا إذا صلينا مع رسول الله ﷺ قلنا السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله ، وأشار بيده إلى الجانبين ، فقال رسول الله ﷺ : علام تؤمون بأيديكم ، كأنها أذنان خيل شمس ، إنما يكفي أحدهم أن يضع يده على فخذه ثم يسلم على أخيه من على يمينه وشماله^(١) .

وجميع هذه الأحاديث مروية عن جابر بن سمرة ، ومعناها مماثل ، ومن البين أن الفرق ليس في الحادث فإنه واحد ، في الإجمال والتفصيل . وعلى المصلحين أمثالكم أن لا يقولوا مثل هذا الكلام

(١) صحيح مسلم ١٨١/١

الفسارغ ، يقول الامام البخارى : « لا يحتج بهذا إلا من لاحظ له من العلم » .

ولو سلمنا صحة هذا الاستدلال لوجب العمل بمقتضاه فى تكبيرات العيدين والافتتاح والقنوت ، يقول ابن حبان : « إنما أمروا بالسكون فى الصلاة عند الإشارة بالتسليم دون الرفع الثابت عند الركوع^(١) » .

ويقول الامام البخارى : « فليحذر امرؤ أن يتقول على رسول الله ﷺ^(٢) . فلو تأملتم فى الموضوعين من صحيح مسلم وسنن أبى داود لوضح الأمر ، ﴿ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد^(٣) ﴾ .

الحديث الثانى :

هو مروى عن عبد الله بن مسعود ، يقول : « فلم يرفع يديه إلا مرة واحدة^(٤) » . قال أبو داود : هذا مختصر من حديث طويل وليس هو بصحيح على هذا اللفظ » .

وعلى هذا ليس الحديث الأول فى الموضوع ، والثانى ضعيف باتفاق المحدثين ، قال ابن مبارك : لم يثبت عندى . قال أبوحاتم : هذا

(١) عون المعبود ٣٨٢/١

(٢) نفس المصدر

(٣) سورة ق : ٣٧

(٤) أبوداود ١٢٥/١

حديث خطأ. قال أحمد بن حنبل ويحيى بن آدم: هو ضعيف، نقله البخاري عنهما وتابعهما على ذلك. وقال أبو داود: وليس هو بصحيح وقال الدارقطني لم يثبت^(١). ويقول ابن حبان: ليس لدى الكوفيين في عدم الرفع سوى هذا الحديث، وهو ضعيف جدا.

وطريق عاصم بن كليب وطريق محمد بن جابر كلاهما ضعيفان باتفاق الأئمة، أما تحسين الترمذي فمن عادته الخاصة ومصطلحه، ولا يستلزم الاعتماد والوثوق، كما هو مبسوط في كتب المحدثين، وهو (الترمذي) يقول في حديث عبد الله بن مسعود: إنه لا يثبت. قال عبد الله بن المبارك: قد ثبت حديث من يرفع، وذكر حديث الزهري عن سالم عن أبيه، ولم يثبت حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ لم يرفع إلا في أول مرة^(٢).

يقول محمد بن نصر المروزي: أجمع علماء الأمصار على مشروعية ذلك إلا أهل الكوفة^(٣).

وقد ذكر الإمام البخاري في جزء رفع اليدين عن الحسن وحديد بن هلال أن الصحابة كانوا يرفعون، ولم يستثن أحدا. ويقول

(١) عون المعبود ٢٧٢/١

(٢) جامع الترمذي ٣٥/١

(٣) تحفة الأحوذى ٢١٩/١

البخاري: لم يثبت ترك الرفع عن أحد من الصحابة، وهكذا نقل عن علماء الحجاز ومكة والعراق والشام والبصرة واليمن وكثير من علماء خراسان. وكان الرفع هو عمل سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وقاسم وسالم بن عبد الله وعمر بن عبد العزيز ونعمان بن أبي عياش والحسن وابن سيرين وطائوس ومكحول وعبد الله بن دينار ونافع مولى عبد الله بن عمر وحسن بن مسلم وقيس بن سعد وكثير غيرهم. وكذلك روى عن الإمام الدرداء، ولا أريد هنا استيعاب أسماء القائلين بالرفع ولا المناظرة، بل أود استلفات انتباهكم ومن معكم من محي العدل إلى أن استناد فقهاء العراق في هذه المسألة بالتقليد أكثر منه بالدلائل. ومن سوء الحظ أن هذا الحديث لم يتلق بالقبول لدى علماء العراق، والقـدماء — رحمهم الله — لم يتفطنوا لأهمية هذه الدلائل، ولكن لما ذا تسلكون أنتم هذا المسلك في البحث والمناقشة؟ وقد رفض المتأخرون من فقهاء العراق — حبا للعدل — عدة مسائل المتقدمين منهم، وينبغي أن تضم هذه المسألة إليها. وجميع هذه التفاصيل توجد في جزء رفع اليدين للبخاري وعون المعبود وتحفة الأخوذى وغيرها من شروح الحديث.

وكذلك لم يثبت في حديث براء بن عازب المروى عن يزيد بن أبي زياد قوله «لم يرفع يديه إلا أول مرة».

الخلاصة :

قد علمنا حال الروايات التي عرفت ، أما الروايات السبع أو الثماني التي أشرتم إليها فأين هي ؟

إنكم على حرية في ترك الرفع ، فإنه ليس بفرض ، ولكن القول بأن الترك قد ثبت بحديث يعتمد عليه خلاف العلم والرواية ، وكذلك لا يصح القول بأن الترك سنة ، فإنه لا دليل عليه ، ووصف المتروك بالسنة موضع نظر. والغريب أن يكون فعل أمر وتركه كلاهما سنة . ولا يعقل وصف الترك بالسنة حين توفر الأدلة على فعل الرفع . ومن كبار علماء ديوبند من وصف الأمرين بالسنة ، وهذا موضع عجب ، عفا الله عنهم . والشاه ولي الله أيضا يصفهما بالسنة ولكن يقول بعد ذلك : « والذي يرفع أحب إلى من لا يرفع ، فإن أحاديث الرفع أكثر وأثبت ^(١) » .

المسألة الثالثة : جلسة الاستراحة

إنها مستحبة ، ولكن أو نظروا بعين الانصاف لما رجحوا تركه . وكان مقتضى العدل أن ينظروا في معنى الحديثين وسندهما ، فحديث مالك بن الحويرث الذي يؤيد جلسة الاستراحة واضح في معناه : إذا كان في وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوى جالسا . ويقول

(١) حجة الله البالغة ٢ / ١٠

الإمام الترمذى : حديث مالك بن الحويرث حديث حسن صحيح^(١).
فالفقه واضح ، والحديث صحيح .

أما حديث أبي هريرة الذى استدلت به على ترك جلسة الاستراحة ، ليس واضح المعنى ، فهو يبين هيئة القيام فى الوقوف على صدور القدمين ، ولا ينفى جلسة الاستراحة ، والتطبيق ممكن ، وذلك بأن نقول إنه حينما كان يقوم معتمدا على صدور القدمين ، فلا تتنى الجلسة بل تتضح هيئة قيام النبي ﷺ فقط ، ثم إن الحديث ضعيف ، ففيه خالد بن إياس ، ويقول عنه الترمذى خالد بن إياس ضعيف عند أهل الحديث^(٢). ومثل هذا الاستدلال يقبل ويستساغ عند أهل التقليد فحسب ، أما الذى يحب التحقيق فلا يعتمد على مثل هذه الأحاديث ، وقد أحلتم إلى صحيح البخارى أيضا ، فلو وجد حديث واضح صحيح ينبغى أن تشيروا إليه ، ولكن — كما أعلم — لا يوجد فى صحيح البخارى حديث يدل على ترك جلسة الاستراحة ، إلا أن يتعنت أحد شأن العلماء المتعصبين ، أما التصريح الذى ورد فى الأحاديث بخصوص جلسة الاستراحة فلا نعلم شيئا خلافاه : عن مالك بن الحويرث لا يثى أنه رأى رسول الله ﷺ يصلى ، فكان إذا كان فى وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوى جالسا . قال أبو عيسى : حديث مالك بن الحويرث حديث

(١) جامع الترمذى ٣٨/١

(٢) نفس المصدر ٣٨/١

حسن صحيح^(١). أما الحديث الذى ذكرتم ففيه إجمال ، وحديث مالك ابن الحويرث فى جلسة الاستراحة واضح ومفصل .

المسألة الرابعة : التورك فى القعدة الأخيرة

يستحب التورك عند أهل الحديث والشافعية والحنابلة وغيرهم من أئمة السنة ، وهو أن تفرش الرجل اليسرى فيجلس على الورك وتنصب الرجل اليمنى ، وقد ورد ذلك فى حديث أبى حميد الساعدى : « اقترش رجله اليسرى وأقبل بصدر اليمنى على قبلته ، الخ^(٢) » وفى باب وصف الصلاة ورد حديث أبى حميد هذا بتفصيل أكثر ، وفيه : « حتى كانت الركعة التى تنقضى فيها صلاته أخر رجله اليسرى وقعد على شقه متوركا ثم سلم^(٣) » .

وبناء على هذه الأحاديث الصريحة يرجح أهل الحديث التورك ، وليكنهم لا يقولون بفساد صلاة من يتركه . ويمكن أن قال لكم ذلك طالب سافى فى كراتشى ، أما العلماء وأصحاب الجد فلا يرون أن صلاة تارك التورك فاسدة ، نعم ، إن الحديث الذى استدللتم به بجمل ، وروايات أبى حميد واضحة مفصلة ، والمفصل يقضى على المجمل .

(١) جامع الترمذى ٣٨/١

(٢) " " ٣٩/١

(٣) " " ٤٠/١

المسألة الخامسة : قراءة الفاتحة خلف الإمام

يرجح أهل الحديث فرضية قراءة سورة الفاتحة على الإمام والمأموم . والخلاف قديم في هذه المسألة ، وقد كتب فيها فقهاء العراق كثيرا ، ولكن بحوثهم تتسم بالسلبية ، أما الأحاديث التي يدور الكلام حولها في طريقة إيجابية فبعضها صريحة غير صحيحة وبعضها صحيحة غير صريحة ، أى في القراءة المطلقة وليست في الفاتحة . وقد وضع المغفور له السيد أنور شاه الكشميري هذه الآراء السلبية أو الالتزامية ، ولكن الموضوع الرئيسى لا زال في حاجة إلى البحث . وليس هناك دليل على ترك قراءة الفاتحة خلف الإمام سوى تقليد علماء العراق ، وتدبروا أنتم ، لأنكم ذكرتتم أثر جابر ، وما وجدتم رواية مرفوعة ، وقد ذكره الطحاوى رفعا ولكن لم يصح طريق من طريقه . وليس هذا محل السخط والغضب ، بل ينبغي توضيح الموقف ، وعلى هذا نبهكم أهل الحديث على بعض مواضع الضعف ، ثم الأمر موكل إليكم في القبول والرد ولا حق لأحد في السخط والغضب . نعم يبدو موقفكم في هذه المسألة أقوى منه في مسألة رفع اليدين . ونظرا إلى كثرة الكتابات في الموضوع أترك التفصيل والتطويل .

المسألة السادسة : الركعتان الأخيرتان

إن الشيخ العثماني قد استجاب للعصبية في بعض المواضع مع ادعائه العدل والحياد ، فكأنه لم يستطع ضبط نفسه . وقد سلم بأنه

لم يثبت السكوت في الركعتين الأخيرتين بحديث ، ولكنه لم يرد حديث يدل على خلافه ، وقد استنبط الإمام أبو حنيفة بقوله تعالى : ﴿ فاقروا ما تيسر من القرآن ﴾^(١) . ولكن الشيخ العثماني لم يوضح استنباط الإمام أبي حنيفة ، فلا نستطيع أن نقول فيه شيئا ، ولكن الأحاديث تصرح بأن الفاتحة واجبة في الركعات كلها ، وقد روى البيهقي في جزء القراءة حديث مسمى الصلاة بطرق عديدة ، وقد صرح في نهايتها بعد ذكر الفاتحة : « كذلك افعل في صلاتك كلها ، أى مع سورة الفاتحة .

وأثر جابر الذى أوردتموه من سنن الترمذى (١ / ٤٤) قد جاء فيه : « يقول من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأمر القرآن » . والتصریح بالركعة فيه يدل على أن القراءة تجب في كل ركعة ، وعليكم أن تعيدوا النظر في الموضوع ، فذهب الإمام الشافعى يبنى على النصوص ، ولا ينبغي أن تخلو ركعة من القراءة .

المسألة السابعة : النية باللسان

أظن أنه لا خلاف في أن النية فعل القلب ، ولا صلة لها باللسان ، وقد اتفق على ذلك الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى . والالتزام بأداء كلمات النية باللسان يقتضى أن ينبه الناس على هذا الخطأ ، ولكن العجب من أن يتحمل الشيخ العثماني مسؤولية أفعال الجاهل ويدافع

(١) سورة المزمل : ٢٠

عنهم . أما الاشتغال بالشئون الإنسانية فلا يلزم أن يخلص منه تفوه
كلمات النية باللسان ، فضلا عن البدعة التي تسمحون بها ، فاحذروا
من ذلك وحثوا العامة على التمسك بالسنة ، فإن النية لا تتعلق بالجوارح :
خصت النية في غالب الاستعمال بعزم القلب على أمر من الأمور^(١) .
وفي التهذيب : نويت نية ونواة : عزمت^(٢) .

إن الدفاع عن العامة من قبل الأوساط العلمية العالية يبعث على
الاستغراب ، وإن ذلك من شأن البريائية ، ولكنكم سلكتم مسلككم .
وليست في قوله « حافظوا على نياتكم » زيادة على قوله « إنما الأعمال
بالنيات » والنية على كل حال واجبة للعمل ، وبرأها العامة من واجبات
الصلاة إلى الآن ، فلا بد أن يكون أحد ينوب اليوم عن ابن القيم
رحمه الله .

المسألة الثامنة : الأضحية قبل الصلاة

تناول الشيخ العثماني هذه المسألة كأنه يجهل تماما موقف
المعارضين ، والحقيقة أن أهل الحديث يرون صلاة العيد واجبة في
القرية والمدينة كاتيهما ، فهم مختلفون مع الإمام أبي حنيفة في هذا
الأمر أيضا ، والخلاف في الأضحية فرع الخلاف المذكور . والحديث
الذي ورد فيه عند مسلم . « من ضحى قبل الصلاة فإنما ذبح لنفسه » ،

(١) المصباح المنير ٦٠٣/٢

(٢) تهذيب الصحاح ١٠٨٢/٣

ومن ذبح بعد الصلاة فقد تم نسكه « موجه عند أهل الحديث إلى أهل القرى والمدن جميعا ، وليس فيه عند الحنفية شيء أحسن من أثر علي ، وهو كما ترى لا تقوم به حجة ^(١) .

المسألة التاسعة : زوجة مفقود الخبر

إن المتقدمين من الحنابلة والإمام ابن حزم الظاهري مع قدماء الحنفية في مسألة مفقود الخبر ، فيقولون مثل قول الحنفية ، ولكن الجدير بالملاحظة في هذا الموضوع هو حقوق المرأة وعواطفها ، يقول تعالى : ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لنعتمدوا ^(٢) ﴾ وكذلك لم تراعى حقوق الزوج في الإيلاء أكثر من أربعة أشهر ، وهذا يدل على أن القرآن الكريم يراعى حقوق المرأة وعواطفها مراعاة كافية ، ولكن تدقيق الفقهاء قد أوقعها في محنة الانتظار . ولولا جهود التقليد لم يقبل هذا الظلم الصريح . والآثار التي ذكرتموها في تأييد مذهبكم تعارض مبدأ القرآن الذي هدانا إليه ، ثم إنه ليس هناك حديث مرفوع صحيح في كتب السنة يحدد مدة تسعين سنة ، بل المعتمد هو آراء الأكابر فقط .

وندين بالفضل للشيخ التهانوي وأصحابه حيث أنهم قد تخلوا — في

(١) والتفصيل في « سر من رأى في بحث الجمعة في القرى » للعلامة عبد الرحمن بقا الغازي فوري رحمه الله .

(٢) سورة البقرة : ٢٣١

كتابيه الحيلة الناجزة — عن الجمود القديم وقبلوا بعض الفروع من فقه الشافعية والمالكية والحنابلة ، مع أن الشيخ التهانوي كان شديداً في الجمود ، والله تعالى هو وفقه لهذا ، جزاه الله تعالى أحسن الجزاء . والدعوة إلى اتباع السنة وترك التقليد لا تعنى إلا أن يترك الجمود وتقدم المصالح البشرية على المصالح التقليدية ، وطريق استخراج الفتاوى في الحياة الناجزة يتلخص في أن معنى نصوص الكتاب والسنة — الذي يقره الشيخ التهانوي وأصحابه — لم يقبل إلا بعد تصديق من المالكية والشافعية ، وهذا أسوأ مثال للجمود . وبناء على دراستنا للنهج النظامي نصرح بأنه ليس فهم الكتاب والسنة عسيرا كما ترون ، فتركوا الخيل في بيان المسائل ، واعدلوا في حب الأئمة الأربعة رحمهم الله . إن المتأخرين من الفقهاء قد غيروا موقفهم في مسألة مفقود الخبر ، وقدامى الحنفية قد جوزوا أجره تعليم القرآن والحديث والفقه ، ومثل هذا التغيير يتكرر في كل عصر ، وما أدري ما الذي ساق اليوم إلى هذا الجمود ؟

ونرى في الحيلة الناجزة الاستفادة من المذاهب الأخرى ، وهنا ينشأ سؤال . . . كم مسألة يجب فيها التحقيق والاستفادة من المذاهب الأخرى حتى يصير الرجل غير مقلد ؟ ولوصح قول الشيخ بأن الفقهاء قد نظروا في مسائل الفقه وفي مسائل الاجتهاد الجديدة بأمانة تامة ، فكذلك يصح أن نقول إن أئمة الحديث والفقهاء المحدثين قد

استنبطوا فقه الحديث بأمانة كاملة ، فلا يحسن الطعن عليهم أبدا . وقد ذكر الإمام البخارى فى باب مفقود الخبر حديث اللقطة ، ومعنى ذلك أن يسمح للزوجة بعدة الموت بعد سنة إذا دعت الحاجة واقتضت الحالة . ولو صار العمل بذلك ليرجى أن يتفكر فى ذلك الشيخ العثمانى ومدير مجلة فاران .

ونحن نشكر الشيخ العثمانى على عواطف الصالح والإخلاص التى أبدأها فى بداية المقال وفى نهايته ، وكذلك نقدر لمدير مجلة فاران موقفه فى الإصلاح ، ثم نرجو أن يتكرر ذكر هذه الآراء فى حلقات الدرس ومجالس الوعظ وخطب الجمعة والجلاسات العامة ، حتى تصفو أذهان العامة وينظر فى الخلافات فى ضوء الدلائل فقط ، ولو قبل أحد آراء الآخر بإخلاص ليعذر ولا يلام ، والأحداث تقرر أن العصبية تأتى من قلبكم ، ونضرب لذلك مثالا : « وقف على أصحاب الحديث لا يدخل فيه الشافعى إذ لم يكن فى طلب الحديث ، ويدخل الحنفى كان فى طلبه أولا^(١) . وأشار إلى دليله فقال : « لكونه يعمل بالمرسل ويقدم خبر الواحد على القياس » .

وقيمة هذا الدليل لا تخفى على أهل العلم ، وكذلك منزلة الحديث المرسل ، أما موقف الأصوليين من خبر الواحد فمعلوم للجميع ، ويختلف مذهب أهل الحديث عن الحنفية والشافعية جميعا ، يقول العلامة

الشامى : « ذكر فى فتح القدير أن الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ويكفرون الصحابة حكمهم عند جمهور الفقهاء وأهل الحديث حكم البغاة ، وذهب بعض أهل الحديث إلى أنهم مرتدون ، قال ابن المنذر : لا أعلم أحدا وافق أهل الحديث على تكفيرهم^(١) . ويعلم من عبارة الشامى المذكورة أن أهل الحديث مدرسة فكرية مستقلة ، أفليس من العصبية أن تفصل الشافعية من الوقف مع أن عنايتهم بالسنة أكثر من الحنفية .

وهنا مثال قبيح آخر للعصبية ، وهو أن الشيخ أحمد حسن السنبلى قد ذكر فى حاشيته ، « نظم الفرائد » على شرح العقائد النسفية عقيدة تفويض الكيفية لأهل السنة نقلا عن الإمام الشوكانى ، فأغلظ القول وأخش فى أئمة التفويض إذ اشتد غضبه ، ولم يسكت حتى قال : « وخلفاء هذه الملة أربعة ، ابن تيمية وابن القيم والشوكانى ، فيقولون ثلاثة رابعهم كلهم ، وإذا انضم إليهم ابن حزم وداود الظاهرى بأن صاروا ستة ، ويقولون خمسة سادسهم كلهم رجما بالغيب ، وخاتم المكلمين مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث يشنع على أهل الحق فى التنزيه^(٢) .

وإنى لا أجد فى نفسى قدرة لترجمة هذه الشتائم التى وجهت إلى

(١) رد المحتار ٤/٥٥٢

(٢) " " ٤/١٠٢

ابن تيمية وابن القيم والشوكاني وابن حزم وداود الظاهري والنواب
صديق حسن خان إلى اللغة الأردنية . ولغة الكوثر (أى اللسان المنظف
بماء الكوثر) هذه قد جاءت من عندهم . ثم إن المعلق المذكور أكثر
السب في صفحة ١٤٠ من نفس الكتاب ، وإنى أؤكد بناء على
تجاربي أن أعراض أهل العلم ومكانتهم أن تصان ما وجد التقليد
الشخصى بين الناس ، فها هو الحافظ ابن العربى مع كونه مالكيًا
يوجه الشتائم إلى الشافعى ويحقره في كتابه أحكام القرآن . وفي كتب
الأصول رى الإمام الشافعى وداود الظاهرى بالجهل^(١) . وليس
ذلك إلا أن التقليد يودى إلى الإفراط والغلو في الحب ، ولا يخفى
تأثير ذلك على الغير .

ولاشك أن تشدد «أهل الحديث الغرباء» وغلوهم والكلام النابى
المتطرف من مؤلف كتاب «طلب الحق» غير مستحسن عند الناس ،
ولكن في خلفية هذا الموقف سلوك الأغلبية (الحنفية) الجافى ،
ولما يعلم الكل أن العلامة السيد نذير حسين رحمه الله كان يصلى الجمعة
مع الإمام الحنفى ، وكانت صلواته مع العلماء الأحناف طيبة جدا ،
ولكن الغريب أنه حينما سافر للحج لقي فى الحرم الشريف معاملة سيئة
جدا من الحاج امداد الله ، والشيخ رحمة الله ، والشيخ خير الدين (علماء
الحنفية) ، وهم قد اتهموه بما ورد فى كتاب «جامع الشواهد فى اخراج

الوهابيين من المساجد ، فألقى عليه القبض ، ولما ثبتت براءته بعد البحث والتحقيق اضطروه لطلب العفو. وقد اشتركت في هذه المحنة أسرة فطينة من لدهيانه ، فقد ظلم كل من الشيخ عبد العزيز والشيخ عبد القادر والشيخ محمد رحمهم الله تعالى. والحقيقة أننا لا نشكو اليوم من البريلوية كما نشكو من أهل ديوبند، والمؤلفات التى تنشرها طائفة من الشبان الديوبنديين فى باكستان والتى تنشر من ديوبند نفسها لا تزيد أكابر ديوبند كرامة ، ولا تزن بشيء على ميزان العلم والأمانة ، فإنها تنطوى على بغض أئمة الحديث. ومن المعلوم أن الخلاف بين أئمة الحديث وبين فقهاء المذاهب هو خلاف فى الفهم ، وتقديمه للناس فى المجالس الشعبية فى صورة التنافر والمعاداة فيما بينهم ليس من المنطق فى شيء ولا أنه يأتى بنتيجة محودة.

وصحيح ما قال مدير مجلة فاران بأن أحدا من الحنفية وأهل الحديث ليس مارقا من الدين، وكل ما يقال فى الموضوع هو أن المذهب الفلانى أقرب إلى السنة من غيره ، والمباحث التى تتناول هذه الأمور لا تفيد إلا سكون القلب .



العدد ١٢ / سنة ١٤٢٠

الفصل الخامس

في

الالتزام بأهل الحديث

ومناقشة آراء المعارضين له

(هذا البحث رد به المؤلف رحمه الله على العالم

البريلوى محمود أحمد الرضوى مدير مجلة الرضوان)

الالتزام بأهل الحديث :

قد ورد في العدد الممتاز الخاص بالصلاة من مجلة رضوان بلاهور المؤرخ في ٢٨ مارس ١٩٥١م ذكر بعض المسائل الخلافية في صورة الفكاهة والمزاح تحت عنوان «زهر وشوك»، والمزاح الجاد ليس قبيحا، ولكنه لا يستحسن في المسائل الدينية، وقد جعله القرآن جهلا، ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين^(١)﴾. ولا أدري لماذا اختارت مجلة الرضوان هذا الأسلوب؟

ومجلة الرضوان تمثل الحنفية الرضاخانية، وهؤلاء يعتمدون في فهم المسائل على منهج الشيخ أحمد رضا خان البريلوي أكثر من الفقه الحنفي، وارتباطهم بهذا الفقه لتدعيم ملتهم بالعامّة لأنهم مهتمون بفقه الإمام أبي حنيفة. وماذا تكون قيمة منهج الإمام حيث يطغى الاجتهاد فتثبت العقائد بالقياس بل ترد النصوص القطعية؟ وكيف تضم الفوضى والاسراف في المقاييس والأوهام إلى الموقف الذي يحتمل في إثبات العقائد بالظن وفي النصوص الموجبة للعمل مثل أخبار الآحاد؟ رحمه الله ورضي عنه وعن سائر الأئمة المجتهدين والفقهاء والمحدثين الذين هم قادة الدين.

وكيف ينتسب إلى الإمام الذي يهتم في أكل الحلال فلا يستظل بجدار المدين، الذين ينتظرون بفارغ الصبر من صبيحة الخميس ويرنون

(١) البقرة: ٦٧

إلى جدران المسجد لاستقبال الهدايا والنذور ليملاؤا به انبطون دون
 أن يميزوا بين الحلال والحرام ؟ وأى صلة تفرض بين الذين يدعون
 إلى تقديم النذور إلى الضرائح والمقابر إذا مرضت البهائم في البيت
 وبين الإمام الذي ضرب أروع مثال للتخلي عن المطامع والآمال ؟
 وكم بين الموت في السجن وبين الطواف حول مجالس الغناء والمغنين ؟
 وليعذرنا أهل التوحيد في مثل هذا الكلام فإن الناس قد تستروا
 للطعن على أهل الحق بالفقه الجنفي واستخدموا الفروع الفقهية كحيلة
 لتحقيق أهدافهم . والذي نقصد هو توضيح المنهج الذي اختاره أهل
 الحديث وسائر أئمة السلف ، المنهج الذي حاول أصحاب مجلة الرضوان
 صرف النظر عنه بالهزل ، لا الطعن على أحد والنيل منه :
 (كلام العشاق في الله من عاطفة الحب لا التخلي عن الأدب^(۱))

الوهابی :

قد اختار مدير مجلة الرضوان لأهل الحديث (أهل الحق) لقب
 « الوهابی ، ونحمد الله تعالى على أن صنيعة هذا قد صرف موجة
 الشتائم والسباب إلى جهة أخرى وسلم أهل الحق من البذاءة والفحش ،
 وذلك كما قال عليه الصلاة والسلام : كيف يصرف الله عنى شتم قريش ،
 يسبون مذمما وأنا محمد !

(۱) ترجمة بيت فارسي نصه :

گفتگوئے عاشقان در باب رب جذبه عشق است نے ترک ادب

(تكفي نسبة ما إليك ، كما يكفي البلبل الانتساب إلى الورد^(١))
ونحمد الله على أنه ليس عندنا أحد وهايبا ولا نجديا ولا حنفيا
ولا سهرورديا ، ولا نحب ولا نكره هذه النسب الموقفة المخترعة ،
ولا نميل إلى أحد ولا نخطط عليه ، بل الحق أننا متمسكون بالكتاب
والسنة بحيث لا نعتمد على أحد سوى النبي ﷺ في رد أمر منهما أو
قبوله ، ولا يسود أذهاننا منهج فكر يصدنا عن فهم الكتاب والسنة ،
ولا نرى حاجة إلى واسطة للاتصال بالنبي ﷺ والعمل بأقواله
وأحاديثه ، بحيث تكون مقياسا للكفر والإسلام أو الفسق والتقوى ،
ولا ننكر نعمة الله التي أنعمنا بها في الاستفادة من تفكير أئمة الهدى
وسلف الأمة واستنباطهم واستدلالهم ، وكل العلوم والمعارف التي
توجد اليوم يرجع فيها الفضل إلى أئمة الفقه والحديث ، وعلمنا أن
نشكرهم وندعو الله تعالى لهم أن يملا قبورهم رحمة ونورا . ولمدير
مجلة الرضوان فضل في أنه لم يخرج كل ما في قلبه من عواطف الكره
والتكفير ، بل اكتفى بمنع الناس عن اقتداء أهل السنة والحديث ، جزاه
الله عن كتمان الكفر . ونحن هنا لا نخشى كفره بل نقلق من إيمانه

(١) ترجمة بيت فارسي نفسه :

في الجملة نسبتے به تو کافی بود مرا
بلبل همین که قافیة گل بود بس است

المصطنع، فلعل الكفر بالآيمان البريلوى الرضائى حقيقة الايمان. ومن الطبيعى أن حنفية مدير الرضوان قد بدأت بالمولوى أحمد رضا خان البريلوى (م - ١٢٤٠ هـ)، ولكن إيماننا بدأ بالنبي الأمى ﷺ فداه أبى وأمى. ولو لم يأت إلى مساجدنا مثل هؤلاء الناس لا نشتمكى أبدا، وتالله لا ندعوكم لأن تأتموا بنا، كما لم ندع في السنوات الماضية. فمساجدنا - والله الحمد - عامرة أكثر من مساجدكم حتى في هذا العصر، ويكثر فيها أهل التوحيد بحيث لا نحتاج - بحمد الله - إلى أهل البدع وعباد القبور، ثم إنكم لتسئقون صلاة أهل السنة لأنهم يصلون بسكينة وطمأنينة، وبنساء على ذلك نرى بل نشير عليكم أن لا تقتدوا بأحد من أهل السنة، وقد قال رسول الله ﷺ: لا يقبل الله لصاحب بدعة صرفا ولا عدلا. فقولوا ما الذى نحصله بإمامة رجل لا تقبل صلاته؟ فلو لا تحبون اقتداء أهل التوحيد فاطمئنوا، إننا إن نلتمس منكم أبدا أن تأتموا بنا. (فاذهب إلى من يشتريك^(١)).

الدلائل :

أما الكلام عن الدلائل التى قد تغالط بها العامة فواجب علينا، وقد ذكر صاحب الرضوان المحترم بصدد عدم جواز الاقتداء بأهل

(١) ترجمة شطر فارسى نصه :

پیش آن کس برو که خریدار است

الحديث خمس مسائل ، مستفيدا في ذلك من ترجمة أردية لكتاب «الروضة الندية» لمجدد الوقت ومجتهد العصر الشيخ السيد النواب صديق حسن خان . يقول الرضواني : «مهما كان الماء قليلا لا ينجس من وقع النجاسة فيه إلا أن يتغير لونه أو طعمه أو ريحه . اسمعوا هذه الفتوى ثم تفكروا ، لأنهم يقولون بطهارة ماء الابريق الواحد إذا وقعت فيه قطرة من البول ، ويصلون بعد الوضوء به ، فكيف تصح صلاتنا بعد الوضوء بمثل هذا الماء ؟ وإليكم الآن توضيحنا :

١ - ليس هناك كتاب اسمه «الدرر البهية» للنواب صديق حسن خان ، بل الامام الشوكاني رحمه الله كتاب يحمل الاسم المذكور ، وقد شرحه النواب صديق حسن خان .

٢ - اتفق الأئمة على أن الماء ينجس بالنجاسة إذا تغير لونه أو ريحه أو طعمه ، قليلا كان الماء أو كثيرا . ويقول الامام الشافعي : إذا كان الماء قلتين أو أكثر وقعت فيه النجاسة يكون طاهرا إلا أن يتغير أحد أوصافه الثلاثة (اللون والريح والطعم) لأن هذا ماء كثير لا يحمل الخبث .

ومذهب الأحناف أن الماء إذا كان عشرا في عشر فهو في حكم الماء الجاري أو الماء الكثير ، ولا يتأثر بالنجاسة ، أي يكون طاهرا إلا أن يتغير النجاسة لونه أو ريحه أو طعمه .

ويقول الإمام: لا عبرة بقلة الماء أو كثرته، بل الأصل هو تغير الأوصاف، فالماء لا ينجس بوقوع النجاسة إلا إذا تغير اللون أو الريح أو الطعم.

وقال محي السنة: التقدير بالعشر في العشر لا يرجع إلى أصل شرعى يعتمد عليه^(١).

ويقول الشيخ عبد الحى رحمة الله عليه: والتقدير الذى ذكره الحنفية فى عدم سراية النجاسة إلى العشر فى العشر ليس له أصل شرعى، بخلاف تقدير الشافعية بالقلتين، فإنه ثابت بالحديث الصحيح، وكذا تقدير المالكية بالتغير^(٢).

والشيخ الرضوى ساخط على «الوهابيين» لأنهم لا يقولون بنجاسة القصعة بقطرة من البول، ولو تم الوضوء بهذا الماء لا خملت صلوات الأحناف الرضائيين.

وأقول بأدب: إن كوباً من البول إذا وقع فى القلتين من الماء لا تتأثر صلاتكم بذلك، وتقعدون بمن توضع بمثل هذا الماء، ومعنى ذلك أنكم ترضون بالتحديد بقلتين، فهل نطالب بجلوس للصالحات مع «الوهابيين».

(١) شرح الوقاية ٨٧/١

(٢) عمدة الرعاية على شرح الوقاية ٨٧/١

٣ - أو توضأ مالمكي بماء طاهر على مذهبه فهل تجوز صلاتكم خلفه أم لا ؟ فلو قلتم بفساد هذه الصلاة فما معنى كون الأئمة الأربعة على الحق ؟

٤ - إن الكلام في جواز الاقتداء لا يدور حول العقيدة بل حول الماء ، فلماذا لا نختار حلاً آخر ، وهو أن يتوضأ وهابى بموض أو نهر مسجدكم ثم يؤمكم في الصلاة ، وأظن أنكم تقبلون ذلك ، كما هو المفهوم من كلامكم .

٥ - ولعلكم قد سمعتم أن الإمام أبا يوسف قد توضأ بحمام مات فيه فأر ، ثم صلى به وقال : نأخذ بقول إخواننا الحجازيين . فهل كان الإمام أبو يوسف وهابياً ؟

وقد صحح الشيخ عبد الحى رحمه الله حديث القلتين ، ولكن لا يخفى على أهل العلم ما فى سنده من الكلام ، والتعقيد المعنوى الذى أحدثه الأحناف فيه معاً ، ومع ذلك يقول الشيخ عبد الحى بصحته ، فانتظر منكم إزالة هذا الاضطراب .

ولاشك أن الإمام الشوكانى والسيد صديق حسن خان رحمهما الله يميلان إلى مذهب الإمام مالك ، فلا يعتبران بكمية الماء فى النجاسة والطهارة بل يذهبان إلى الحكم على كفيته ، فإذا تغير لون الماء أو ريحه أو طعمه لتنجس عندهما قليلاً كان أو كثيراً ، وإن لم يتغير فهو

طاهر ، ودليالهما نص الحديث الآتي : « الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غلب على طعمه أو ريحه أو لونه » . وما زيد بعد قوله « إلا » ، ضعيف باتفاق المحدثين ، ولكن يؤيده إجماع الأئمة . فالنص الصريح الصحيح وكذلك الإجماع يؤيدان مذهب الإمام مالك والإمام الشوكاني والنواب صديق حسن خان . وطهارة الماء ثابتة بالنص الصريح الصحيح ، والزيادة مؤيدة بالإجماع ، ولعل ذلك قد خفي على الرضائيين .

٦ - ولا ينتهى الأمر هنا ، فحديث « الماء طهور لا ينجسه شيء » ، يوجد فى سنن أبى داود ومسند أحمد وسنن الترمذى عن أبى سعيد الخدرى ، وقد حسنه الترمذى ، وصححه الإمام أحمد ، وفى روايته « إنه يستقى لك من بئر بضاعة » وقد صححه الشافعى والنسائى وابن ماجه والدارقطنى والحاكم والبيهقى ، وكذلك يحيى بن معين وابن حزم والحاكم . وقد قال ابن قطان بعد الكلام على بعض طرقه : « وله طريق أحسن من هذا » . ويقول ابن مندة : « سنده مشهور » . وقد روى - سوى أبى سعيد الخدرى - عن جابر وابن عباس وسهل بن سعد وعائشة وثوبان . فكيف قلتم بعدم جواز الاقتداء إذا اختار النواب صديق حسن خان مذهبه بناء على الحديث الصحيح والإجماع ؟ وماذا يضره موقفكم هذا ؟

٧ - والأمر لا يقتصر على النواب رحمه الله والوهابيين ، بل تذهب إلى ذلك جماعة من أئمة السلف رحمهم الله ، يقول الشوكاني : « والحديث يدل على أن الماء لا يتنجس بوقوع شيء فيه سواء كان قليلا أو كثيرا ولو تغيرت أوصافه أو بعضها ، لكنه قام الإجماع على أن الماء إذا تغير أحد أوصافه بالنجاسة خرج من الطهورية ، فكان الاحتجاج به لا بالزيادة كما سلف ، فلا ينجس الماء بما لاقاه ولو كان قليلا إلا إذا تغير وقد ذهب إلى ذلك ابن عباس وأبو هريرة والحسن البصري وابن المسيب وعكرمة وابن أبي ليلى والثوري وداود الظاهري والنخعي وجابر ابن زيد ومالك والغزالي^(١) . »

فليتدبر الرضوي المحترم إذا وجد فرصة من الاشتغال بالفتاحة والموالييد والأعراس وبشئون البطن الأخرى أن عددا كبيرا من أئمة السنة مع النواب صديق حسن خان والوهابيين ، بناء على الحديث الصحيح وإجماع الأمة ، فماذا تقولون الآن في الاقتداء بهم ؟

٨ - الشيخ الرضوي المحترم ! إن اختيار وترجيح مذهب أحد في المسائل الاجتهادية شيء ، والقول بتكفير المخالف في المذهب

(١) نيل الأوطار ١/٣٦

وبعد جواز الاقتداء به شيء آخر . ولا شك ان كثيرا من الأئمة يقولون بنجاسة الماء القليل ، ثم هناك خلاف كثير في تحديد الماء القليل ، خلاف قد يمكن القطع فيه بأمر على أساس التقليد ؟ ولكن يصعب جدا على أساس الدليل : « وللناس في تقدير القليل والكثير أقوال ليس عليها إثارة من العلم ^(١) » .

وإذا لم يوجد نص صريح من الكتاب والسنة يؤيد التقديرات المذكورة فلماذا يصر على موقف ؟ ومما يحذر بالتدبر أن استعمال الماء النجس حرام ، ولا إثبات نجاسة ماء لا بد من الدليل الذي ينفع في إثبات الحلة أو الحرمة ، أما الدلائل التي تكون موضع خلاف بين أئمة الاجتهاد من ناحية معناها وطرق ثبوتها وتعيين المراد منها لا تخولكم حق إصدار الفتيا بحرمة الاقتداء . هذا ليس من شأن العلم ومقتضى الأمانة . وكل ما في الباب أن لا تستعملوا الماء الذي تحسبونه نجسا وتمسكوا بمذهبكم جيدا ، ولكن ليس لكم أن تكرهوا أحدا ولا تفتوا فيه بشيء . فإن الشوافع والمالكية والحنابلة مع أئمتهم مثل الأحناف مع إمامهم ، فالجميع يتساوون في العقيدة ومنهج التفكير والإيمان بصحة المذهب . فلو سلكوا المسلك الذي سلكتموه لفتح ذلك باب التفريق على الأئمة ويضحك عليكم غير المقلدين ، ولا يبقى لكم

وزن في المحافل العلمية ، فقد رميت طائفتكم من ذى قبل بضيق النظر وافتقاد التفكير ، وبطلب حلاوى ومشروبات النذور . فاجتنبوا عن تحمل مزيد من السمعة السيئة والفضائح ، وفقكم الله تعالى للفهم الصحيح .

٩ - وهنا ينبغي أن نناقش مذهبكم أيضا ، حتى يتم اختبار صرحكم الزجاجى الذى ترمون الناس منه ، وتصرون فتوى حرمة الاقتداء ، والحقيقة أن مذهب الحنفية فى الماء ليس صحيحا ، لا من ناحية الرواية ولا الدراية ، ولا تؤيده النصوص ولا العقل . ولأنه بقى إلى الآن بسبب حماية العامة واحترامهم . والعجب كيف تجترئون على الافتاء فى مخالفيكم .

وتقدير الماء الكثير بالعشر غير ثابت أصلا ، لأنه من اختراع الأحناف المتأخرين ، ولا دليل عليه من القرآن والسنة . ومحاولة شارح الوقاية لإثباته غير مجدية فى الموضوع . ولو حاولتم إثباته لتتكلم عليه بتفصيل . وقد سبق أن ذكرنا قول محى السنة ، ووافقه صاحب الدر المختار (ص ١٦) على أن هذا التقدير غير ثابت ، بل لأنه لم ينقل عن إمام الأئمة أبى حنيفة رحمه الله . وأئمة الحنفية مختلفون فى الماء الكثير والماء الجارى والغدير وغيره ، فقال بعضهم : الماء الجارى هو الذى يسيل بالحشائش ، وقال البعض : هو ما لا يتكرر . وكذا قيل فى الغدير بأنه لو حرك من جانب لا يتحرك الجانب الآخر . ولكن

بما إذا يكون التحريك ، بالغسل أو اليد أو الوضوء ؟ اختلف في ذلك
 الإمام أبو حنيفة وأبو يوسف . وهذا يدل صريحا على أن المسألة
 ليست منصوفا عليها بل من صنع الاجتهاد والتفقه ، وهكذا مسألة
 العشر في العشر أيضا من صنع المتأخرين . وعلى ذلك لا يحق لأحد
 أن يحرم الاقتداء بأحد بناء على هذه الفروع الفقهية ، فكما أن الأئمة
 توسعوا في ذلك علينا أن نتوسع فيه ونتمسك بمذاهبنا ونساع
 الآخرين في التمسك بمذاهبهم . والمؤسف أن معظم البريلوية تسلك
 مسلك التضيق ، ومن الديوبندية ضيق وتعصب الشيخ التهانوي والشيخ
 أنور شاه رحمهما الله ، أما الشيخ عبد الحى اللكهنوي فذهب في هذا
 الباب أوضح وأبين ، رحمه الله ورضى عنه .

ولعلكم تسمعون بأن يتبع أحد مذهب الإمام أبي يوسف أو
 الإمام محمد في الصلاة ، وتحكمون بصحة صلاته وجواز الاقتداء به ،
 وكذلك تأذنون لللائكة بإيصال صلوات الأئمة الشافعي ومالك
 وأحمد رحمهم الله إذا صلوا على مذاهبهم في طهارة الماء ، وتجوزون
 الاقتداء بهم ، وبعد هذه المعاملة المرنّة مع الآخرين لا تفكروا في
 الوهابيين فإنهم في غنى عن وسائلكم ، ومعاملتهم مع رحمة الله
 مباشرة ، وإمامهم ان ينسأهم وقت الشفاعة ، إن شاء الله تعالى .

اللهم صل على محمد وبارك وسلم .

١٠ - والتفرقة بين البئر والغدير في مسألة الطهارة غريب أيضا ، فكأن العبرة هنا في الطهارة والنجاسة بهيئة الظرف بدل كمية الماء ، ولنفرض بئرا فيها ماء يملأ غدراناً عديدة عشرا في عشر ، فإذا كان هذا الماء في الغدير لا تؤثر فيه نجاسة ، أما إذا كان مثله أو أكثر منه في بئر وسبعة عميقة لا يتحمل نجاسة قليلة ، فكأن الظرف المدور يتنجس قبل الظروف المربعة أو المستطيلة . يقول صاحب الهداية رحمه الله : «ومسائل البئر مبنية على اتباع الآثار دون القياس^(١)» .

إن مسألة الطهارة والنجاسة تشبه مسألة الحلال والحرام ، فهل تكفي فيها آثار الصحابة فقط ، ويمكن الافناء عليها بجرمة الاقتداء ؟ وهل يمكن أن لا يروى شيء في هذه المسائل المهمة عن النبي ﷺ ويترك الأمر كله إلى الصحابة رضي الله عنهم ، الذين ليسوا معصومين حسب عقيدة أهل السنة ، فكيف تصدرون الفتوى بدون تفكير وتأمل ؟ ما هكذا يا سعد تورد الأبل

وهل تدبرتم قط أسانيد هذه الآثار ، فمن العسير أن يتصل منها سند بصاحب القول على طريق صحيح ، ولو صحت لا تدل إلا على التنزيه لا الحكم التشريعي . ولكن الإكفار والتكفير والمنع من الاقتداء أمر

فكاهى وشغل سار :

والكفر عندكم رخيص سعره حصوا بلا كيل ولا ميزان
فالتمس أن هذه الفتيا بناء على الدلائل المذكورة ليست من
الأمانة فى شىء ، وطائفتكم ليست فى مكانة علمية تستطيع بها القطع
فى مثل هذه المسائل المهمة ، والمجال واسع فى الأعراس والموالييد
والاسقاط والختم والسبع والأربعين والخميس ، ولا داعى لأن تدخلوا
فى المجال العلمى الذى يحملكم المسؤولية .

١ . - والفرقة بين كمية الدلاء وعددها فى طهارة البئر لا ترجع إلا
إلى الآثار ، ولا دليل عليها من كتاب الله والسنة الصحيحة .
وعندكم فى المذهب أن طائرا أو فأرا إذا سقط فى البئر ومات
ينزح منها عشرون دلاء . وهذا القول مسلم ومعمول به عندكم
بناء على التقليد ، ولكن المقام جدير بالتفكير من وجهة أخرى ،
وهى أن البئر لا تزال نجسة بعد نزح تسعة عشر دلوا منها
(على القول المذكور) فهل الدلو العشرون هو الذى يزيل
النجاسة كاملا من البئر ؟ ثم ألا تنجس الماء قطرات الماء التى
تنزل من الدلو إلى البئر ؟

والحقيقة أن أساس هذه الآثار على النزاهة والإرادة الذاتية ،

ولكنكم أنزلتموها منزلة الحكم الشرعي وجعلتم بين الطاهر والنجس حائلا بقطرات من الماء، وما أعجب ذلك !

وبهذه الدلائل الضعيفة تهاجمون أهل الحديث والموالك، مع أن موقفهم قوى جدا من ناحية الاستدلال . فما أوضح مذهبهم الذي يقول بأن الماء قليلا كان أو كثيرا، كان في البئر أو الغدير، والغدير يكون عشرا في عشر أو أقل، إذا وقعت النجاسة فيه وغيرت أحد أوصافه من اللون أو الريح أو الطعم لتنجس الماء، ولو أضيف إليه من الماء الجديد ما يصلح أوصافه أو زال أثر النجاسة بحيث يعود الماء صالحا لاطهر الماء، ولكنكم تهاجمون هذا المذهب الواضح المعقول ولا تنظرون إلى مذهبكم، وهذا كما قيل :

يقاتل وليس في يده السيف

ومن الممكن أن تسلم لكم إدارة المساجد وإمامتها بناء على الآخرة والمصالحة، وتتولوا أمر غسل الموتى وقراءة الفاتحة والاستسقاء والأربعين، ولكنكم لو أكدتمونا عن قلوبكم بأنها تخلو من الشرك والبدع لنسلمكم الإمامة ان شاء الله، وليكنها لا تكون إذا وسيلة للتكسب.

هذا هو الكلام الموجز في مسألة الماء، ومن استزاد فلدينا مزيد.

طهارة الخمر:

والشيخ الرضوى غضب على النواب صديق حسن خان لأنه لا يقول بنجاسة الخمر. وهذا هو الدليل الثانى لحُرمة الاقتداء بأهل الحديث. وإنى أهمل شخصيا إلى نجاسة الخمر وأرى مذهب الجنبالة والأحناف فى هذا الأمر صحيحا، ولكن المشكلة أن المسألة ليست قياسية بل تحتاج إلى نص. والنواب المغفور له ليس مصرا على موقفه بل إنه أيضا يريد الدليل الذى يكون مرجحا عند التعارض، يقول: «وبالجملة فالواجب على المنصف أن يقوم مقام المنع، ولا يتزحزح عن هذا المقام إلا بحجة شرعية^(١)».

وعلى هذا ينبغى أن يأتى الشيخ الرضوى بنص على نجاسة الخمر كما نص على حرمتها، وكذلك ينبغى أن يركز الاهتمام حول الدلائل أكثر من الفتيا، ونقطة الضعف فى أصحابنا البريلويين أنهم يتكلمون دائما بالعاطفة ويهتمون بالفتاوى، والسلاحان ساقطان لدى الرجل السليم. والنواب صديق حسن خان لا يرى الخمر طاهرة، بل إنه معكم فى أن الخمر نجس، وفى القرآن: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان^(٢)﴾. وإلكن لا يتنجس الجسم أو الثوب بلبس آلات الميسر والأنصاب مع كونها رجسا، فإن نجاستها

(١) الروضة الندية ص ١٢

(٢) المائدة: ٩٠

حكيمية وليست حسية ، وفي القرآن : ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام ^(١) ﴾ . وهذا الحكم عام لجميع المشركين ، فهم أنجاس ، هندو كانوا أو باكستانيين ، عربا كانوا أو عجماء ، ولكن المعلوم أن الثوب أو الجسم لا يتنجس بلبسهم ، وفي ذلك يقول النواب : « وهذا يدل على أن تلك النجاسة حكيمية لا حسية ، والتعبد إنما هو بالنجاسة الحكيمية ^(٢) » .

وكان وفد ثقيف قد دخل المسجد النبوي ولكن النبي ﷺ لم ير الحاجة لغسله ، وكان المشركون يترددون إلى بيت الله ولم يمنعههم الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأن نجاستهم لم تكن حسية بل حكيمية . وقد ثبت أن النبي ﷺ استعمل ماء المشركين والقرآن الكريم ذكر مفصلا محرمات النكاح ، ولكن ليست في تلك القرابات نجاسة مما ، فإن الحرمة شيء ، والنجاسة شيء آخر . وقد سبق أن قلت إن منساق من نفسى لترجيح مذهب الأحناف ، ولكن أخذ الإمام الشوكاني والنواب صديق حسن خان على مخالفتهم ليس بيسير ، فإنهم يطلبون دليلا على إثبات النجاسة الحسية في الخمر وغيرها ، فتفكر ولا تكن من الغافلين .

إن الذهب والفضة والحرير حرام على الرجال ، ولكن لمسها

(١) التوبة : ٢٨

(٢) الروضة ص ١٢

لا ينجس الجسم ولا يفسد الصلاة ، وكذلك أنواع السموم كلها محرمة وليست بنجس ، وتشبهها المخدرات : فإن حرمتها لا تغني النجاسة . فكذلك يرى النواب الخمر حراما ونجسا ولكنه لا يرى نجاستها حسية ، وليس هذا ذنباً يلام عليه ، وكل ما يمكن أن تقولوا له بعد الحصول على دليل بين أن النواب صديق حسن خان لم يصب في الفهم .

ثم إن النواب رحمه الله لا يجوز التداوى بالخمر ولا اتخاذ الخل منها ولا طبخ اللحم فيها ، ولكن الحنفية رحمهم الله يرون أربعة أنواع من الخمر حراما ، وأربعة أنواع منها حلالا : « والحلال منها أربعة أنواع ، نبيذ التمر والزبيب إن طبخ أدنى طبخة يحل شربه وإن اشتد ، وهذا إذا شرب منه بلا هو وطرب ما لم يسكر . والثاني الخايطان . والثالث نبيذ العسل والتين والبر والشعيرة ، طبخ أولا . والرابع المثلث^(١) . »

فالمذهب الحنفي يسمح للشرب بقدر الحاجة إذا صلحت النية ، والوهابيون لا يذهبون إلا إلى طهارة الخمر مع حرمتها ، فكيف تصدرون الفتيا ضدهم ولا تنظرون إلى موقفكم ؟ ألا يصدق عليكم ما قيل : فر من المطر وقر تحت الميزاب ؟

(أيتها الرحمة الكاملة اعني فإني قد شربت راجيا عفوك ،

واجلا عقوبتك^(۱) .

ولا أقصد من هذا التوضيح طعنا أو عيبا ، بل الإشارة إلى أن الفقه يتضمن فروعا لها توجيه لدى العلماء ، خطأ كان أو صوابا ، وللاخالف أن يرفضه ، ولكن لا ينبغي أن يحرض العامة على أحد بسبب هذه الفروع ، فإنه ليس من دأب أهل العلم .

ولا يخفى أن التوسيع الذي يوجد في استعمال الخمر في المذهب الحنفي ليس في مذهب آخر . ودراسة الأبواب الأخيرة لسنن النسائي توضح موقف أهل العلم نحو أم الخبائث هذه وكيف أنها تؤدي الإنسان إلى الحضيض ، وتجره إلى المنكرات التي سبقت الإشارة إليها من النبي ﷺ . وأحوط مذهب في الخمر هو مذهب أهل السنة والحديث ، فكيف يطعن عليهم بمجرد قولهم بطهارتها .

ثم إنه ليس من الضروري أن يتمسك أهل الحديث بتحقيق الإمام الشوكاني والنواب صديق حسن خان في أمر الخمر ، فإنهم لا ينزلون مؤلفاتهما المنزلة التي تنزلونها آراء أبي حنيفة وفقهه ، وما نحن مختلف مع الشوكاني والنواب في عدة مسائل ، ولذا نلتمس أن لا يجعلوا رأيهما أمر جماعة .

(۱) ترجمة بيت بالأردية نصه :

اے رحمت تمام میری ہر خطا معاف
تیرے عفو کی امید پہ تھرا کے پی گیا

ويحسن أن لا يضيع الوقت في أمر الخمر لتوضيح لفظ النبيذ، فإن خمار العقل يلزم بعد الغليان والاشتداد. لأنكم تسمونه نبيذاً بخمراً، وأنا أسميه خمر النبيذ، وهنا يصدق قول النبي ﷺ: «يسمونها بغير اسمها»^(١).

وخلاف الألفاظ لا يؤثر في الحقيقة، حيث عبر عنه العلماء بالخمر، يقول الإمام خلف بن هشام بن ثعلب (م - ٣٢٩ هـ): «أعدت صلاة أربعين سنة كنت أتناول فيها الشراب على مذهب الكوفيين»^(٢).

ومذهب جمهور الصحابة والتابعين أن كل مسكر حرام، قليلاً كان أو كثيراً. وتؤيد ذلك رواية من أبي حنيفة، وقد اختاره الإمام محمد وجماعة من المشايخ. وقد روى مذهب آخر عن الإمام الشعبي والنخعي وأبي حنيفة وهو أن خمر الحنطة وغيرها سوى العنب والتمر حلال إذا لم تسكر.

ومن حديث الرسول ﷺ «كل مسكر خمر» و«ما أسكر كثيره فقليله حرام»، وعليه فالمذهب الأول صحيح، وبناء المذهب الثاني على الخطأ في الاجتهاد.

وبعد هذا الموقف المرن للأحناف في الخمر كيف يلام النواب صديق حسن والوهابيون على جعلهم الخمر نجساً طاهراً؟

(١) سنن النسائي ٣٢٩/٢

(٢) راجع طبقات الحنابلة لأبي يعلى ص ١١٣

وبعد إثارة القضية القديمة اسمحوا لي حتى ينجلي الموضوع
وتتمكنوا من التفكير، ويبدو موقف النواب صديق حسن والوهابيين
ويعلم الناس ما للموضوع من الخطورة والأهمية.

يقول القاضي خان: «ذكر الناطقي رحمه الله عن محمد إذا صلى
على جلد كلب أو ذئب قد ذبح جازت صلاته^(١)». ويقول «أما إذا
ذبح بالتسمية وصلى مع لحمه أو جلده قبل الدباغة يجوز^(٢)». ومن
المعلوم أن السباع حرام، ومع ذلك لو ذبحت باسم الله تصح الصلاة
على جلودها. وهذا عين ما ذهب إليه النواب صديق حسن، فإنه
يقول بطهارة الخنزير مع حرمتها، وهنا نرى أن اللحم والجلد مع
كونهما محرمين قد طهرا بالذبح. فما الفرق بينكم وبين النواب؟ ثم
إنكم تقولون بصحة الصلاة بعد شرب النبيذ ووضع لحم الكلب في
الجيب وعلى المصلي المتخذ من جلد الكلب قبل الدباغة، ومع ذلك
كله ترمون الوهابيين بالكفر، إنا لله.

وليس من العادة ما قلته، فلا أحب إبراز الأخطاء الاجتهادية،
ولكن الفتوى التي أصدرتموها كانت مؤلمة جدا، وهي التي اضطرتني
إلى ما قلت وكنت كارها:

(١) ١١/١

(٢) منية المصلي ص ٤٩

(أنا أتاوه فيفضحوني ، وهو يقتل فلا يشمرو نه^(۱)) .

ولو تفکرتہم لعرفتم أنه ليس هناك فرق بينكم وبين النواب
رحمه الله من ناحية الأصول ، سوى الفرق بين الكلب والخمر ، فكيف
تجوز سورة الغضب هذه على أساس الخلاف الجزئي بعد الاتحاد
في الأصول .

وكما قلت إن أهل الحديث لا يتقيدون برأى النواب صديق حسن ،
ففيهم من يرجح مذهب الحنفية والحنابلة ويرى في الخمر نجاسة مغلظة .
وعلى هذا ينبغي أن تسألوا الإمام الوهابي وقت الحاجة عما إذا
يحسب الخمر طاهرا ؟ ولو كان متعصبا لأشار إلى مسائل الفقه التي أشرنا
إليها فيما قبل .

أما مذهبنا فيختلف عن مذهبكم تماما ، فنحن نصلي خلف كل
مسلم ، حنفيا كان أو سلفيا ، ولكن لا نرضى بامامة سلفي غير مسلم
وحنفي غير مسلم . وهذان القسمان شائعان في هذه الأيام ، فالتناس
يناقشون في أمر الحنفي والسلفي ولكن أعمالهم وعقيدتهم تشبه أعمال
وعقيدة غير المسلمين ، يكذبون ويخونون ثم يتخاصمون في أمر الحنفية
والوهابية ، وبأى اسم تسمى هؤلاء يشك في صلاتهم والافتداء بهم ،

(۱) ترجمة بيت أردى نصه :

ہم آہ بھی کرتے ہیں تو ہو جاتے ہیں بدنام

وہ قتل بھی کرتے ہیں تو چرچا نہیں ہوتا

والمؤسف أن غير المسلمين في الأحناف يكثرون اليوم .

المسح على العمامة :

المسح على الرأس فرض ، والأحناف يريدون به ربع الرأس ، فإنه ورد في الحديث « مسح على ناصيته » ويريدون بالناصية ربع الرأس . ويرى الشوافع أنه مسح عدة شعور من الرأس على الأقل . والموا لك يرون استيعاب الرأس في المسح . وقد ورد في الحديث ثلاث صور لمسح الرأس : الأولى المسح على جميع الرأس . والثانية المسح على بعض الرأس وعلى بعض العمامة . والثالثة المسح على العمامة كلها . أما الذي يعمل به الأحناف فلا يوجد في الأحاديث صريحا ، بل وردت فيه رواية المغيرة بن شعبة المختصرة ، وجاءت الروايتان في صحيح مسلم ، أما إطلاق القرآن فيعمل به الموا لك فقط ، فالحنفية فسروا الآية بحيث جعلوا الرأس ربعا . والشافعية اقتصروا على عدة شعور فقط . وكل ذلك يحتمل ويسكت عليه ، فأنتم على الحق ، والشوافع على الحق ، والموا لك على الحق ، ولكن أهل الحديث إذا قالوا بالمسح على العمامة بناء على السنة الصريحة وجهت إليهم الشتائم وعوتبوا في ذلك . وإليك الحديث : « عن عمرو بن أمية الضمري قال رأيت النبي ﷺ يمسح على عمامته وخفيه^(١) » . ويقول

(١) صحيح البخارى ٢٣/١

الإمام النووي : « وذهب أحمد بن حنبل إلى جواز الاقتصار على
العمامة ، ووافقه عليه جماعة من السلف^(١) .

وقد روى حديث المسح على العمامة عن بلال والمغيرة بن شعبة
وسليمان وثوبان رضي الله عنهم . فتفكروا بعد ذلك في الذين
تحرمونهم الإمامة .

أيها الشيخ ! يبدو أن النبي ﷺ كان وهابيا متصليا . وعلى
أصحاب التفكير من بريلى ولاهور أن يفكروا ، فإن وجدوا في أنفسهم
جراحة للافتاء في فساد الصلاة باقتداء النبي ﷺ لتسلم لهم مقاليد
دار الندوة ، إرثا من السلف ، وذلك يرضينا نحن أيضا .

وجوب الغسل :

إذا حدث خال في المجامعة ولم يخرج المنى فالجمهور يقولون بوجوب
الغسل ، وبه يقول الأحناف . ويذهب الإمام البخاري وبعض الأئمة
من السلف إلى أن الغسل ليس بواجب ولكنه الأحوط .

وتؤيد الأحاديث المذهبية ، وحيث يجهل التاريخ لا تصح دعوى
النسخ ، بل يعمل على المذهب الراجح ، ولكنه لا يؤثر في جواز
الاقتداء وعدمه . والتفصيل في الجامع الصحيح للبخاري ونيل الأوطار
وفناوى ابن تيمية .

(١) صحيح مسلم مع شرح النووي ١٣٤/١

المسح على الرجل:

هذا هو الدليل الأخير للشيخ الرضوي، يقول: إن أهل الحديث يرون المسح على الرجل جائزا، كما في الفتاوى الإبراهيمية. ولا ندرى من هو إبراهيم هذا؟ وما هي فتاواه؟ ونود أن نصرح بأن مذهب أهل الحديث ليس ما ذكرتم، وأظن أن أحدا من أئمة السنة لا يذهب إلى ما ذكرتم، بل هو مذهب الشيعة فقط.

نهاية القول:

كنا نعرض عن مجلة الرضوان وإدارتها ونود ألا نكلف هؤلاء المحترمين، وهذه هي المرة الأولى التي أجبنا عليهم فيها، ومن الممكن أن تتكرر نفس الغلطة فيما بعد، فليكن واضحا لدى الشيخ الرضوي وأصحابه أننا لسنا متقيدين بأقوال وآراء علماء أهل الحديث فليست أساسا لمذهبنا، ولا نحسبهم مثل أئمة الاجتهاد ولا نقلدكم، فلا تعترضوا علينا بأقوالهم وآرائهم، فإن المتبع عندنا هو الكتاب والسنة وآثار السلف، وفي الآثار تتمسك بالمسائل الاجماعية، وفي الباقي لا نتقيد بأحد. فالأحسن أن يكون هذا الأصل نصب أعينكم لئلا يطول البحث ولعلنا نتقارب هكذا.



التي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

الفصل السادس

والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

الحركة المقدسة

والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

التي تعرضت للمظالم

والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب
والتي هي من نوعها في هذا النوع من الأدب

« أمانة أهل البدعة أنهم يسبون أهل الحديث »
(الإمام أحمد بن حنبل لإمام أهل السنة)

كما أن الحكومات المادية تتعرض للخراب والدمار فكذلك الحركات الدينية والنظريات الفرعية والأصلية تستمر في الكسر والانكسار. والحوادث في ذلك متلاحقة في مقدمة ابن خلدون وكتاب المواعظ للقريري. إن الخلاف في المسائل والمجافاة والمنافرة بين العلماء تحدث مدا وجزرا في تاريخ المذاهب، ودراسة أسبابه المادية موضوع خاص للتاريخ، وكتب التاريخ والطبقات في المال والنحل تفصل القول في ذلك.

والتاريخ قد أكثر من ذكر ما حدث من الانقلابات الدينية في مناطق إيران وماوراءالنهر وكيف أن طائفة هاجمت على الأخرى وقضت عليها. فأولا أكثر أئمة الحديث ثم قوى أئمة الشوافع، فعلماء الحنفية إلى أن تمت سيطرة الشيعة، وكل ذلك في مدة وجيزة.

ويوجد اليوم أيضا أهل السنة بكثرة في إيران والعراق، ولكن الحكومات الشيوعية المستبدة كمت أفواه الجميع.

وقد مهدت الطائفية والاستبداد الديني في التركستان الروسية والأزبكستان وتاشقند، السبيل للاتحاد والشيوعية إلى أن تم إجملاء

الإسلام من هذه البلاد ، وفي ذلك عبرة لأصحاب الفهم والتفكير :
 ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد^(١)﴾ .

وكان العلماء من أئمة السنة في مصر والسودان مكرمون وطريقة الكتاب والسنة والسلف الصالح مقبولة شائعة بين الناس . وقد وصل الإمام الشافعي إلى مصر في سنة (١٩٨هـ) فروى أرضها بعلمه المتبحر ، وقد ساد مذهبه في مصر بفضل الربيع بن سليمان ، والإمام إسماعيل ابن يحيى المزني ، والحافظ يوسف بن يحيى البويطي وغيرهم^(٢) .

وبعد ذلك ساد الفاطميون فتغير الوضع تماما وسيطر الروافض في مصر عام (٣٥٨هـ) وقد استمر الفاطميون والروافض في مؤامراتهم ودسائسهم ، حتى عاقت لاقتات السب والشتم ضد الصحابة وأئمة السلف . وحوالي سنة (٥٦٤هـ) قضى السلطان نور الدين محمود بن زنكي وجيشه على عصر الفاطميين ، فبدأ عصر فقهاء المالكية والشافعية وانقضى عصر الرافض والتشيع ، وقد ذكر المقرئ في هذا المد والجزر والرقى والانحطاط مفصلا في الجزء الرابع من خطته ، ويدل كلام المقرئ على أن المناقشة كانت مستمرة بين أصحاب المذاهب الأربعة ، واشتد الصراع بسبب منصب القضاء . وكان من ضعف

(١) سورة ق : ٣٧

(٢) المواظ والاعتبار للمقرئ ١٤٥/٤

العلماء أنهم لم يعيشوا فيما بينهم مع كونهم مسلمين سنيين ، بل نظروا إلى منصب القضاء والوظائف الرسمية الأخرى كأنها سلع للبيع والشراء فتنافسوا بل تهالكوا للحصول عليها . وكانت الحكومات المعاصرة لهم قد استغلت هذه الفرصة وانتفعت بضعف العلماء وحصلت على مصالحها السياسية .

وكان أئمة الإسلام يحترزون في البداية عن حضور بلاط الخلفاء والسلاطين ، فقد عرض القضاء على الإمام أبي حنيفة من البلاطين ، الأموى والعباسى ، ولكنه قد استمر في رفضه حتى عوتب منهما سوا ، ولكن الإمام أبى يوسف والإمام محمدا قد قبلوا هذا المنصب . فالمصالح تتغير ، ويمكن أن أحدث قبولها ضررا ، ولكن الظاهر أن أبى يوسف قد انتفع بالقضاء في دينه ودنياه ، وقد ساعد منصبه هذا كثيرا في نشر الفقه الحنفى . وأينما توجد سيادة المذاهب الأربعة يرجع سببها إلى مثل ذلك دون قوة الدلائل . ويوجد تفصيل ذلك في الخطط للقريزى ومقدمة ابن خلدون والبداية والنهاية وغيرها من كتب التاريخ . ولو اتبع الإمام أبى يوسف سلوك الإمام أبى حنيفة فالأغلب أن الفقه الحنفى لم يكثر ولم ينتشر هذا الانتشار . وقد انتقد الناس موقف أبى يوسف هذا ، ووردت أخبار ملفقة بهذا الصدد في تاريخ الخلفاء للسيوطى وغيره من الكتب ، وأيا كان الوضع ،

فلا يشك في أن مكانة الإمام أبي يوسف قد ساعدت كثيرا في نشر المذهب، وكذلك انتشرت في إفريقيا وفي الحجاز ونجد ومصر المذاهب التي تلقت المساعدات والنشجيعات من الحكومة.

وقلما حصلت مثل هذه الفرص لأهل الحديث، فإنهم كانوا يتبعون من البلاط والقصور، فألقى التاريخ عليهم ستورا غليظة للنسيان والخنول، ولذلك نرى أن الأوساط العلمية المعتمد بها تقول جهارا أن كلمة أهل الحديث لا تعنى مدرسة فكرية، بل هي عبارة عن جماعة حفاظ الحديث ينقصها التفقه والدراية، ولا تعرف الاجتهاد والاستنباط، وهكذا. ولكن الواقع أن جميع المذاهب، سنية كانت أو بدعية، تستند إلى مذهب المحدثين وتجعله سندا ومقياسا لصحة مذاهبها. وكان هؤلاء العلماء يحتلون درجة الاجتهاد أيضا في علوم الكلام والفلسفة والفقه وأصوله والتجويد والنحو والمعاني والبيان والأدب والتاريخ. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا إجماع من جميع هذه الطوائف على تعظيم السنة والحديث، واتفاق شهاداتهم على أن الحق في ذلك. ولهذا تجد أعظمهم موافقة لأئمة السنة والحديث أعظم عند جميعهم من هو دونه. فلا شعري نفسه لما كان أقرب إلى قول الإمام أحمد ومن قبله من أئمة السنة كان عندهم أعظم أتباعه، والقاضي أبو بكر الباقلاني لما كان أقربهم إلى ذلك كان أعظم عندهم من غيره وأما مثل الأستاذ أبي المعالي وأبي حامد ونحوهما من

خالفوا أصوله في مواضع ، فلا تجدهم يعظمون إلا بما وافقوا فيه السنة والحديث ، وأكثر ذلك تقلدوه من مذهب الشافعي في الفقه الموافق للسنة والحديث ، وبما ذكروه في الأصول مما يوافق السنة والحديث وما ردوه بما يخالف السنة والحديث ، وبهذا القدر ينتحلون السنة وينحلونها ، وإلا لم يصح ذلك^(١).

فميزان الحق هو الحديث وأئمة . ومن الغريب أن يكونوا مجردين من الفقه والدراية ثم يصيروا مقياسا للحق والباطل .

آثار التقليد والجمود :

لم يقتصر أهل التقليد والجمود السائدين على ائمة الحديث ، بل لأنهم بجمودهم على مذهبهم لم ينصفوا مع أتباع الأئمة الآخرين مع الاعتقاد بأن هؤلاء الأئمة على الحق . ولناخذ مثالا لذلك موضوع الاقتداء بالمخالف ، فمن المسلم به أن الأئمة الأربعة على الحق ، ومنبع هذه المذاهب واحد ، والامة قد أجمعت على نقاء هذا المنبع . وبمراجعة الميزان للشعراني نرى أن الأئمة يلاحظون باهتمام عمل الميزان وقت تقسيم الكوثر و وزن الأعمال ، ويتتبعون بدقة سير أتباعهم عند الصراط . ويبدو أن موقف هؤلاء الأئمة يوم المحاسبة مقارب لموقف الأئمة رحمهم الله في نظر الشعراني رحمه الله . ومع

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ١٧/٤ - ١٨

هذا الاحترام والارتباط بالحق نرى الفقهاء المتأخرين يحاسب أحدهم الآخر بدقة إذا سئل عن الاقتداء بالمخالف ، كما يحاسب مسلم غير مسلم. والحق أن الأمر كان هينا مع وجود الخلاف في الفروع . فكان من الممكن أن يقال بأن الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي يجوز أن يقتدى أحدهم بالآخر ، ولا ينبغي أن ينظر إلى مذهب الإمام أو المأموم بعد الإيمان بأن المذاهب كلها حق ، فالخلاف غير مؤثر في ذلك ، ولكن نرى بعد ذلك أن الفقهاء تحفظوا في ذلك ، ففي ذلك يقول العلامة حسن بن منصور (م - ٥٩٢ هـ) والبرجندی (م - ٩٣٢ هـ) :
 — وهما من أصحاب الترجيح — « أما الاقتداء بشفعوى المذهب قالوا : لا بأس به إذا لم يكن متعصبا ولا شاكاً في إيمانه ولا منحرفاً تحريفاً فاحشاً عن القبلة ، ولا شك أنه إذا جاوز المغارب كان فاحشاً ، وأن يكون متوضئاً من الخارج النجس من غير سبيلين ، ولا يتوضأ بالماء القليل الذي وقعت فيه النجاسة^(١) . وعدم وجود هذه الشروط يعني أن الشافعي لا يستطيع أن يؤم الأحناف .

وينقل العلامة الشامي^(٢) رحمه الله عن شرح الحنفية : « أما الاقتداء بالمخالف في الفروع كالشافعي فيجوز ما يعلم منه ما يفسد الصلاة على اعتقاد المقتدى (شارح المنية) .

(١) قاضي خان ٧٦/١

(٢) رد المحتار ٣٧٨/١

وفي نفس الصفحة ينقل عن رسالة الاهتداء في الاقتداء للإمام علي القاري رحمه الله: «ذهب عامة مشايخنا إلى الجواز إذا كان يحتمل في مواضع الخلاف والإفلا، والمعنى أنه يجوز في المراعى بلا كراهة، وفي غيره معها، ثم المواضع المهمة للرعاة أن يتوضأ من الفصد والحجامة والقيء والرعاف ونحو ذلك»^(١).

ويقول العلامة خير الدين الآملي: «الذي يميل إليه خاطري القول بعدم الكراهة إذا لم يتحقق منه مفسدة»^(٢).

ويذهب العلامة إبراهيم البيري في رسالته إلى أن الصلاة وحده أفضل من الاقتداء بالإمام الشافعي، لأنه يأتي في صلاته بأفعال تقتضى إعادة الصلاة على الوجوب أو الاستحباب.

وروى عن خير الدين الآملي الشافعي أنه إذا وجد الموافق في المذهب يكره الاقتداء بالغير، نعم الاقتداء أفضل من الصلاة وحده، وهذه الفتوى نقلت من الرمل الكبير والاسنوى والسبكي.

ويقول أيضاً: «والحاصل أن عندهم في ذلك اختلافاً وكل ما كان لنا لهم علة في الاقتداء بنا صحة وفسادا وأفضلية كان لنا مثله عليهم»^(٣).

(١) رد المحتار ٣٧٨/١

(٢) نفس المصدر

(٣) نفس المصدر

والتصريحات السابقة تدل على أن الدين ليس بنساء الفتاوى المذكورة بل المنافرة التي كانت بين الفقهاء الكرام .

وبعد ذلك ذكر العلامة الشامي الأقطار التي تتعدد فيها الجماعة للوافقين والمخالفين . قال البعض : إن كانت الجماعة الأولى للشوافع يلحق بهم ، هذا هو الأفضل ، ولكن يقول العلامة إبراهيم البيري : صلاة الرجل منفردا أفضل إذا فاتته جماعة مذهبه ، ولا يقتدى بالشافعي . ويقول العلامة السندی تلميذ الإمام ابن الهمام رحمهما الله : من الأفضل أن يصلي منفردا ولا يقتدى بالشافعي ولو يراعيه . وذكر بعد ذلك رأى العلامة على القاري وهو يقول : إن الاقتداء بالمخالف لا يجوز إذ أمكن ادراك الجماعة (الحنفية) متقدما أو متأخرا . والحاصل أن العلامة الشامي قد فصل الكلام في آراء الفقهاء وأصحاب المذاهب نحو الاقتداء ، وحكم نظرا لما يجري ويعمل به في الحرمين بالأب لا يصلي مع الشوافع إذا لم يكن إمام مذهبه .

وإزاء ذلك جعل إمامة الفاسق المبتدع يكره تنزيها ، وفي الدر المختار : « يكره تنزيها الخ^(١) » . ويقول القاضي خان : « ويصح الاقتداء بأهل الهواء إلا الجهمية والقدرية والرافضة الغالي ومن يقول بخلق القرآن^(٢) » . ثم يقول : « إذا صلى الرجل خلف فاسق أو مبتدع

(١) رد المختار ٣٧٨/١

(٢) نفس المصدر ٧٦/١

يكون محرزا ثواب الجماعة^(١) .

ونفس التفصيل يوجد في الشامي (٥٨٨ / ١) ، والطحطاوي (٢٤٤ / ١) إلا أنه زاد في البدعة ألا تكون مكفرة وإلا لا يصح الاقتداء ، والعلامة الكأساني تفصيل أكثر في البدعة في كتابه بدائع الصنائع ، يقول : يكره الإمام أبو يوسف الصلاة خلف المبتدع مطلقا ، ولكن الكأساني يحمل كلامه على ما ذكر^(٢) : والصحيح أنها إن كان هوى يكفره لا تجوز ، وإن كان لا يكفره تجوز .

وتصريحات الفقهاء الكرام تدل ظاهرا على أنهم لم يحتاطوا في أهل البدع والأهواء كما احتاطوا في المخالفين من أهل السنة وخاصة من الأئمة الشوافع وأهل الحديث ، كما يفهم من التعريض الجارح غير الملائم بقوله : « ولا شاكا في إيمانه » . ولا شك أن الاقتداء بالإمام الشافعي وأتباعه لا يجوز إذا شك في إيمانهم أو شكوا فيه ، ولكن الواقع أن جميع أئمة الحديث وأئمة السنة يقولون بالاستثناء في الإيمان : وهم الذين أشير إليهم بقوله : « شاكا في إيمانه » .

(١) رد المحتار ٧٧/١

(٢) نفس المصدر ١٥٧/١

كيان الشوافع :

وهذا مع أن الإمام الشافعي وأتباعه سنيون صادقون، وقد اعترف علماء الحنفية أيضا بكون مذهبهم حقا، يقول الشيخ عبد الحى السكندري رحمه الله : «فهذه المذاهب المختلفة للأئمة ومجتهدى الأمة كلها تتصل بأنهار الصحابة ، وهي متصلة بمنبعها وهو حضرة الرسالة ، فكلمهم على هدى ، من اقتدى بأبها اهتدى ومن توهم أن واحدا منها على هدى ، وسائرهما في ضلالة فقد وقع في حفرة الضلالة^(١)» .

وهذا الاحتياط في الاقتداء بالشوافع بعد التوثيق المذكور لا يترك موقعا للشروط السابقة البعيدة عن الإنصاف . ومن المعلوم أن الاعتزال والتجهم لم يتركا الأحناف ولا الموالك ولا الشوافع ، بل لأنهم تركوا طريق الأئمة المجتهدين في العقائد ، واتخذوا أئمتهم الأشعري والماتريدي .

يقول الطحطاوى : ولا خصوصية لمذهب الشافعي بل إذا صلى حنفي خلف أى مخالف لمذهبه كذلك^(٢) .

والتفصيل المذكور يوجد ببعض الاميجاز فى الهداية وشرحه الكفاية (طبعة بومباي) ولكن الهدف واحد .

(١) الفوائد البهية ص ٩

(٢) مختصر الطحطاوى ٢٨١/١

مجال آخر للكلام:

وكانت الطبائع تكره الاحتياط وضيق النظر في تحريم الاقتداء بالشوافع وغيرهم من أئمة السنة ، ففتحت جبهة أخرى للكلام ، وهي أن الإمام والمأموم إذا اختلفا في الفروع فن يؤثر ، وعلى من تقع مسؤولية المراعاة ؟ يقول العلامة ابن عابدين : (الشامى) هذا بناء على أن العبرة لرأى المقتدى ، وهو الأصح ، وقيل لرأى الإمام ، وعليه جماعة^(١).

وهذا هو رأى العلامة بدر الدين العيني وصاحب الهداية ، ولكن يقول ابن عابدين : الأول هو الصحيح ، أى على الإمام مراعاة المقتدى . إن جبهة الكلام لتغيرت ، والموضوع قد تحول من الأئمة إلى الإمام والمقتدى ، ولكن القبح قد تضاعف بحيث جعل الإمام تابعا للمقتدى ، وهذا يشبه أن نجعل العربية أمام الفرس ، وليس ذلك إلا من تأثير التعصب .

وقد سكت الشيخ عبد الحى رحمه الله بعد ذكر المذهبين فى الجزء الثالث^(٢) من فتاواه . والمظنون أنه يميل إلى أنه لا ينبغي أن يكون الإمام تابعا للمأموم ، وقد وضح ذلك فى تعليقه على الهداية . ويقول بعد ذكر شروط ومراعاة القاضى خان وغيره من الفقهاء :

(١) رد المحتار ١/٥٨٨

(٢) ص ٥٣

« قلت : هذا يرجع إلى أن يصير حنفيا » .

ثم استعرض شروط المراعاة استعراض محب الحقيقة وقال في النهاية : وأما اشتراط مراعاة مواضع الخلاف كما اختاره أكثر أصحابنا فغير موجه ، إذ مراعاة ذلك مستحب ، وليس بواجب عند أحد ، فلو لم يراع فعل ما فعل على طبق مذهبه لم يقدح في ذلك قاذح ، فأى مانع في جواز الاقتداء به ، فافهم هذا بنظر الإنصاف^(١).

فالأمر واضح جدا ، ولكن ما ذا نفعل بقول الشامي « عند أكثر المشايخ » وقوله « على الأصح » ؟ وعلى كل لا يبدو هذا الموقف أيضا سليما .

جبهة أخرى :

قد ذكر الشيخ عبد الحى رحمه الله ستة مذاهب للفقهاء القدامى في موضوع الاقتداء بالمخالف في تعليقه على الهداية^(٢) ثم رجح الجواز المطلق . وفي بلادنا (الهند وباكستان) احتل أهل الحديث محل الشوافع في البلاد الأخرى ، (مع أننا ، أهل الحديث ، نحترم الأحناف والشوافع على السواء) فنحن وحدنا نتعرض لحكم حرمة الاقتداء ، بل نرى بعض الأكابر يتجسمون أكثر . أما البريلوية

(١) الهداية ١١٩/١

(٢) نفس المصدر ١٢٦/١

فيعملون بقوله : « لا مساس » ولا يقتدون بموحد ، حنفيا كان أو سلفيا . والدين عندهم عبارة عن عادات ومناسبات وعتاقت ، وأسلوب الكلام والمناقشة فى الأمور الدينية لا يعتمد على العلم والاستدلال بل على العاطفة . وأصحابنا الديوبنديون يحتمون بالمسائل التى يرجى مراعاتها من الشوافع ، ولكن الخلاف فيها لا يبدو الآن مناسبا ، ففتحت جبهة أخرى وقال أصحابنا : إن الاقتداء بأهل الحديث لا يجوز لأنهم لا يستعملون التراب فى الاستنجاء فلا تصح طهارتهم . وهذا العذر ضعيف جدا مع كونه غلطا محضا . ومن المعلوم أن الطهارة واجبة لصحة الصلاة عند الجميع ، وهى واجبة عند أهل الحديث وجوبها عند الحنفية ، والفرق بين الفريقين فى طرقها ، أى تكون بالماء وحده ، أو بالتراب وحده ، أو بهما جميعا . والأئمة متفقون على أنها تحصل بالطرق الثلاث ، واستعمال الماء والتراب جميعا أحسن . وليست طريقة من هذه الطرق الثلاث شرطا للإمامة والاقتداء ، بل الشرط هو الطهارة المطلقة . فالغريب لإيجاب استعمال التراب ، وليس ذلك إلا من البغض الذهنى والعصبية ، فلا يقول به أحد من الأئمة الأربعة . بل هو اختراع بلادنا فقط .

طهارة أو وهم :

قد حصلت لى معرفة أقسام الطهارة وطرقها المختلفة التى يمارسها العلماء ويصرون عليها ، وذلك فى سنة ١٩٥٣ م حينما صاحبت العلماء

أثناء حركة ختم النبوة . فرأيت البعض يمسك بعد البول نطاقه بفمه ويتمشى طويلا ، يمسك بيده اليسرى قطعة من تراب يحفف بها البول ، يقضى هكذا عشرين أو ثلاثين دقيقة إلى أن يقطع بالطهارة . والمظنون أن الطهارة لا تكمل إلا بعد هذا التمثيل . والبعض يستعين بفخذه أيضا مع التراب ، والبعض يطرق رأسه مرة بعد أخرى ليرى هل جف التراب ، فكأنه يرى جفافه واجبا في الطهارة . والبعض يتخذ التراب باهتمام بالغ ويحففها أياما في الشمس ، وهي توزع هدايا بين الأتقياء المتوهمين ، وهم يفرحون بقبولها . ومن الظاهر أن شيئا من هذا وذاك ليس ضروريا في المذهب الحنفي ولا في غيره من مذاهب الأئمة ، بل إنه نوع من الوهم ، ومن ابتلى به يعمل ما يطمئن به قلبه ، ولكن ليس له أن يكره أحدا على التوهم . والاعتداء بأهل الحديث يجوز عند هؤلاء إذا مهرؤا في طرق الطهارة المذكورة الشائعة عندهم ويحصلوا شهادة بذلك . ونرى البعض من إخواننا أهل الحديث أيضا أنهم يرون استعمال خمسة أو ستة من أباريق الماء واجبا للطهارة . وعلى مثل هؤلاء أن يطالعوا الأبواب الابتدائية من لغثة اللفهان للحافظ ابن القيم ونقد العلم والعلماء (تلبس إبليس) لابن الجوزي وذم الموسوسين للشوكاني ، فلعلمهم يستفيدوا منها . أما أهل الحديث فلا يرغبون في الإمامة ولا يرضون بالترين المذكور . والحقيقة أن مثل هذه الأمراض قد نشأت في العصر الذي كانت

البلاد تواجه فيه قلة الماء ، وإلا فليست مشكلة حقيقية ، بل نشأت من الوهم وقلة العلم وفي نفس الوقت هي وسيلة لإثارة العصبية والمنافرة في أذهان العامة . وبعد هذا الغلو في اتباع الأئمة مع التقليد وفي تشجيع عواطف المنافسة والبغض كيف يتوقع أهل الحديث أن تكون المعاملة معهم حسنة مرنة ؟ إن المخالفين لا يرضون بأن يبقى مذهب في العالم غير مذهبهم . وهذه العصبية هي التي تحمل بعض المثقفين أن يتفوهوا بأن أهل الحديث لا تعنى حركة أو مدرسة فكرية ، بل هي عبارة عن طائفة من الحفاظ عارية من الفقه والدراية . وهذه العصبية ناشئة من تغلب أهل التقايد في العصور الوسطى ومن المصالح السياسية لأصحاب السلطة . وأصحاب البلاط ومصاحبو الملوك قد ظلوا هذا المذهب فطووه في ظلمات التأنيخ وحوّل العصبية .

أهل الحديث في صفحات التأريخ المختلفة :

نظرة إلى سنوات ميلاد الأئمة ووفاتهم تريننا أنها تبدأ من سنة ٨٠ الهجرية وتنتهي بوفاة الإمام أحمد في سنة ٢٤١ هـ . وبعد ذلك تمضي مدة كبيرة لا نجد فيها أثرا للجمود أو للتقاييد الذي يوجبونه اليوم ويرمون من يعرض عنه بالاحاد وغيره . ومهما يكن فإن الافتخار بالتقليد أو الدعوة إليه لم تبدأ قبل القرن الرابع . وحينما

نزل الجيش الإسلامى الأول إلى شاطئ الهند قبل فتحها لم يكن للذاهب الشائعة اليوم أثر ما ، لا فى العرب ولا فى العجم ، وكانت الأذهان خالية تماما من تقليد الأئمة الذى نراه اليوم .

ومن المعروف أن أول هجوم على الهند كان عام ٥٩٢ هـ ، فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وكان العلماء من التابعين يكثرون حينذاك فى العرب ، ولم يكن فى الامكان أن يفكر أحد فى الأئمة الأربعة . كان أئمة الحديث ينتشرون فى خراسان وإيران وفارس ، وكانوا مركزين الاهتمام بحفظ الحديث وضبطه ونقله وروايته . وفى عصر تدوين الحديث هذا لم يستطع أحد أن يفكر ويشعر بفقه الأئمة ، بل كان العلماء ينظرون إلى فتاوى الصحابة وتابعيهم بدون تخصيص ، وهم كانوا مناط الاستناد بدون أثر للتقليد . كانت الحنفية والشافعية حينذاك عبارة عن مجرد الآراء الجزئية للأساتذة ، وهذا هو هدف أهل الحديث . وكان مذهبهم سائدا فى البلاد الإسلامية كلها ، وهو يعرف اليوم بمذهب أهل الحديث . ويكثر ذكر هذه المدرسة الفكرية فى كتب المتقدمين من الأحناف . يقول الشيخ عبد العزيز بن أحمد البخارى المتوفى (٤٨١ هـ) مؤلف كشف الأسرار فى شرح أصول البزدوى فى تعريف الصحابي : « اختلفوا فى تفسير الصحابي فذهب عامة

أصحاب الحديث وبعض أصحاب الشافعي إلى أن من صحب النبي ﷺ لحظة فهو صحابي^(١).

وفي أصول البزدوى وكشف الأسرار^(٢): ذهب أكثر أصحاب الحديث إلى أن الأخبار التي حكم أهل الصنعة بصحتها توجب علم اليقين . ومع ذلك كان يوجد في العالم صلاحاء يكرهون العصبية مع ارتباطهم بالمذاهب الشائعة واحترامهم للأئمة . فقد كتب الشيخ أحمد بن مصطفى طاشكبرى زاده (م - ٩٦٢ هـ) في مفتاح السعادة والسيادة مقالا عليا نافعا عن الفقه والفقهاء ، اشتكى في نهايته من فقهاء المذاهب وتعصبهم الطائفي . والجيل الجديد المتخرج في مدرسة ديوبند يسير على الطريقة التي اشتكى منها المؤلف المذكور . ومنهاج الدراسة ونظامها في ديوبند والمدارس التابعة لها قد انحرفا عن الجادة ، فهي تشجع التعصب والطائفية بدل أن تنشر العلم والإخلاص لدين الله . والكتابة في المسائل الخلافية ردئت بحيث تنم عن الخيانة والكذب . تركز الاهتمام حول الجدل والمناقشة بدل العبادة والتقوى . والطلاب يتلقون في مجالس الدروس ما ينمى فيهم التعصب . والأحداث يسلكون في هذا الطريق بحيث يؤثرون في الكبار . ومدارس أهل الحديث أيضا تنحو نفس المنحى وتسرى فيها جرثومة الفساد .

(١) كشف الأسرار ٧٠٤/٢

(٢) نفس المصدر ٢٩١/٢

ولا فائدة من شكوى البرباوية ، فإنه ليس لديهم برنامج لإصلاح
كما يبدو ، بل الدين عندهم عبارة عن آراء بدعية وأن يرضى العامة .
أما أهل الحديث والديوبندية فيمكن أن يستفيدوا كثيرا من مقال
العلامة طاشكبري زاده في الإصلاح في المستقبل . والحقيقة أن العصبية
ترادف القضاء على العلم والمعرفة . يقول :

« واعلم أن من تدبر قوله ﷺ « اختلاف أمتي رحمة (١) » وعرف
أن مبنى مسائل الفروع على الظن لا يسوغ له التحكم بين المذاهب

(١) قالت : سكوت المؤلف رحمه الله عن هذا الحديث الذي لا أصل له
يوحى بأنه صحيح ، بل ذهب بيني أفكارا معتمدة صحة الحديث .
والأمر غير ذلك .

قال الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني في السلسلة الضعيفة
والموضوعة (٧٦/١ رقم ٥٧) « ٠٠٠ » ولقد جهد المحدثون في أن
يقفوا له على سند فلم يوفقوا ، حتى قال السيوطي في «الجامع الصغير» .
« ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا » ، وهذا
بعيد عندي إذ يلزم منه أنه ضاع على الأمة بعض أحاديثه صلى الله
عليه وآله وسلم ، وهذا مما لا يليق بمسلم اعتقاده . ونقل المناوي عن
السبكي أنه قال : « وليس بمعروف عند المحدثين ، ولم أقف له على
سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع » وأقره الشيخ زكريا الأنصاري
في تعليقه على تفسير البيضاوي (٩٢/٢) ، ثم إن معنى هذا الحديث =

.....

= منكر عند المحققين من العلماء ، فقال العلامة ابن حزم في « الأحكام في أصول الأحكام » (٦٤/٥) بعد أن أشار إلى أنه ليس بحديث : وهذا من أفسد قول يكون ، لأنه لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق سخطا ، وهذا ما لا يقوله مسلم ، لأنه ليس إلا اتفاق أو اختلاف ، وليس إلا رحمة وسخط .

وبسبب هذا الحديث ونحوه ظل أكثر المسلمين بعد الأئمة الأربعة إلى اليوم مختلفين في كثير من المسائل الاعتقادية والعلمية ، ولو أنهم كانوا يرون الخلاف شر كما قال ابن مسعود وغيره رضى الله عنهم ، ودلت على ذمه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة ، لسعوا إلى الاتفاق ، ولما مكنتهم ذلك في أكثر هذه المسائل بما نصب الله تعالى عليهم من الأدلة التي يصرف بها الصواب من الخطأ ، والحق من الباطل ، ثم عذر بعضهم بعضا فيما قد يختلفون فيه ، ولكن لما إذا هذا السعي وهم يرون أن الاختلاف رحمة ، وأن المذاهب على اختلافها كشرائع متعددة !! وإن شئت أن ترى أثر هذا الاختلاف والاصرار عليه ، فانظر إلى كثير من مساجد المسلمين ، تجد فيها أربعة محاريب يصلي فيها أربعة من الأئمة ، ولكل منهم جماعة ينتظرون الصلاة مع إمامهم كأنهم أصحاب أديان مختلفة !! وإن نسينا فلا ننسى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ .

(الأستاذ علي شامي) .

ولا العصبية لواحد من المجتهدين ضد الآخر، وإنما قصارى أمر المقلد أن يعتقد صحة مذهبه، وإلا لما صح تقليده، وأن يعتقد خطأ مخالفه في موضع خلافه، وإلا لم يصح مذهبه، لا أنه يعتقد خطأ من يخالفه مطلقاً، إذ كم من مسائل اتفاقية بين الأئمة، وإذ كان مسائل الفروع ظنيات يلزم أن يكون صحة مذهبه محتمل الخطأ، وخطأ مخالفه محتمل الصحة، فلا يكون الصحة والخطأ هناك أمراً يقينياً، بل راجعاً إلى ظن المجتهد والمقلد، فينبذ لا يبقى مزيد مجال للعصبية والجدال إلا أن بعضاً من فقهاء زماننا أخذتهم الحمية لبعض المذاهب وبركب الصعب والذلول في العصبية، وهذا من سوء أخلاقهم، ولقد يوجد فيهم من يبالغ في العصبية حتى يمتنع من الصلاة خلف بعض إلى غير ذلك مما يستقبح ذكره. ويأويج هؤلاء، أين هم من الله، ولو كان الشافعي وأبو حنيفة حين أشددا النكير على هذه الطائفة وتبرءا منهم فيما يفعلون، فلعمري الله لا أحصى عدد من رأيتهم يشمر عن مساعد الاجتهاد في الانكار على شافعي يذبح ولا يسمي، أو حنفي يلبس ذكره ولا يتوضأ، أو مالكي يصلي ولا يبسم، أو حنبلي يقدم الجمعة على الزوال، وهو يرى من العوام ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى يتركون الصلاة، بل يرى كثيراً من أهل بيته يتركونها وهو ساكت عنهم. مع أن جزاء من تركها عند الشافعية ومالك وأحمد ضرب العنق، فيا لله والمسلمين، أهذا فقيه على الحقيقة، قبح الله مثل هذا الفقيه.

ثم ما بالكم تنكرون مثل هذه الفروع ، ولا تنكرون المكوس والمحرمات المجمع عليها ، ولا تأخذكم الغيرة لله تعالى فيها ، وإنما تأخذكم الغيرة للشافعى وأبي حنيفة حتى يودى ذلك إلى افتراق كلمتكم وتسلب الجهال عليكم وسقوط هيبته عند العامة وقول السفهاء فى أعراضكم ما لا ينبغى فيها كون كلامهم فيكم . لأن لحومكم مسمومة على كل حال لأنكم علماء وإنما تهلكون أنفسكم بما تركبونه من العظائم ، تاب الله عليكم وأرشدكم طريق الإصلاح والفلاح بجرمة العلم الذى منجه الله إياكم وجرمة العلماء^(١) الذين أخذتموه منهم ، عصمنا الله وإياكم عن التعصب فى الدين^(٢) .

(١) قلت : وقع طاش كبرى زاده فى توسل بدعى غير مشروع ، حيث توسل بجرمة العلم والعلماء ، وهذا توسل لم يرد فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » رواه مسلم . والإمام أبو حنيفة وصاحبيه رحمهم الله يقولون : « يكره أن يقول الرجل : أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام ونحو ذلك ، إذ ليس لأحد على الله حق » .
(الأستاذ على شامى)

فانظروا كيف نبه العلامة طاشكبرى زاده علماء عصره المتعصبين بأسلوب موجه ، وكره ترك الاقتداء والاشتراط فيه ! واسمعوا الآن إلا طاهر آخر رزقه الله فكرا صافيا فنظر إلى مصالح الشريعة مع احترام الأئمة ، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، الذي يعرفه الجميع في الأوساط العلمية .

سئل هل يقلد الشافعي حنفيا ، وعكس ذلك في الصلاة الوترية ، وفي جمع المطر ، أم لا ؟

فأجاب : الحمد لله . نعم ! يجوز للحنفي وغيره أن يقلد من يجوز الجمع من المطر ، لاسيما وهذا مذهب جمهور العلماء : كمالك والشافعي وأحمد . وقد كان عبد الله بن عمر يجمع مع ولاية الأمور بالمدينة إذا جمعوا في المطر . وليس على أحد من الناس أن يقلد رجلا بعينه في كل ما يأمر به ، وينهى عنه ، ويستحبه إلا رسول الله ﷺ ، وما زال المسلمون يستفتون علماء المسلمين فيقلدون تارة هذا ، وتارة هذا . فإذا كان المقلد يقلد في مسألة يراها أصلح في دينه ، أو القول بها أرجح ، أو نحو ذلك ، جاز هذا باتفاق جماهير علماء المسلمين ، لم يحرم ذلك لا أبو حنيفة ولا مالك ولا الشافعي ولا أحمد .

وكذلك الوتر وغيره ينبغي للأموم أن يتبع فيه إمامه ، فإن قنت معه وإن لم يقنت لم يقنت ، وإن صلى بثلاث ركعات موصولة فعل ذلك ، وإن فصل فصل أيضا . ومن الناس من يختار

لأأموم أن يصل إذا فصل إمامه ، والأول أصح ، والله أعلم^(١) .
وعلى القارى أن يتدبر ويقرر هل يساعد فى الاتحاد بين
المسلمين رأى ابن عابدين والطحاوى أو رأى شيخ الإسلام ابن تيمية
وطاشكبرى زاده ؟

ويرى المعتزلة أن الرسول لا يستحق الاجتهاد ، ويوافقهم على
ذلك الأشاعرة وبعض المتكلمين ، وذهب عامة الأصوايين إلى أن
الرسول يستطيع أن يجتهد وقت الحاجة ، وله أن يعمل بالوحي
والاجتهاد كليهما : وهو منقول عن أبى يوسف من أصحابنا ، وهو مذهب
مالك والشافعى وعامة أهل الحديث^(٢) . وليلاحظ أن ذكر أهل الحديث
قد ورد هنا مع ذكر المذاهب الأربعة ضمن علماء الأصول .

ويطعن على أهل الحديث عند ذكر حجية الحديث المرسل بأنهم
لا يقولون بحجيته : وفى رد المرسل تعطيل كثير من السنن فإن المراسيل
جمعت فبلغت قريبا من خمسين جزءا ، وهذا تشنيع عليهم ، فإنهم سمو
أنفسهم أصحاب الحديث وانتصبوا أنفسهم لحيازة الأحاديث^(٣) .

ولأهل الحديث هنا أيضا وضع مستقل . أما موضوع حجية
المرسل فأمر آخر ، فالمرسل الذى يقولون بحجيته ليس حديثا فى الأصل ،

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٨١/٢٣ - ٣٨٢

(٢) كشف الأسرار ٩٢٥/٣

(٣) أيضا ٧٢٥/٣

فرفضه لا يعنى رفض الحديث . فافهم .

ويقول العلامة ابن عابدين فى رد المحتار عند تناوله موضوع ياء النسبة فى كلمة « الحنفى » : إن النسبة إلى مذهب أبى حنيفة وإلى القبيلة — وهم بنو حنيفة — بالفظ واحد ، وإن جماعة من أهل الحديث منهم أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى ، يفرقون بينهما بزيادة ياء فى النسبة إلى المذهب^(١) . ورأى المقدسى هنا أخذ كمتخصص فى اللغة .

ويقول عند ذكر اعراب كلمة « أكبر » فى الأذان والإقامة : وثانيها مخالفة لما فسرهُ أهل الحديث والفقهاء^(٢) .

ولو وقف أحد شيئاً على أهل الحديث يدخل فيه الشافعى إذا كان طالباً للحديث ، أما الحنفى فيدخل فيه دائماً ، يدرس الحديث أم لا : (لتسلم رؤوس الأحبة حتى تتمكن من الطعن^(٣))

ويقول لدى ذكر خلاف العلماء فى الخوارج : ذكر فى فتح القدير أن الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ويكفرون الصحابة حكمهم عند جمهور الفقهاء وأهل الحديث حكم البغاة ، ومذهب بعض

(١) رد المحتار ١٦/١

(٢) أيضاً ٦٦٥/٣

(٣) ترجمة شطر البيت الفارسي الذى نصه :

سر دوستان سلامت كه تو خنجر آزمائی

أهل الحديث إلى أنهم مرتدون ، قال ابن المنذر: ولا أعلم أحدا وافق أهل الحديث على تكفيرهم^(١).

وورد ذكر هؤلاء الفقراء (أهل الحديث) هنا أيضا مع جمهور الفقهاء كمدرسة فكرية مستقلة. وفي نفس الصفحة يذكر رأي المحدثين المؤيد لمذهبه في أهل الأهواء فيقول: وكذا نص المحدثون على قبول رواية أهل الهواء^(٢). ويقول في موضع آخر: حكي أن رجلا من أصحاب أبي حنيفة خطب إلى رجل من أصحاب الحديث ابنته عهد أبي بكر الجوزجاني فأبى إلا أن يترك مذهبه فيقرأ خلف الإمام ويرفع يديه.

ويقول الشيخ الجوزجاني «إن النكاح قد صح، ولكن المظنون أن إيمانه يذهب عند النزاع. ولو ترك مذهبه واختار مذهب أهل الحديث بناء على الأدلة فلا بأس به بل يستحسن». وبهذا تعين كون أهل الحديث مدرسة فكرية. وإذا استحسن الجوزجاني اختيار مذهب أهل الحديث بناء على الأدلة فلا معنى لسخط أهل ديوبند على أهل الحديث.

ويتكلم «بحر العلوم» عن شهادة عثمان وظلمه وأن أحدا من

(١) رد المحتار ٤٥٣/١

(٢) نفس المصدر ٤٥٣/٣

الصحابة لم يشترك في هذه المأساة ذاكرا مشاجرات الصحابة، أثناء بحث التعارض بين الجرح والتعديل في شرح مسلم الثبوت : ولم يكن فيهم واحد من الصحابة كما صرح به غير واحد من أهل الحديث^(١).

وهنا وضح الموقف التاريخي لأهل الحديث وبين أن رأيهم في مشاجرات الصحابة يصل إلى القطعية .

وقد ذكر العلامة عبد العزيز بن أحمد بن محمد البخارى المتوفى (٤٨١ هـ) مؤلف كتاب التحقيق في شرح الحسامي ، عبد الله بن مسعود في تعيين العبادلة ثم يقول بعد ذلك : وعند المحدثين عبد الله ابن الزبير مقام عبد الله بن مسعود^(٢).

وهنا ورد ذكر المحدثين إزاء الفقهاء ، وهذا يدل على أن للمحدثين منزلتهم ورأيهم في تعيين الرجال .

وهذا المؤلف نفسه يذكر إذن الاجتهاد للرسول فيقول مثل شارح البزدوى : هو منقول عن أبي يوسف من أصحابنا ، وهو مذهب مالك والشافعي وعامة أهل الحديث^(٣).

(١) فوائخ الرحموت ص ٤٤٢

(٢) كتاب التحقيق ص ١٦٣

(٣) أيضا ص ٢٠٠

رأى المؤرخين والمتكلمين:

يعد ابن خلدون مؤرخاً ناقداً في عصره ، فهو قد نظف فن التاريخ من وحول القصص والأساطير ومنحه حياة جديدة وأرشد إلى أساليب النقد . وهو يقول في مقدمته عند ذكر الفقه : وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين ، طريقة أهل الرأي والقياس ، وهم أهل العراق . وطريقة أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز . وكان الحديث قليلاً في العراق لما قدمنا ، فاستكثرنا من القياس ومهروا فيه ، فلذلك قيل لهم أهل الرأي . ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة^(١).

وينقل الحاج خليفة عن كتاب ميزان الأصول للإمام علاء الدين الحنفى عند ذكر أصول الفقه : وأكثر التصانيف في أصول الفقه لأهل الاعتزال المخالفين لنا في الأصول ، ولأهل الحديث المخالفين لنا في الفروع ، ولا اعتماد على تصانيفهم^(٢).

وقد أورد النواب صديق حسن خان في أيجد العلوم عبارة كشف الظنون هذه وذكر فقه العراق وفقه الحديث ، ثم علق بالايجاز على التقليد والعمل بالحديث ، وألقى ضوءاً على انتشار مذاهب الأئمة

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٩

(٢) كشف الظنون ٢ / ٨٩

وانحياز كتب الطبقات ، فؤلفوها يعدون أصحاب التراجم ضمن جماعتهم بأدنى صلة وتوافق . وكذا ذكر الأقطار والبلدان التي انتشرت فيها هذه المذاهب وكيف تنوسيت فيها مؤلفات أهل الحق ، يقول : فلم يبق إلا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز^(١).

وقال تقي الدين أحمد بن علي المقریزی (م - ٨٥٤ هـ) : إن الملك الظاهر بيبرس البندقداری قد أسس المدرسة الظاهرية عام (٦٦٢ هـ) ووقف عليها أملاكا طائلة ، وقد بنى فيها زوايا عديدة لتدريس المذاهب المختلفة ، وهي كما يأتي : وجلس أهل الدروس كل طائفة في إيوان منها ، الشافعية بالإيوان القبلي ، ومدرسهم تقي الدين محمد ابن حسن بن رزين الحموي . والحنفية بالإيوان البحري ، ومدرسهم الصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحلبي . وأهل الحديث بالإيوان الشرقي ، ومدرسهم الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي^(٢).

وهذا عن القرن السابع ، وفيه نرى أن لأهل الحديث إيوانا مستقلا في المدرسة الملكية .

وقال المقریزی إن هذه المدرسة توجد إلى الآن ، ولكنها قد تدارست قليلا ، ويجرى الصراع بين الحنفية والشافعية حول نظارتها.

(١) أبعاد العلوم ٥٦٥/٢ - ٥٦٦

(٢) المواعظ والاعتبار للمقریزی ٢٧١/٢

ثم يتكلم عن مذاهب أهل مصر وعن تغييرات أصحاب المذاهب وأسبابها فيقول: «وكانت أفريقية الغالب عليها السنن والآثار، إلى أن قدم عبد الله بن فروج أبو محمد الفارسي بمذهب أبي حنيفة^(١)».

ويقول المقرئى عن انتشار مذهب مالك في إفريقيا: «وصار القضاء في أصحاب سخنون دولا يتصاولون على الدنيا تصاول الفحول على الشول^(٢)».

ويقول بعد ذلك عن انتشار المذهب الحنفى إنه مدين للقاضى أبى يوسف. وأما أهل الحديث فكيف يفوزون في هذه المعركة إذا لم يتقبلوا حماية حكومة؟

والشعرانى يحترم جميع أئمة السنة، ويتوسع في إبداء تكريمه لهم، لأنه ينقل عن الإمام الشافعى في الميزان الكبرى:

«كان رضى الله عنه يقول: أهل الحديث في كل زمان كالصحابة في زمانهم، وإذا رأيت صاحب حديث فكأنى رأيت أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان يقول: إياكم والأخذ بالحديث الذى أتاكم من بلاد أهل الراى إلا بعد التفتيش^(٣)».

(١) المواعظ والاعتبار للمقرئى ١/١٤٤

(٢) نفس المصدر

(٣) الميزان ص ٦٥

وقال أبو بكر بن عياش : « أهل الحديث في الإسلام كالأهل في سائر الأديان ^(١) » .

وقال أبو العباس بن شريح : « أهل الحديث أعظم درجة من الفقهاء ^(٢) » .

والإمام أبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي كتاب جامع للأديان والفرق المختلفة ، يقول فيه عن مذاهب أهل السنة المختلفة : « والصنف الثاني منهم أئمة الفقه من فريق الرأي والحديث من الذين اعتقدوا في أصول الدين مذاهب الصفاتية في الله وصفاته الأزلية ^(٣) » .

وفيه يقول عن أهل التصوف :

« كلامهم في طريق العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث ، دون من يشتري لهو الحديث » .

وكذا ورد ذكر هذين الفريقين في الصفحات : ٧ ، ١١٤ ، ٣٠٢ ،

٣١٣ ، ٣١٤ ، وقد ورد ذكر أهل الحديث في مواضع عديدة من هذا الكتاب ، حينما كروا الحديث وآخر كأصحاب مدرسة فكرية :

خذنا جنب هرشي أوقفها فإنه كلا جانبي هرشي لمن طريق

(١) الميزان ص ٦٣

(٢) نفس المصدر ص ٥٤

(٣) الفرق بين الفرق ص ٣٠٠

وكان أهل الحديث يقومون بأعمال الدين دون أن يؤسسوا فرقة أو يدعوا إلى طائفة أو يغلوا في حب رجالهم أو يخطوا من شأن الآخرين . كانوا ينظرون إلى الدلائل بدل الأشخاص ، ويهتمون بتحقيق المسائل دون النقد الذاتى .

يقول الإمام أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى (م - ٣٣٠هـ) في مقالات الإسلاميين : « جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ ، لا يردون من ذلك شيئا ، وأن الله سبحانه واحد صمد لا إله غيره (١) » .

وبعد ذلك بين عقائد أهل الحديث في عدة صفحات . ووضعهم في هذا البيان مقابل المعتزلة وغيرها من الفرق الضالة ، مما يدل على أن أهل الحديث بازاء أئمة الاعتزال والمتكلمين .

وذكر ابن النديم فقهاء المحدثين وأصحاب الحديث بعد ذكر علماء العراق وأئمة الشوافع والموالك والإمام داود الظاهري وفقهاء الشيعة بأسهاب . وكلامه عن فقهاء الحديث يستغرق نحو ٦٤ صفحة ، ورد فيها ذكر الإمام البخارى ، وسفيان الثورى ، وابن أبى ذئب ، وسفيان بن عيينة ، وابن أبى عروبة ، واسماعيل بن عبيد ، وعبد الله

ابن مبارك، والإمام أحمد، وعثمان بن أبي شيبة الترمذى، وعلى بن
المدنى، ويحيى بن معين، وأبوداود، ومسلم، وغيرهم من العلماء.
ومن الظاهر أن فقهاء الحديث لو لم يكونوا أصحاب مدرسة فكرية
لم يذكرهم منفصلين عن أئمة العراق وغيرهم تحت عنوان مستقل، والحال
أنه يوجد الإمام أبو جعفر الطحاوى وغيره من حفاظ الحديث،
ولكن حافظ الحديث لا يلزم أن يكون أهل الحديث.

ويقول الإمام محى الدين يحيى بن شرف النووى فى شرحه
لصحيح مسلم: «إن الواجب ضربة للوجه والكفين، وهو مذهب
عطاء ومكحول والأوزاعى وأحمد وإسحاق وابن المنذر وعامة أصحاب
الحديث^(١)».

ويرى فى طلاق الحائض أنه ينبغى أن يرجع المطلق، ثم يقول:
«هذا مذهبنا، وبه قال الأوزاعى وأبو حنيفة وسائر الكوفيين وأحمد
وفقهاء المحدثين وآخرون^(٢)».

ويقول الذهبى فى ترجمة أبى محمد الفضل بن محمد: «ولقد كان فى
هذا العصر (٢٨٢هـ) وما قاربه من أئمة الحديث النبوى خلق كثير،
وما ذكرنا عشرهم، وأكثرهم مذكورون فى تاريخى، وكذلك كان فى
هذا الوقت خلق من أئمة أهل رأى والفروع وعدد من أساطين

(١) صحيح مسلم مع شرح النووى ١٦٠/١

(٢) نفس المصدر ٤٧٥/١

المعتزلة والشيعة وأصحاب الكلام الذين مشوا وراء العقول وأعرضوا عما عليه السلف من التمسك بالآثار النبوية، وظهر في الفقهاء التقليدي وتناقض الاجتهاد^(١).

ويقول في نهاية هذه الشذرة:

«فإني أحسبك لفرط هواك تقول بلسان الحال إن أعوزك المقال: من أحمد وما ابن المديني، وأى شيء أبو زرعة وابوداود؟ هؤلاء محدثون، ولا يدرون ما الفقه وما أصوله، ولا يفقهون الرأي، ولا علم لهم بالبيان والمعاني والدقائق، ولا خبرة لهم بالبرهان والمنطق، ولا يعرفون الله تعالى بالدليل، ولا هم من فقهاء الملة. فاسكت بحلم أو انطق بعلم، فالعلم النافع هو ما جاء عن أمثال هؤلاء^(٢)».

وقد ذكر في هذا الموضع أئمة الحديث مقابل الفقهاء المجتهدين، ووصف تفقههم وعلمهم بالحق ثم قال إن التقليد والاجتهاد المتناقض ينتشران في المستقبل ويتطرق الناس إلى الطعن على العلوم الحقّة وأهل الفن.

وذكر في ترجمة بقي بن مخلد: «وقد تعصبوا على بقي لإظهاره مذهب أهل الأثر، فدفع عنه أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن

(١) تذكرة الحفاظ ١٨٢/٢

(٢) أيضا ١٨٣/٢

المرواني ، واستنسخ كتبه ، وقال لبقى : انشر عليك^(١) .

وقال فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى : « كان ورعا ثقة إماما فى الحديث وعلمه ورواته ، متحققا فى علم التحقيق والأصول على مذهب أصحاب الحديث بمرافقة الكتاب والسنة^(٢) » .

ويقول الإمام النووى فى شرح باب المساقاة من صحيح مسلم : « وبه قال مالك والثورى والليث والشافعى وأحمد وجميع فقهاء المحدثين^(٣) » .

وذكر فى نفس الصفحة : « وقال ابن أبى ليلى وأبو يوسف ومحمد وسائر الكوفيين وفقهاء المحدثين وأحمد وابن خزيمة » .

ويقول فى أبواب الشفعة : « وقال الحكم والثورى وأبو عبيدة وطائفة من أهل الحديث : ليس له الأخذ^(٤) » .

ويقول فى وضع الخشب على جدار الجار : « والثانى الإيجاب ، وبه قال أحمد وأبو ثور وأصحاب الحديث^(٥) » .

وفى جميع هذه المواضع ورد ذكر أهل الحديث كمدرسة فكرية .

(١) تذكرة الحفاظ ٢٠٤/٢

(٢) أيضا ١٨/٤

(٣) صحيح مسلم ٣٢/٢

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر .

وذكر الحافظ ابن حجر جواز ضربة واحدة للوجه والكفين في التيمم فقال: وإليه ذهب أحمد وإسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن خزيمة، ونقله أبو الجهم وغيره عن مالك، ونقله الخطابي عن أصحاب الحديث^(١).

وقد ذكر الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات والإمام الشافعي بأسلوب أخاذ في صفحات عديدة، وذكر فيه قول الإمام محمد بن الحسن، قال محمد بن الحسن رحمه الله: إن تكلم أصحاب الحديث يوما فبلسان الشافعي^(٢).

ويقول الحسن بن محمد الزعفراني: «كان أصحاب الحديث رقودا فأيقظهم الشافعي»^(٣).

وورد في ذكر الإمام أحمد: فهذا قول إمام أصحاب الحديث وأهله^(٤).

وهذه التصريحات تدل على أن أهل الحديث كانوا قبل الإمام أحمد والشافعي ومحمد. وهؤلاء الأئمة أيضا كانوا أهل الحديث،

(١) فتح الباري ١/٣٠٤

(٢) نفس المصدر ١/٥٠

(٣) فتح الباري ١/٥٠

(٤) نفس المصدر

وأفادوا بعلومهم أهل الحديث . وقال في موضع: لقب تلاميذ الإمام الشافعي بأهل الحديث عند عامة العلماء وفقهاء خراسان .

عصر التقليد والجمود :

إن معرفة تاريخ التقليد والجمود في القرون الثلاثة عشر الماضية ، والوصول إلى رأى صحيح قطعى فيهما ، واستعراض ما طرأ عليهما من التطور والتقلص ، كل ذلك يحتاج إلى دراسة عميقة شاملة . وإذا نظرنا إلى تصريحات الأئمة وإلى تاريخ نهضة الفرق وانحطاطها وإلى كتب الفرق والأديان المختلفة علمنا أن جميع العلماء في قرون الخير لم يكونوا مجتهدين ، نعم كان عدد كبير منهم متمتعاً بمنزلة الاجتهاد ، وبجانب هؤلاء كان كثير من العلماء الذين لم يبلغوا إلى درجة الاجتهاد ، ولكنهم كانوا يعرفون المسائل ودلائلها حسب الحاجة ، ثم إن الله منحهم نعمة التفقه بجانب حفظ الأحاديث . أما عدد العامة الذين لم يستطيعوا الاشتغال بالعلم بسبب المشاغل الدنيوية فكان كبيراً أيضاً ، وكان هؤلاء يرجعون إلى أفضل علمائهم وقت الحاجة ، فإن العامى ليس مكلفاً بأن يبحث عن مجتهد للاستفتاء ، فلو أمكنه ذلك لم يحتاج إلى أن يسأل أحداً . والناس كانوا يسألون من يحسبونه عالماً بدون أن يختبروا الاجتهاد أو يحددوا المجتهد ، بل ما عرفوا انقسام التقليد إلى الشخصى وغيره . وكانوا يسألون من يروونه مشغلاً

بتدريس الكتاب والسنة ، فلو اطمأنوا بالفطرة الدينية عملوا وإلا رجعوا إلى عالم آخر بدون شرط الاجتهاد وتحديد العالم . وهذه طريقة مألوفة طبيعية اتبعوها فتجنبوا الافتراق والطائفية ، وإلى هذا أشار الشاه ولي الله فقال : « اعلم أن الناس كان قبل المائة الرابعة غير مجمعين على التقاليد الخالص لمذهب واحد بعينه^(١) . وينقل بعد ذلك عن قوت القلوب لأبي طالب المكي^(٢) : « إن الكتب والمجموعات محدثة » .

وبعد ذلك يقول الشاه ولي الله : « وبعد القرنين حدث فيهم شيء من التخريج ، غير أن أهل المائة الرابعة لم يكونوا مجتمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله ، كما يظن من التبعية ، بل كان فيهم العلماء والعامة ، وكان من خبر العامة أنهم كانوا في المسائل الاجماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع ، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل والصلاة والزكاة ونحو ذلك من آباءهم أو معلمي بلدانهم فيمشون حسب ذلك^(٣) » .

(١) حجة الله البالغة ١/١٥٢

(٢) نفس المصدر

(٣) نفس المصدر

وإذا وقعت لهم واقعة استفوتوا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب، وكان من خبر الخاصة أنه كان أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث، فيخلص إليهم من أحاديث النبي ﷺ وآثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شيء آخر في المسألة من حديث مستفيض أو صحيح قد عمل به بعض الفقهاء، ولا عذر لتارك العمل به، أو أقوال متظاهرة بجهور الصحابة والتابعين بما لا يحسن مخالفتها^(١).

وكان أثر أئمة الحديث غالباً إلى القرن الثاني، والعامّة متمسكين بمذهبهم، واختلط معه التقليد في القرنين : الثالث والرابع، ولكنه لم يكن تقليداً جامداً بل طابعه التتلمذ والتدريس، وكان فيهم احترام لا عصبية، وبدأ العلم ينقص، والعامّة يتكاسلون من حفظ الحديث وضبطه، والعمل بأراء الأئمة الكبار واجتهادهم يزداد يوماً بعد يوم، إلى أن عم التقليد في أواخر القرن الرابع فظهرت آثار الجمود والتعصب. وهكذا صور الأمر كل من تناول هذا الموضوع من ابن حزم وابن القيم وأبي طالب المكي وأبي شامة مؤلف المؤمل والشاه ولي الله، رحمهم الله تعالى.

وادرسوا المختصر ومعاني الآثار للإمام أبي جعفر الطحاوي (م - ٣٢١ هـ) يعترض عليه الإمام ابن تيمية على منهجه فإنه يدافع

(١) حجة الله البالغة ١/١٥٣

عن الحنفية دفاعا غير سليم، ولذلك يوده أئمة الحديث متعصبا، وكان البيهقي ألف السنن الكبرى ردا عليه. ولكن مع ذلك يتضح من دراسة الكتابين للإمام الطحاوى أن صنيعه يختلف تماما عن صنيع ديوبند اليوم، فإنه يخالف الإمام أبا حنيفة صريحا، ويختار قول صاحبين حينما وقول أحدهما حينما آخر، ويتفق مع الشافعى فى بعض المواضع، فالإمام وصاحبه يحرمون الضب، ولكن الإمام الطحاوى يقول: «ونحن لا نرى بأكله بأسا»^(١). وكذا يستحل بول الأبل، والفرس^(٢). وهذا صنيع إمام عاش فى القرن الرابع ووصف بالتعصب، فليُنظر أهل ديوبند اليوم أين يذهبون؟

والحاصل أن سحاب الجمود والعصبية قد ازداد تكاثفا فى القرنين: الخامس والسادس، وقل أهل التحقيق قلة ملبوسة، وصار مناط العلم على التدقيق الفقهى والألقاب الظاهرة. وقد استمر هذا الوضع فى الازدياد إلى القرن الثامن. يقول الشيخ عبد الحى اللكنوى عن استعمال لقب «شيخ الإسلام»، نقلا عن السخاوى: «ثم اشتهر بها جماعة من علماء السلف حتى ابتذلت على رأس المائة الثامنة فوصف بها من لا يحصى، وصار لقباً لمن ولى القضاء الأكبر، ولو عرى من العلم والسن، فأنا لله وإنا إليه راجعون».

(١) مختصر الطحاوى ٤٤١

(٢) أيضا ٤٣٤

وهذا رأى السخاوى، ويقول الشيخ عبد الحى: «ثم صارت الآن لقباً لمن تولى منصب الفتوى وإن عرى عن لباس العلم والتقوى^(١)». وبالجمله انتشر الجمود وساد فى القرن الثامن، وكان أهل الحق موجودين حينذاك، ولكن لم يسمع صوتهم ولم تقدر جهودهم، إلى أن أحرق بعض كتبهم أو منع الناس من قراءتها. وهم ضربوا وأوذوا إيذاء شديداً وسجنوا. وفى نفس القرن ظهرت جهود ضد الجمود السائد، وزلزل بعض المجددين الحكومة مع أصحاب الجمود الذين كانوا يمانئون بها بناء على المصالح السياسية وقد أحدث شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن القيم والعلامة ابن دقيق العيد رحمهم الله ثورة ضد الجمود ووجهوا الناس إلى خطة الإصلاح العامة، لأنهم كشفوا عن مذهب أهل الحديث ودلوا الناس على طريقة أئمة الحديث والفقهاء المحدثين. فإنهم قد ذكروا مذهب أهل الحديث فى كتبهم مرة بعد أخرى.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة: «ومن أهل السنة مذهب معروف قبل أن يخلق الله أباً حنيفة ومالكا والشافعى وأحمد، فإنه مذهب الصحابة تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان

(١) الفوائد البهية ص ١٠١

مبتدعا عند أهل السنة والجماعة^(١).

ويقول في بيان أفعال الباري: «وهذا جواب كثير من الحنفية والحنبلية والصوفية وأهل الحديث^(٢)».

ويقول بعد سطور: «إن أهل الحديث من أعظم الناس بحثا عن أقوال النبي ﷺ وطلبا لعلها وأرغب الناس في اتباعها^(٣)».

«فهم (أهل الحديث) في أهل الإسلام كأهل الإسلام في الملل، يؤمنون بكل رسول وبكل كتاب، لا يفرقون بين أحد من رسل الله، ولم يكونوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا^(٤)».

ويقول في موضع آخر: «وأما أهل الحديث والسنة والجماعة فقد اختصموا باتباع الكتاب والسنة الثابتة عن نبيهم ﷺ في الأصول والفروع^(٥)».

وذكر بعد ذلك اختلافات الفرق المختلفة ثم قال: «ثم بعد ذلك اختلاف أهل الحديث، وهم أقل الطوائف اختلافا في أصولهم^(٦)».

(١) منهاج السنة ٢/٢٥٢

(٢) أيضا ٢/١٧٩

(٣) نفس المصدر

(٤) نقض المنطق ٢/٧٩

(٥) أيضا ٢/١٠٣

(٦) أيضا ٢/٢١١

وهنا ورد ذكر أهل الحديث ضمن علماء العقائد بأن الاختلاف فيهم قليل جدا .

ويقول شيخ الإسلام موضحا الموضوع أكثر: «فليس الضلال والبغى في طائفة من طوائف الأمة أكثر منه في الرافضة، كما أن الهدى والرشاد والرحمة ليس في طائفة من طوائف الأمة أكثر منه في أهل الحديث^(١)» .

ويتكرر ذكر أهل الحديث في منهاج السنة في موضع وآخر بحيث يقف عليه الانسان لدى النظرة العابرة، ولكن إمعان النظر يدل على أن الكتاب كله مملوء بذكر أهل الحديث الطيب . وقد بدأ شيخ الإسلام رسالته «نقض المنطق» بالسؤال الآتي، والكتاب عبارة عن الرد عليه :

سؤال : ما قولكم في مذهب السلف في الاعتقاد، ومذهب غيرهم من المتأخرين ؟ ما الصواب منهما ؟ وما تنتحلونه أنتم من المذهبين ؟ وفي أهل الحديث : هل هم أولى بالصواب من غيرهم ؟ وهل هم المرادون بالفرقة الناجية ؟ وهل حدث بعدهم عالم جهلوا وعلمها غيرهم ؟ وهل من قال إن المنطق فرض كفاية ، مصيب أم مخطيء ؟

والكتاب يستغرق ٢١١ صفحة ، يجيب على الأسئلة المذكورة .

وقد ذكر شيخ الإسلام فى البداية مذهب تفويض الكيفية فى صفات الله تعالى ونفى التشبيه والتجسيم والتعطيل ، وأكد أن مذهب الأئمة الأربعة وأهل السنة فى هذا الباب هو المنسوب إلى أهل الحديث ، وطريق الاعتزال والتجهم والتعطيل والتشبيه والتجسيم بدعة . والفلاسفة والمتكلمون يحتج عليهم بالعقل والنقل ، والجماعة التى تصدت للرد على بدعهم هى أهل الحديث .

عزونا

وذكر بعد ذلك : « وثبت عن اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني (م - ٤٤٩ هـ) أنه قال : إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة يعرفون ربهم - تبارك وتعالى - بصفاته التى نطق بها كتابه وتنزيله ، وشهد له بها رسوله ، على ما وردت به الأخبار الصحاح ، ونقله العدول الثقات . ولا يعتقدون تشبيهها لصفاته بصفات خلقه ، ولا يكييفونها تكيف المشبه ، ولا يحرفون الكلام عن مواضعه تحريف المعتزلة والجهمية^(١) . »

وفى نفس الكتاب يقول فى موضع آخر : « من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحاون به من صفات الكمال ، ويمتازون عنهم بما ليس عندهم . فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقا أخرى ، مثل المعقول ، والقياس ، والرأى ،

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥/٤

والكلام ، والنظر ، والاستدلال ، والمحاجة ، والمجادلة ، والمكاشفة ،
والمخاطبة ، والوجد ، والذوق ، ونحو ذلك . وكل هذه الطرق لأهل
الحديث صفوتها وخلاصتها^(١) .

ثم يقول في النهاية : « وهذا هو للسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم ،
ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل^(٢) » .

ثم قال في صفحة (٦-١١) : وكذلك الشافعي واستحق وغيرهما
إنما نبأوا في الإسلام باتباع أهل الحديث والسنة . وكذلك البخاري
وأمثاله إنما نبأوا بذلك ، وكذلك مالك والأوزاعي والثوري
وأبو حنيفة وغيرهم ، إنما نبأوا في عموم الأمة وقبل قولهم لما وافقوا
فيه الحديث والسنة ، وما تكلم فيمن تكلم فيه منهم إلا بسبب المواضع
التي لم يتفق له متابعتها من الحديث والسنة^(٣) .

وكذلك حال الفرق البدعية ، فإنما يحمدون بما وافقوا فيه
مذهب أهل السنة والحديث ، « وكذلك ما يذم من يذم من المنحرفين
عن السنة والشريعة وطاعة الله ورسوله إلا بمخالفة ذلك^(٤) » . ومعنى

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩ / ٤

(٢) أيضا ١٠ / ٤

(٣) أيضا ١١ / ٤

(٤) أيضا ١٤ / ٤

ذلك أن أهل الحديث كانوا ميزان الحق والباطل في كل عصر .
ويقول شيخ الإسلام في توضيح هذا اللقب : « ونحن لا نغنى
بأهل الحديث المقتصرين على سماعه أو كتابته أو روايته ، بل نغنى بهم
كل من كان أحق بحفظه ومعرفة وفهمه ظاهرا وباطنا ، واتباعه باطنا
وظاهرا ، وكذلك أهل القرآن^(١) .

ثم يقول^(٢) : « إن علامة الزنادقة تسميتهم لأهل الحديث حشوية » .
إلى أن قال^(٣) : « فقهاء الحديث أخبر بالرسول من فقهاء غيرهم ،
وصوفيتهم أتبع للرسول من صوفية غيرهم ، وأمرأؤهم أحق بالسياسة
النبوية من غيرهم ، وعامتهم أحق بموالاة الرسول من غيرهم » .
ثم قال^(٤) : « ولهذا لما بلغ الإمام أحمد عن (أبي قتيلة) أنه
ذكر عنده أهل الحديث بمكة ، فقال : قوم سوء . فقام الإمام أحمد ،
وهو ينفض ثوبه ، ويقول : زنديق ، زنديق » .
وقال في موضع : « إن الذين يعيبون أهل الحديث ويعبدون
عن مذهبهم جهلة زنادقة منافقون بلا ريب^(٥) » .

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩٥/٤

(٢) أيضا ٨٨/٤

(٣) أيضا ٩٥/٤

(٤) أيضا ٩٦/٤

(٥) نفس المصدر

ثم قال : « والمقصود التنبيه على أن كل من زعم بلسان حاله أو مقاله أن طائفة غير أهل الحديث أدركوا من حقائق الأمور الباطنة الغيبية في أمر الخلق والبعث والمبدأ والمعاد ، وأمر الإيمان بالله واليوم الآخر ، وتعرف واجب الوجود والنفس الناطقة والعلوم ، والأخلاق التي تزكو بها النفوس وتصلح وتكمل دون أهل الحديث ، فهو — إن كان من المؤمنين بالرسول — فهو جاهل ، فيه شعبة قوية من شعب النفاق ^(١) » .

« والثاني أنا ذكرنا من نقل مذهب السلف من جميع طوائف الفقهاء الأربعة ، ومن أهل الحديث والتصوف ، وأهل الكلام كالاشعري وغيره ^(٢) » .

وهكذا ذكر في الكتاب كله مذهب أهل الحديث بنفس الأسلوب مما يدل على أن هذه مدرسة فكرية قديمة ، ولها أعمال تحقيقية جديرة بالتقدير والاحترام ، في فنون الفقه ، والتصوف ، والحديث ، وأصوله ، وأصول الفقه ، والكلام ، والتجويد .

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤٠/٤

(٢) أيضا ١٥٢/٢١

القواعد النورانية :

قد ذكر شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله (م - ٧٢٨ هـ) في «نقض المنطق» المسائل المختلف فيها بأسلوب كلامى ، وفي الفروع الفقهية له كتاب «القواعد النورانية» وقد ذكر فيه الشيخ المسائل الخلافية للذاهب الفقهية ، وحقق القول في فقه المحدثين . وقد ورد بهذا الصدد ذكر أهل الحديث كمدرسة فكرية مرة بعد أخرى . وفي بداية الكتاب ذكر الآراء الفقهية لأهل الحجاز ، وهناك أيضا ورد ذكر أهل الحديث ، ويقول في أهل المدينة :

« فإن أهل المدينة - مالا وغيره - يحرمون من الأشربة كل مسكر ، كما صحت بذلك النصوص من النبي ﷺ من وجوه متعددة ، وليسوا في الأطعمة كذلك ، بل الغالب عليهم فيها عدم التحريم ، فيبيحون الطيور مطلقا وإن كانت من ذات الخالب ، ويكرهون كل ذى ناب من السباع ، وفي تحريمها عن مالك روايتان . وكذلك في الحشرات عنه ، هل هي محرمة أو مكروهة ، روايتان .

« وأهل الكوفة في باب الأشربة مخالفون لأهل المدينة ولسائر الناس ، ليست الخمر عندهم إلا من العنب ، ولا يحرمون القليل من المسكر . وهم في الأطعمة في غاية التحريم ، حتى حرموا الخيل والضباب^(١) .

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/٢١

ويقول شيخ الإسلام عن أهل الحديث: «ومذهب أهل الحديث في هذا الأصل العظيم الجامع وسط بين مذهب العراقيين والحجازيين»^(١). وفيه يقول: «فأخذ أهل الحديث في الأشربة بقول أهل المدينة وسائر أهل الأمصار، موافقة للسنة المستفيضة عن النبي ﷺ وأصحابه في التحريم».

وفصل ذلك في سطور ثم قال: «وأخذوا في الأطعمة بقول أهل الكوفة، لصحة السنن عن النبي ﷺ بتحريم كل ذى ناب من السباع، وكل ذى مخلب من الطير، وتحريم لحوم الجمر»^(٢).

فالقُرآن والسنة سواء عندهم في هذا الموضوع، قال في النهاية: «لكن لم يوافق أهل الحديث الكوفيين على جميع ما حرموه، بل أحلوا الخيل لصحة السنن عن النبي ﷺ بتحليلها يوم خيبر. وأحلوا الضب لصحة السنن عن النبي ﷺ بأنه قال «لا أحرمه». فنقصوا عما حرمه أهل الكوفة من الأطعمة، كما زادوا على أهل المدينة في الأشربة، لأن النصوص الدالة على تحريم الأشربة المسكرة أكثر من النصوص الدالة على تحريم الأطعمة»^(٣).

ثم بحث الشيخ مذهب أهل الحديث مفصلاً في المسائل المذكورة،

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/٢١

(٢) أيضاً ٨/٢١

(٣) أيضاً ص ٩

وتركناه نظرا للإيجاز ، فإن المقال قد طال ، ومن أراد التفصيل فعليه مراجعة القواعد النورانية في صفحات ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣^(١) .

فشيخ الإسلام ذكر أهل الحديث وفقهاء أهل الحديث هنا وهناك كمدرسة فكرية كما ذكر المدارس الأخرى .

وذكر الحافظ جلال الدين السيوطي أهل الحديث بما يأتي :
« فهم حملة علمه ونقله دينه وسفرته بينه وبين أمته وأمنائه في تبليغ الوحي منه ، فخرى أن يكونوا أولى الناس به في حياته ووفاته ، وكل طائفة من الأمم مرجعها إليهم في صحة حديثه وسقيمه ، ومعولها عليهم فيما يختلفون في أمره ، ثم كل من اعتقد مذهباً فإلى صاحب مقالاته التي أخذ بها ينتسب ، وإلى رأيه ينتسب أصحاب الحديث ، فإن صاحب مقالاتهم رسول الله ﷺ ، فهم إليه ينتسبون ، وإلى علمه يفتزعون ، وبرأيه يقتدون ، وبذلك يفتخرون ، انتسابهم إلى القرآن فإنه أحسن الحديث ، وإلى الحديث فإنهم حفظته وحملته^(٢) » .

وبعد ذلك يقول : « فهى الطائفة المنصورة والفرقة الناجية والعصبة الهادية والجماعة العادلة المتمسكة بالسنة التى لا تريد برسول الله

(١) وهى فى المجلد الحادى والعشرين من مجموع فتاوى ابن تيمية .

(٢) صون المنطق والكلام ص ١١٠

عليه السلام بديلا ، ولا لقوله تبديلا ، ولا عن سنته تحويلا^(١) .
ولخص السيوطي بهذا كتاب أصول السنة للحافظ هبة الله بن
حسن أبي القاسم اللالكاني ، وينقل كذلك عن « الانتصار لأهل
الحديث » للسمعاني (م - ٤٨٩ هـ) : « قد لهج بدم أصحاب الحديث
صنفان : أهل الكلام ، وأهل الرأي ، فهم في وقت يقصدونهم بالثلب
والعيب وينسبونهم إلى الجهل وقلة العلم^(٢) » .

وقرر في خبر الواحد بأنه يفيد العلم ثم قال : « هذا قول عامة
أهل الحديث والمتيقنين من القائمين على السنة ، وإنما هذا القول الذي
يذكر أن خبر الواحد لا يفيد العلم بحال ، ولا بد من نقله بطريق
التواتر لوقوع العلم شيء اخترعته القدرية والمعتزلة ، وكان قصدهم
منه رد الأخبار وتلقته بعض الفقهاء الذين لم يكن لهم في العلم قدم
ثابت^(٣) » .

وهذا الكتاب تلخيص لعدة كتب ، وقد ذكر فيه السيوطي
مدرسة أهل الحديث كثيرا^(٤) ، وموضوع الكتاب هو أخطاء المنطق
والكلام ، وفيه تلخيص لكتب أئمة السنة ، وورد فيه ذكر مذهب

(١) صون المنطق والكلام ص ١١١

(٢) أيضا ص ١٤٧

(٣) أيضا ص ١١٦

(٤) تراجع الصفحات ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧١

أهل الحديث في مواضع عديدة . وهذا يدل على أن فقهاء الحنفية حينما زلوا في أصول الفقه فبتأثير من المعتزلة ، فإن فقهاء العراق كانوا متأثرين في البداية بالمعتزلة ، وهم قد ألفوا بعض الكتب في أصول الفقه ، وفيها يبدو أثر الاعتزال هنا وهناك . وقد أورد في الجواهر المضيئة وفي الفوائد البهية ذكر كثير من الأحناف الذين تأثروا بالاعتزال . والمتأخرون من علماء الأصول يعتمدون عليهم في الغالب . وكتب أصول الفقه التي تدرس اليوم تحمل أثر الاعتزال ، ومن المعتزلة يتلقى الشيخ الملاحيون والعلامة نظام الدين الشاشي .

وقد ألف الحافظ ابن قتيبة الدينوري (م - ٢٧٦ هـ) كتابه « تأويل مختلف الحديث في الرد على أعداء أهل الحديث ، دفاعا عن مذهب أهل الحديث ، وفيه دافع عن الحديث وأهله كليهما ، يقول :

(ذكر أصحاب الحديث) قال أبو محمد : « فأما أصحاب الحديث فإنهم التمسوا الحق من وجهته وتبعوه من مظانه ، وتقربوا من الله تعالى باتباعهم سنن رسول الله ﷺ وطلبهم لآثاره وأخباره برا وبحرا وشرقا وغربا إلى أن قال : وعرفوا من خالفها من الفقهاء إلى الرأي ، فنبهوا على ذلك حتى نجم الحق بعد أن كان عافيا وبسق بعد أن كان دارسا ، واجتمع بعد أن كان متفرقا ، وانقاد للسنن من كان عنها معرضا ، وتنبه عليها من كان عنها غافلا ، وحكم بقول رسول الله ﷺ بعد أن كان يحكم بقول فلان وفلان ، وإن كان فيه

خلاف على رسول الله ﷺ^(١).

وقال في موضع: «وقال كل فريق منهم لأهل الحديث مثل الذى قالته القدريّة، والأسماء لا تقع غير مواقعها، ولا تلزم إلا أهلها. ويستحيل أن تكون الصياغة، هم الأساكفة، والنجار هو الحداد^(٢)». فأهل الحديث لا يصيرون حشويين أو ظاهريين بالتلقيب، فبالأسماء ماهيات تطلق عليها.

وقد عرف العلامة أبو بكر محمد بن حسن بن فورك (م - ٥٤٠٦هـ) بالملاحدة في كتابه «مشكل الحديث»، فقال: «وخصوا بتقبيح ذلك الطائفة التى هى الظاهرة بالحق لسانا وبيانا وقهرا وعلوا ومكانا، الطاهرة عقائدها من شوائب الأباطيل وشوائب البدع والأهواء الفاسدة، وهى المعروفة بأنها أصحاب الحديث^(٣)».

ثم قسمهم فى قسمين: قسم يشتغل بالأسانيد وضبط المتن. وقسم يبحث فى الأحاديث عن الأسباب والعلل والقياس والنظر. وهكذا ذكر مدرسة أهل الحديث أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (م - ٥٤٨هـ).

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٧٣-٧٤

(٢) أيضا ص ٨١

(٣) مشكل الحديث ص ٣

والحافظ ابن حزم الأندلسي الظاهري (م - ٥٤٥٦ هـ) مع كونه ظاهريا يعد نفسه من أهل الحديث ، وينتقد التقليد والجلود انتقادا شديدا ، ويقول عن الخلافات الفرعية بين علماء عصره من الموالك ، وبين الصحابة : « فأما ما اجتمعوا عليه فنحن الذين اتبعوا إجماعهم ، والله الحمد كثيرا ، وإنما خالف إجماعهم من دعى إلى تقليد انسان بعينه ، كما فعل هؤلاء في تقليد مالك دون غيره ، ولم يكن قط في الصحابة ولا في التابعين ولا في القرن الثالث واحد مما فقه فعل هذا الفعل ولا أباحه لفاعل^(١) . وللحافظ ابن حزم كتاب الأحكام ، وكتاب المحلى ، وكتاب الفصل ، وهى جميعا مملوءة بمثل ما ذكرنا .

وكان القرنان : السابع والثامن متأثرين بالأعمال التجديدية لشيخ الإسلام ابن تيمية (م - ٧٢٨ هـ) ، وكان صدى صوته يسمع فى كل من المدارس وإيوان الحكومة . فأصحاب البلاط الملكى ترتعد فرائصهم من انتقاد الشيخ ، وزوايا المتصوفة تخضع لخططه الإصلاحية ، وهكذا كانت أعمال الشيخ الإصلاحية تستوعب جميع النواحي الدينية للحياة وتؤثر فيها .

توسعت حلقة درسه وعمت جهوده فى مجال الدعوة فتوسع نطاق تلاميذه وأصحابه ، فقد استفاد من علومه الحافظ ابن قيم

الجوزية ، والحافظ جلال الدين المزي ، والحافظ الذهبي ، والحافظ
عماد الدين ابن كثير ، ومحمد بن أحمد ابن عبد الهادي المقدسي
وغيرهم من كبار الأئمة ، وهذا يؤكد أن أثر الشيخ الإمام كان باقيا
ملبوسا بعده بسنوات .

وقد اتصلت الاستفادة من علوم الشيخ ، واغترف من بحر
علومه - مباشرة أو بواسطة - كل من الأئمة ابن القيم ، والشيخ
محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (م - ٨١٧ هـ) والحافظ ابن حجر
(م - ٨٥٢ هـ) والمؤرخ أحمد بن علي المقرئ (م - ٨٤٥ هـ) . ثم
بقي هذا الأثر في تلاميذ الحافظ ابن حجر ، وظل مصباح التحقيق
منيرا ، بدون أن يسيطر الجمود ، نعم كان هناك صدام بين النظريات
والآراء نرى آثاره اليوم . فلم يكن أحد من الأئمة : السيوطي
(م - ٩١١ هـ) وعلي المتقي (م - ٩٧٥ هـ) وعبد الوهاب المتقي
(م - ١٠٠١ هـ) ، ومحمد طاهر الفتى صاحب مجمع البحار (م - ٩٨٦ هـ) ،
وأحمد بن عبد الأحد السرهندي (م - ١٠٣٤ هـ) ، وثناء الله الباني بتي
(م - ١٢٢٥ هـ) ، والميرزا مظهر جان جانان (م - ١٢١٨ هـ) ،
والفاخر الأمل آبادي (م - ١٢٦٤ هـ) ، والشاه ولي الله (م - ١١٧٦ هـ) ،
والشاه عبد العزيز (م - ١٢٣٩ هـ) ، والشاه اسماعيل (م - ١٢٤٦ هـ)
داعيا إلى التقاليد والجمود ، سوى أنهم كانوا يميلون إلى الحنفية بضغط
من البيئات التي يعيشون فيها . وكل ما نراه اليوم من الآثار المعارضة

للتقيد والجمود في شبه القارة (الهند وباكستان) فهو بفضل جهودهم وإخلاصهم ، رحمة الله عليهم . وكتابات هؤلاء الأعلام توضح الموضوع جيدا ، وهي وكذا أعمالهم ليست خافية على أهل العلم . فقد أتى الشاه ولي الله في هذا الموضوع بما لا مزيد عليه في كتبه حجة الله البالغة ، والإنصاف ، وتقد الجيد ، والخير الكثير ، والتفهميات ، والمقالة الوضیئة والانتباه ، وغيرها . ويقول في حجة الله (١) نقلا عن العز بن عبد السلام : « ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد أضعفه مدفعا ، وهو مع ذلك يقلده فيه ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جمودا على تقليد إمامه ، بل يحيل لدفع ظاهر الكتاب والسنة ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة فضلا عن مقلده . وقال : لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقييد لمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين ،

وقال في موضع آخر (٢) : « وفيمن لا يجوز أن يستفتى الحنفى مثلا فقيها شافعيًا وبالعكس ، ولا يجوز أن يقتدى الحنفى بإمام شافعي مثلا .

(١) حجة الله البالغة ١/١٥٥

(٢) نفس المصدر

فإن هذا قد خالف إجماع القرون الأولى وناقض الصحابة والتابعين .

ويقول^(١): « وكان صاحب الحديث أيضا قد ينسب إلى أحد المذاهب لكثيره موافقته له كالنسائي والبيهقي ينسبان إلى الشافعي .
وبرشد في التفهيمات إلى أن يعرض بمجموع الفقه الحنفي والشافعي على الكتاب والسنة ، فيعمل بما يوافقهما ، وتقبل المسائل المختلف فيها كروايات . ونرى أن الشاه ولي الله يميل على الأغلب في الفروع العمالية إلى الشوافع ، ويرجح مذهبهم في التأمين بالجمهر ورفع اليدين وزيارة القبور وقراءة الفاتحة وغيرها . وقد أثنى على الإمام الشافعي بصورة عجيبة في الخير الكثير : « أما المتعمقون في الرأي فليسوا من أهل السنة في شيء ، وأما هذه المذاهب الأربعة فأقربها إلى السنة مذهب الشافعي المنقح والمصنعي ، وكان نظره يصل إلى حقيقة العمل والأسباب^(٢) .

وذكر في التفهيمات^(٣) العقائد وأكد أن يتبع مذهب السلف مبتعدا عن التأويل ، ثم يقول في الفروع : ويتبع في الفروع مذهب الفقهاء المحدثين ، وتعرض التفريعات الفقهية على الكتاب والسنة ،

(١) حجة الله البالغة ١/١٥٢

(٢) الخير الكثير ص ١٢٤

(٣) التفهيمات الإلهية ٢/٢٤٠

فيقبل ما وافقهما ، ويرد ما خالفهما ، فليس الأمة ، في وقت ما ، غنى عن عرض المجتهدات على الكتاب والسنة . ثم الابتعاد عن الفقهاء المنقشفين الذين تمسكوا بتقاليد عالم وتركوا اتباع الكتاب والسنة ، فإن قرب الله في الابتعاد عنهم .

ومشاعره نحو التقاليد الجامد جديرة بالتفكير ، يقول : « وترى العامة سيما اليوم في كل قطر يتقيدون بمذهب من مذاهب المتقدمين ، يرون خروج الانسان من مذهب من قلدوه ، ولو في مسألة كالخروج من الملة ، كأنه نبي بعث إليه وافترض طاعته عليه ، وكان أوائل الأمة قبل المائة الرابعة غير متقيدين بمذهب واحد^(١) .

وليتفكر أصحاب ديوبند في الأسلوب الذي يدعون به إلى التقاليد اليوم ويعارضون به ترك التقليد ، فاعله نفس الأسلوب الذي اشتكى منه الشاه ولي الله .

وكذلك ذكر في (١٥٢ / ١) المحققين الذين لم يكونوا يقلدون مثل ابن العربي ، وأبي محمد الجويني . وقال أيضا^(٢) : « إن آمنتم بنبيكم فاتبعوه ، خالف مذهبها أو وافقه » .

وكتاب التفهيمات يمتلىء بمثل هذه التصريحات .

(١) التفهيمات الإلهية ١٥١/١

(٢) أيضا ٢٥١/١

التفقه والظاهرية:

يرى الشاه ولي الله أن الحق بين التفقه والظاهرية ، فيقول في التفهيمات^(١): «ومنها أني أقول لهؤلاء المسلمين بالفقهاء الجامدين على التقليد يبلغهم الحديث من أحاديث النبي ﷺ باسناد صحيح ، وقد ذهب إليه جمع عظيم من الفقهاء المتقدمين ، ولا يمنعهم إلا التقليد لمن لم يذهب إليه ، ولهؤلاء الظاهرية المنكرين للفقهاء الذين هم طراز حملة العلم وأئمة أهل الدين أنهم جميعا على سفاهة وسخافة وإلى ضلالة ، وإن الحق أمر بين بين » .

وهذا هو عين مذهب أهل الحديث .

ثم يقول^(٢): «وأشهد لله بالله أنه كفر بالله أن يعتقد في رجل من الأمة من يخطئ ويصيب أن الله كتب على أتباعه حتما ، وأن الواجب على هو الذي يوجب هذا الرجل على ، ولكن الشريعة الحقة قد ثبتت قبل هذا الرجل بزمان قد وعاه العلماء وأداها الرواة وحكم بها الفقهاء ، وإنما اتفق الناس على تقليد العلماء على معنى أنهم رواة الشريعة عن النبي ﷺ ، وأنهم علموا ما لم نعلم ، وأنهم اشتغلوا بالعلم ما لم نشغل ، فلذلك قلدوا العلماء ، فلو أن حديثا صح ،

(١) التفهيمات الإلهية ٢٠٩/١

(٢) أيضا ٢١١/١

وشهد بصحته المحدثون، وعمل به طوائف فظمر فيه الأمر ثم لم يعمل به لأن متبوعه لم يقل به فهذا هو الضلال البعيد .

ويقول الشاه في موضع آخر^(١): « ونشأ في قلبي داعية من جهة الملا الأعلى، تفصياها أن مذهبي أبي حنيفة والشافعي هما مشهوران في الأمة المرحومة، وهما أكثر المذاهب تابعا وتصنيفا. وكان جمهور الفقهاء المحدثين والمفسرين والمتكلمين والصوفية متمذهبين بمذهب الشافعي، وجمهور الملوك وعامة اليونان متمذهبين بمذهب أبي حنيفة. وإن الحق الموافق لعلوم الملا الأعلى اليوم أن يجعل كذهب واحد يعرضان على السكتب المدونة في حديث النبي ﷺ من الفريقين، فما كان موافقا بها يبقى، وما لم يوجد له أصل يسقط. والثابت منها بعد النقد إن توافق بعضه فذلك الذي يعرض عليه بالنواجذ، وإن تخالف تجعل المسألة على قولين ويصحح العمل عليهما . »

فما صلة آراء الشاه ولي الله هذه مع دعوة ديوبند إلى الجود على التقليد؟ على أصحاب الفكر أن يتدبروا هذه النقطة. وما يتطلبه مذهب أهل الحديث هو التخلي عن الجود تماما، والنظر إلى النصوص. وقد ذكر الشاه ولي الله هذه الدعوة في موضع فقال: « أما تعرفون

(١) التفهيمات الإلهية ٢١١/١

أن الحكم ما حكمه الله ورسوله ، ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به ويقول إنما عملي على مذهب فلان لا على الحديث ، ثم اختال بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن السكل الماهرة ، وإن الأئمة لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث ، فما تركوه إلا لوجه ظهر لهم في الدين من نسخ أو مرجوحية . اعلوا أنه ليس هذا من الدين في شيء ، إن آمنتم بنبيكم فاتبعوه ، خالف مذهباً أو وافقه ، كان مرضى الحق أن تشتغلوا بكتاب الله وسنة رسوله ابتداء ، فإن سهل عليكم الأخذ بهما فبهما ونعمت ، وإن قصرت أفهامكم فاستعينوا برأى من مضى من العلماء ما تروه أحق وأصرح وأوفق بالسنة .

ويقول : « أما تعلمون أن الرحمة كل الرحمة والهدى ما جاءكم به محمد ﷺ (١) ؟ »

ولا فائدة من الخوض في بحث الالفاظ ، فالحقائق قد وضحت ، وعرف الجميع أن مذهب أهل الحديث لا يقول عن الجود الديني في الهند أكثر مما قال الشاه ولي الله ، وسواء أن تسموه تقليداً أو عدمه ، وحنفياً أو أهل حديث ، ولكن الحقيقة أن مذهب أهل

(١) التفهيمات الالهية ٢١٥/١

الحديث ليس فيه الجمود الذي يدعو إليه أصحاب بريلي وديوبند .
 وجميع ما قاله أهل الحديث عن التقليد الشائع يوجد في تصريحات
 الشاه ولي الله . أما ما قاله أصحاب ديوبند وبريلي فيخالف روح
 تصريحات الشاه ، فكيف يربط بين الانتساب إلى الشاه وبين الدعوة
 إلى التقليد والجمود . وقبل مدة اكتشف بعض الكبار من ديوبند أن
 الشاه إسماعيل كان يميل في البداية إلى ترك التقليد ، ولكن ذهب هذا
 الميل بعد لفهام السيد أحمد الشهيد فترك الشاه إسماعيل رفع اليدين
 وغيره من الأفعال المسنونة . ولكنني أرى أن هذا إساعة ظن في
 الشهيد - رحمه الله - لا دليل عليه .

وللشاهد إسماعيل - رحمه الله - كتاب معروف اسمه
 « إيضاح الحق الصريح في أحكام الميت والضرخ » وهو آخر مؤلف
 له ناقص ، كان ينوى أن يبين فيه حكم العادات الخاصة بالتجهيز
 والتكفين ، ولكن وافته الشهادة بعد أن تناول موضوع البدعة .
 وطبع هذا الكتاب في المطبعة الأشرفية بدلهي ، ومع النص الفارسي
 ترجمته الأردی ، ويقول فيه الشهيد^(١) : « ليس واجبا على كل رجل أي
 يعرف الأحكام القياسية والقواعد العربية وأشغال الصوفية ، وكذلك

(١) إيضاح الحق الصريح ص ٨٨

لا يجب تقليد أحد من المشايخ والمجتهدين ، بل يكفي أن يسأل علماء وشيوخ عصره عند الحاجة ، ولا يرى التقليد مثل الإيمان بالأنبياء ، ولا الانتساب إلى الحنفية والقادرية مثل الانتساب إلى الإسلام وأهل السنة .»

وقال في صفحة ٩٠ : « ينبغي أن يجعل شعاره الحمديّة الخالصة والتسني القديم ، ولا يتمذهب بمذهب خاص ، ولا يتمسك بطريق معينة . فهو لا يحب اختيار إمام معين في الفروع ، ولا طريقة خاصة من طرق الصوفية وسلاسلها ، بل يختار الحمديّة المحضة ، وذلك لأنه كان يرى أمامه الدعوة التي قام بها الشاه ولي الله من قبله ونشرها أبناؤه وأحفاده من بعده ، حتى ضحوا في سبيلها بأنفسهم وأموالهم . فكلهم كانوا يرمون إلى القضاء على الجود الفقهي والصوفي بدون الوقوع في النزاع اللفظي والبحث المعقد ، وبدون إثارة الخلاف والمنافرة بين المسلمين . وفي سنة (١٢٤٦ هـ) حينما حدثت مأساة بالاكوت لم يكن أحد يحسب أن ترك التقليد بالقصد يمنع الانضمام إلى الحركة . ويمكن اختلاف الرأي حول شك الموحدين هذا ، ولكنه لم يجد جوا ملائما للظهور . وبعد حادث الشهادة بشهور تحمل أصحاب صادقفور مسؤولية تنظيم المجاهدين كلهم ، وقد أدى الشيخان الشقيقان : ولايت علي ، وعنايت علي مسؤولياتهما نحو الجهاد ونشر الدعوة

الإسلامية بنجاح تام . وبما أن تأثيرهما بالشهيد كان أقوى وأكثر لم يغلب اتجاه التقليد والجمود على اتباع السنة في عصرهما ، فانكشفت طبقة المقلدين في سنة ١٢٤٦ هـ وتراجعت إلى الصفوف الخلفية . وكان الشيخان ينتقدان فروع الفقه لاشخصيات الفقهاء ، وموقفهما مع الأئمة الأربعة موقف احترام وتقدير ، فكانا يطالبان لاجتهادهم المحل الصحيح دون الفزع من الاتجاه الحنفي ، ويكرهان التقليد والجمود . وبعد السيد الشهيد قد تعين الشيخ ولايت علي (م - ١٢٩٦ هـ) في سنة ١٢٦٢ هـ أمير الجماعة . وكتبه « العمل بالحديث » بين يدي الآن ، يقول فيه^(١) : « او لم يستطع العاقل أن يحصل العلم لاشغاله فعليه أن يرجع إلى العلماء المحدثين المعروفين بعلمهم وأمانتهم ويطلب أن يعلموه طريقة النبي ﷺ . ولو كان الرجل راغبا في التعليم فعليه مراجعة الكتاب والسنة ، فلا حاجة للتقليد في النصوص الظاهرة » .

وهذا هو نفس الأسلوب الذي نبهه لدى الشاه ولي الله والشاه عبد العزيز وأصحابهما وتلاميذهما . وقد تحول هذا الأسلوب بعوامل سياسية في القرن الثالث عشر الهجري إلى حركة الجهاد وإلى الجهود البدائية لتحرير الهند ، وذلك بسبب قيام الوحدة بين الشيخ وبين الإنجليز وبسبب معارضة العلماء الهنود الأغبياء ، وقد تم إعداد

(١) العمل بالحديث ص ١٦

خطة الجهاد تحت إشراف الشاه عبد العزيز وقيادة السيد أحمد الشهيد وتوجيه الشيخين: إسماعيل الشهيد وعبد الحى البدهانوى، وقد اختار هؤلاء «إقليم الحدود» مسرحاً لجهودهم التحريرية ظناً منهم بأن كثرة المسلمين فى المنطقة تساعد فى تحقيق أهدافهم، ولأن مدينة كلكته وضواحيها كانت تحت سيطرة الإنجليز وإقليم بنجاب تحت سيطرة السيخ.

أهداف حركة الجهاد والتحرير:

كان المجاهدون يهدفون إلى أمرين، الأول تحرير الهند وتطهيرها من الإنجليز والسيخ، والثانى إقامة حكومة فيها على أساس الكتاب والسنة. وبجانب هذا كانوا يرمون إلى القضاء على بدع المجتمع وعادات الشرك وآثار الرفض الفتناء التى تسربت إلى حياة الناس بسبب إهمال السلطات المغولية الحاكمة. ولإقامة الحكومة على الطريقة السلفية كانوا يقومون بالوعظ والارشاد وبالدرس والتدريس وبنشر الكتاب والسنة من ناحية، وبالجهاد ضد الإنجليز والسيخ من ناحية أخرى. وكانت حركة الجهاد مستمرة فى أعمالها بالسرية إلى أن انتهت بانقسام الهند فى سنة ١٩٤٧ م وقيام دولة مسلمة باسم باكستان. وتفصيل ذلك موضوع مستقل يحتاج إلى وقت ومناسبة. وكانت جهود النواب صديق حسن خان والشيخ السيد نذير حسين الدهلوى

لتنشيط شئون الوعظ والارشاد والطبع والنشر فعمدة كبيرة للبلاد ، وقد تم حينذاك نشر مطبوعات لا تحصى من مدن بوفال ، وبنارس ، وكلاكته ، ودهلي ، ولاهور . وبشاور ، وراولبندى وغيرها ، وتراكت بمجموعات الحديث وشروحها وتراجمها إلى اللغات الهندية . وامتلات رفوف العلماء بكتب فقه الحديث . وكان الشاه ولى الله وأعماله التجديدية متجلية في جميع هذه الجهود ، التى بذلت للقضاء على الجمود بدون منافرة ، ولإثارة سبيل العلم والتحقيق ، وكان شيخ الاسلام السيد نذير حسين وتلاميذه يسرون على نفس الطريق ، ساعين لتثبيت الحق فى القلوب بدون إثارة المنازعات والفتن .

طريق اليمن :

وهكذا سمع صوت ضد التقليد والجمود من قبل اليمن . فكان أسلوب الإمام الشوكاني وتلاميذه فى كتبهم عنيفا ضد الجمود . وكان الشيخ ولايت على تلميذا للشوكاني ، ولكن غلب عليه طريقة الشاه ولى الله . ثم قد أحدث عنف العلماء الجامدين سورة فى حركة المجاهدين فتم تبادل الرسائل العنيفة بين الفريقين واستعرت مجالس الدرس والوعظ سنوات عديدة ووصلت القضايا إلى محاكم الانجليز .

والشاه ولى الله مع معارضته للتقليد والجمود لم يكره ألقاب « الحنفى » و « الشافعى » ، وأمثالهما ، بل ربما كان يحبها ، ولم يكن هو

وأتباعه ليعيبوا على الانتساب إلى الحنفية والشافعية على أن لا يصرف
النظر عن الكتاب والسنة وفقه الحديث بتأثير من التقليد والجمود .
وبعد هذه الدعوة الصريحة الحكيمة للشاه ولي الله يجب على أهل بريلى
وديوبند أمران :

إما أن يتركوا الجمود والدعوة إلى التقليد تماما ، وإما يقطعوا
صلتهم بالشاه ولي الله ومدرسته ، والجمع بين الأمرين يرادف ما قيل :
« إنكار الخمر والتعاش مع السكارى »^(١)

وعلى هذا ينبغي ألا يساء فهم حقيقة موقف الشاه ولي الله
الممزوج بمراعاة المصاحبة .



(١) ترجمة شطر فارسي نصه :

منكرمے بودن و همرنگ مستان زیستن

والله اعلم بالصواب

الفصل السابع

في

مسألة حياة النبي ﷺ

في ضوء الأدلة الشرعية

الحمد لله كبيرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،
وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا، وصلى الله
عليه وسلم تسليما كثيرا كثيرا، أما بعد:

ألقى عالم موحد خطابا قبل مدة حول موضوع التوحيد في مدينة
ملتان، وقد أعجب به العامة والخاصة، ولكن اعترض على هذا
الخطاب بعض من جماعته، مع الاستقامة في عقيدة التوحيد، ثم بذل
الجهود لإزالة تأثير الخطاب.

وقد تناول الخطيب ضمن كلامه على التوحيد موضوع وفاة
الرسول ﷺ، وانتقد آراء الذين يرونه حيا مثلما يحيونهم وغيرهم،
وقال: لو كانت حياة النبي ﷺ حياة دنيوية لما دفنه الصحابة، فإنه
ليس من الممكن أن يروه حيا ثم يدفنوه في الأرض. (وهذه حكاية
عن معنى الخطاب، وليست عن ألفاظه).

وهذه المعارضة كانت من قبل الديوبنديين، والخطيب أيضا كان
ينتمي إليهم فقد ظهر صدى لهذا الخطاب في أقطار باكستان الأخرى،
وحاول الناس مقاطعة مثل هؤلاء الخطباء. وقد وصل تأثير الخطاب
المذكور إلى الهند أيضا، فقد نشر في مجلة دار العلوم في ديوبند مقال
للشيخ زاهد الحسيني بتعليق من السيد الشيخ محمد أنظر، ولكنهما
لا يتضمنان شيئا جديدا، بل عرض الكاتبان وجهة نظر البريلويين
بنوع من الشرح والتفصيل، وأما أوب الاستدلال أيضا يشبه أساليب

البريلوية ، إلا أنهما قد اهتما بشرح المسألة ولم يتعرضا للشخصيات ، وهذا هو المطلوب والمأمول من العلماء .

ومهما كانت الأدلة من الجودة والرداعة ولكن جذور المقال تصل إلى باكستان ، ثم انه نشر في مجلة مدرسة مركزية لأهل ديوبند . والمقال ينم عن أن عقلاء باكستان استخدموا كبار مركزهم للمصالح المحلية ، وهؤلاء الكبار قد نزلوا عند رغبتهم دون تحقيق وتبيين ، وهذا الاختلاف ينفع طبقة البريلوية ، ومن هنا يجب توضيح هذه المسألة .

وكاتب هذه السطور لا يعرف شخصيا الشيخ محمد أنظر ولا الشيخ زاهد الحسيني ، ولذا أعذر عن هذه المخاطبة وآمل أن المناقشة لا تتعدى حدود الموضوع . وما توفيقى إلا بالله .

ولعل أكابر الهند لا يفهمون نشاط البريلوية بعد نشأة باكستان وانتشار القاديانية والرفض ، وكذلك الآثار التي ترتبت على ذلك والعراقيل التي تعترض سبيل الدعاة الموحدين في هذه البيئة .

ان أكابر ديوبند في باكستان يتشبثون بالمصالح والمتطلبات الراهنة يوما بعد يوم ، وتؤثر جرائم « الطريقة » في هذه البيئة . ولا يفهم هذا الوضع إلا من عرف هذا الجو . ولذا يحسن أن لا يتدخل في هذه الأوضاع من يعيش على بعد عنها . وإنا نعرف التوافق

الذي يوجد عند حكومة باكستان وعند أهل الأهواء فيها . والقضاء على ذلك لا يتم بمراعاة المصالح ولا بكراسي التدريس ، إن هذه الفتنة الشعبية يخشى أن تقضى على الدعاة أنفسهم .

وتثار هذه المسألة الآن بحيث تنفتح بها كثير من أبواب البدع الشريكية ، ولذا يحسن أن نلقى نظرة على الحركة الإصلاحية التي قامت للقضاء على هذه البدع ، فإن ذلك يوضح خلفية هذه المسألة ولو طال البحث قليلا .

تطور الحركات الإصلاحية :

كانت قوى الطواغيت جد قوية منذ القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر الهجرى ، ولكن الرحمة الربانية أيضا عمت وشملت ، ففتح الله تعالى جماعة رزينة من المصلحين همه العمل فى هذه الفترة ، فظهرت جماعات نشيطة من المصلحين فى أطراف العالم . ومع اختلاف آثار ونتائج الانتصار والانهمزام نحمد الله تعالى على أنه وفق هذه الجماعات لأن تترك آثارا قوية ثابتة فى العالم بصبرهم وعزيمتهم ، ذلك فضل الله تعالى : ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ^(١) ﴾ .

فقد بذل كل من شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب والأسرة السعودية فى نجد ، والشيخ جمال الدين الأفغانى وتلاميذه فى إيران

وأفغانستان ومصر وسوريا^(١)، ومجدد الآلاف الثاني، والشاه ولي الله وأسرته وتلاميذه في الهند، جهودهم في أوساطهم، وكتب الله لهم النجاح حسب سعيهم. وتجلي مظهر نجاح الشيخ محمد بن عبد الوهاب في المجال العلمي والسياسي. وقد نجح الشيخ جمال الدين في اعداد جماعة من العلماء المخلصين أصحاب المواهب الذين جعلوا بجهودهم مصر والشام مهدا للعلم والاصلاح، وأثروا في الأفكار والأذهان، وجهودهم أقامت في مواجهة الخطط الأوربية المادية سدودا عجزت قوى الشيطان عبورها.

والجهود التي بدأها بمجدد الوقت الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده لها تأثير قوى في استقلال مصر وسوريا وحركاتهما الدينية. وقد واصل الجهد في نفس الطريق السيد رشيد رضا والعلامة المراغي وسعد زغلول والامير شكيب أرسلان وغيرهم من النابهين، وأحرزوا النجاح إلى حد كبير.

(١) منهج الشيخ جمال الدين الأفغاني وأتباعه صار الآن موضع نقاش طويل بين العلماء والباحثين، وقد برهن بعض الكتاب على عدم إخلاصه للإسلام والمسلمين، ولذا يحسن أن يرجع القارئ إلى ما كتب عن منهج الأفغاني في الاصلاح وعن مدرسته وآثارها. وللاؤلف رحمه الله عذره في عدم توفر المراجع وعدم وضوح الرؤية في ذلك الوقت. (المترجم).

حركة الهند الجديدة :

وحركة الاحياء والتجديد في الهند ، التي ابتدأت بيد السيد أحمد السرهندي ، وأتمها الشاه اسماعيل الشهيد والسيد أحمد الشهيد وأتباعهما ، كانت في بدايتها علمية اصلاحية ، ولكن تواطؤ علماء السوء مع الإنجليز قد دفعهم إلى السيادة ، واضطر حمق السيخ جماعة المتقين هذه لاقتحام نار الحرب وتضحية نفوسهم الغالية في سبيل الحق .

ولعل مداد الفتاوى المضلة كان قد شوه وجه الملة تشويها لا تزول آثاره إلا بدماء الشهداء ، وكانت تهمة الوهابية المستعارة قد شلت الأذهان ، وتراكم عليهم غبار الاتحاد تراكما لم ينفع في إزالته إلا دماء الشهداء .

ففي صباح من شهر مايو (١٨٣١ م) نزلت هذه الجماعة بكل جهدها وعنادها في ساحة بالاكوث ، وقبل أن تزول الشمس أثبتت آثارها الدائمة لصدقهم واخلاصهم في صفحات التاريخ وأخلدت إلى النوم الأبدي : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ^(١) ﴾ .

طبيعة الحركة :

قبل الخوض في مسألة حياة النبي ﷺ يجب أن نحاول فهم اتجاه الحركة وطبيعتها .

كان المصلحون العظام من عصر المجدد السرهندي إلى عصر الشاه ولي الله وأبنائه يتبعون الفقه الحنفي في الأعمال الظاهرة، ولكنهم كانوا يهدفون من الناحية الفكرية إلى تحقيق أهداف ثلاثة:

- ١ - تعديل خواصلاح اتجاء النصفوف الغالى .
- ٢ - اصلااح الجود الفقهى والعقدى ، وإزالة العراقىل التى خلقتها فقهاء العراق مع الأشعرىة والماترىدىة فى سبىل التحقىق والاستنباط وابعاد الءواجز التى قامت فى سبىل الفكر والنظر بسبب الجود والاستكانة ، وتوفىر الحرىة الفكرىة والنظرىة على مىزان السكتاب والسنة وأئمة السلف رءمهم الله تعالى .
- ٣ - مقاومة البدع والعادات ، التى حملت محل السنن بسبب ابتعاد المسلىمن عن العمل أو اساءءتهم إلى جوانب السلوك ، وحصل لها التشجىع بءوار الوثنىمن وبمءغالة ملوك المءول فى اتبعا الهوى وعىشة الترف .

أى تغىىر هذه الاوضاع الفاسدة رأسا على عقب ، واخلال الاسلام الصافى النقى محلها : تركءكم على ملة بىضاء لىلها كنىهارها^(١).

(١) جزء من ءدث مرفوع صءىء ورد من ءدث العرباض بن سارىة ، وأبى الدرداء عند أءمد ١٢٦/٤ ، وابن ماجة ٤/١ ، ١٦ ، والسنة لابن أبى عاصم ٢٦/١ ، ٢٧ ، والءاكم ٩٦/١

وإني لا أريد هنا التفصيل ولا تضييع الوقت بذكر الشواهد من تصانيفهم ، بل أود أن ألفت الأنظار إلى أمور عديدة فحسب :

إن المجدد السرهندي كان قد انتقد في رسائله البدع أشد النقد ، وإنه لما أحس أن تقسيم البدعة إلى الحسنة والسيئة ينفع المبتدعين في سبيل الحفاظ على البدع عارض هذا التقسيم بقوة ، منذ أن دل عليه العز بن عبد السلام ، وكان في موقفه هذا فريدا في الهند .

وإنه قد تحمل أذى الحبس في قلعة كواليار لمدة ثلاث سنوات ، ولكن لم يلبطخ جبينه برجس سجود التعظيم . وكانت له ترجيحات في المسائل الفقهية ، وإنه قد أبى أن يسلك سبيل المتقدمين والمتأخرين رجما بالغيب ، مع معارضة العلماء له .

والشاهد الحى لذلك تلميذه الرشيد المرزا مظهر جان جانان رحمه الله ، الذى اختار سبيل فقهاء المحدثين فى قراءة الفاتحة خلف الإمام ورفع اليدين عند الركوع ووضع اليدين على الصدر وغير ذلك من المسائل الشهيرة ، ورفض المطابقة الكاية مع فقه العراق^(١) .

وقد استفاد الشيخ القاضى ثناء الله البانانى بى رحمه الله من المرزا مظهر جان جانان ومن الشاه ولى الله ، ويشهد كتاب إرشاد الطالبين والتفسير المظهرى من مؤلفاته أن موقفه كان صارما

(١) أبجد العلوم ٣/٩٠٠ ، ومحبوب العارفين ص ٧٦

ضد البدع وعباد القبور، ولأنه مع كونه حنفيا كره العادات البدعية أشد الكراهية.

وقد وقف الشاه ولي الله في مؤلفاته حجة الله البالغة والبلاغ المبين والمصفي والمسوى والانصاف وعقد الجيد وتحفة الموحدين، من الجود الفقهى والبدع والعادات الشركية موقفا حكيما وضع الحقائق توضيحا كبيرا، وانتقد بعض مسلمات أصول الفقه انتقادا رزينا قد شجع النابهين. وقد فصح في إزالة الخفاء بدعة التشيع بطريقة سدت باب خدع العقلاء باسم حب أهل البيت.

وأظن أن هذه الاشارات الموجزة تكفي لتوضيح طبيعة هذه الحركة التي هدفت للإصلاح وإقامة الدين.

أهل ديوبند وأهل الحديث:

هاتان المدرستان تتبعان من الناحية الفكرية الحركة المذكورة وتمثلان عنها أو تدعيان انضمامهما إليها. وكلام الشاه ولي الله الآتي يوضح كل التوضيح اتجاه هذه الحركة وطبيعتها:

«وصية هذا الفقير الأولى هي الاعتصام بالكتاب والسنة في العقيدة والعمل، والاشتغال الدائم بتوجيهاتهما، وقراءة جزء منهما كل يوم، وإن لم يستطع القراءة فاستمع ترجمة ورقة منهما، واختيار مذهب قدماء أهل السنة في العقائد، والاعراض عن التفصيل والبحث

الذين أعرض عنهم السلف ، ونبذ تشكيكات أهل المعقول الزائفة ،
واتباع العلماء المحدثين في الفروع الذين جمعوا بين الفقه والحديث ،
وعرض التفريعات الفقهية دائماً على الكتاب والسنة ، ثم قبول
ما وافقهم ونبذ ما خالفهم ، فإن الأمة لا تستغنى أبداً عن عرض
المجتهديات على الكتاب والسنة ، وعدم الاستماع إلى قول المتكشفين
من الفقهاء الذين تشبهوا بتقليد عالم وتركوا تتبع السنة ، وعدم
الانفتاح إليهم ، وطلب قرب الله تعالى بالابتعاد عنهم^(١) .

ويقول في موضع آخر : « انتساب الصوفية غنيمة كبرى ،
ورسومهم لا تليق بشيء ، وهذا القول يثقل على كثير ، ولكنني أقول
ما كلفت به ولا ألتفت إلى قول زيد وعمر » .

ويقول أيضاً : « نحن لا نرضى بهؤلاء الذين يبايعون الناس
ليشتروا به ثمناً قليلاً أو ليشتروا أغراض الدنيا بتعلم علم ، إذ
لا تحصل الدنيا إلا بالنسبة بأهل الهداية . ولا بالدين يدعون إلى
أنفسهم و يأمرون بحب أنفسهم ، هؤلاء قطاع الطريق ، دجالون
كذابون مفتونون فتانون ، إياكم وإياهم ، ولا تتبعوا إلا من دعا إلى
كتاب الله وسنة رسوله^(٢) » .

(١) التفهيمات الإلهية ٢/٢٤٠

(٢) أيضاً ١/٢١٤

والظاهر أن الشاه ولي الله يكره التصوف المشوب بالرياء ،
وسلاسل البيعة لكسب الدنيا ، ويرى الذين يفعلون ذلك دجالين فتانين ،
فأى قيمة عنده لنظام الخوانق اليوم وللمؤسسات عبادة المرشدين ،
حينما يكره الدعوة إلى عبادة المرشدين ألبتة .

أما نظراته إلى المذاهب الفقهية السائدة وإلى الجود عليها فتتضح
بما يأتي :

« رب انسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به
ويقول إنما عملي على مذهب فلان لا على الحديث ، ثم احتال بأن
فهم الحديث والقضاء به من شأن السكل الممرة ، وإن أئمتهم لم يكونوا
من يخفى عليهم هذا الحديث فما تركوا إلا أوجه ظهر لهم في الدين
من نسخ أو مرجوحية .

وليس ذلك من الدين ، والإيمان بالرسول يوجب اتباعه سواء
كان مخالفا للمذهب أو مرافقا ، وإرادة الله تعالى هي التعلق بالكتاب
والسنة^(١) .

والشاه ولي الله يكره بشدة الجود المذهبي في الفروع الفقهية ،
وكذلك يكره الظاهرية المحضة (أى مذهب الإمام داود الظاهري)
ويقول :

« من الضلال البعيد ترك العمل بحديث صح بشهادة أئمة الحديث

(١) التفهيمات الإلهية ٢١٤/١ .

وعمل به أهل العلم ، بحجة أن الإمام الفلاني لم يعمل به^(١) .
ومثل هذه الأقوال توجد بكثرة في مؤلفات الشاه ولي الله
الأخرى أيضا، وإنني قد أطلت في هذا المقام حتى يُعرف اتجاه هذه
الحركة ، وبالتالي آثارها طوال القرنين .

ولو وُجد في مؤلفات هؤلاء الصالحين شيء يعارض الأهداف
المذكورة لوجب حملـه على معنى يلائم أهداف الحركة بحجة أنهم
نظروا إلى المصالح الوقتية ، فإنهم قد مارسوا نشاطهم في ظروف
صعبة كانت تتغير فيها المصالح والمقتضيات ، ونحن لا نستطيع أن
نتصور تلك الصعوبات التي واجهتهم ، شكر الله مساعيهم .

موقف الشاه ولي الله الدهلوي :

ويعتبر الشاه ولي الله نقطة اتصال في هذه الحركة ، فإنه قد
تأثر تماما بالجهود العلمية للجدد السرهندي وتلاميذه وأتباعه ، ثم إنه
أتاح لابنائه وأتباعه فرصة الاستفادة من هذه الفوائد، ولذلك عرضت
موقفه بنوع من التفصيل .

مسألة حياة النبي ﷺ :

وما قاله كاتب مجلة « دار العلوم » في مقاله عن مسألة حياة النبي
ﷺ فإنه لم يرد فيه التصريح بالحياة الدنيوية إلا لدى أكابر ديوبند بعد

(١) التفهيمات الإلهية ٢٠٩/١ ، ٢١١/٢

الشيخ عبد الحق الدهلوي ، نعم قد ألف الحافظ البيهقي والسيوطي في هذا الموضوع رسائل مستقلة قبل الشيخ عبد الحق ، ولكن الأسف أنهما لم ينتقيا الموضوع ، ويبدو أنهما قد جمعا ذخيرة ليست متأكدة لديهما ، لأنهما يثبتان الحياة ولكن لا يحددان نوعيتها .

ولم يرد في رسالة السيوطي ذكر الحياة الدنيوية إلا عند السبكي ، بل يبدو في بعض المواضع أن السيوطي يميل إلى الحياة البرزخية ، ولكنه لم يستطع مع جهده البالغ أن يوفق بين قوله تعالى : ﴿لأنك ميت ولأنهم ميتون﴾^(١) ، وبين حديثي «فرد الله على روعي»^(٢) ، و «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»^(٣) .

ثم إن السيوطي كخاطب ليل قد جمع ذخيرة غير موثوق بها قد تساعد القبوريين وتورث الشبهة في قلوب الموحدين السذج .

وهكذا حال كتاب الروح للحافظ ابن القيم ، ونحن لا نخشى على قول أهل الحديث والرجال الماهرة من مثل هذه الأشياء ، ولكنها تكون مزلة الأقدام للعامة بدون شك .

(١) الزمر : ٣٠

(٢) رواه أحمد ٥٢٧/٢ ، وأبوداود ٥٣٤/٢ ، وحسنه الألباني .

(٣) رواه ابن عدي في الكامل ٧٣٩/٢ ، وفي إسناده ضعيفان ، وانظر :

أيضا الميزان ٤٦٠/١

كيف يحسم النزاع؟

وينبغي لحسم النزاع أن يحاول المتصلون بالشاه ولي الله والمعتقدون في أسرته فهم هذه المسألة في ضوء اتجاه الحركة . فإن كان القصد فهم هذه المسألة باتباع الأكابر وتقليدهم ، وإن تقرر صرف النظر عن الكتاب والسنة والبحث والاستدلال . . . فلماذا لا يستفاد بنظريات أكابر الأكابر ومؤسسي الحركة ؟ وإن رأينا أن رأى الشيخ حسين أحمد والشيخ محمد قاسم حاسم فلماذا لا نحتكم مؤسسي الحركة ومدارجها في هذه المسألة ؟

الشاه محمد اسماعيل رحمه الله :

إن عبقرية الشاه محمد اسماعيل وشهادته قد حول الحركة بتأثيرها من عالم النظريات والتصورات إلى ميدان العمل ، وحل التصريح مكان التعريض والاشارة ، وقد وضع على رأس الثام كل ما انطوت عليه أوراق الكتب والمؤلفات . وقد برهن المجاهدون أمام الشيخ على أن معاني الحق والصدق والايثار والتضحية لا تتجلى بالمناظرة والحوار فقط ، بل من أكبر وسائل ظهورها السيف وساحة الحرب أيضا . وإن مداد القلم يفصح عن كثير ، ولكن قطرات الدماء تملك قوة أكبر للتعبير والتوضيح . وإن أصحاب التدريس والتأليف لا يستطيعون التأثير في القلوب والأفكار ، مثلما يستطيع أصحاب السيف والسنان ،

خبراء ساحة الحرب والنضال .

وقد ألف الشاه محمد اسماعيل قبل استشهاده كتابه «تقوية الايمان»
لنشر أهداف الحركة ونشره بمشورة أصحابه ، وكذلك جمع مسودة
تذكير الاخوان ، ورد على المعترضين ، لتأييد الحركة وتدعيمها .
فلو قال اليوم أكابر ديوبند وعلماء أهل الحديث قولا يعارض اتجاه
الحركة فلا يلتفت إليه .

موقف ثالث :

وبينما قدم الشاه ولي الله توضيحات جسيمة في سبيل حركة احياء
السنة وتجديد الدين ، ظهرت حركة معارضة لهذه الجهود ، واحتالت
للبحث عن الأدلة التي تبرر البدع وسوء تصرفات العامة . ولا شك
أن البدعة وجدت في كل عصر ، وتغيرت أشكالها بتغير الأحوال ،
ولكن لم ينتظم وجودها قط ، وكانت البدع منتشرة في عهد المغول ،
ولكن لم تسخر جهود العلماء لتبويرها .

وبعد سقوط المغول حاول كل من السيخ والمراهتا والانجليز
وأهل التوحيد الوصول إلى السلطة . ولما انهزم جيش الموحدين سياسيا
انجمد المبتدعون وسكتوا ، ولكن الباطل تسلم زمام السلطة . وأحس
في معركة التحرير عام ١٨٥٧ م ، أن الوصول إلى السلطة وطمأنة
المسلمين لا تتيسر إلا بجهود العلماء ، وكما قيل : من جد وجد ،
ظفر الباطل بأهل علم صالح بهم أمر الانجليز . والجدير بالذكر هنا أن

حركة التوحيد كانت قد نشأت على يد فقير من مدينة رائى بريلى ،
بينما ظهرت موجة الشرك والبدع وانتشرت بجهود أسرة من
مدينة بانس بريلى .

فقد ولد المولوى أحمد رضا خان عام ١٢٧٢هـ فى أسرة عرفت
بالاشتغال بالدراسة والتعليم ، ولما بلغ سن الرشد جلس باذن والده
عام ١٢٨٢هـ على كرسي الافتاء .

وما لبث أن بدأ يؤيد البدع ويحمى الشرك ، فوقف حياته
للاستدلال على الشرك ولتنظيم صفوف المبتدعين ، وحاول أن يحدد
دليلا لجميع ما يوجد فى العامة من سوء العمل والابتداع الشنيع ، وشجع
العامة على المعاصى وحاول أن يجعل كل بدعة حلالا .

ولو نظرنا إلى مؤلفات أحمد رضا خان لوجدنا أنها تهدف إلى
الفساد فى سبيل الله ، ولا نجد منها مؤلفا يهدف إلى تغيير حالة
المسلمين من الناحية الدينية أو السياسية أو الاقتصادية ، وإنه لم يساهم
مدة عمره فى حركة سياسية أو علمية ، نعم كتاباته قد كفرت ألوا
من المسلمين ، وكانت يد الانجليز العطوف تؤيد وتنصر المولوى
أحمد رضا خان فى جميع هذه الجهود .

فشل الحركة المعارضة للتوحيد :

والحقيقة أن حركة أحمد رضا خان كانت فى مواجهة مباشرة
مع الكتاب والسنة ، وفى محاربة مع مجاهدى الاسلام وشهداء الحق .

وكان شهداء بالاكوت هدفا لتكفيرها، وكان الشغل الشاغل لاتباع هذه الحركة هو الرد على الكتب مثل تقوية الايمان ونصيحة المسلمين وطريق السنة (راه سنت) وكتاب التوحيد، بل كانوا يردون أحيانا على الأجزاء الأساسية للقرآن الكريم.

والذين كانوا في مواجهتهم هم أكابر أولياء الله الذين نذروا حياتهم لنشر الكتاب والسنة ولإحياء روح الجهاد في المسلمين. ومن الظاهر أن المعارضين لهذه النفوس الطاهرة كيف يسعدون بنصر الله تعالى، فقد قال الرسول ﷺ: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب»، (مشكاة^(١)).

وحقا قد أخذت هذه الحركة بسخط من الله تعالى، فظمرت فيها ميزات وخصائص أبعدتها عن النجاح والفوز. وهذه الخصائص كما يلي:

- ١ - بغض أهل الحق والتقوى.
- ٢ - السب والشتم.
- ٣ - تكفير المسلمين.
- ٤ - الاهتمام بأمور غير ضرورية، مثل أن النبي ﷺ لا يزال يحيى الحياة الدنيوية، وغير ذلك.

(١) رواه البخارى فى الرقاق ٣٤٠/١١ مع الفتح

- ٥ - إن الرسول ﷺ حاضراً وموجوداً فى كل مكان .
- ٦ - إن الله تعالى قد أعطى جميع قدراته وخصائصه عباده ، أى جميع أولياء الله آلهة وهبىة (معاذ الله) .
- ٧ - إن جميع الزعماء السياسيين والجماعات السياسية كافرة مرتدة^(١) .
- والوقائع تشهد أن هؤلاء يسرون على خطى الفرقة الباطنية ، وقد أفلقتهم نمضة التوحيد والسنة وغمرهم اليأس . واسأعتهم إلى مثل الشاه محمد اسماعيل الشهيد وغيره من الشهداء والصلحاء قد أدى إلى أن سلب منهم العلم وقل فيهم أهل العلم والفهم ، ولم يبق لهم اتصال إلا مع الجهال ، وليس لهم هم إلا فوضى العامة وفساد الأشرار وشغلهم الشاغل فى باكستان هو احتلال مساجد أهل التوحيد والهجوم المميت على الأشراف وكسب القضايا فى المحاكم برشاوى وتوصيات مجاورى التكايا والخوانق وما إلى ذلك . وأكابر هذه الفرقة يتحززون من مشاركة العامة فى الأمور المشتركة ، ومن الاجتماع بهم فى منصات الاجتماعات ، ومن الدخول معهم فى المفاوضات ، ومن حل الأمور المتنازع فيها ، وعامتهم مصابون بمركب النقص ويختارون طريق « اللامساس » .

(١) ينظر : الفتاوى الرضوية ومؤلفات البريلويين الأخرى .

وأسأل الله تعالى التوفيق لإصلاح ذات البين حتى تجتمع الجماعات المختلفة في الآراء والأفكار وتحاول حل أمورها ومنازعتها بالعدل والصلح. ولكن المؤسف أن هذه الفرقة ترى الفساد متاعاً لحياتها مثل الفرقة الباطنية.

محل النزاع:

لم يتم تعيين محل النزاع في كل ما كتب في هذا الموضوع من عصر الإمام البيهقي رحمه الله تعالى إلى الآن، وقد جمع الإمام البيهقي مثل أئمة الحديث المواد في هذا الموضوع، وقد استفاد الحافظ السيوطي من كتاب الروح وحياة الأنبياء، وقام بتوجيه بعض الأحاديث أيضاً، ولا نعرف كيف أن السيوطي فاته الالتفات إلى القصيدة النونية بعد أن استفاد من كتاب الروح؟ مع أن الحافظ ابن القيم قد نقح هذا الموضوع جيداً في القصيدة المذكورة.

أهل الحديث والفقهاء:

قد اتفقت مدرستا أهل السنة، أصحاب الرأي وأهل الحديث، على أن الشهداء والأنبياء أحياء، وهم يعبدون ويسبحون ويهللون في البرزخ، ويرزقون حسب أحوالهم وحاجاتهم. وقد ورد التصريح بحياة الشهداء في القرآن الكريم، ونجد الشواهد في السنة على حياة الأنبياء، وقد وردت أحاديث صحيحة عن عبادة الأنبياء عليهم السلام.

والخطباء الذين يلقون خطبهم حول التوحيد في باكستان يقومون
بالأسفار طوال الشهور لإصلاح العقيدة، وعقائدهم سليمة حول حياة
الأنبياء والشهداء في البرزخ وحول تفاوت مراتب هذه الحياة .
والذي يؤمن بعذاب القبر ونعيمه في ضوء الأحاديث الصحيحة ،
كيف يقول عن هؤلاء الصالحاء بالعدم المحض والفقدان الصرف ؟
نعم تفاوت المراتب أمر يقيني ، فنزلة الأنبياء لا بد أن تكون أعلى
وأرفع من الشهداء .

والبحث في أن هذه الحياة هل هي حياة دنيوية ، ومقتضى لوازم
الحياة الدنيوية وتكاليفها ؟ أم هي نتيجة التكاليف الشرعية ؟
ونحن نختلف في الواقع مع الذين يقولون بالحياة الدنيوية ،
وفي السطور التالية نناقش آراء الشيخ أنصار والشيخ محمد زاهد بناء
على هذا المعنى .

أما سلامة جسد النبي ﷺ الشريف وعدم تأثره بالتراب فأمر
لا خلاف فيه ، وكذلك ليس النزاع في كل ما ثبت في الكتاب والسنة
بصراحة ونطقت به الأحاديث الصحيحة .

عقيدة البريلوية عن حياة النبي ﷺ :

ونحن نشكر المؤلوي أحمد رضا خان في هذا الأمر فإنه قد
عرض الموضوع بوضوح ، فبصرف النظر عن وجود الدليل وعدمه

لأنه قد قال قولاً حاسماً في هذا الموضوع ، يقول :
 « فإنيهم (الأنبياء) صلوات الله تعالى وسلامه عليهم طيبون
 طاهرون أحياء وأمواتا ، بل لا موت لهم إلا آتينا تصديقاً للوعد ،
 ثم هم أحياء أبداً بحياة حقيقية دنيوية روحانية وجسمانية ، كما هو
 معتقد أهل السنة والجماعة (البريلوية) ولذا لا يورثون ويمتنع تزوج
 نساتهم ، صلوات الله وسلامه عليهم ، بخلاف الشهداء الذين نص الكتاب
 العزيز أنهم أحياء ونهى أن يقال لهم أموات (١) .

ومثل هذا التصريح يوجد في الفتاوى الرضوية في موضع آخر
 أيضاً (٢) .

موافقة الديوبنديين للبريلويين :

يقول الشيخ حسين أحمد في رسائله :
 « ليست حياة النبي ﷺ روحانية فحسب ، مثل التي للشهداء ،
 بل هي جسمانية أيضاً ومن قبيل الحياة الدنيوية ، بل أقوى منها
 بوجوه (٣) . »

وقد بلغنا أن الشيخ محمد قاسم النانوتوي وغيره من أكابر

(١) الفتاوى الرضوية ٦١٠/١

(٢) أيضاً ٦١١/١

(٣) مكاتيب ١٣٠/١

ديوبند أيضا قد قالوا بمثل هذه الحياة . وقد اعترف الشيخ عبد الحق (م - ١٠٥٢ هـ) أيضا في مدارج النبوة بالحياة الدنيوية ، وحكى الحافظ السيوطي والسبكي أيضا كلمات مثل ذلك ، ولكن لم يرد تصريح بمثل ذلك عن عامة الفقهاء والمحدثين والحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة ، رحمهم الله تعالى ، وكذلك صرح بخلاف ذلك الشيخ حسين علي رحمه الله ، من علماء ديوبند ، وتلميذه المولوى نصير الدين وغيره .

نقاط للنظر والتدبر:

- ١ - القول بالحياة الدنيوية لم يصرح به نحو عشرة من أفراد الأمة ، فلا يليق بأهل العلم أن يصفوه بأنه عقيدة جماعية .
- ٢ - ولا يصح وصفه بالمتواتر أيضا ، لأنه لا يوجد فيه شرط من شروط التواتر ، ولا بد في التواتر من لزوم إدراك الحواس على الأقل ، والحياة التى يصفها القرآن بأنها خارجة من الشعور كيف يتحقق فيها إدراك الحواس واستخدامها ؟
- ٣ - إن الحركة الإصلاحية التى رُميت بالوهابية بسبب الانتماء إليها ، طبيعتها تأبى القول بسماع الموتى ، فكيف تسع القول بالحياة الدنيوية ؟ وقد عرف الشيخ حسين علي رحمه الله ، وجمعية أهل الحديث كلها مقتضى الكتاب والسنة ومقتضى هذه الحركة المقدسة ،

ولذا رفضوا تلك «الأوهام الالهامية» .

٤ - قد جعل المولوى أحمد رضا خان والشيخ حسين أحمد رحمه الله حياة الأنبياء متميزة عن حياة الشهداء المنصوص عليها ، بأن حياة الأنبياء أقوى ، ولكن لا يصح جعل الشهداء مقيسا عليهم هكذا ثم إثبات حياة الأنبياء ، فإن قياس الأقوى على الأضعف معارض لتصريحات الأصول .

٥ - إن كانت علة تحريم نكاح الأزواج وتقسيم تركتهم هي الحياة الدنيوية في الواقع ، فينبغى أن يكون نفس هذا الحكم لأزواج الشهداء وتركتهم ، ولكن صرح أحمد رضا خان وحسين أحمد بخلاف ذلك ، ولذا لا ينبغى جعل آيات سورة البقرة وآل عمران^(١) أساما لحياة الأنبياء .

٦ - لا يصح وصف مثل تلك الأوهام بأنها عقيدة ، فلم يرد ذكرها في كتب العقائد مثل شرح العقائد النسفية والعقيدة الطحاوية وشرح العقيدة الأصفهانية والعقيدة الصابونية وغيرها ، مع أن

(١) آية البقرة : ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ، بل أحياء - ولكن لا تشعرون - ١٥٤﴾ ، آية آل عمران : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون - ١٦٩﴾ .

كون جميع محتويات كتب العقائد عقيدة مستقلة أمر فيه نظر،
فالعقيدة في حاجة إلى أدلة قطعية كما صرح به المتكلمون
والأشاعرة والماتريدية. وأحاديث حياة الأنبياء أقل منزلة من
أخبار الآحاد الصحيحة من ناحية الإسناد، كما لا يخفى على من
له نظر في فن الرجال.

٧ - كان عمر بعض أمهات المؤمنين عند وفاة النبي ﷺ أقل جدا،
ففتح أحمد رضا خان طريق الجماع أيضا مع إثبات الحياة
الدينية لأهل الله^(١)، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وأكابر ديوبند يقولون بالحياة فقط ويرون أن الحياة
تكفي عقلا، مع أن الحياة وحدها لا تكفي لحقوق الزوجية،
أفلم يكن الابتعاد عن مثل هذا الاستدلال المضحك أنسب؟

٨ - لا نعلم حقيقة الموت الكاملة، والظاهر أنه اسم لفوت الجسم
وانفصال الروح، وكما نعلم أن الشريعة ربت على ذلك أحكام
العدة وتقسيم الميراث، ويقول أهل السنة بالاتصال بين الجسم
والروح بعد الموت اتصالا غير شعوري، فلا مجال للعدم المحض
والفقدان الكلي، وعلى هذا لا حاجة إلى الجزء الأخير لكتابة
الشيخ محمد زاهد، فإن أهل التوحيد في باكستان لا يقولون

بقسم جديد للوت في حق الانبياء عليهم السلام .

٩ - والقول بالحياة الدنيوية لا يحل مشكاة عقاية ألبته ، ولهكن تقوم بذلك عشرات من المشكلات التي يتعذر حلها .

فالعقلاء يسألون القائلين بالحياة الدنيوية عن حكمة ستر النبي ﷺ الحى وراء الجدار وعن فائدة ذلك .

وكيف أن أبا بكر جلس في مجلس الخلافة في حياة النبي ﷺ ؟ ولماذا طلبت فاطمة رضى الله عنها ميراث أبيها ؟ ألم تعلم أن هذه المطالبة لا تجوز في حياة الوالد ؟

وقد طمأنها أبو بكر بقول النبي ﷺ : نحن معاشر الأنبياء الخ ، ولماذا لم يقل إن هذه المطالبة قبل أوانها ؟

والصحابه رضى الله عنهم لم يرجعوا إلى النبي ﷺ في فتنه الارتداد وغيرها ، ولا أشار النبي ﷺ عليهم بما ينفع ، مع أن الطرفين كانا يرجعان ، بعضهم إلى البعض ، في حياة النبي ﷺ . وما أحسن ما قال الحافظ ابن القيم رحمه الله :

لو كان حيا في الضريح حياته	قبل الممات بغير ما فرقان
ما كان تحت الأرض بل من فوقها	والله هذا سنة الرحمان
أترأه تحت الأرض حيا ثم لا	يفتيهم بشرائع الايمان

ويريح أمتـه من الآراء والـ يخلف العظيم وسائر البهتان
 أم كان حيا عاجزا عن نطقه وعن الجواب لسائل لهفان
 وعن الحراك فما الحياة اللات قد أثبتوها أوضحوا ببيان^(١)
 وهكذا ترد مئات الأسئلة العقلية إذا قلتم بالحياة الدنيوية ،
 ويصبح التاريخ الإسلامى معمعة .

أفلم تكن حاجة لتدخل الرسول ﷺ فى مثل أحداث : شهادة
 الحسين ، وصالح الحسن ، وخداع مختار بن عبيد الثقفى ، وفتنة الحرة ،
 وادعاء مسيلية وأسود للنبوة ، وظلم الحجاج بن يوسف الثقفى ،
 وثورة العباسيين ، وسقوط بغداد ، وظلم الأتراك ، وتنبؤ القاديانى
 وغيره من الحوادث ؟

إن النبى ﷺ الذى قد حزن لموت خادم المسجد وصلى على
 قبره ، لماذا لم يأت ولو معزيا لدى استشهاد عمر وعثمان وعلى ؟
 جدير بالعاقل أن يسأل : لماذا كان هذا ؟ وحق لابن القيم أن
 يغلظ القول لمن زعم الحياة الدنيوية للنبي ﷺ ، يقول :

يا قومنا استحيوا من العقلاء والمبعوث بالقرآن والرحمان
 والله لا قدر الرسول عرفتم كلا ولا للنفس والانسان

(١) القصيدة النونية ص ١٤١ ، طبعة مصر .

من كان هذا القدر مبلغ علمه فليستتر بالصمت والسكتان
ولقد أبان الله أن رسوله ميت كما قد جاء في القرآن^(١)

حياة الأنبياء الدنيوية مذهب أهل البدعة :

ويتضح من كلام ابن القيم أن القول بالحياة الدنيوية هو مذهب
أهل البدعة والمعطلة ، يقول :

إنا تحملنا الشهادة بالذي قلتم تؤذيها لدى الرحمان
ما عندكم في الأرض قرآن كلا م الله حقا يا أولى العدوان
كلا ولا فوق السماوات العلى رب يطاع بواجب الشكران
كلا ولا في القبر أيضا عندكم من مرسل والله عند لسان

ولا عجب من أحمد رضا خان إذا قال قولا فيه الزيغ والضلال ،
ولكن العجب من أهل التوحيد ومدرسى الحديث أنهم يقولون مثل
هذا القول !!

هل الموت مهانة ومذلة للأنبياء ؟

لا نستطيع أن نفهم أن الناس لماذا يتوحشون من الموت إذا
طرا على الأنبياء وأهل الله ؟ ان الموت ليس شيئا قبيحا ، وللحياة
مراتب ، فإنها تبدأ بالنطفة وتنتهى بقبض الروح بعد مرورها

(١) القصيدة النونية ص ١٤٢

بالطفولة والصبا والمراهقة والشباب والكمولة والشيخوخة ، وفي ذلك ما يكره ويحب ، ولكن على كل من الانبياء والصلحاء وأهل الله أن يمشوا بهذه المراحل ، ولذا ليست مرحلة من هذه المراحل مستعذبة لأحد ولا مميّنة له ، والحياة عبارة عن هذه المراحل . قال الله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ^(١) ﴾ .

فالموت جسر يصل به المرء من الحياة الدنيوية إلى الآخرة ، وليس فيه مذلة ولا نقص . وإن كان الموت شيئاً قبيحاً لوجب أن لا يطرأ على الأنبياء والصلحاء ولو لحظة ، وإن كان مرحلة لسفر الآخرة ، فلا داعي لأن يتململ له الانسان ويتأوى ، إنه يأتي بالقانون الذي قدر الله تعالى لجميع الخلق .

والنبي صلى الله عليه وسلم كان قد قال لمعاذ : اعلى لا ألقاك بعد عامي هذا ^(٢) .

وقال ﷺ : لامرأة : ان لم تجدني فأني أبا بكر ^(٣) .

(١) سورة الملك : ٢

(٢) أخرجه أحمد ٢٣٥/٥

(٣) متفق عليه من حديث جابر بن مطعم ، البخاري : فضائل الصحابة

١٧/٧ ، ومسلم فضائل الصحابة ١٨٥٦/٤

ولما نزلت سورة النصر فهم أبوبكر أن النبي ﷺ سوف ينتقل من الدنيا فبكى ، وسمع ذلك النبي ﷺ ولكنه لم يكرهه . وقد امتلأت كتب التاريخ والسيرة والسنة بحوادث الموت ، فلا ندرى لماذا تقشع جلودنا بذكره ؟ ولماذا يسيطر جو الارتعاش من ديوبند إلى بريلي ؟

وهكذا توجد عناوين وفاة النبي ﷺ وتجهيزه وتكفينه ، فلماذا يستوحش الناس به ؟

وقد قصرت بعض أزواج النبي ﷺ شعر رأسها بعد وفاة النبي ﷺ فلم تبق له حاجة .

وقد حلقن بعضهن الرأس كله لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد ارتحل .

ولنختار أى اسم لهذه الحالة ولكن الحقيقة أن صلة الجسم مع الروح التي كانت في الدنيا قد انقطعت ، وهذا هو الموت ، ولامنافاة بينه وبين أحوال البرزخ وحياة القبر ، بل إنه وسيلة صحيحة للوصول إلى تلك المرحلة . ولو قلتم هل هناك ترادف بين الموت والحياة في عالم البرزخ ؟ فإني لا أرفض هذا الاعتراض ، ولكن انكار الموت من أهل العلم مأساة مخزية .

الحقيقة لا تتغير بتغير العنوان :

تغير العنوان والتعبير لا يغير الحقيقة ، ولذا فإن عظم قدر الشيخ حسين أحمد وغازية عالم الشيخ محمد قاسم النانوتوي وبساطة الشيخ عبد الحق لا تستطيع أن تغير الحقيقة التي أقرها القرآن الكريم في محكم آياته وأجمع عليها الصحابة وصدقها تاريخ العالم .

والحاصل أنه ليس هناك داع للقلق من الموت ، أو يجب عليكم التصريح بأن الموت شيء قبيح وفيه مهانة ، وهناك يحق لكم أن تنفوه ، فإن الإساءة إلى النبي ﷺ كفر .

كراهية الموت :

ويبين لنا القرآن أن كراهية الموت أمارة الكفر، وكان اليهود والمشركون يكرهون الموت : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ^(١) 》 .

وفي غزوة أحد كان المنافقون يقلقون من الموت ، يقول تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ^(٢) 》 .

(١) البقرة : ٩٦

(٢) النساء : ٧٨

دعوة النبي ﷺ للمباهلة :

فلهذا إذا يقاق منه الأنبياء عليهم السلام وصلاح الأمة الذين ينتظرهم مستقبل مزدهر وسعيد، والنبي ﷺ كان قد دعا مغاضيه إلى المباهلة ، فلونفينا عنه الموت فإن ذلك يصدق المثل القائل : المدعى متكاسل ، والشاهد نشيط .

ومن منزلة أهل التوحيد أنهم راضون بذلك مثل الأنبياء ، لا يفرحون بالحياة ولا يخافون الموت ، بل يستعدون لكل ما يأتي من الله تعالى .

وما الذي يدعو البريلوى أن يقول بالموت الآتى ، إن الموت إن كان منافيا لمنزلة النبوة فلماذا نثبت له للرسول ﷺ ولوللحظة ؟ وإن لم يكن منافيا فلماذا نحاول تغيير سنة الله تعالى ؟

ثم إننا لا نعرف مدى طول هذه اللحظة عند رضا خان البريلوى ، فالنبي ﷺ توفي يوم الاثنين ودفن يوم الأربعاء ، وأهل البيت قاموا بأمور التكفين والتدفين ، والصحابة اتخذوا قرارهم للخلافة في سقيفة بني ساعدة ، وصلى على النبي ﷺ الملائكة وأكثر من مائة ألف صحابي ولم تنته بعد هذا اللحظة التي أثبتها رضا خان البريلوى ، أو إن الملائكة والصحابة لم يشعروا بهذه الحياة الدنيوية للنبي ﷺ ، حتى أنهم دفنوه في اليوم الثالث وهو حي ، ولم يشعر بهذه الحياة أزواجه ولا بنته فاطمة !! وحق لشيعة « مشهود » أن يسألوكم : إن الذين دفنوا النبي

ﷺ حيا هل كانوا صحابته الصادقين ؟ و يسأل علماء الهيئة : كم ساعة تمتد هذه اللحظة ؟ يا للعقول الطائشة ويا للضحكات !

وقد صدق ابن القيم :

والله ما قدر الرسول عرفتم كلا ولا للنفس والانسان

تحقيق حياة الشهداء ونوعيتها :

كان الكفار يرون الموت عدما محضا وفقدانا كليا ، والقرآن قد أنكر هذا المعنى الاصطلاحي في حق الشهداء ، وذلك حق ، ولكنه اعترف بالقتل وهو عبارة عن الانفصال بين الجسم والروح .

وكانوا يرون أن الجزاء لا يترتب على الأعمال بعد الموت ، فنفي القرآن هذا المعنى وأعلن للشهداء الزرق والحياة الجديدة بعد الانتقال من هذه الدنيا ، وهذه الحياة تكون مختلفة عن حياة الدنيا حتى إن أهل الدنيا لا يستطيعون أن يشعروا بها ، وهذا صحيح جدا ، ولكن لا يمكن أن ننكر الموت بمعنى الانفصال بين الجسم والروح ، إن ذلك غلط محض وانكار للبداية الحسية .

ثم إن هذه الحياة إن كانت حياة دنيوية فلماذا قال تعالى : ﴿ ولا تشعرون ﴾ ؟ إن الانسان منشغل دائما بتحسين حياته الدنيوية فكيف لا يستطيع فهم هذه الحياة ؟ هذه سفسطة لا يتحملها العقل ولا يؤيدها النقل .

وبعد الكلام السابق العام لا تبقى حاجة للكلام على هذا الموضوع بصفة خاصة ، فإن الأدلة التي ساقها الشخصان تذهب بعد تحديد محل النزاع ، لأنه لم يرد ذكر الحياة الدنيوية البتة في الآيات والأحاديث وأقوال أئمة السلف ، وآراء علماء مع كونها محترمة ليست حجة في الشرع . ولكن مع ذلك ينبغي أن نلقى ضوعاً على المتمسكات الضعيفة أيضاً .

إن القرآن قد ذكر حياة الشهداء في سورة البقرة وسورة آل عمران ، يقول تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ، بل أحياء وليكن لا تشعرون ^(١) 》 .

ويقول : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ^(٢) 》 .

والآيتان تنصان على حياة الشهداء ، ولم ينكر أحد من مذاهب أهل السنة هذه الحياة . يقول الشيخ حسين أحمد : ليست حياته ﷺ روحانية فحسب ، التي حصلت لعامة الشهداء ، جسمانية أيضاً من قبيل الحياة الدنيوية ، بل أقوى منها بوجوه ^(٣) .

(١) البقرة : ١٥٤

(٢) آل عمران : ١٦٩

(٣) مكاتيب ١٣٠/١ ، نقلاً عن مجلة دار العلوم ، عدد نوفمبر ١٩٥٧ م

ومعنى ذلك أن الشيخ حسين أحمد يرى حياة الشهداء روحانية ،
وحياة الأنبياء جسمانية دنيوية أقوى من الروحانية .

والظاهر أن هذه الآية ، كما قال الشيخ : دليل على الحياة
الروحانية البرزخية التي هي أضعف . ولكن الحقيقة أن الحياة الدنيوية
الجسمية الأقوى تختلف تماما عن تلك الحياة ، فالآية لا تكون دليلا
عليها ، ولا يصح أن تقاس هذه على تلك .

ولأنكم تعلمون أن أزواج الشهداء يحل لمن أن ينكحهم مع
حياتهم ، ويقسم ميراثهم ، وحيث أن حياة الأنبياء أقوى فإن
أزواجهم لا ينكحهم ، ولا يقسم ميراثهم ، ففي مثل هذه الصورة كيف
تكون هذه الآية دليلا عليها ؟

وقال في سورة البقرة عن حياة الشهداء ﴿ لا تشعرون ﴾ أى
هذه الحياة أعلى من شعوركم . وقال في آل عمران ﴿ أحياء عند ربهم
يرزقون ﴾ فحط الفائدة قيد زائد ، وقوله : « عند الله » سواء تعلق
بـ « أحياء » أو بـ « يرزقون » كلاهما عند الله ، لا في الدنيا ، ولذا
فإن حياة الشهداء هي عند الله بنص القرآن ، وحياة الأنبياء البرزخية
جسمية دنيوية ، وبينهما بون ، ولذا لا يصح الاستدلال بهذه الآيات
على حياة الأنبياء .

فأنتم لو أنفقتم مع هذا القول فلا يكون هناك خلاف في حياة

الشهداء، ويكون الاستدلال بها على الحياة الدنيوية غير صحيح، فإذا كانت الحيانان مختلفتين لا تقاس إحداهما على الأخرى، ولا يكون الدليل على إحداهما دليلا على الأخرى.

ولو فهم الإمام الشوكاني رحمه الله بالرزق المعتاد الدنيوي فليس ذلك صحيحا، لأن حياة الشهداء إذا كانت عند الله فكيف يتأتى الرزق الدنيوي هناك؟ وإن كان المراد المعتاد البرزخي فلا يكون هذا الرزق دليلا على الحياة الدنيوية.

فالاستدلال بمثل هذا الرزق على الحياة خطأ ليس له معنى، فإن الرزق يحصل في البرزخ لسائر الأموات من المؤمنين غير الأنبياء والشهداء، انظروا إلى قول الله تعالى: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا، والله خير الرازقين^(١)﴾.

ففي الآية وعد الرزق على الموت والقتل كليهما، فإن كان الرزق يحصل لمن يموت موتا طبيعيا أيضا فلا يصح به الاستدلال على الحياة. ويلزم بناء على نظرياتكم أن أحدا لا يموت، وأن كلمة الموت وردت في اللغة بدون جدوى!

تحقيق الشاه عبد العزيز :

يقول الشاه عبد العزيز : نعم وقعت أرواح الشهداء بعيدة عن متع هذه الدنيا وتكاليفها ، ولكن لهم تمتع جسدى ، ولا يرون ما يحزن ويؤلم ألبته ، فحياتهم فى الحقيقة أتم من الحياة الدنيوية^(١).
ويقول فى موضع آخر: والتعلق الذى يحصل لأرواح الشهداء مع الطيور أيضا خارج عن عالم العناصر^(٢).

ويقول : حياة الشهداء فى عالم البرزخ حياة جزائية لا ابتدائية^(٣).
ويعلم من تصريح الشاه عبد العزيز أن حياة الشهداء ليست حياة هذه الدنيا العنصرية ، بل هى حياة عالم البرزخ ودار الجزاء. ولا نعلم من أين فهم هؤلاء الأكابر الحياة الدنيوية ، ولماذا يحبون هذه الحياة الدنيوية ، إن إشار الحياة الدنيا من رأى الكفار ودأبهم :
(قالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا^(٤)) .

أما الأنبياء والشهداء فإِنَّهم لا يتصورون ذلك ، وما أصوب قول ابن القيم :

(١) التفسير العزیزى ص ٤٧١

(٢) نفس المصدر

(٣) أيضا ص ٤٧٢

(٤) الأنعام : ٢٩

والله لا الرحمان أثبتتم ولا أرواحكم يا مدعى العرفان
 عطلم الأبدان من أرواحها والعرش عطلم من الرحمان
 وكما سبق هذه العقيدة لفرقة المعطلة كما حقق ذلك ابن القيم ،
 وكانت هذه الفرقة مبتدعة في العقائد . وعقيدة أهل السنة لا ترى
 للشهداء والأنبياء حياة دنيوية ، بل ترى لهم حياة برزخية ، كما
 صرح بذلك الشاه عبد العزيز .

تصريح العلامة الآلوسی الحنفی :

وقد فصل محقق عصره ومفتی العراق الشيخ شهاب الدين
 أبو الفضل السيد محمود الآلوسی البغدادی (م - ١٢٧٠هـ) وكان حنفياً
 الكلام على هذا الموضوع في تفسيره روح المعاني (سورة البقرة)
 فذكر خمسة مذاهب في حياة الشهداء .

الأول : أنها جسمانية .

والثاني : أنها روحانية .

والثلاثة الأخرى باطلة .

ويقول عن المذهب أنه راجح اختاره ابن عباس وقتادة
 وبجاهد والحسن وعمر بن عبد وواصل بن عطاء والجبائي والرماني
 وجماعة من المفسرين .

واختلف أهل العلم في الجسم ، فقال بعضهم بهذا الجسم الذي

استشهد به ، وقال البعض إن هذه الحياة تتعلق بالطيور التي يكون لونها أخضر وحواصلهم قناديل . والمذهب الثالث أنهم يعطون جسمًا يشبه الجسم الدنيوي ، ثم يقول : وعندى أن الحياة ثابتة لكل من يموت من شهيد وغيره ، وأن الأرواح وإن كانت جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما حس به من البدن لكن لا من تعلقها ببدن برزخي مغاير لهذا البدن الكثيف^(١).

ثم يقول : وإن أرواح الشهداء يثبت لها هذا التعلق على وجه يمتازون به عن عداهم ، أما في أصل التعلق أو في نفس الحياة بناء على أنها من المشككات لا من المتواطىء.

ويقول عن الجسم الدنيوي : وإن أرواح الشهداء يثبت لها هذا التعلق على وجه يمتازون به عن عداهم إما في أصل التعلق أو في نفس الحياة بناء على أنها من المشكك لا المتواطىء^(٢).

والشيخ الآلوسي قائل بالحياة البرزخية ، ويرى الشهداء وعامة الموتى شركاء في هذه الحياة ، لكنه يرى في هذه الحياة تشكيكا بدل التواطؤ حتى يتحقق الفرق بين الشهداء وماتر الموتى . ويتضح ببيانه المفصل هذا أن أحدا من عصر أئمة السنة إلى عصره (١٢٧٠هـ)

(١) ص ١٨ جزء (٢)

(٢) ص ١٩ ” ”

لم يقل بالحياة الدنيوية ، والذين يقولون بالتعلق مع الجسم الدنيوي هم أيضا يرون نوع هذا التعاق برزخيا ، ولا نعلم من أين تسربت هذه العقيدة الخاطئة إلى أكابر ديوبند ؟ .

ويقول العلامة الآلوسی فی نهاية بیانه : « وما یحکی من مشاهدة بعض الشهداء الذین قتلوا منذ مئات السنین وأنهم إلى اليوم تشحب جروحهم دما إذا رفعت العصاة عنها فذلك مما رواه هین بن بیان ، وما هو إلا حدیث طرفه وكلام يشهد علی مصدقيه تقديم السخافة » .
والعجب أن ثقة مثل الشيخ بدر عالم أيضا قد ذكر هذه الروایات بنقد إجمالي ، مع أنه كان ينبغي نقد هذه الروایات علی طريقة المحدثین . ردا علی مزخرفات المولوی أحمد رضا خان وفرقة ، حتی لا تفسد الشكوك أذهان عامة المسلمین .

تصريح الحافظ ابن جریر :

یرد الحافظ ابن جریر فی تفسیر سورة البقرة علی سؤال : إن الحياة البرزخية ثابتة للجميع فما وجه تخصيص الشهداء بها ؟ یقول : « إنهم مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها فی برزخهم قبل بعثتهم ، ومنعمون بالذی ینعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر من لذیذ مطاعمها الذی لم یطعمها أحد فی برزخه قبل بعثه ^(١) .

(١) تفسیر ابن جریر ٣٩/٢ - ٤٠ طبعة الحلبي الباني .

أى حياة الشهداء برزخية وليست دنيوية ، وبرزخهم نظير الجنة ، فلذا تذا الجنة تعطى لهم فى القبر ، هذه هى مزيتهم التى عبر عنها بالحياة ومنع من أن يقال لهم « أمواتا » .

والشيخ النواب صديق حسن خان حاكم ولاية بوفال كان من أهل الحديث مذهباً ، ويمكن أن تختلفوا معه من هذه الناحية ، لكن منزلته رفيعة جداً من ناحية دقة النظر وسعة الاطلاع والزهد والتقوى ، وفكره واضح جداً فى فهم القرآن ، ورأيه يبدو أصوب من كثير من أكابر القدماء ، يقول :

« بل هم أحياء فى البرزخ تصل أرواحهم إلى الجنان ، فهم أحياء من هذه الجهة ، وإن كانوا أمواتاً من جهة خروج الروح من أجسادهم^(١) .

ويقول : « وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحسن من البدن تبقى بعد الموت دراكه ، وعليه جمهور الصحابة والتابعين ، وبه نطق الآيات والسنة^(٢) .

وقد أطال العالم الشهير الملا جيون صاحب نور الأنوار فى

(١) فتح البيان ٢٠٤/١

(٢) أيضاً ٢٠٥/١

التفسيرات الإحمدية^(١). الكلام على حياة الشهداء، ووصل إلى أنها حياة برزخية.

نظرة على الأحاديث المذكورة:

ذكرت عشرة أحاديث في هذا الموضوع من كتاب حياة الأنبياء للبيهقي، وبعد تحديد محل النزاع لا يصلح واحد منها للاستدلال، ثم انه لم يذكر في واحد منها حياة الدنيوية. ونظرا إلى أهمية اسم الحديث وعلاو مكانته في الإسلام نذكر عنها بإيجاز وبما أن صاحب المقال ينتمى إلى مدرسة ديوبند العلمية نستحسن أن نلقي نظرة نقد إلى بعض هذه الأحاديث من ناحية الجرح والتوثيق.

١ - الحديث الأول: الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون (الخصائص الكبرى للبيهقي).

في سند هذا الحديث حسن بن قتيبة الخزاعي، ونقل الذهبي في ميزان الاعتدال قول ابن عدي فيه: لا بأس به، ثم ذكر رأيه ورأى الأئمة الآخرين فيه. قلت: بل هو هالك. قال الدارقطني في رواية البرقاني: متروك الحديث. قال أبو حاتم^(٢): ضعيف. قال

(١) ص ٣٩، طبعة مطبع كريمي بيومباي.

(٢) الجرح والتعديل ٣/٣٣

الأزدى : واهى الحديث . قال العقيلي^(١) : كثير الوهم^(٢) .
وقد نقل الحافظ ابن حجر في لسان الميزان^(٣) كلام الذهبي
بكامله ثم وثق جرحه ، وقد جعله الخطيب البغدادي أيضا واهي
ومتروك الحديث^(٤) .

أما قول الشوكاني في تحفة الذاكرين ضمن شرح حديث «رد الله
على روحى» ، لأنه عليه السلام حتى في قبره ، وروحه لا تفارقه لما صح
أن الأنبياء أحياء في قبورهم ، فإنه يصعب أن يراد بقوله : «صح»
الصحة المصطلح عليها بعد وجود الجرح السابق المفصل ، فيمكن أن
يكون صح بمعنى ثبت . ويجوز عند المحدثين التعبير به «ثبت»
ما لم يحكم على الحديث بالوضع قطعاً ، وقد اختار الشوكاني في
نيل الأوطار هذا اللفظ : وقد ثبت في الحديث أن الأنبياء أحياء
في قبورهم^(٥) .

ومثل هذه الأحاديث يمكن أن تذكر في مجالس الوعظ
والفضائل ، ولكن لا يقام عليها أساس العقيدة ، فإن أهل الحديث

(١) الضعفاء ٢٤١/١

(٢) الميزان ٥١٨/١ - ٥١٩

(٣) أيضا ٢٤٦/٢

(٤) تاريخ بغداد ٤٠٥/٧

(٥) تحفة الذاكرين ٣٠٥/٢

وأئمة الفن يوجبون وجود الخبر الواحد الصحيح للعقيدة، كما ذكره
 ابن القيم في الصواعق المرسلة، ويقول ابن القيم عن الحديث المذكور:
 وحديث ذكر حياتهم بقبورهم لما يصح وظاهر النكران
 فانظر إلى الاسناد تعرف حاله إن كنت ذا علم بهذا الشأن
 هذا ونحن نقول هم أحياء لا يمكن عندنا حياة ذى الأبدان
 والتراب تحتمهم وفوق رؤوسهم وعن الشئال ثم عن أيمان
 مثل الذى قد قلموه معاذنا بالله من افك ومن بهتان

صلاة موسى:

وفي الأحاديث رقم ٢، ٣، ٤، ورد ذكر موسى عليه السلام،
 بأنه ﷺ رآه في قبره يصلى، وهذه الحياة أيضا ليست دنيوية، بل
 برزخية. رآه في القبر، وكذلك اشترك في الصلاة مع الأنبياء في
 بيت المقدس، ثم قابله في السماء وأرشده إلى ما ينفع.

وهكذا رأى ﷺ يونس عليه السلام محرما ملبيا راكبا على
 الأبل، ورأى الدجال محرما ذاهبا للحج، ورأى عمرو بن لحي في
 جهنم. فهذه أجسام برزخية، ورؤية كشفية. ولو عبرنا عن ذلك
 بالحياة الدنيوية التي حصلت للخبث مثل الدجال، فأية نضاية تبقى
 للأنبياء؟

إن حياة الأنبياء عند أهل السنة أحسن وأقوى من حياة

الشهداء ، وقد حصل لهم في البرزخ العبادة والتسبيح والتهليل ورفع الدرجات . وبعض الوقائع لا يعدو أن تكون مثالية أريت للنبي ﷺ كآليات الكبرى ، ولا تلازم منها الحياة . والشيخ كاتب المقال قد نقل بعض الحكايات من كتاب الروح لابن القيم ، والعجب من أنه كيف فاتته المباحث الهامة لهذا الكتاب !

وقد نقل الحافظ ابن القيم قولاً لابن حزم من كتابه الفصل ، وانتقد بعض أجزائه ، وقد ذكر فيه هذه الحياة بوضوح ، يقول : « قلت ما ذكره ابن حزم فيه حق وباطل . أما قوله : « من ظن أن الميت يحيا في قبره خطأ ، فهذا فيه اجمال إن أراد به الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيه الروح بالبدن وتدبره وتصرفه ويحتاج معها إلى الطعام والشراب ، فهذا خطأ كما قاله ، والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص ، وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة بل تعاد الروح إليه غير الاعادة المألوفة في الدنيا ليسأل ويمتحن في قبره ، فهذا حق ، ونفيه خطأ قد دل عليه النص الصريح فتعاد روحه في جسده^(١) . »

ثم يقول : إن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام :

(١) كتاب الروح ص ٤٣

أحدها : تعلقها به في بطن الأم جنينا .

الثاني : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

الثالث : تعلقها به في حال النوم ، فلها به تعلق من وجه ، ومفارقة من وجه .

الرابع : تعلقها به في البرزخ ، فإنها وإن فارقت وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقا كلياً بحيث لا يبقى لها النفات إليه ألبتة ، وقد ذكرنا في أول الجواب من الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم ، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة .

الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد ، وهو أكل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه ، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ، ولا نوماً ، ولا فساداً^(١) .

وقد وضع الحافظ ابن القيم بذلك مذهب أهل السنة تمام التوضيح ، فلم يقل أحد من أئمة السنة من سلف الأمة بالحياة الدنيوية ، ولا نعلم من أين جاءت هذه البلية عند الشيخ عبد الحق والشيخ حسين أحمد ؟ والحقيقة أن هذا القول غير معقول وليس له توجيه .
والحديث الخامس : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

رواه أصحاب السنن وابن حبان، وصححه الحاكم^(١)، وقد نقل في تنقيح الرواة في تخريج أحاديث المشكاة تصحيح هذا الحديث عن بعض الأئمة ثم قال: «وللحديث طرق جمعها المنذرى في جزء، فتعدد الطرق^(٢) يشد بعضها بعضها^(٣)».

وكذلك حاول الحافظ ابن القيم في جلاء الأفهام رد جرح

-
- (١) أبوداود ٦٣٥/١، والنسائي ٩١/٣، وابن ماجه ٣٤٥/١، ٥٢٤، وابن حبان ١٠٣/٢، والحاكم ٢٧٨/١، وكذا أحمد ٨/٤، والدارمي ٣٠٧/١، وابن خزيمة ١١٨/٣، كلهم من طريق حسين ابن علي الجعفي، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس بن أبي أوس رضي الله عنه.
- (٢) أما قطعة «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، فقد رويت بثلاثة طرق وهي كلها مخدوشة.

وحديث أبي الدرداء الأول فيصعب صرف النظر عن جرح الإمام البخاري والإمام أبي حاتم من أنمة الحديث الماهرة فيه. وحال سنن ابن ماجه تظهر من كلام العلامة السندی. وقد ذكر الحافظ السخاوي رواية عن الطبراني، ولكن ذكر معه أيضا قول الحافظ العراقي: لا يصح. القول البديع في الصلاة على الحبيب

الشفيع ص ١١٩

(٣) ٢٥٥/١

ابن حاتم ، وأسس ذلك على الاشتباه بين عبد الرحمن بن يزيد بن جابر وبين عبد الرحمن بن يزيد بن تميم . والحق أن استيعاب قراءة مبحث جلاء الأفهام بتمامه لا يطمأن القاب والفكر .

ونقد أجلة المحدثين رحمهم الله لا يصرف النظر عنه بالاحتمالات الجدلية . ويقول الحافظ عبد العظيم المنذرى فى مختصر سنن أبى داود^(١) عن هذا الحديث : أخرجه النسائى وابن ماجه ، وله علّة دقيقة أشار إليها البخارى وغيره ، قد جمعت طرقه فى جزء .

وهكذا قال فى الترغيب والترهيب^(٢) .

وقد أوضح العلامة تقي الدين السبكي والحافظ السخاوى هذه « العلّة الدقيقة » يقول السبكي :

« وعلمته أن الحسين بن على الجعفى لم يسمع من عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر ، وإنما سمع من عبد الرحمن بن يزيد بن تميم ، وهو ضعيف . فلما حدث به الجعفى غلط فى اسم الجسد فقال : « ابن جابر^(٣) » .

وبعد مثل هذا الكلام قال الحافظ السخاوى : « ولهذا قال

(١) ٤ / ٢

(٢) ١٢٩ / ١

(٣) شفاء السقام ص ٤٧

أبو حاتم : إن الحديث منكر^(١) .

وإشارة الإمام البخاري في التاريخ الكبير والتاريخ الصغير .
يقول في الكبير تحت ترجمة عبد الرحمن بن يزيد بن تميم : يقال هو
الذي روى عنه أهل الكوفة أبو أسامة وحسين ، فقالوا عبد الرحمن
ابن يزيد بن جابر^(٢) .

ويقول في التاريخ الصغير^(٣) : وأما أهل الكوفة فرووا عن
عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، وهو ابن يزيد بن تميم ليس بابن جابر ،
وابن تميم منكر الحديث .

ونقل قول أبي حاتم ابنه الحافظ عبد الرحمن : سمعت أبي يقول :
« عبد الرحمن بن يزيد بن جابر لا أعلم أحدا من أهل العراق يحدث
عنه ، والذي عندي أن يروى عنه أبو أسامة وحسين الجعفي واحد ،
وهو عبد الرحمن بن يزيد بن تميم » .

ثم بنى على هذه العلة ونقل الرواية المذكورة وقال : وهو
حديث منكر لا أعلم أحدا رواه غير حسين الجعفي^(٤) .

وسوى هؤلاء الأئمة يقول العلامة أبو بكر بن العربي المالكي :

(١) القول البديع ص ١١٦

(٢) التاريخ الكبير ٣٦٥/٥

(٣) ١١٨/٢ من طبعة محمود ابراهيم زايد

(٤) علل الحديث ١٩٧/١

إن الحديث لم يثبت^(١).

وروى بهذا المعنى حديث آخر في سنن ابن ماجه عن
أبي الدرداء بزيادة «فنبى الله حتى يرزق»^(٢).

وقد حكم الشوكاني على السند بأنه جيد ، وتبعه صاحب تنقيح
الرواة أيضا ، ولكن ليس ذلك بصواب ، يقول الحافظ السخاوى :
« رجاله ثقات لكنه منقطع »^(٣).

ويقول السندى الحنفى فى تعليقه على ابن ماجه^(٤) : « منقطع فى
موضعين ، لأن رواية عبادة عن أبي الدرداء مرسله ، وزيد بن أيمن
عن عبادة مرسله ، قاله البخارى » .

ويقول الحافظ ابن حجر : « قال البخارى زيد بن أيمن عن
عبادة مرسله »^(٥).

وقول البخارى هذا فى التاريخ الكبير^(٦).

وقوله : « فنبى الله حتى يرزق » فى حديث أبي الدرداء عند

(١) نيل الأوطار ٢٨١/٣

(٢) كتاب الجنائز ٥٢٤/١

(٣) القول البديع ص ١١٩

(٤) ٥٠٣/١ ، وإنما هو قول البوصيرى فى مصباح الزجاجة ٥٩/٢

(٥) التهذيب ٣٩٨/٣

(٦) التاريخ الكبير ٣٨٧/٣

ابن ماجه زائد، ولفظه ينبيء أنه مدرج. ولم يذكر مجد بن تيمية في المنتقى هذه الزيادة، وقد قبل الشيخ عبد الحق الدهلوى في أشعة اللغات^(١) الادراج على طريق الشبهة، وقد اعترف أحمد رضا خان بأن هذه الزيادة مدرجة^(٢).

وقد روى هذا الحديث في ابن ماجه عن أوس بن أوس وشداد بن أوس، وليست فيه هذه الزيادة، وقد علم بهذا التفصيل أن الحكم بالجودة على سند هذا الحديث لا يخلو من سم.

ولوسلنا بصحة هذه الأحاديث فإن الحياة الدنيوية لا تثبت بها، وقد فصلت الكلام هنا حتى تنضح حقيقة هذه الأحاديث التي يحكم عليها أجلة ديوبند همسا بأنها متواترة، ويعتمدون على مدارج النبوة ومؤلفات السيوطى اعتمادا يدعو إلى الاستعجاب من الذين ينتمون إلى الشاه ولي الله الدهلوى.

ويوجد في هذه الأحاديث الضعف والانقطاع، وليكنها تتعلق بالصلاة على النبي ﷺ، لا بالحلال والحرام أو العقائد فقد ساء فيها مثل ابن القيم من أئمة الحديث، وعلى هذا تم تصحيحه بتعدد الطرق، وقد اشتهر في العامة أن مثل هذه الأحاديث تقبل في الفضائل، ولكن هذا الأصل نفسه محل نظر عند أهل التحقيق.

(١) ٥٠١/١

(٢) حاشية حياة الأموات ص ١٧٨

وقد ورد في جلاء الأفهام ، كما سبق ، بحث طويل حول حديث أبي الدرداء ، وحاول المؤلف أن يجيب عن الانقطاع والتضعيف ، وجمع الشواهد للانقطاع ، ولكنهما بأنفسهما محل النظر ، وقد ذكر الحافظ ابن القيم نفسه عال هذه الشواهد ، ثم إن هذه الشواهد تتعلق بكثرة الصلاة ، وقصد بها في الأغلب تخصيص يوم الجمعة ، وهذا لا بأس به ، أى يمكن الاستدلال بهذه الشواهد على إكثار الصلاة يوم الجمعة .

عقيدة الحياة ونتائجها:

ولكن المشكلة القائمة الآن أن البريلوية وبعض أكابر ديوبند يحاولون إثبات عقيدة الحياة الدنيوية بهذه الضعاف والمقطوعات ، وبدأوا يسمون هذا التصور البدعى بالعقيدة المتواترة ، ولذا ينبغي أن يعلم جيدا أن هذه الأسانيد مع تعدد الطرق والشواهد لا ترتفع إلى أن تكون أساسا لعقيدة .

ثم إن هذه الطرق والشواهد لا تذكر الحياة الدنيوية ، بل تكرر قوله ﷺ : « أكثروا على الصلاة يوم الجمعة » .

والطرق والشواهد التى ورد فيها ذكر الحياة بصراحة لم يصح منها واحد ، ولا يستحسن أحد محاولة إثبات العقائد بالأحاديث الصحيحة لغيرها .

أما العلماء الذين ينقل عنهم تصحيح وتوثيق هذه الأحاديث فلم يقل أحد منهم بالحياة الدنيوية ، ولم يحاول إثبات هذه العقيدة البدعية . وأكثر من تكلم في هذا المقام هو الحافظ ابن القيم ، وهو أيضا لا يقول بالحياة الدنيوية ، وكذلك لم يرض بأن يثبت بهذه الأحاديث الحياة المطلقة ، ولذلك يكون الاستدلال بهذه المباحث على هذه العقيدة المخترعة مثل تأويل القول بما لا يرضى به القائل ، وهذا ما لا يرضاه أهل العلم والفكر .

والحديث السادس صحيح ، وقد ورد فيه ذكر رد الروح عند السلام . وهذا خلاف الحياة الدنيوية . والاجوبة التي ساقها الحافظ السيوطي يبدو بها أن قلبه أيضا غير مقتنع بهذا الحديث ، فإن الخطب والتذبذب بارزان في الجواب .

أما قول الشيخ حسين أحمد فإنه معارض لنص الحديث ، فالحديث يدل على أن روح النبي ﷺ ترد للرد على السلام ، وعلى قول الشيخ حسين أحمد لاجابة لرد الروح ، ولذا ينبغي إعادة النظر إلى معنى الحديث ، فإنه لا يتضح بتوجيه الشيخ حسين أحمد .

أما الحديث السابع ، فإنه يذكر لقاء الانبياء عليهم السلام ليلة الاسراء ، ولا نعرف كيف يُستخرج منه الحياة الدنيوية !

وقد ذهب أئمة السنة في هذا اللقاء مذهبين معروفين . فالبعض يرى أنه لقاء روحى ، فقد روى في فتح الباري حديث عن البزار

والحاكم: أنه صلى بيت المقدس مع الملائكة ، ولأنه أتى هناك بأرواح الأنبياء فأنشروا على الله^(١) . والادعاء الخاطئ للحياة الدنيوية صار مشكلة وتعسر به الجمع بين الأحاديث .

والمذهب الثاني أن هذه الأرواح أعطيت أجساما مائلة ، وبهذه الأجسام تم اللقاء في بيت المقدس أو ليلة الإسراء ، وقد ذكر ذلك ابن حجر فقال :

« إن أرواحهم مشكلة بشكل أجسادهم^(٢) ، كما جزم به أبو الوفاء ابن عقيل » .

والصورتان يمكن وقوعهما في البرزخ ، وإطلاق الحياة الدنيوية عليهما ليس بمعقول .

ويصرح بعد ذلك ابن حجر فيقول : لأنه بعد موته وإن كان حيا فهي حياة أخروية لا تشبه الحياة الدنيا^(٣) .

ويقول : وهذه الحياة ليست دنيوية ، إنما هي أخروية^(٤) .

وقد قال في التلخيص الحبير^(٥) نقلا عن البيهقي : الأنبياء أحياء عند ربهم كالشهداء .

(١) فتح الباري ٧ / ٢٠٠

(٢) أيضا ٧ / ٢١٠

(٣) أيضا ٧ / ٣٤٩

(٤) أيضا ٧ / ٤

(٥) التلخيص الحبير ص ١٦٢

وهذه الحياة حياة برزخية أخروية، ولا يعقل أن يصفها عاقل بأنها حياة دنيوية.

وجميع الحقائق، مثل صلاة موسى وحج هارون ويونس واحرام المسيح والدجال تكون مثالية برزخية لا دنيوية، وقد قال النبي ﷺ حينما توفي ابنه ابراهيم: له نظرين تكلان رضاعه في الجنة^(١).

فهل ترون أن ابراهيم أعطى حياة دنيوية مع أنه ليس نبيا ولا شهيدا؟ وتوجد في كتب السنة عشرات من الأحاديث في هذا المعنى، فلو أثبتنا بها الحياة الدنيوية فكأننا قلنا إنه لا يموت أحد في الدنيا!

والأحاديث ٨، ٩، ١٠ لا تدل قطعا على الحياة الدنيوية، ولا نعرف لماذا نقلها الشيخ زاهد؟ وبعد السطور السابقة لا تبقى حاجة للكلام على هذه الأحاديث.

قصص وحكايات:

شهادة جعفر وإخبار بعض الأرواح عن دينها وما يشبه ذلك من القصص قد ورد ذكرها في كتاب الروح وشرح الصدور والخصائص الكبرى. ولكن:

أولا: ليست هذه القصص حجة شرعا.

(١) المشكاة المصابيح ١٦٢١/٣

وثانيا : ليست هذه الأدلة جديرة بالوثوق في باب العقائد .
 وثالثا : يمكن الاستدلال بها على حياة الروح ونقلها وتحركها، ولكن
 لا تثبت بها الحياة الجسمية أو الدنيوية قطعا .

ورابعا: إذا ظهر المنام والكشف من غير نبي فيمكن أن يتيقن فيه
 صاحبه ، ولكنه لا يلزم عامة المسلمين .

وسماع سعيد بن المسيب الأذان في المسجد النبوي عند وقعة
 الحرة ليس له معنى ودلالة على ما نحن فيه ، فإن سعيدا لم يكن يعرف
 صوت النبي ﷺ ، فيمكن أن يكون هذا الصوت لجنى صالح أو ملك ،
 فكيف ثبت بذلك الحياة الدنيوية للنبي ﷺ ؟

وقد نقل الشيخ عن ابن القاسم أربعة أدوار للإنسان :

الأول : دور الرحم .

والثاني : دور الدنيا .

والثالث : دور البرزخ .

والرابع : دور الآخرة .

وكل دور لاحق خير من سابقه . وعليكم أن تفكروا في هذه
 السعة ، وأن هذا الدليل لكم أو عليكم ؟ فإن كان في دور البرزخ سعة
 وهو خير من دور الدنيا فلماذا تحاولون إخراج النبي ﷺ من البرزخ
 إلى الحياة الدنيوية ؟ إن الحياة البرزخية أعلى وأرفع بكثير من
 الحياة الدنيوية .

إن أحمد رضا خان وأتباعه في غنى عن العقل والعلم ، ولكن عليكم أن تفكروا ، إن أهل التوحيد لا يتجردون من العلم والعقل : ﴿ إن في ذلك لآيات لأولى النهى ^(١) ﴾ .

ويمكن التوسع في الكتابة حول بعض أجزاء المقال ، ولكن لا أقصد البحث والمناظرة . وأحوالنا المحمية تقتضى أن لا يحاول البعيدون عنا ابداء آرائهم فيها ، فإن هذه البيئة يحسن فهمها علماءها . إن الجهود التي تبذل لفرض اللادينية لعالمكم لا تعرفونها ، ولذا لا ينبغي أن تلقى مسؤولية المستقبل عليكم ، وتستغل رسائلكم وخطبكم لأغراض سيئة خبيثة . نسأل الله تعالى التوفيق لأن نعمل شيئا لإعلاء كلمة الإسلام ، ولانكون سببا لفتح الأبواب الخفية التي تدخل منها إلينا القاديانية والرفض والبدعة والابتداع .

نظرة إلى محتويات رسالة حياة النبي ﷺ :

بعد أن أرسلت للنشر في مجلة « رحيق بلاهور » ملاحظاتي الانتقادية للقال المنشور في مجلة « دار العلوم بدوبند » إذ جاءت إلى رسالة « حياة النبي » لمؤلفه الشيخ أخلاق حسين ، التي قدم لها الشيخ سيد أبوذر البخاري .

ولكن الأسف أنها لا تحتوي إلا على اندفاع الشباب ،

ولا غرابة في ذلك فحيث لم تتوفر الأدلة وتكون النصوص معارضة بصراحة فيضطر الانسان إلى الالتفات باسم المدرسة التي ينتمى إليها وإلى التعسف والتكلف، ويبدى الشباب حماسهم وقوتهم ويستخدمون لسانهم وعقلهم في صرف النصوص عن أصلها، وهكذا ينجحون في تحويل اتجاه الأذهان إلى وقت ولو قصير، ويستبدون الجدار الذي يريد أن ينقض بالتوصل إلى عظم مكانة الصالحاء والحفاظ على منزلتهم. وهذا ما فعله أخلاق حسين وأبوذر، ولذا لا أرى حاجة للكلام على الجزء البدائي لهذه الرسالة.

وكنيت قد سمعت من بعض أصدقائي أن الشيخ محمد قاسم النانوتوى رحمه الله قد كتب رسالة في هذا الموضوع، ومع بذل الجهد لم أظفر بنسخة منها، ولكن وجدت في رسالة الشيخ أخلاق حسين اقتباسا من رسالة الشيخ النانوتوى، واسمها «آب حياة» يقول في (ص ٢٣٢) محاولا تعليل حديث «يرد الله على روعي» لأنه يعارض موقف الديوبندية، فأراد بتأويله تنجيته من الطريق:

«لما صارت روح النبي المفتوح عليها منبعا وأصلا لساائر الأرواح وخاصة أرواح المؤمنين، فأى فرد من الأمة يسلم عليه ﷺ تردّ الشعبة التي في جانبه، ولا يلزم ارتداد الشعب كلها، ومن

الظاهر أن ارتداد تلك الشبهة يكون سببا للاطلاع على السلام ،
ولكن لا يكون موجبا لزوال الاستغراق المطلق ، لأن الشعب غير
متناهي . .

ان علو مكانة الشيخ النانوتوى وسعة نظره وغزارة علمه
واخلاصه وتقواه معلوم ومعروف ، وان قلبى يرتجف من أن يقف
متواضع مثل موقف الانتقاد من الشيخ الذى يعد بحر العلم والمعرفة ،
ولكن فكرى لم يصب ، والله الحمد ، بالتقليد والجمود ، وليس أحد بعد
النبي ﷺ معصوما ، ولذلك أفكر فيما يحتوى عليه هذا الكلام الموجز ،
والأسف أن علما متبحرا مثل الشيخ النانوتوى لم يذكر دليلا ولا كتب
شيئا يؤثر فى الفكر . وقد جاءت هذه البلية بسبب أنهم قد اختاروا
نظرية خاطئة بأن حياة الانبياء ليست برزخية بل جسمية دنيوية .

وحاصل كلام الشيخ النانوتوى أنه تصور الروح التى وصفها
القرآن بالأمر مركبة فى لغة المجازات ، ثم تصور الشعب غير المتناهي ،
ثم ان عناية كل جزء من أجزاء هذا المركب يمكن أن تنصرف إلى
الجهات المختلفة ، ثم ان هذا الانقسام لا يورث خلافا فى الاستغراق
مع العناية المذكورة ، ثم ان هذه الروح منبع لعالم الأرواح
ولأرواح المؤمنين ، أى أرواح المسلمين وغيرهم تنشعب من هذه

الروح ، ولأرواح المؤمنين نسبة خاصة وصلة مع روح النبي ﷺ المفتوح عليها .

ولا يوجد في الظاهر تعقيد في كلام الشيخ النانوتوى رحمه الله ، الذى سبق أن ذكرنا ، وكل ما قاله بأسلوب المجاز والاستعارة لا يتجاوز تصريف الألفاظ وتكرارها ، ولم يذكر نصا من الكتاب والسنة يؤيد رأيه .

والقرآن الكريم إذ ذكر الروح أرشد إرشادا بليغا جامعاً :
﴿ قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ^(١) ﴾ .

كان ينبغي أن يتفكر أن تفصيل الأمر لو كان ذكر شعبه غير المتناهية لبينها القرآن .

وقد ذكر الشيخ أخلاق حسين في صفحة ١٧ كلاماً من زاد المعاد لوقارنا بينه وبين كلام الشيخ النانوتوى لعرفنا أن كلام ابن القيم أقرب إلى السنة وأنسب وأبلغ في الجمع بين الأحاديث ، وكلام الشيخ النانوتوى غير مؤثر على أنه تلعب بالألفاظ . ولانظرنا إلى حديث « يرد الله على روحى ، لذهب استدلاله كله سدى ، مع معارضته لألفاظ الحديث .

(١) الاسراء : ٨٥

علم كلام البريلوية :

تبين لنا أن لعلم البريلوية ثلاثة أصول :

الأول : الاكثار من شتم الخصم .

والثاني : توجيه المطاعن والتهم إليه بقدر الامكان حتى يختار في الرد عليها والتبرؤ منها .

والثالث : الحاق كلمة « الشريف » مع البدعة التي يراد نشرها ، مثل الحادي عشر الشريف ، المولد الشريف ، الأربعين الشريف ، وكل مسكونة تكون مركزا للشرك والبدع تضاف إليها كلمة الشريف ، وتضاف الألقاب الزائفة إلى اسم المذنب المشرك ، وذلك كي تذكره العامة الحق ، ويودوا البدع وأهلها .

إخوان ديويند :

وأصحاب ديويند قد سلوا من المرضى الأولين ، فإنيهم لا يشتمون ولا يكذبون ، ولا يكتنهم يغلون في احترام الأساتذة وبيالغون في محاسن الأكابر بطريقة خاطئة . وقد سبق أن اطلعت على قطعة من كلام الشيخ محمد قاسم رحمه الله ، وإليك الآن مثالا للبالغة في نفس الكتاب :

« كتاب آب حياة كتاب قال فيه شيخ الهند رحمه الله : إني قرأته على شيخني رحمه الله درسا درسا حتى اطلعت على مدارك المؤلف

وإني قد رجوت من الشيخ حبيب الرحمن رحمه الله بعد ذكر هذا الواقع أن يدرسني هذا الكتاب ، فقال مع ذكائه وتوقد فهمه : إني لا أستطيع ذلك ، فمثل هذا الكتاب كيف يستطيع تدريسه أمثالنا غير الأكفاء ؟ .

أرايتم هذا الكلام ؟ إنه بالأردية وليس فيه أغلاق ولا عمق ، ولو اطلعت على غاو الشيخ محمد طيب هذا لنفضت الغبار عن عيني خيفة أن يكون هناك أسد نائم . ونحن لا نشك في مكانة الرواة وثقتهم ، ولكن عرضه على الواقع يؤدي إلى صراع ذهني بأن هؤلاء الأكابر ما ذا يقولون ؟ ويمكن أن يكون موضع من الكتاب دقيقا رجع له شيخ الهند إلى أستاذه ، ولكن قراءة الكتاب كله درسا درسا أمر عجيب .

ونحن نرى أن ثلث علم كلام البريلوية ورثة أهل ديوبند من البريلويين ، وبذلك انتشرت النظرية الخاطئة التي تقول إن حياة الأنبياء دنيوية بين مدرسة ديوبند . وشبابنا الديوبنديون يرون أقوال الأساتذة لا تتحمل المس ولذا لا يجترؤون على تحليل حسناتها وقبحها : ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ (١) .

اخواني الكرام: ان طريق العلم والعقل يختلف عن ذلك تماما،
 ان احترام الاساتذة أمر، وصرف النظر عن العلم والعقل أمر آخر،
 وأمامكم أسوة الامام أبي حنيفة وتلامذته، فإننا نجد عندهم الاحترام
 والاختلاف جنباً إلى جنب، والاختلاف لم يمنعهم من إظهار الحق،
 ولم يحل إظهار الحق في طريق الاحترام والادب، وعاطفة إظهار الحق
 قد اندمجت مع الادب والاحترام بحيث أن الأستاذ لا يتمعر
 وجهه مع اختلاف تلاميذه معه في مئات من المسائل، ولا تتكدر
 طبائع التلاميذ، ولا يصل الأمر إلى التماح المبالغى فيه بين الطرفين،
 رحمهم الله ورضى عنهم

أولئك آبائي فخني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير الجامع
 وبعد ذلك وجدنا رسالة طويلة للشيخ محمد طيب نقلاها الشيخ
 أخلاق حسين، ولو فصلت الكلام على هذه الرسالة فإن وقت القراء
 يضيع في بحث غير نافع. والحقيقة أن كتابة الشيخ النانوتوى
 رحمه الله مبحث أو نظرية تشبه كتاب فصوص الحكم أو الفتوحات
 المكية، ولكن لا ينحل بها الحديث في ضوء ألفاظه. ثم ان شرح
 الشيخ طيب ليست له علاقة مع كلام الشيخ النانوتوى، بل إنه آراء
 وأخيلة ولدها ذهن الشيخ طيب، وإنه يستحسن إذا ألقى أمام الطلبة
 والمعتدين، ولكن يصعب أن يثبت على ميزان الأدلة والبراهين،
 انه بحث مستقل لا يلقى ضوءاً على كلام الشيخ النانوتوى، ولا يساعد

في حل معنى الحديث ، نعم يبدو أنه محاولة فاشلة لضم كلام النانوتوى إلى كلام ابن القيم وبعض كشف الشاه ولي الله .

وإني قد وصفت هذه المحاولة بالفشل لأن الشيخ النانوتوى يرى روح النبي ﷺ أصلاً لسائر الأرواح وخاصة أرواح المؤمنين ، ولكن الشيخ طيب يقتضى على هذا العموم بوصف النبي ﷺ بالمؤمن الحقيقي ، ويعبر عن تخصيص أهل الإيمان بأسلوب يوهم أن الروح والاميان مترادفان . والاصطلاح حق للجميع ، ونحن لا نستطيع منعه ، ولكن لينظر أهل العلم أى خبط ينشأ بذلك ؟ وكم يصعب منع برويز وخليفة عبد الحكيم من الاصطلاح ! ولذا يحسن أن يتكلم مع الناس بلغتهم ، كما فعل ابن القيم .

ثم أطال الشيخ في ذكر الشمس وأثرها في أسلوب التمثيل ، ولكن هذه المحاولة أيضاً ناقصة بسبب أن كلمة رد في قوله ﷺ : «رد الله على روحى» يقتضى غير ذلك ، نعم هذا الطول يؤدي إلى التخبط دون شك .

ولو ألقى هذا الكلام حول وجوب طاعة النبي ﷺ ، وفرض به القيد على الجمود الفقهي والصوفي لكان أنسب ، أما فهم الحديث المذكور فإن كلام الشيخ طيب يقتضى إخراج كلمة الرد من موضعه في الحديث .

وكان هناك طريق آخر للتخلص من هذا الحديث ، وذلك أن

في رواته أبا صخر حميد بن زياد، وقد رواه مسلم على طريق المتابعة، وقال يحيى بن معين أحيانا انه ضعيف، وروى عنه بعض المنكرات، فالجرح على الحديث كان طريقا للتخلص منه، أما الاعتراف بصحة الحديث ثم تغليب المصطلحات والتلاعب بالآلفاظ فإن ذلك يمهّد الطريق لأهل الاتحاد والبدع، والعلماء هم يكونون مسئولين عن ذلك. أما اختيار طريق أهل السنة بأن الحياة برزخية، وهي تجتمع مع الموت الدنيوي، فلا تضاد بينهما، وهذا هو رأى أهل التحقيق وأكابرنا.

وقد قسم الشيخ طيب الاستغراق أيضا إلى أقسام، فهناك استغراق في ذاته ﷺ، واستغراق في أرواح الأئمة، واستغراق في ذات الله تعالى.

وحيث أن أمر الروح فوق فهمنا وإدراكنا فإفادة من هذا التكلف، والفرار من ظاهر الآلفاظ لا يحسن بأئمة الكم من متبعي الحديث، هذا تصوف كسفي يشبه ما عند ابن عربي وابن سعيّد، ولا علاقة له مع زهر أبي حنيفة وأحمد وورعهم.

ورسالة الشيخ طيب كلها بالأسلوب الخطابي، ومثلها كلام الشيخ محمد قاسم رحمه الله.

ولم تكن حاجة لهذا التصريح المر إن لم تكن مضايقة أهل التوحيد من قبل أهل الابتداع في باكستان بالاستفادة من هذا التويه.

والآلفاظ المحتملة . ونحن - المساكين البعداء - نشكركم إن أحسنتم إلينا بطريق آخر ، أما الأسلوب الذى اخترتموه إلى الآن فإنه يدفعنا إلى الشكوى :

شكوت وما الشكوى لمثل عادة . ولكن يفيض الكأس عند امتلائها . إننا نود أن نسمع منكم كلام التوحيد والسنة ، وقصص السلف واعتصامهم بالسنة ، أما المتاع الذى تصدره دار العلوم فإنه يوجد بكثرة فى باكستان ، فلهذا تتجشمون المشقة ؟ اختاروا طريقا آخر لإرضاء الشيخ خير محمد .

وإنى قد صرفت النظر عن كثير من رسالة الشيخ طيب ، مع توفر مجال القول والمناقشة . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

حل بعض الشبهات :

قبل عدة شهور كنت عرضت بعض النقاط فى مجلة « رحيق » حول موضوع حياة الأنبياء . وموقف البريلوية واضح فى هذا الموضوع ، فقد كتب المولوى أحمد رضا خان فى الفتاوى الرضوية (٦١٠/١) عليه وجعل حياة الأنبياء جسمية دنيوية . ولكن موقفهم ينبى على العاطفة بدل الأدلة ، ولذا لا تؤثر فى الأوساط العلمية .

والمولوى أحمد رضا خان نفسه حينما يكتب فى مثل هذه المسائل

فإنه يختار طريق الطعن في الخصم وشتمه واتهامه بدل الاستدلال، ولا يختار طريقا إيجابيا، ولذا لا يهتم أهل العلم والنظر بكتاباته وكتابات أتباعه. ولكن منزلة أهل ديوبند تختلف عن ذلك تماما، فمنهم أهل التحقيق والنظر، ينظرون إلى الدلائل، ولا يبنون تأييد مذهبهم على العاطفة. ولكنني استغربت أن الشيخ حسين أحمد والشيخ محمد قاسم وبعض أكابر ديوبند قد اختاروا رأي الشيخ أحمد رضا خان نفسه في هذا الموضوع.

ثم زاد الاستغراب بأن جعل بعضهم هذه الصورة لحياة الأنبياء مسألة اجماعية، مع أن هذا الادعاء يناقض التحقيق والعدالة معا، بل يرى كاتب هذه السطور أن أجلة ديوبند أيضا لا يتفقون معهم في هذه المسألة. وقد أيد بعض المجلات الديوبندية مقال المنشور. والذين اختلفوا معي فلم يكن أساس الخلاف هو الأدلة والتحقيق، بل اعتمدوا على تعظيم منزلة الأساتذة أو على الجود.

ومراعاة لاتباعه أهل العلم والتحقيق سبق أن كتبت في مجلة «رحيق»، وأكتب السطور الآتية أيضا، حتى يتم التفكير في هذه المسائل على منهج أهل التحقيق من الأكابر. وإني لا أظن أن أهل الحديث أقل حبا للشاه ولي الله وأبنائه وأحفاده، أو أقل حفا في الاستفادة من تحقيقهم في المسائل، ولكن كما قال الإمام مالك رحمه الله: ما من أحد إلا ويؤخذ من قوله ويرد عليه فلا يستثنى

أحد سوى الأنبياء من هذه الكليّة ، ومع ذلك تنحنى الجباه أمام تحقيق الشاه ولي الله وأبنائه ، رحمهم الله وجعل الجنة مثواهم .

وبالنظر إلى منزلة ديوبند العلية وعلاو مكانة الشاه ولي الله رحمه الله تعالى ، لا يمكن صرف النظر عن مسألة إذا جاءت من عندهم . وقد سبق أن ذكرنا الأحاديث الواردة في هذا الباب بمقتونها وأسانيدها وآراء أئمة الحديث وأقوال المحققين وما تيسر من الأدلة في الموضوع في صفحات مجلة رحيق .

آب حياة :

وقريبا اطلعت على كتاب الشيخ النانوتوى (آب حياة) بواسطة الأخ المحترم الشيخ محمد چراغ . وكنت من ذى قبل على يقين بعلمه وجلالة قدره ، وهذا الكتاب قد زاد عندى منزلته واحترامه ، ومع ذلك أجدنى مضطرا للقول بأن أسلوب الكتاب ينبئ على التأويل لا التحقيق .

وقد ألف الشيخ هذا الكتاب في الرد على وجهة نظر الشيعة نحو الوراثة النبوية ، واختار طريق المناظرة هذا للتخلص من شبهات الشيعة ، وذلك بأن النبي ﷺ حتى بجسمه وهذه الحياة دنيوية ، وعلى هذا لا يأتى سؤال وراثته ، ومع احترامنا البالغ للشيخ فلاشك أن هذا طريق المناظرة ، ولا تنحل به النصوص التى تذكر وفاة النبي ﷺ

وانتقاله من هذه الدنيا ودفنه ، وقد صرح القرآن الكريم فقال :
 ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَيِّتُونَ^(١)﴾ ، ووردت فى الأحاديث تفاصيل
 وفاته ، ثم خطبة أبى بكر وسكوت الصحابة ورجوع عمر وحزن
 أمهات المؤمنين كل ذلك ليس بحيث نصرف عنه النظر لمكانة الشيخ
 النانوتوى العلمية .

ثم إن أكابر ديوبند أو أكثرهم لا يتفقون مع الشيخ فى هذه
 العقيدة ، وليست حقيقة أكثر من تخيل صوفى ، ويعارضها التعبير
 الظاهرى لنصوص الحديث ، ولا نقول شيئا فى الجود التقليدى ، ولكن
 البصيرة الدينية تأبى قبول هذا التأويل ، ولذلك نقول لأبناء ديوبند
 مع الأدب : إن أكابر ديوبند يستحقون الاحترام دون شك ،
 ولكن ليسوا مثل أبى حنيفة وأبى يوسف فى هذا العصر حتى نسلم جميع
 ما يقولون تقليدا لهم ، ولذا نرجو بذل الجهد حذرا من الجود ، فإن
 الكتاب والسنة بيننا وكذلك تصریح الأئمة السلف ، ولا قول لأحد
 مع الله ورسوله .

حياة النبى وأهل الحديث :

ولانى مسرور بأن مثل هذه الزلة لم تصدر عن أحد من أكابر
 أهل الحديث ، ولا يخفى ما للأسرة الغزنوية من أكابرنا من الشغف

والانصال بالنصوف ، ولـكن لم يصب الشيخ عبد الله الغزنوى ولا أحد من أبنائه وتلاميذه بمثل هذا الجود فى العقيدة ، فالحمد لله على ذلك .
والذين استفادوا من علوم الشاه إسحاق بواسطة شيخ الكل السيد نذير حسين كانوا بمعزل عن مثل هذا الاعتقاد ، وكذلك سلم من هذه التأريلات الضعيفة المهمة الذين استفادوا من علماء اليمن فى علوم السنة ، وهذه السلامة قد تحققت بناء على خلو الطريقتين من الجود التقليدى ، ففهم احترام الأساتذة ولـكن ليس على سبيل الجود والتقليد ، وهذه هى سبيل المحدثين الحقيقى . ومنذ أن وصف النقد التحقيقى بسوء الأدب سد الجود سبل العقل والفكر وتركت الأذهانُ التفكير .

موقفى فى الـكتابة :

كنت انتقدت كلام هؤلاء الأساطين فى كتابتى بإلتزام حدود الأدب . ولو كانت هذه المسألة آتية من قبل بريلى لما رأيت حاجة لـكتابة كلمة واحدة فيها ، فإن أهل بريلى لم يعرفوا التفكير ، وليس لهم تأثير فى وسط علمى .

ولـكن حماني على هذا النقد ما لأكابر ديوبند من الاحترام العلمى وتأثيره البالغ ، حتى يتعلم الطلاب النقد العلمى وعادة البحث والنظر .

وكانت لكتابتى آثار عجيبة فى أوساط مختلفة ، فقد أعجب بها البعض جدا لأنها جاءت فى أوانها ، وتناقضاتها عدة جراند الهند وباكستان . وكرهها البعض الآخر أشد الكره ورآها اساءة إلى أكابر ديوبند ، أعاذنى الله من ذلك .

وقد انتقدها البعض فى بعض أجزائها نقدا سليما ، وأشار إلى أنها لا تروى الغلة مع بسطها المعتدل ، فبعض النواحي بجملة لا بد من توضيحها .

ورأى البعض أن المسألة بأساسها تحتاج إلى إعادة النظر إلى جميع نواحيها فى ضوء النصوص . والرسائل التى وصلتني بالبريد تنحو نفس المنحى .

نظرية المنشئ محمد شفيع :

فقد لفت صديقنا المحترم المنشئ محمد شفيع اللاهورى (مشربه ديوبندى ، وهو محب للحق ومتعود على البحث والنظر والنقد والتحقيق) النظر إلى أن بعض جوانب المسألة محل للنظر ، ولذا ينبغى أن نفكر فيها أكثر .

وإنى كنت قلت فى كتابتى إن حياة الأنبياء عليها إجماع الأمة ، ومع أن صحة الأحاديث محل للنظر ولكنها تفيد بأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام :

إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء^(١).

ويقول المنشى: إن هذه الكمية ليست صحيحة بأن أجساد جميع الأنبياء حرام على الأرض، فقد علم عن أجساد بعض الأنبياء أن الأرض غير تهلا، فقد نقل الحافظ نور الدين الهيثمي (م - ٨٠٧ هـ) في مجمع الزوائد من أبي يعلى والطبراني حديث أبي موسى وعلى: فقال علماء بنى اسرائيل أن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه... إلى أن قال: فلما احتفروا أخرجوا عظام يوسف.

وترتيب الالفاظ في حديث على هكذا: قال له إنك عند قبر يوسف فاحتمل عظامه وقد استوى القبر بالأرض، إلى أن قال: فاخرج العظام وجاوز البحر^(٢).

ويرى المنشى أن الأحاديث التي وردت في سلامة الجسد الاطهر ليست صحيحة، ولكن رواية أبي يعلى صحيحة بأن عظام يوسف عليه السلام قد حملها موسى عليه السلام معه، أى كان الجلد واللحم قد بايا وبقيت العظام. وقد قال الهيثمي في رواية أبي يعلى: رجال أبي يعلى رجال الصحيح، وهذا الذى حملنى على سياقها.

(١) ابن ماجه ص ٧٧، ١١٩، والترغيب للندري ١١/٢

(٢) مجمع الزوائد ١٧١/١٠

وقال في رواية الطبراني: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه من لا أعرفهم.

ونقل المنشي نفس هذا المعنى من البداية والنهاية لابن كثير^(١). ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام. ونجد نصا آخر في ابن خلدون^(٢) يؤيد المنشي: لما فتح يوشع مدينة أريحا سار إلى نابلس فلما ودفن هنالك شلوا يوسف عليه السلام، وكانوا حملوه معهم عند خروجهم من مصر، وقد ذكرنا أنه كان أوصى بذلك عند موته.

وبهذه النصوص يبدو أن حكم عدم أكل الأرض الأجساد ليس عاما لجميع الأنبياء، بل استثنى منه البعض.

وعلى أهل العلم أن ينظروا في هذه النصوص ويحاولوا التوفيق أو الترجيح بين النصوص التي تبدو متعارضة، والمرجو من المتوسمين إلى ديوبند خاصة أن يثبتوا مذهب أكابرهم في ضوء هذه النصوص، فإِنَّ المسائل لا تنحل بالعصبية أو السخط، ولا الاعتقاد المفرط يحل محل الأدلة والبراهين.

والظاهر أن هذه الأدلة المتعارضة لا تؤثر في الحياة البرزخية،

(١) البداية والنهاية ٢٧٥/١

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٣١/١

فإنها ثابتة في جميع الأحوال ، ومع وجود أحاديث العذاب والثواب في القبر لابد أن توجد صورة للحياة في القبر ، ولكن المشكلة في الحياة النوعية ، وخاصة إذا فهمناها جسمية دنيوية ، ووجهة نظر البريلوية تزيد المسألة إشكالا ، فإنهم يرون أن صلاح الأمة يكفون في القبر ببعض التكاليف الشرعية أيضا ، وكذلك عرفت عندهم قصص العلاقات الزوجية أيضا .

وقد فصل صاحب روح المعاني تفصيلا كافيا ضمن مبحث حياة الشهداء عن أنواع هذه الحياة ، ويبدو أن المنشى محمد شفيع يقول بالحياة البرزخية للأنبياء عليهم السلام ، ولكنه لا يرى الجسم ضروريا لهذه الحياة ، ولا يشعر بضرورة لوازم الحياة الدنيوية لها .

تحليل أدلة المنشى :

ولاشك أن الأدلة تسع مثل هذا الرأي ، فإن يُقبل التصور الجسمي والدنيوي للحياة ، فلا مانع من قبول تصور المنشى هذا ؟ ولكنني أرى أن أدلة المنشى تبدو ضعيفة ومرجوحة من عدة وجوه :

- ١ - إن حديث : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . وإن لم يصح سندنا ولكن علو المنزلة الحاصل للأصول الستة على الطبراني وأبي يعلى لا يصرف النظر عنه ، فهذه الأصول من حيث المجموع فوق الطبراني وغيره . وفحول

أئمة الحديث يستدلون بكتب الطبقة الرابعة بعد النقد والتحقيق ،
أو يستدل بها أهل البدعة الذين يهدفون إلى تأييد بدعهم
ولا يهتمون بقوة الدلائل^(١).

٢ - والحافظ الهيثمي قد اعتنى في مجمع الزوائد بمجمع الزوائد فقط ،
حتى تبرز المواد لأهل العلم ، ولذا لا يتكلم على هذه الزوائد
باستيعاب ولا يخوض في تفاصيل الجرح والقدح أيضا .

٣ - وإنه قال في رواية أبي يعلى: « رجاله رجال الصحيح » وهذا
يدل على أن أصحاب الصحيح اعتمدوا على رجال هذا السند ،
ولكن ذلك لا يكفي لصحة الحديث ، فقد روى مسلم في الشواهد
عن رجال تكلم فيهم أئمة الحديث ، وإنه قد ذكر ذلك في
مقدمة صحيحه .

٤ - ثم هناك شروط أخرى لتصحيح الحديث سوى ثقة الرجال ،
ولا يُدعى في المراسيل والمقطوعات بصحة الحديث مع وجود
الرجال الثقات ، ولذا ينبغي أن تكون شروط الراوى والرواية
أمام النظر .

٥ - ويقول الهيثمي عن رواية الطبراني : رواه الطبراني في الأوسط ،
وفيه من لم أعرفهم . فالرواية التي رويت عن رجال معروفين كيف

(١) حجة الله البالغة ١/٢٨٥

يُدعى بصحتها . وبازاء هذه الروايات الضعيفة قد قبل جمهور الأمة رواية ابن مساجه مع ضعفها ، وهى : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » ، ولذا لأنها ترجح على روايات أبى يعلى والطبرانى الضعيفة ، لتلقى الأمة مفهومها بالقبول . والقرائن تقتضى أن ترجح رواية ابن مساجه ، وتُسَلِّم سلامة الجسم مثل تسليم الحياة البرزخية .

٦ - ثم إن تسليم رواية ابن مساجه على علاتها يرفع التعارض أيضا ، وذلك بأن يراد بالعظام فى رواية أبى يعلى والطبرانى نعش يوسف عليه السلام ، كما ورد فى البداية النهاية^(١) بلفظ : أخرجوا معهم تابوته ، فلا يُستبعد تعبير العظام بالتابوت وبالعكس ، وقد عُرف ارادة الجسم بالعظام فى مثل هذه المواضع .

وقد ذكر القرآن الكريم عقيدة منكرى البعث بهذه الالفاظ : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم^(٢) ﴾ . ومن المعلوم أن الكفار كانوا ينكرون بعث الأجساد ، والعجب من احياء العظام يعبر عن هذه الحقيقة ، فالمقصود : من يحيى الأجسام الهالكة . وكذلك يراد بقوله فى الحديث : « فاحتمل عظامه »

(١) البداية والنهاية ٢٧٥/١

(٢) يس : ٧٨

احتمل جسمه . وبهذا المعنى يتتقى التعارض بين الأحاديث ،
وكما أعلم أن الصحيح هو المذهب الذي اختاره أئمة السنة
والحديث .

٧ - وكلام ابن خلدون أيضا محل للنظر، فإن موسى عليه السلام
جاء بنعش يوسف معه من مصر، وأقامت بنو اسرائيل
أربعين سنة في التيه، ولم يستعدوا مع الجهد والتمني للهجوم
على بلد مجاور، ومات موسى وهارون في هذه الفترة، فقاد
يوشع بنو اسرائيل، وفتح مدينتي أريحا و نابلس، فالملظنون أن
هذه الفترة طالت سنوات. يقول ابن خلدون عند ذكر خروج
بنو اسرائيل من مصر: وأخرجوا معهم تابوت يوسف عليه
السلام^(١) وقد استعمل ابن خلدون كلتي تابوت وشلو كليهما .
وقد ذكر المسعودي في رواية صورة التابوت أيضا: قبض الله
يوسف بمصر وله مائة وعشرون سنة، وجعل في تابوت الرخام
وسد بالرصاص وطلا بالآطمية الدافعة لاهواء والماء^(٢).

ولا يعلم هل دفنت في هذه الفترة عظام يوسف أو تابوته
في التيه، ثم دفنت في نابلس بعد اخراجها، إن التأريخ ساكت
عن هذه التفاصيل، والنصوص التي نجدتها هي روايات اسرائيلية

(١) تأريخ ابن خلدون ١٢٣/١

(٢) أيضا ٤٧/١

يصعب الترجيح على أساسها. فالرأى الذى قبله جمهور الأمة هو الذى يترجح مع وجود الضعف فى الروايات. وهذه الوقائع كلها بأسلوب أخبارى، وهذا الأسلوب لا يساوى أسلوب الحديث والمحدثين.

٨ - قد ذكر أبو القاسم السهيلي أجسام بعض شهداء أحد والصلحاء فقال: إنها خرجت من قبورها بعد عدة سنوات صحيحة سليمة ثم دفنت فى موضع آخر، ثم يقول: والأخبار بذلك صحيحة^(١). ثم يقول: «قال عليه السلام: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، أخرجه سليمان بن أشعث، وذكر أبو جعفر الداودى فى كتاب التأمسى هذا الحديث بزيادة وذكر الشهداء والعلماء والمؤذنين، وهو زيادة غريبة لم تقع (لى) فى مسند غير أن الداودى من أهل الثقة والعلم.

ومع أن السهيلي والشوكاني ذكرا عن هذه الأحاديث الصحة والوثوق، ولكن مع ذلك أعترف بأن هذه الذخيرة لا تخلو من ضعف. وقد انتقدها البخارى والمنذرى والذهبي وغيرهم من أئمة الفن، وهؤلاء أوثق من السهيلي فى هذا الفن. ولذا لو أصر المنشى على رأيه فله ذلك.

ومرة أخرى أبدى رجائي من أبناء ديوبند أن يكتبوا في هذا الموضوع بالتحقيق ، ولا يكتبوا بتقليد الاساتذة الاكابر ، وكذلك لا يحموا ملاحظاتي على اساءة الادب فيسخطوا ، فإن العلم أمانة ، والجهل عن الحقائق خيانة ، والتمسك بالنصوص ديانة ، والاعراض عن التحريف والتأويل صيانة ، ومن حرم عن ذلك فقد حرم بعض الخير ، والله ولي التوفيق ، عليه توكلت وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، عليه أعتمد وإليه أنيب .

(جريدة الاعتصام بلاهور ٢٧/١٠ عدد ٣٠/١/١٩٥٩م) .



الرؤية الجاهلية والإسلامية عن القبر :

يطلق « القبر » على الأرض العميقة ، ولذلك يطلق على الحفرة التى تحفر لدفن الميت ، وقد ذكر القرآن الكريم القبر لعدة مقاصد ، يقول تعالى : ﴿ ثم أماته فأقبره - عبس : ٢١ ﴾ .
فالقصد هنا هو التحدث بالنعمة ، أى صيغت جثة الانسان من المهانة والذل بالدفن .

وقد ذكر ضمنا فى واقعة أخرى :

- ﴿ ولا تقم على قبره - التوبة : ٨٤ ﴾ .
- و ﴿ حتى زرتم المقابر - التكاثر : ٢ ﴾ .
- و ﴿ يبعث من فى القبور - الحج : ٧ ﴾ .
- و ﴿ وإذا القبور بعثرت - الانفطار : ٤ ﴾ .

و ذكر القبر فى هذه المواضع للدلالة على ما يحدث وللتذكرة ، ولم يرد به نوع من التكريم أو التحقير .

وفى بداية التاريخ كان هابيل أول قتيـل ظلما ، وكان القاتل متحيرا كيف وأين يذهب بالجثة ؟ ثم إنه عرف بدلالة غراب أن الجثث تدفن فى الأرض . وهذا الحادث يدل على عجلة الانسان وجهله .
ثم إن هابيل كان رجلا صالحا ، ولكن الانسان لم يؤمر بأن يجعل له قبة أو يكـرمه تكريما مع أنه قتل مظلوما .

أصحاب الكهف :

ويشبه ذلك حادث أصحاب الكهف ، فهؤلاء الشباب خرجوا مهاجرين في سبيل الله ولجأوا إلى غار خوفاً من الحكومة الظالمة فأخذتهم السنة ، يقول تعالى : ﴿ تحسبهم أيقاظاً وهم رقوداً ^(١) ﴾ وناموا ، وبما أن الغار كان فيه خطر بني الناس هناك مسجداً . واتخذ أهل الابتداع هذا الحادث دليلاً على جواز بناء المساجد على القبور ، ولكن هذا الاستدلال ليس في محله قطعاً ، فإن الموت لم يطرأ على أصحاب الكهف كما نص عليه القرآن ، بل كانوا أحياء نائمين ، وليس قبر أو موت ، والتعبير عن منوهم بالقبر الفخري خطأ فاحش ولغو .

الأنبياء السابقون رحمهم الله :

قد ذكر القرآن الكريم قصص الأنبياء بالتفصيل اللازم ، وأكثرهم توفوا على الأرض ودفنوا فيها ، يقول تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ^(٢) ﴾ .

فإنهم كانوا يأكلون الطعام ، ولم يكتب لهم الخلود ، وهذه

(١) الكهف : ١٨

(٢) الأنبياء : ٨

هي سنة الله تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ^(١) 〉 .

فالأنبياء عليهم السلام لم يستثنوا من هذه الكلية ، ولكن مع ذلك لم يعلم موضع قبر أحد منهم بالوجه الصحيح . ولا أقيم عليه عيد ، ولا حكي عن نبي أنه ذهب لزيارة قبر نبي آخر ، أو أمر أمته أن يعاملوا هذه المعاملة مع قبره ، أو تقدم النذور لقبر نبي من الأنبياء . وتعليم الأنبياء في هذا الباب واضح جدا ، أي أنهم لم يولوا أي أهمية لأي قبر من القبور ، وهذا يدل على أن الشرائع السابقة أيضا لم تذهب هذا المذهب في القبور .

تقاليد ما قبل الإسلام:

والدين الصحيح لم يُعط القبور أهمية ما ، ولكن الأخطاء التي ارتكبتها العامة وأعداء الأنبياء في هذا الأمر قد ذكرت تفاصيلها في الأحاديث ، وبها نعلم الأبواب الخفية التي أوجدها الشيطان وأتباعه . ومن عادة المشركين أنهم كانوا يخالفون الأنبياء عليهم السلام وأهل الحق في حياتهم ، ولما ارتحلوا بدأوا يصنعون لهم تماثيل وصورا ، واتخذوا قبورهم وسيلة للحصول على أوقواتهم .

والأحاديث الشريفة تدلنا على المقاصد التالية من القبور، ويمكن

أن نعبر عنها بالزيارة الجاهلية :

- ١ - تخصيص القبور والالافاق عليها دون حاجة .
 - ٢ - السجود عليها والاستعانة بها .
 - ٣ - بناء المساجد والمعابد عند القبور ، وكسب الدنيا بمجاورتها والمرابطة عندها .
 - ٤ - الاحتفال عند القبور مثل الأعياد والاجتماع عندها وإظهار الفرح لديها .
- وكما أن الأحاديث تدل على هذه الأمراض ، فكذلك تدل على الكراهة والتنفر ، وأقوال النبي ﷺ تنبئ أنه كان خبيراً بالأمراض القديمة ، وكان يود أن ينقذ أمته من الآثار السيئة التي ظهرت في الأمم السابقة بهذه العادات والتقاليد . ويبدو أن التعلق بالقبور على هذه الطريقة يؤدي إلى العقائد الشركية .
- وأسلوب أقوال النبي ﷺ يبين مدى تأسفه وتألمه على أهل الكتاب ، والأسباب التي لعنهم بها كان منها الطريقة السائدة لزيارة القبور .

أحاديث النبي ﷺ :

- ١ - عن جابر قال نهى رسول الله ﷺ أن يخصص القبر وأن يبنى

عليه وأن يقعد عليه ، وروى أن يكتب عليها^(١).

٢ — عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة ، وإنها بأرض الحبشة ، وذكرت له ما رأيت فيها من الصور ، فقال رسول الله ﷺ : أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله^(٢).

ويعلم من بعض الأحاديث أن ذلك وقع للنبي ﷺ في مرضه الأخير . وهذه الأحاديث تبين عدم جواز تخصيص القبور ، وأن لا يبنى قربها معبد ، وأن لا يبنى بناء على القبور لاحترامها ، فإن هذا العمل شر عند النبي ﷺ ، ومن يقوم به هو شر خلق الله .

٣ — عن عطاء بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . رواه مالك مرسلا . ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعا .

(١) مسلم ٦٦٧/٢ ، (٩٤) ، وأحمد ٢٩٥/٣ ، ٣٣٢ ، ٣٩٩ ، و ٢٩٩/٦

(٢) فتح الباري ٥٢٤/١ ، ٥٣١ ، ومسلم ٣٧٥/١ — ٣٧٦

التواتر:

وقد رويت عن النبي ﷺ أحاديث هذا المعنى بتواتر، وقد لعن النبي ﷺ في بعضها على من يفعل ذلك: فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهاي عن ذلك والتشديد فيه^(١).

وقد روى هذا الحديث في صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود وأبي حاتم والترمذي والنسائي والمنتقى، عن أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وعائشة وعبد الله بن عباس وجندب بن عبد الله البجلي وغيرهم من الصحابة.

ومعنى الحديث واضح، أى يحرم السجود نحو القبر والتوجه إليه مثل القبلة، وقد ورد في رواية جندب بن عبد الله: ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك^(٢).

وفي هذا الحديث ورد ذكر الصلحاء أيضا مع الأنبياء، ثم شدد في النهي عن جعل القبور مساجد. والقبور التي تعبد هكذا فهي في حكم الوثن عند النبي ﷺ:

عن أبي مرثد الغنوي قال: قال رسول الله ﷺ: لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها^(٣).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٧٦٢، ٧٦٥، طبعة العبيكان.

(٢) صحيح مسلم ٣٧٨/١ (٢٣)

(٣) أيضا ٦٦٨/٢ (٩٧، ٩٨)

وإن ذهب أثر القبر واستوت الأرض صحت الصلاة ، فقد روى عن مسجد الخيف والحرم المكي والمسجد النبوي انه كان في بعض منها قبور بعض المشركين وبعض الانبياء عليهم السلام ، ولكنها انعدمت الآن جميعا ، ولذا لم يبق خوف الشرك وجازت الصلاة في مساجدها .

وكان الشرع يقصد أن تكون المعابد بعيدة عن القبور تماما ، أى لا يكون قبر في مسجد ، ولا مسجد على قبر ، فإن حرمة القبر تختلف عن حرمة المسجد ، ولا ينبغي أن تجمع بينهما .

المسجد عند القبور :

ربما يبنى الناس عند المزارات والمقامات المساجد ، ويوهم ذلك أن الصلاة في هذا المسجد أفضل ، كأن الفضيلة حصلت للمسجد بسبب القبر ! إن القول بأن بيت الله يفضل بشيء آخر يعنى صريحا أن النسبة إلى الخالق لم تمنح الفضل الذى منحه النسبة إلى المخلوق ! ولكن الحق أن المسجد غنى بمكانته كما أن الله تعالى غنى عن الخلق ، ولذا كره النبي ﷺ بناء المسجد عند القبور .

وقد صرح بذلك فى رواية عائشة وجابر : إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا .

وفى رواية جابر : نهى أن يخصص القبر وأن يبنى عليه .

وهذا نهى عن بناء المسجد على القبر وعن البناء على القبر،
وتكره الصلاة في مثل هذه المساجد. بل لا تصح فيه الصلاة إذا رأى
أحد أن هذا المسجد أولى بالقبول أو الصلاة فيه أفضل من غيره.
حفلات وأعياد على القبور:

ويبدو أن الشارع يهدف بالقبر إلى أن يذكر بالخراب وتعيد
رؤيته مشهد الموت، ويبرز زوال الدنيا وفناؤها، ويزهد عن رونق
الدنيا وبهجتها. ويتحقق هذا الهدف إذا لم توجد في المقابر المباني
الرائعة مثل المدن، ولم يظهر الجمال والشوكة، والرخام والمرمر.
وبناء مثل تاج محل لا يحقق مثل هذا الهدف، بل إنه يذكر الدنيا
وثروتها وإسراف أهلها وأقبالهم على متعتها.

وكذلك ينافي هذا الهدف الصنعة والحفلات والأعياد
التي تقام على القبور، ولذلك نرى أن النبي ﷺ وجه أمته بما يأتي:
عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تجعلوا بيوتكم
قبورا، ولا تجعلوا قبرى عيداً، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغني
حيث كنتم»^(١).

زيارة الوثنيين:

كان أهل الكتاب مكلفين بالاحكام السماوية، ولذا يُستغرب
فشو عبادة القبور فيهم، ثم إن أمر التوحيد مشترك بين الشرائع،

(١) أبوداود ٣١/٦، وأحمد ٣٦٧/٢

وعبادة القبور وزيارتها الشركية تنافى تعاليم السماء وتوحيد الأنبياء، ولكن الأحاديث السابقة تدل على أن أهل الكتاب كانوا قد انحرفوا عن توجيهات السماء، وكانت عبادة القبور والمشاهد والحفلات والاجتماعات انتشرت فيهم بسبب اتباع الأوهام والظنون.

وانجاء عبادة القبور فى الوثنيين لا يبدو قويا، ولعل سببه اقتناعهم بالآصنام وانشغالهم بها عن القبور، فالذين تعودوا على عبادة الأصنام القائمين كيف يعبدون الأصحاء الراقدين؟ ولما أمكن عبادة الأشخاص البارزين فلماذا يرتبط المرء بالمستورين فى القبور؟

أصل الداء:

والداء الأصيل فى عبادة الأصنام والقبور أن المشرك لا يؤمن بالآله الغائب، وإنه لا يستطيع أن يتيقن بأن الآله الغائب والمعبود المختفى يستطيع الاسعاف بحاجته، وإنه يشعر باخلاص وحرارة أن نظام هذا العالم الكبير لا يمكن أن يدبره إله غائب وحيد: ﴿أجعل الآلهة إلهًا واحدًا، إن هذا لشيء عجاب. ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق^(١)﴾.

والحقيقة أن الناس اخترعوا التوسل بالأحياء والأموات، ومدارج المقابر ووسائل الأصنام حتى يستقر شيء أمام الأنظار

ولولم يكن دائما، ولا حرج أن زاد عدد الآلهة الوهية، فإن الحكومة الإلهية كيف تستغنى عن الأمانة؟

وجميع هذه الآفات نشأت بعلم الغيب، فإن الأنبياء يدعون إلى الإله الغائب، وأهل التوسل لا يطمئنون إلا بالشفاء الظاهر والصلحاء الوهبيين، ولذلك يروون هذه الغلة بالقبور حيناً وبالآصنام حيناً آخر.

وبما أن عباد الأصنام ارتاحوا بهذه الأوثان القائمة المرئية فلذا لم يحتاجوا إلى القبور كثيراً، ولكن عقلية الشرك تبدو مساوية، ولذا توجد بعض آثار عبادة القبور فيهم أيضاً، فقد قال ابن جرير في تفسير سورة النجم: إن ابن عباس ومجاهدا وأبا صالح شددوا التاء في اللات وقالوا: فإن رجلا بل السويق للحاج فمات فعكفوا على قبره فعبدوه^(١).

وقد حكى ذلك ابن كثير عن ربيع بن أنس^(٢)، وقد روى العلامة العيني في شرح البخاري^(٣)، وصاحب التفسير المظهرى^(٤).

(١) ابن جرير ٣٥/٢٧

(٢) ابن كثير ٢٥٣/٤

(٣) البخاري ٢٧٨/٩

(٤) التفسير المظهرى ١١٦/٩

وصاحب روح المعانى^(١) عن ابن المنذر عن ابن جريج : أنه كان رجل من ثقيف بل السويق بالزيت فلما توفى جعلوا قبره وثنا .
وهذه الآثار تدل على أن الوثنيين في العرب ربما كانوا يعبدون القبور أيضا . والإسلام قد قضى على هذه العبادات كلها بفضل الإيمان بالغيب ، وأقر ذات الله وصفاته في الأذهان على طريقة لم يشعر بعدها المؤمنون بحاجة إلى صنم أو قبر، بل لأنهم وقفوا أمام الله تعالى متوسلين بقلة بضاعتهم أو أعمالهم وفازوا في مقصدهم : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان^(٢) ﴾ .
وقال تعالى : ﴿ ادعونى أستجب لكم^(٣) ﴾ .

فالمؤمنون بعد أن آمنوا بالإله الغائب قد استغنوا عن جميع الوسائل المصطنعة التى ابتلى بها الوثنيون السطحيون والقبوريون .

القبر المخصص :

كان مرجع عبادة القبور فى العصر القديم إلى الاعتقاد والتجارة معا مثلما نرى اليوم ، فحل « المتاجرون بالعظام » محل الصالحاء والأنقياء ، وتحولت تسكينة فى عدة أسابيع إلى متجر ، وبدأ التجار

(١) الروح المعانى ٥٥/٢٧

(٢) البقرة : ١٨٦

(٣) غافر : ٦٠

يمارسون تجارة بالغة في الربح .

وقد منع الشارع الحكيم تخصيص القبر ، كما مر في حديث جابر ، بل أمر بهدم ما بنى على القبر ، فقد روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ أمر عليا : أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته .

وقد حافظ عليّ على هذا العهد في ولايته ، وعين له أبا الهياج الأسدي .

وهذه الفوضى في القبور قد وصلت إلى أن الناس عبدوا قبور بعض النساء المومسات ، وأناروا عليها السراج ، ويكسبون بها المال ، أعاذنا الله من ذلك .

يقول الإمام الشافعي : « وأحب أن لا يبنى ولا يخصص فإن ذلك للزينة والخيلاء ، وليس الموت موضع واحد منهما ، ولم أر قبور المهاجرين والأنصار بخصصة ، (قال الراوى) عن طاؤس أن رسول الله ﷺ نهى أن تبنى القبور أو تخصص .

قال الشافعي : « وقد رأيت من الولاة من يهدم بمكة ما تبنى فيها فلم أر الفقهاء يعيبون ^(١) » .

وقال مالك : « أكره تخصيص القبور والبناء عليها ، وهذه

(١) الأم للشافعي ٣٤٦/١

الحجارة التي يبنى عليها^(١).

وقد ذكر كذلك مزيدا من الآثار في نفس المعنى .

قال سخنون : « فهذه آثار في تسويتها فكيف بمن يريد أن يبنى عليها^(٢) » .

وقال العلامة الشامي : « وأما البناء عليه فلم أر من اختار جوازه^(٣) » .

ثم حكى عن الإمام أبي حنيفة : وعن أبي حنيفة يكره أن يبنى عليه بناء من بيت أو قبة ونحو ذلك ، لما روى جابر : نهى رسول الله ﷺ^(٤) .

وقال الكاساني في البدائع والصنائع : وكره أبو حنيفة البناء على القبور وأن يعلم بعلامة ، وكره أبو يوسف الكتابة^(٥) .
الزيارة المسنونة :

سبق أن ذكرنا زيارة الجاهلية وأقوال النبي ﷺ فيها ، فلنبحث الآن الزيارة المسنونة وأهدافها :

عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « كنت نهيتكم عن

(١) المدونة الكبرى ص ١٨٩

(٢) نفس المصدر

(٣) الشامي ٩٣٧/١

(٤) أيضا ٩٣٧/١

(٥) البدائع والصنائع ٣٢٠/١

زيارة القبور، فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة^(١).
ويقول العلامة الكاساني بعد ذكر رواية جابر: لأن ذلك من
باب الزينة ولا حاجة بالميت إليها، ولأنه تضييع المال بلا فائدة
فكان مكروها^(٢).

وبناء على هذا التصريح من الشامي لا يجوز بناء شيء يظهر
الزينة والجمال في المقابر باتفاق من الأئمة، ولتكن المقبرة خربة.
والقبور التي أقيمت عليها المباني لا يتحقق منها هدف الزيارة،
فالواجب للزيارة المسنونة أن يظهر منها الزهد وتذكر الآخرة.
والقباب والمباني التي أقيمت على قبور العلماء وأهل الله يكرهها الشرع
قطعا، بل لا تصح باتفاق من العلماء.

الدعاء المسنون:

وحينما يزور المرء القبر يسلم عليه ويدعو لليت مثل الجنازة
فيقول: السلام عليكم أهل الديار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله
بكم لاحقون.

وهناك أدعية أخرى رويت عن النبي ﷺ، وهي معروفة عند
أهل العلم.

(١) مسلم ٦٧١/٢، و١٥٦٤/٣، والترمذي ٣٧٠/٣، والموطأ ٤٨٥/٢،
والنسائي ٤٣٦/٢، وأحمد ٣٨/٣، وابن ماجه ٥٠١/١

(٢) البدائع والصنائع ٣٢٠/١

متى بدأت عبادة القبور :

انتشرت قبل بعث النبي ﷺ عبادة القبور في اليهود والنصارى أكثر، وكان هذا النوع من الشرك يوجد في المشركين أيضا، ولكنه كان قليلا كما سبق ذكره .

وقد بدأ اتجاه عبادة القبور في القرن الثالث ، وفقا لقول النبي ﷺ : لَتَتَّبِعَن سَنَنُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو النَّمْلِ بِالنَّمْلِ .

وقد ولد الإمام الشافعي في عام (١٥٠هـ) وقد سبق قوله بأنه رأى قبور الأنصار والمهاجرين ، إنها كانت خالية من البناء وكانت ساذجة . وإنه قد توفي (٢٠٤هـ) وكانت مقابر البقيع والمعلى ساذجة إلى ذلك الوقت ، وذلك أن أهل العلم كانوا بكثرة ، ولذا لم يمكن أن تنتشر جهالة البناء على القبور .

ولما وصلت الفتوح الإسلامية إلى البلدان النائية ، وفتحت مناطق فارس والروم ، وأثرت تعاليم الإسلام في نفوس الناس ، فتأثر المسلمون أيضا بعادات وتقاليد الأمم المفتوحة .

وكان التصوف في الإسلام عبارة عن الزهد في الدنيا والتوكل على الله والالتزام بأحكامه . وكان المسلمون يتوكلون على الله بعد بذل أقصى الجهد ، ولم يكن هناك نظام الخوانق والتكايا ولا غلو الاعتقاد والاحترام .

وحينما اختلط تعليم الإسلام بآثار اليهود والنصارى وأمم مصر والهند ظهرت صورة نظام النكاياء، وصار التصوف مركبا من تقليل الطعام وحبس النفس وعمل الأربعين وآداب المرشد والمريد وما إلى ذلك، وهذه الصفات نتيجة التصوف الذى أخذ من الخوانق وفقراء اليهود ونسك الهند، أجرى فيه بعض التغيير ثم بذل جهدا لجعل هذه الأمور ملائمة للإسلام. وكانت تتضمن بعض الفوائد والآثار النفسية فتحوّلت إلى فن. والصورة المعاصرة لعبادة القبور ناشئة عن ذلك النظام الخائفاهى وعن تلك الخلفية.

والاعتقاد الغالى فى المرشد والمريد قد أدى إلى جعل الشيخ نائبا عن الله ورسوله، ومنع من نقده واعتراضه. وهذا كما قيل^(١):
«لَوْن سِجَادَتِكَ بِالْخَيْرِ إِنْ قَالَ الْمُرْشِدُ الْخَيْرِ، فَإِنَّ السَّالِكَ لَا يَجْهَلُ طَرِيقَ وَآدَابِ الْمَرَاهِلِ».

كان من محاسن نظام الخوانق أنه يورث عاطفة بالغة للطاعة، وكانت حركة حسن بن الصباح الباطنية بأسرها مؤسسة على عاطفة الطاعة، وكان من غلو هذه العاطفة أن لم يكن هناك إذن للتكلم للراء ولو رأى من مرشده قولا أو فعلا يعارض الشريعة، وجل

(١) النص بالفارسية:

بے سجادہ رنگیں کن گرت پیر مغاں گوید
کہ سالک بیخبر نبود ز راه و رسم منزلہا

ما عليه أن ينظر ويسمع وبطبيع .

وهذا العيب لا يزال يلزم نظام الخوانق اليوم، فمهما قدمت لهم الأدلة والبراهين من الكتاب والسنة ضد عبادة القبور وتأليه الانسان، ولكنهم يفضاون أقوال وأعمال مشايخهم وأصحابهم على الكتاب والسنة، ويأتون بنكات متنوعة .

ومع صعوبة تحديد الوقت يمكن أن نعرف تدرج هذا المرض، وأنه اشتد وتفاقم في القرنين : السادس والسابع الهجري، فكانت عدة طوائف من مصطنعي الصوفية قد زينت محلاتها ونشرت تجاراتها، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية دخل في المقاومة مع فقير من الفرقة الرفاعية، وقد سبق أن أثر في الحكومة وأعيانها، إنه طالب من شيخ الإسلام أن يقتحم معه في النار، ومن لم تحرقه النار هو الصادق .

فقال شيخ الإسلام: وقبل أن ندخل في النار يجب أن نغتسل جميعا بالملح والخل .

ولكن الفقير لم يرض بذلك، وكتب الفوز لشيخ الإسلام. وقد سجل شيخ الإسلام هذا الحوار كاملا في رسالته «الصوفية والفقراء»^(١).

إيقاد السراج :

وكما أن البناء على القبور من دواعي الشرك، فكذلك ورد النهي عن إيقاد السراج عليها وقال إنه من دواعي الشرك أيضا، قال الرسول

ومعنى ذلك أن صارت هذه العادة في الأوساط الرسمية دنيوية محضة ،
ولكن أوساط الخوانق لا تزال تظنها ديناً وشرعية .

وعامة الناس يجهلون ذخائر السنة والتأريخ ، ويرون القباب على
القبور في بغداد وكربلاء والنجف ، فيحسبون أنها لا بد وأن بنيت
على أساس الأحكام الشرعية ، ولكن الحقيقة بالعكس من ذلك .

وكان الإمام الحاكم صاحب المستدرک قد رأى هذه المزارات
فقال : هذه الأسانيد صحيحة ، وليس العمل عليها ، فإن أئمة المسلمين
من الشرق والغرب مكتوب على قبورهم ، وهو عمل أخذ به الخاف
عن السلف^(١) .

والحقيقة أن هذا العمل لم يثبت عن النبي ﷺ والصحابة ، بل
فعل ذلك من جاء بعدهم ، وليس عملهم وقولهم هذا حجة ، فضلاً
عن أن يكون ناسخاً للحديث ، فإن قول النبي ﷺ لا ينسخ إلا بقوله
ﷺ ، يقول الإمام الذهبي في تلخيص المستدرک : قالت ما قلت طائلاً ،
ولا نعلم صحابيًّا فعل ذلك ، وإنما شيء أحدثه بعض التابعين فن
بعدهم ، ولم يبلغهم النهي^(٢) .

(١) المستدرک ٣٧٠/١

(٢) نفس المصدر

الروضة النبوية «قبر النبي ﷺ» :

دفن جسم النبي ﷺ بعد الوفاة في حجرته ، ودفن فيها أبو بكر، وبعد أن دفن عمر في الحجرة اتخذت عائشة جدارا فصّلت به القبر عن البيت . وقد أجرى عبد الله بن الزبير ترميما في الحجرة ، وكانت القبور حينذاك غير بمخصصة ، وفي عصر الخليفة عمر بن عبد العزيز سقط الجدار الغربي ، فأمر ابن المزاهم بتنظيف الحجرة وتجديد الجدار ، وكانت الحجرة حينذاك مربعة ، ثم أمر الخليفة عبد الملك بضم الحجرة إلى المسجد . وكان علماء المدينة المنورة يسكرون ذلك ويرون عدم إدخال القبور في المسجد ووجوب الفصل بينهما . وقد زاد الخليفة عمر بن عبد العزيز زاوية فصار البناء خمسا بعد أن كان مربعا ، وبما أن القبلة كانت في ناحية الجنوب فرأوا أن الزاوية إذا كانت في ناحية الشمال فإن السجود لا يكون للقبر الشريف يقول ابن القيم في ذلك :

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه في عزة وحماية وصيان

وتوالى بعد ذلك الترميم للحجرة ، وكان دافع الحفاظ على آثار النبي ﷺ يدفع إلى الاكتفاء بالترميم في الأغاب ، وقد ذكر العلامة علي بن عبد الله السهمودي في كتابه «وفاء الوفاء بأخبار

دار المصطفى ، ذلك بتفصيل .

وبعد أن ضمت الحجرة إلى المسجد نصب شباك من الطوب حول الحجرة ، واتصل سقفها بسقف المسجد . ثم وضع المنصور بن قلاوون الصالحى (م - ٦٧٨ هـ) الخشب مكان الشباك وكان شباك الخشب مربعا من تحته ومثمنا من فوقه ، وكان ذلك يسمى بـ « قبّة الرزاق » وكان هذا العمل قد تم بإشارة من الحاكم كمال الدين بن أحمد بن برهان عبد القوى ولكن كرهه علماء ذلك العصر ، فلما عزل كمال الدين رأى الناس ذلك جزاء لعمله القبّة .

ولما بليت هذه القبّة رثّمها الملك ناصر حسن بن محمد قلاوون ، ثم رثّمها الملك أشرف بن حسين شعبان في ٧٦٥ هـ ، واستمر هذا الترميم إلى أن تم بناء القبّة الخضراء الحالية ، وقد ذكر العلامة السموودى هذه الترميمات بتفصيل فى نحو مائة صفحة .

وقد جرى هذا التغير بناء على المصالح البنائية والحكومية ، لا على أمر أو وصية من النبي ﷺ ، ولا وجد أثر من آثار الصحابة رضى الله عنهم يثبت به ذلك ، ولم يصح عقلا أو نقلا الاستدلال ببناء القبّة الخضراء على منارات وقباب القبور الأخرى ، فإن تغير القبّة هذا لا يصلح أن يكون دليلا شرعيا .

وقد حرم المحققون من علماء الحنفية هذا الأمر بصراحة ،

يقول القاضى ثناء الله البانى بى :

«إعلاء قبور الأولياء وبناء القباب عليها والاحتفال عندها وإيقاد السرج عليها . كل ذلك بدعة ، وكره ذلك البعض تحريما ، وقد لعن النبي ﷺ موقدى السراج عند القبور والساجدين لها ، وقال ﷺ : لا تجعلوا قبرى عيداً ومسجداً ، ولا تصلوا فى مسجد مثل هذا ، ولا تحتفلوا فيه فى يوم معين ، وإنه أرسل عليا رضى الله عنه لتسوية القبور المرتفعة ولحجر التصوير (١) » .

آداب الزيارة :

تسن زيارة عامة القبور ، فليقرأ الزائر الدعاء المسنون لدى زيارة القبر ، وقد رويت ألفاظ الدعاء عن النبي ﷺ ، ومع وجود الخلاف فيها نجد أمراً مشتركاً بينها ، وهو أن جميع صيغ هذه الدعاء تتضمن الدعاء لصاحب القبر ، ولم يطلب شيء من صاحب القبر ، ومراعاة هذا الأدب ضرورية جداً ، لأن دعاء المرء الله تعالى لنفسه أو لغيره عبادة ، ففى صرف هذا الدعاء إلى الغير يسكون عبادة له . وقد قال النبي ﷺ : الدعاء مخ العبادة .

وورد فى حديث آخر : الدعاء هو العبادة .

وعبادة غير الله شرك فى الحقيقة .

والعبادة حق خاص بالله تعالى، لا يشاركه فيه ولي أو نبي . ومن دعا نبيا أو وليا فإنه جعله شريكا لله تعالى .

ونعلم من هنا أن الزائر إن دعا الله تعالى لصاحب القبر وقت الزيارة فلن ذلك عبادة يثاب عليه . وإن دعا هو صاحب القبر وسأله شيئا فإن ذلك شرك تحبط به أعماله .

بل المذهب الصحيح أن لا يرى القبر موضع التقرب ، ومن الخطأ أن يدعو عنده أحد ويحسب أن الدعاء يقبل عنده أو يقبل سريعا .

وقد اشتهر أثر يقول إن الإمام الشافعي كان يرى قبر الإمام أبي حنيفة موضع القبول ، ولكنه خطأ لا يتصل بالإمام الشافعي بسند .

والطريقة الصحيحة الوحيدة للزيارة أن يقرأ الدعاء المسنون ، ويسأل المغفرة للقبور ، كما يفعل في الجنائز ، فإن أصحاب القبور لا يستطيعون أن يأخذوا أو يعطوا شيئا ، ولذا من العبث أن نسألهم شيئا ، بل إن ذلك لائم .

الكذب والاقتراء :

سمعنا عباد القبور يقولون : « إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا بأهل القبور » .

يقال : إن ذلك حديث ، ولكن الواقع أنه ليس بحديث ، فقد صرح المحدثون بأنه كذب ، يقول ابن تيمية : هو كلام موضوع

مكذوب باتفاق العلماء^(١).

ويقول الشاه ولي الله بعد هذه الرواية : هذا قول المجاورين ،
افتروه على النبي ﷺ للحصول على النذور^(٢) . والاستدلال بالأحاديث
الموضوعة في باب العقائد جهل .

وهكذا اخترع أهل البدعة رواية أخرى : فأعينوني يا عباد الله .
ولكن لم ترد هذه الكلمات في حديث صحيح ، بل ورد عند
أبي يعلى وغيره كما يأتي : إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد :
يا عباد الله احبسوا علي ، فإن لله في الأرض حاضرا يحبسه .
وليس في هذا ذكر الاستعانة بتصور الأولياء .

ويروى عن الشافعي : أصابني ضيق فدعوت عند قبر أبي حنيفة
فأجبت^(٣) .

وهذا افتراء على الشافعي لما يأتي :
فأولا : أنه لما جاء بغداد لم يكن قبر الإمام فيها معروفا .
وثانيا : إن الشافعي كان قد جاء من الحجاز ، وكان فيها قبور الذين
هم أفضل من الإمام أبي حنيفة بكثير وكانت هناك قبور

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٦٧٧/٢

(٢) البلاغ المبين ص ٥٣

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ٦٨٥/٢

الصحابة ، فلماذا لم يعالج الشافعي فقره بالذهاب إليها ؟
 وثالثا: لماذا لم تحصل هذه الوصيفة للإمام أبي يوسف والإمام محمد
 والإمام زفر من تلاميذ الإمام؟ ولماذا لم يدعوا عند قبر
 أستاذهم؟ إن الإمام الشافعي وجد هذه الوصيفة في الحجاز،
 وحُرم التلامذة الملازمون له ليلا ونهارا!

احتفال أهل بدر:

يقول عامة القبوريين في خطبهم: إن النبي ﷺ كان يذهب إلى
 قبور شهداء بدر كل سنة. ولكن لم أجد هذا الحديث في الصحاح،
 ولا ورد ذكره في كتب التاريخ والسيرة، والمظنون أن أيدي
 القبوريين قد لعبت فيه.

وكان في غزوة بدر قتل من صناديد قريش نحو من سبعين
 نفرا، وكلهم قد ألقوا في قليب سوى أمية. واستشهد نحو أربعة عشر
 صحابيا، ولكن لم يعلم موضع دفنهم وكيفية علي وجه الصحة والتحديد.
 فلو كان النبي ﷺ يذهب إلى قبورهم كل سنة بالتزام لذكر ذلك
 في الأحاديث والآثار، ثم الجدير بالتأمل وجود هذه الطريقة في
 الصحابة، فإنهم كانوا يعملون بكل سنة من سنن النبي ﷺ ويتفانون
 في ذلك، ثم إن موقع بدر بعيد جدا من المدينة، والنبي ﷺ
 لم يعود على مثل هذا السفر، ولم تسكن أشغاله تسمح بذلك.

شهداء أحد:

قد ثبت في شهداء أحد أن النبي ﷺ ذهب إلى أحد، ويبدو هذا صواباً، فإن أحدا جزء من المدينة المنورة، ولعل طريقها مثل البقيع. وهذا لا يسمى سفراً، وإنه ﷺ لم يقيم به كل سنة، بل ذهب في عام ٨ هـ فقط، ودعا للشهداء، فقد جاء في البخاري:

عن عقبة بن عامر قال: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات^(١).

وتكرر هذا الحديث في ثلاثة مواضع من البخاري، مرة في كتاب الجنائز، ومرتين في كتاب المغازي، ويوجد خلاف يسير في الالفاظ، وبهذا الحديث تظهر الأمور التالية:

١ - لم تكن هذه الزيارة كل عام، بل الواقع المذكور خاص بعام ٨ هـ

٢ - كان هذا الحادث حادث وداع، فإن النبي ﷺ لم يذهب بعده لزيارة شهداء أحد.

٣ - ألقى النبي ﷺ هناك خطبة، وكان ﷺ يلقى مثل هذه الخطب لدى الأمور المعتادة.

ولوفهمنا في هذا الحديث من الصلاة معنى الدعاء فحسب لكان

(١) البخاري (١٧) ٣٤٨/٧

أنسب . والحنفية تذكره صلاة الجنازة على القبر بعد خمس سنوات ، فإن تفسخ الجثة يقينى في هذه المدة والشافعية تذكره صلاة الجنازة على شهيد المعركة ، والأحاديث الصحيحة تقتضى ذلك ، فالقياس أن النبي ﷺ دعا دعوة مودّع في سنة ٨ هـ ، ويمكن أن القبورين ظنوا ذلك احتفالاً ، ولكن الظاهر أن هذه الروايات لا تحمل الاحتفال ، ثم حملوا هذا الواقع على بدر أيضاً ، فإن استدلالهم يكون بهذه المثابة .

المنامات والقصص :

إن الأوساط القبورية تعتمد كثيراً على المنامات والقصص الواهية ، وثق بهذه المنسوجات العنكبوتية ، ولكن الحق أن المنامات والقصص ليست حجة شرعية .

ومن دأب أئمة السنة أنهم لا يقبلون شيئاً بدون سند ، ثم إنهم في العقائد يستدلون بما تواتر وثبت من ذخيرة الحديث ، وفي الأعمال لا يلتفتون إلى الضعاف والشواذ والمنكرات .

أما هؤلاء فيتعللون بالمنامات والأخبار الباطلة في باب العقائد . إن أئمة الأصول قد صرحوا بأن منامات الأئمة ليست حجة شرعية ولا يثبت به حكم .

ثم إن مثل هذه القصص والمنامات توجد بكثرة لدى اليهود

والنصارى والهنود وغيرهم من الأمم الوثنية، فلو فتحنا هذا الباب للاستدلال لما تعسر إثبات الوثنية والمجوسية أيضا، ونبوة القادياني أيضا تعتمد على هذه المنامات.

نعش دانيال :

ذكر البيهقي في السنن الكبرى وابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم عن أبي العالية قال لما فتحنا مُسْتَر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرا عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف له. قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون. قلت: فما صنعتكم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينشبهونه^(١).

أما رحمة الله تعالى على أهل الحق فإنها تنزل على الأحياء والأموات، ويمكن أن تنزل على دانيال، وقد نزلت على النبي ﷺ والأنبياء والصالحاء، بل نحن العصاة أيضا نرجو رحمته تعالى، واستدلال القبوريين بما مر فإن أحدا لم يستغث بدانيال حينذاك، ولا هو يجوز الآن، ولذا أخفى عمر ذلك القبر بحيث لا يستطيع أحد أن يعرفه. وهذه التعمية دليل على أن الصحابة كانوا يرون الاستعانة والاستغاثة بالقبور غير جائز.

(١) مختصرا من اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٢٩

وقد كان ذلك بأمر من عمر ، ولم يعارضه أحد من الصحابة ، وهذا يدل على أن الصحابة كانوا على إجماع ضد هذه الأعمال الشريكة ، وإلا أنهم كانوا يصرحون لعمر أيضا بما كانوا يكرهون .

وهناك محاولة لتسوية آية خاصة بالموضوع أيضا ، يقول تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ^(١) ﴾ .

معنى الآية واضح ، فمن « يئسية » والكفار بيان لأصحاب القبور ، أى يُرجى الإيمان فى الحياة ، وكذلك يتعلق الأمل بأسباب أخرى لرحمة الله ، ولكن ليس هناك معقد أمل للكفار بعد الموت ، فالمسلمون الذين يتصلون بالكفار بعد الإسلام عليهم أن يئسوا من رحمة الله . وعلى هذا ليس فى الآية مجال وسعة لعبادة القبور ، وقد اتفق جميع المفسرين فى تفسير الآية على الأسلوب المذكور .

ومن الواضح أن القرآن قد نزل لمعالجة مثل هذه الأمراض ، فكيف يسمح بالشرك ؟

وقد ذكر الشاه عبد العزيز فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ^(٢) ﴾ . أقساما مختلفة للأنداد ، وفى القسم

(١) الممتحنة : ١٣

(٢) البقرة : ٢٢

الرابع منها ذكر عباد القبور فقال :

الرابع : يقول عباد المشايخ حينما يرتحل من هذه الدنيا رجل صالح صار بكالاه في الرياضة والمجاهدة مستجاب الدعوات ومقبول الشفاعة عند الله ، وتحصل لروحه قوة عظيمة وسعة كافية ، وكل من يجعل صورته برزخا أو يسجد ويتذال في موضع قيامه وقعوده ، فتطالع عليه روحه لسعتها وإطلاقها ، وتشفع له في الدنيا والآخرة^(١).

فالشاه عبد العزيز يرى مثل هذا الاستمداد والإعانة ندا وشركا ، وإيجاب مثل هذه الوسائل والوسائط بين الله تعالى وخلقه اساعة ظن بالله ، يقول ابن القيم :

« ومن ظن له ولدا أو شريكا أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ويتوسلون بهم إليه ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه فيدعونهم ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه^(٢) ».

(١) التفسير العزيزي ١٥١/١

(٢) الهدى ١١٤/٢

القاضي ثناء الله الباني بتي:

كان القاضي ثناء الله يتبع المذهب الحنفي، وكان صوفي المشرب، صاحب نظر في الحديث، تحترمه طبقات الديوبندية والبريلوية وأهل الحديث، وله اعتقاد قوي في مجدد الألف الثاني. وله مكانة عالية بين أقرانه في العلم والفضل والزهد والتقوى والأيادة إلى الله، رحمه الله تعالى ورضي عنه ورفع درجته، إنه يقول في إرشاد الطالبين ما ملخصه:

«لو قال أحد إن الله ورسوله شاهدان على هذا العمل لكفر، والأولياء لا يوجدون المعدوم، ولا يعدمون الموجود، ونسبة الإيجاد أو الإعدام أو الرزق ومنح الأولاد ومنع الأذى والأمراض كفر، يقول تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾^(١) ولا تجوز عبادة أحد سوى الله تعالى، ولا طلب النصر من أحد، وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢) يرشدنا إلى أن نستعين بالله وحده ونخصه وحده بالعبادة، وتقديم قوله: (إِيَّاكَ) يفيد الحصر، فلا يجوز أي نذر لأولياء الله، فإن النذر عبادة، فلو نذر أحد مثل هذا النذر لما وجب عليه الوفاء به، فإن الحذر من المعصية ضروري.

(١) الأعراف: ١٨٨

(٢) الفاتحة: ٤

ولا يجوز طواف القبور ، فإن الطواف في حكم الصلاة وهو حق بيت الله . ولا يجوز دعاء الأولياء والأنبياء أحياء كانوا أو أمواتا ، فقد قال رسول الله ﷺ : إن الدعاء هو العبادة ، ثم هناك قول الله تعالى في البقرة : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لمن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾^(١) . والذين ينادون بـ « يا شيخ عبد القادر الجيلاني شيئا لله ، أو بـ « خواجه شمس الدين شيئا لله » ، فإن ذلك شرك وكفر .

ثم يقول : قوله تعالى : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾^(٢) ، لا تخص عباد الأوثان فقط ، فإن قواؤه : (من دون الله) عام ، والعبرة في الأحكام بعموم الالفاظ .

ثم يقول : إن ضم أحد إلى كلمة التوحيد قوله : « على ولي الله ، وأبو بكر ولي الله » - عزر ، وكذلك لا يجوز قول « يا محمد ، يا محمد » في الذكر والورد^(٣) .

والاستدلال بالقرآن المجيد على الشرك دعاء غير الله عجيب ، ولكن حينما تفسد عقلية الأمم تظهر منها أغرب مما ذكر ، وهكذا

(١) غافر: ٦٠

(٢) الأعراف: ١٩٤

(٣) إرشاد الطالبين ص ١٩

حال إخواننا القبوريين ، إنهم يطلبون من القرآن أدلة على الشرك والكفر !!!

إن الكتاب والسنة يهـدفان إلى القضاء على الكفر والشرك والبدع لإلحفاظ عليها ، وكانت حياة رسول الله ﷺ كلها حربا على الشرك ، ومقتضى حب الرسول واتباعه أن نعامل القبور المعاملة التي تجوز ، ونجتنب الأمور التي نهى عنها .

والذين نسميهم أولياء الله وصلوا إلى الولاية بإطاعة الله ورسوله ، فكل عمل يعارضه الكتاب والسنة ينافى الإيمان به حب الأولياء ، ولا اعتبار للعمل الديني الذي يخاو من صبغة الكتاب والسنة ، ومثل هذه الأعمال يؤدي إلى الحزى والخسران في الآخرة ، مهما كان الادعاء للحب والشغف ، وفقنا الله جميعا للعمل بالكتاب والسنة ، آمين .



الفصل التاسع

في

أسئلة عن مذهب أهل الحديث

والإجابة عنها

«كان المحامى الأستاذ عبد الحق قد تقدم بأسئلة إلى شيخ الحديث محمد اسماعيل السلفى أمير جمعية أهل الحديث المركزية، وقد أجاب عنها الشيخ اجابات شافية ننشرها فيما يلى» :

فأولا : الأسئلة :

- ١ - ما هو تعريف مذهب أهل الحديث (من حيث المذهب الفقهى) حرروا بالفاظ موجزة جامعة .
- ٢ - ما هو كتاب مذهب أهل الحديث فى أصول الفقه ؟ أفيدوا باسم الكتاب ومؤلفه .
- ٣ - ما هى أصول فقه أهل الحديث ؟
- ٤ - من هم المجتهدون لمذهب أهل الحديث ، الذين لهم مؤلفات جامعة فى فقه أهل الحديث ؟
- ٥ - كم قسما للمجتهدين فى مذهب أهل الحديث ، وما هى الأوصاف اللازمة لكل قسم ؟
- ٦ - ما هى شروط المفتى فى مذهب أهل الحديث ، وهل يجب أن يكون مجتهدا ؟
- ٧ - كم عالما يوجد فى الهند وباكستان يمكن أن نصفها بالمجتهد عند أهل الحديث ، أفيدوا بأسمائهم وعناوينهم .
- ٨ - هل يوجد فقه أهل الحديث مدونا ومرتبيا ؟ إن وجد فمن

دونه ومتى ؟ وإن كان هناك كتاب جامع لفقه أهل الحديث فأفيدونا باسمه ومؤلفه .

٩ — أليس الاستمرار في العمل بمثل هذا الفقه المدون دائما للعامي بمثابة كونه حنفيا أو شافعيا ، وما هو الفرق بين مثل هذا المقلد وبين الحنفي والشافعي ؟

١٠ — إن لم يكن فقه مذهب أهل الحديث مدونا ومرتباً فكيف يفتي علماء أهل الحديث في المسائل الاجتهادية التي يصل عددها إلى مئات الألوف ؟ هل يفتون على قول إمام في الفقه واجتهاده ، وإن كان الواقع هو الثاني أفليس ذلك تقليداً لذلك الإمام ؟ وإن كان الواقع هو الأول فهل يبقى بذلك في الأمة النظام والتناسق الذي يتحقق باتباع مذهب معين ؟ فإن الاجتهاد الشخصي لمختلف علماء الحديث لا بد وأن يختلف ، أفلا نخشى من ازدياد الاختلاف والتفرقة في مثل هذه الصورة ؟

١١ — أى شيء أفضل للعمل من بين الاجتهاد الشخصي لعالم من أهل الحديث والفقه المدون المرتب للإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي ؟ ولو اتبع عامي في المسائل الاجتهادية فقه إمام من هؤلاء الأئمة أفلا يكون هذا العامي عاملاً بالحديث خاصة إذا أبدى استعداداً لترك مسائل إمامه التي تعارض الكتاب والسنة ؟

(ملاحظة : ليراجع الأقسام الأربع للتقليد في كتاب معيار الحق

لمؤلفه السيد الشيخ نذير حسين المحدث الدهلوي رحمه الله) .

١٢ - هل يقدم علماء أهل الحديث اكل مسألة فقهية نصا صريحا من القرآن الكريم أو من الحديث الشريف ، كما يقال إنه دأب ابن حزم الظاهري ، ثم ما هو الفرق بين مذهب أهل الحديث ومذهب الظاهرية ؟

١٣ - إن كان الجواب بالإيجاب فالمرجو أن تعلنوا تقديم الآيات

والاحاديث الصريحة اكل مسألة فقهية حتى لا يبقى مجال للعتراض .

١٤ - وإن كان الجواب بالنفي فعليكم أن تقدموا حول المسائل

الفقهية بفتوى اجتهادية إلى المعارضين ، لا تكون مروية عن

أحد من الأئمة الأربعة ، ولا معارضة للكتاب والسنة ،

ويكون قول علماء أهل الحديث المفتى به .

ولو أفتيتم على قول من أقوال الأئمة المجتهدين بعد أن

وجدتموه موافقا للكتاب والسنة فلا بد أن تقدموا مصدره من

القرآن والحديث ، وإلا كان ذلك تقليدا أعمى لذلك الإمام

(بخلاف الاتباع) وهذا لا يجوز عندهم حسب قول أولئك

المجتهدين بأنه لا يجوز الافتاء على قولنا بدون دليل .

والسلام

(عبد الخالق ، كنده كوٹ)

الإجابة :

سررت بأنكم تهتمون بالدين مع اشتغالكم بالقانون . وأسلوب
الأسئلة المذكورة ينم عن اتجاهكم الجدلى فى هذه الفروع الفقهية ،
وإنكم قد راعيت القانون والمناظرة معا فى ترتيب هذه الأسئلة ، ثم
إن هذه الأسئلة تنم عن أنكم ترون أهل الحديث فرقة مضادة لأنمة
الاجتهاد ، مباينة لهم فى كل مسألة .

ودعوة الجمود التى تقدم اليوم من ديوبند وبريلى ، وكذلك من
متأخرى الشوافع فإن أهل الحديث يعارضونها كل المعارضة ، ونحن
لا نرضى بهذا الجمود قطعا ، بل نراه منافيا لدعوة الإسلام العامة
أيضا . والطالب المحب للعدل يصل بهذه الدعوة المتعصبة إلى نفس
النتيجة التى وصلتكم إليها .

ولكن دعوة أهل الحديث عامة جامعة فى الحقيقة ، وهى
تضمن المساعى الفقهية لأنمة الاجتهاد والمذاهب الأربعة . وهدف
هذه الدعوة استعراض هذه المساعى المباركة ، وفهمها فى ضوء
الكتاب والسنة ، ويُنظر إلى منهج أئمة السلف وقت التوفيق
والترجيح بين هذه الخلافات . وأهل الحديث يختلفون جزئيا مع
الفقه السائد ، ولكن حركتهم تهدف بصفة أساسية إلى الاستفادة
التحقيقية من علوم أنمة الاجتهاد وآثارهم ، أى يسكون الاختيار فى
الجزئيات الفقهية على أساس العلم والبصيرة ثم تحمل هذه النظريات

المختلفة واحترام علوم الأئمة والاستفادة منها . . . كل ذلك من روح هذه الحركة . وبعد هذا البيان الأساسي الموجز نجب على كل سؤال :

١ - مذهب أهل الحديث دعوة مؤسسة في الأصول والفروع ، أى العقائد والأعمال على ظاهر الكتاب والسنة ومنهج أئمة السلف ، أى الصحابة رضى الله عنهم ، ولم تؤسس هذه الدعوة على اسم شخصية ما بعد النبي ﷺ .

٢ - مؤلفات أصول الفقه فيما يلي : الرسالة للإمام الشافعى ، روضة الناظر لابن قدامة ، أحكام الأحكام لابن حزم ، الأحكام للأمدى ، التوضيح والتاويح للتفتازانى ، كشف الأسرار فى شرح أصول البزدوى ، الأحكام فى أصول الأحكام للعز بن عبد السلام ، القواعد لابن رجب ، القواعد والفوائد الأصولية لعلى بن عباس البعلى ، القواعد النورانية لابن تيمية ، الموافقات للشاطبى ، ارشاد الفحول للشوكانى ، حصول المأمول للنواب صديق حسن خان ، ومؤلفات قدماء الحنفية ، والتى بينت الأصول من حيث الأصول مثل مسلم الثبوت وغيره . أما مؤلفات الملا جيون والشاشى من متأخرى الحنفية فليست بتحقيقية . وقال الكاتب الجلبى فى كشف الظنون : أول من ألف فى أصول الفقه المعتزلة

وأهل الحديث ، ولكن لا ينبغي الاعتماد على كتبهم ، لأن المعتزلة يخالفوننا في العقائد ، وأهل الحديث في الفروع .
والاختلاف في أصول الفقه على نوع خاص ، والخبر لا يندفع به . وقد جمع أهل الحديث ذخيرة كبيرة في أصول الفقه سوى ما ذكر ، وكل محب للحق يواجه صعوبة في هذا الموضوع ، لأن الإمام أبا حنيفة وتلامذة أبي يوسف عامة قد وقعوا فريسة للاعتزال ، وقد تأثر القاضى عيسى بن أبان وبشر المريسي والسرخسي والكرخي بالمعتزلة قليلا أو كثيرا ، والذين لم يتأثروا بالاعتزال منهمجهم في الأصول سليم تماما .
والتفصيل في هذا الموضوع يحتاج إلى الوقت ، ثم إن هذه المسألة دراسية وليست اخبارية .

٣ - تلقى الإجابة (٢) ضوءا كافيا على إجابة هذا السؤال ، وقد تضمنت الإجابة الأولى مغزى هذا السؤال .

٤ - ليس هناك تقسيم للمجتهدين ، فمجتهدو المذاهب الأربعة أئمة ومجتهدون لدى أهل الحديث أيضا ، والمجتهدون من أئمة الحديث عند أهل الحديث هم : البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن خزيمة وابن جرير الطبري وأبو عبد الرحمن الأوزاعي وأبو يوسف ويحمد ، ولكن الحق لا ينحصر في أحد ، ولم يصل أحد إلى منزلة النبوة أو العصمة ، والخطأ ممكن مع غزارة العلم ،

وهذا هو الواقع ، ولذا لا يكون اجتهاد أحد واجب القبول أو واجب الاتباع .

٥ - تقسيم المجتهدين ليس مسألة شرعية ، والمصطلحات قد وضعت وفق قوله تعالى : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ^(١) ﴾ ، وللحفاظ على التقليد اتخذت هذه الأغلال والسلاسل ، حتى لا يسمى اختلافهم المبني على التحقيق بـ « ترك التقليد » ، وإلا كان هؤلاء الأساتذة والتلاميذ يختلفون على أساس الأدلة ، ويستغنون عن تقاليد بعضهم لبعض ، رحمهم الله تعالى .

٦ - يجب على المفتي علم آيات الأحكام وأحاديث الأحكام على الأقل ، وإحاطة مذاهب العلماء ، وعلم العربية ، وأصول الفقه ، وأصول الحديث ، وأن يتصف بالعمل والتقوى ، وليس الاجتهاد بواجب .

٧ - لم يتم احصاء المجتهدين في السابق ولا الآن ، ولم تمس الحاجة لذلك ، والافادة العلمية بالتدريس والتذكير تحدد بنفسها هذه المنزلة ، ولم يكن المجتهدون المعروفون في حياتهم عظماء لدى أقرانهم كما هم الآن ، وهكذا حال علماء أهل الحديث ، ويمكن أن يعدّ الجيل اللاحق كلا من السيد نذير حسين والشيخ

شمس الحق والشيخ شرف الحق والحافظ عبد الله الغزالي فوري
والشيخ عبد العزيز الرحيم آبادي والحافظ محمد المكهوى والحافظ
عبد المنان الوزير آبادي والشيخ عبد الجبار الغزنوي من الأئمة
المجتهدين ، ولكني لا أرى حاجة لمثل هذه الاحصائية بالقطع .

وبصفتكم رجل القانون ينبغي أن تنظروا في معنى هذا الاصطلاح
قبل عد المجتهدين ، فالعلوم التي كلف بها المجتهد اصطلاحا يصعب أن
يكون أحد من الصحابة مجتهدا في ضوئها ، بل يصعب أن يوصف
أحد من التابعين أيضا بالاجتهاد ، حتى إن أئمة الاجتهاد المتفق
عليهم لم يصلوا إلى هذه المنزلة بهذه الطرق المصطلح عليها ، والغريب
أن هذه القيود المصطلح عليها يفرضها على أئمة الاجتهاد من ليسوا
بمجتهدين ، وما أصدق قول الرسول ﷺ : إن من أشراط الساعة أن
تلد الأمة ربتها .

إن أرباب التقليد يمهّدون طريق الاجتهاد للمجتهدين ، ثم
يقفلون باب الاجتهاد بداية من المحرم عام ٤٠١ هـ ، مع وجود علوم
الاجتهاد إلى الآن . ورد في الرسالة الحميدية : ولكن من عصر أربع مائة
من الهجرة النبوية ، على صاحبها أزكى الصلاة والسلام ، قال العلماء
الأعلام ، كما ينقل عن علماء الحنفية : إن باب الاجتهاد قد انسد

من ذلك التاريخ^(١).

وبما أننا لا نرضى بتقليد المجتهد لماذا نتعب باحصاء المجتهدين ، فاحسبونا مسلما من خير القرون يسأل علماء عصره عن المسائل بدون تعيين : ثم يعمل بها حسب فهمه ووسعه ، فكما أنه لا يرى التقليد واجبا ، لا يبحث عن المجتهد .

٨ - فقه المذاهب المعروفة هو فقهننا ، ونحن نعمل به في ضوء الكتاب والسنة وفق فهمنا وحسب مقتضيات العصر بدون تخصيص ، ونختار منها المسائل والمرضى الأصلية هو تعيين فقه واحد ، وهو الذى أوثق رباط التقليد ، وأقفل باب الفكر والنظر والفهم والإدراك . وقد ألقت كتب كثيرة على هذا المنهج الفقهي ، مثل زاد المعاد ونيل الأوطار والفتح الرباني وبدور الأهلية ودليل الطالب إلى أرجح المطالب والفتاوى ، ولكنها لم تحل محل الفقه السائد لانعدام التقليد وهذا هو الأنسب ، فإن المطلوب أن يقوم العلماء بالتحقيق حسب علمهم وعلى العمامة أن يرجعوا إلى العلماء دون تخصيص ، كما كان الناس يفعلون في قرون الخير ، يقول في ذلك الشاه ولي الله : « وبعد القرنين حدث فيهم شيء من التخريج ، غير أن أهل

(١) الرسالة الحميدية ص ٣٢٨

المائة الرابعة لم يكونوا مجتمعين على التقليد على مذهب التفقه له والحكاية لقوله كما يظهر من التبعية ، بل كان فيهم العلماء والعامه ، وكان من خير العامة أنهم كانوا في المسائل الاجماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع ، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل والصلوات والزكاة من آبائهم ومعلميهم فيمشون حسب ذلك ، وإذا وقعت لهم واقعة استفوتوا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب ، وكان من خير الخاصة أنه كان أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث يتخلص إليهم من أحاديث النبي ﷺ وآثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شيء آخر^(١) .

هذا هو تصوير الاسلام الصحيح ، وبوجوده لا تمس الحاجة إلى تدوين فقه جديد ألبته ، بل يعمل بما وجد من الفقه ، ولا يضيق على الناس بالزام فقه معين ، وبذلك يتحقق هدف أهل الحديث .

وعلى هذا المنهج يأتي قول الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى .

يقول :

« فإننا نعلم بالضرورة أنه لم يكن في عصر الصحابة رجل واحد اتخذ رجلا منهم يقلده في جميع أقواله فلم يسقط منها شيئا ، وأسقط أقوال غيره فلم يأخذ منها شيئا ، ونعلم بالضرورة أن هذا لم يكن

(١) حجة الله البالغة ١/١٢٢

في التابعين ولا تابعي التابعين ، فليكن ذنبنا المقلدون برجل واحد
سلك سبيلهم الوخيمة في القرون الفضيلة على لسان رسول الله
ﷺ ، وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم على
لسانه ﷺ (١) .

وبعد هذا التوضيح ينبغي أن تفكروا جيدا في منشأ تقسيم
المجتهدين وتقسيم أصول الفقه ، إن هذا سياج مثل خيوط
العنكبوت قد أقيم للحفاظ على بنيان التقليد المتهدم ، حتى لم ينبج
منه رجل قانون مثلكم ، وإنى أستغرب كيف تبادر ذهنكم إلى
هذا السؤال !

٩ - قد مر جواب ذلك في الثامن ، والحق أنه لو تم إيجاب الالتزام
بفقه أهل الحديث مثل فقه المذاهب الأخرى لكان ذلك
تقليدا أيضا .

١٠ - قد سبق أن قلت إن سائر الفقه جدير بالعمل ، ويعمل
بجميعها العلماء بدون تخصيص حسب الظروف والأحوال ،
ويتحملون الاختلاف في الفروع ، فإن ذلك يحقق وحدة
قرون الخير . أما هذا النزاع فقد نشأ بالتقليد ، وبه سيطر
ضيق النظر على الأذهان ، وسمى الداء دواء ، وانكم تسمون

هذا الاختلاف الجامد وحدة ١١

إذا كانت المذاهب الأربعة حقا ، وهي توجد في الدنيا
فأين رأيتم الوحدة ؟ لأنكم تحملتم المذاهب الأربعة على أنها
حق ، فلو أضفتم إليها مذهب أهل الحديث لما كان ذلك ضارا
للوحد المصطلحة ، نعم يكون نطاقها أوسع قليلا ، فيأليت
العلماء يقبلونه ! والداء الأول هو التقليد الشائع ، والثاني
عادة عدم التحمل ، فلو قضيت على هذا الالتزام والايجاب
لانتهدت المشكلات كلها ، وبعض المشكلات النظرية تذهب
بنفسها بالعمل ، بل إن كثيرا من الأمور قد صبحت في هذه
القرون ، ولو تحملتم اختلاف الرأي لذهبت التفرقة ، إن
الاختلاف والتفرقة ليسا في حكم واحد ، بل الاختلاف الفقهي
شيء يتحمل ، ولكن ليس في الإسلام مكان للتفرقة .

١١ - ينبغي عرضُ الاجتهاد على الكتاب والسنة لأي عالم كان ،
ولا ينبغي إلزام الناس باجتهاد أحد إذا لم يوجد تصريح في
الكتاب والسنة ، بل إنه يعمل بأي اجتهاد شاء حسب المصالح ،
ولا يلام ولا يضيق عليه . والعامة يرجعون إلى العلماء بدون
شك ، فالمستحسن أن يتم تعويدهم للاستفسار عن المسائل باسم
الشريعة أو الكتاب والسنة ، لا باسم المجتهدين المعروفين أو الفقه
المتعارف ، وأن يحجب العلماء حسب نظرهم . والمقلد لو رضى

بترك المسائل المعارضة للكتاب والسنة فهذا النوع من التقليد متحمل وهو أنسب الأنواع ، وقد تحمل ذلك السيد نذير حسين رحمه الله والحافظ ابن القيم رحمه الله . والتجربة ترشد إلى أن يكون الاستفتاء اللازم على أساس الشريعة ، لا على الفقه المتعارف ، وقد أصلح السيد نذير حسين رحمه الله في هذا الموضوع من كتابه معيار الحق هذا الأمر .

١٢ - ان ابن حزم ينكر القياس رأساً ، وأهل الحديث يقولون بالقياس ، وبالمساواة في حكم النظائر ، ولكن إذا عارض القياسُ الكتاب والسنة في موضع فإن أهل الحديث يقدمون النصوص ، فمدة الرضاة عند الحنفية ، وهي سنتان ونصف ، واتخاذ الخل من الخمر معارضان للنصوص ، ولذا تقدم النصوص فيهما .

١٣ - تضمنت الاجابة (١٢) الاجابة على ذلك ، والقياس مقبول إن كان تابعاً للنصوص ، ولذا لا يجب اعلان جديد عن كل مسألة تعرض .

١٤ - لا ينشأ هذا السؤال بعد التصريح السابق ، وهذه الفروع الفرضية ناشئة عن دراستكم القانونية .

والسعي مبذول لأن ينظر إلى مصادر الأئمة لدى الأخذ

بأقوالهم ، ومع ذلك يُستحسن الاعترافُ بقصور النظر ، والفهم قد يخطئ ، وإن لم يتم الاطلاع على المصدر أمكن اختيار سبيل آخر .

وإني أرسل هذه الاجابات إليكم مع ضيق الوقت ، وأرجو أن تبدوا رأيكم نحوها ، وإني آثرت عدم تطويل هذا المبحث بأسلوب المناظرة ، وإلا لأنكم تعرفون أنه ليس هناك قول نهائي في هذه المباحث . وأرجو أن تراجعوا إلى إعلام الموقعين المترجم بالأردية ، وإن عرفت العربية فارجعوا إلى الاعلام ، وجامع بيان العلم وفضله ، والاحكام لابن حزم .

والسلام عليكم .

سؤال حول تصور النبي ﷺ في الصلاة وجوابه :

هل تعتقدون أنتم (الوهابيون) أن تصور النبي ﷺ في الصلاة أقرب من الحمار والثور، مع أن سورة الفاتحة تتضمن ذكر الذين أنعم الله عليهم بأعمالهم الصالحة ، والذين استحقوا الغضب بالأعمال السيئة . وكذلك يصلي على النبي ﷺ في التحيات ، وكذلك على الصالحين ، ويرد في دعاء ابراهيم ذكر الوالدين والأولاد وسائر المؤمنين ، فإذا تقولون في ذلك ؟

السائل

مرزا عمر بيك نظامي

اسلام آباد ، كوجرانوله

الجواب :

وصلتني رسالتكم وسررت بأنكم تصدّيتم للتحقيق في المسائل التي ينشرها علماء البريلوية وعامتها اختلافاً منهم وطعننا في أهل الحديث الذين قد لا يعرفون عنها شيئاً، فإن طريق التحقيق هذا يورث فيكم البصيرة وفيهم الشعور بأمانة الكلمة. وفيما يلي الجواب :

١ - الوهابية (أو أهل الوهاب) ليست مذهباً ، ونحن لا نحب أن ينسبنا أحد إليها . وكان هناك في نجد عالم معروف اسمه « محمد ابن عبد الوهاب » ، وقد حاول الإصلاح في نجد واليمن بالوعظ والارشاد ، وحذر الناس من عبادة القبور والبدع والتقاليد السيئة . وقد خالفه الناس وعارضوه ، حتى ان والده أيضاً عارضه مع كونه عالماً . وبعد جهود وهجرة استغرقت سنوات تعاون مع الشيخ آل سعود ، ثم فهم الناس هذه الدعوة شيئاً فشيئاً ، وأحس والده أيضاً أن ابنه على الصواب . والناس يسمون الشيخ وهايباً طعننا فيه ، والواقع أنه على مذهب الإمام أحمد في الفقه . وعامة الناس في بلادنا حنفية ، وفي نجد حنبلية ، والوهابية ليست فرقة ولا مذهباً ، بل أنها حركة ، والناس بابتعادهم عن الدين عامة قد ابتعدوا عنها أيضاً . وعلماء البريلوية يطعنون في مخالفهم باطلاق الوهابية عليهم ، ولكن الحقيقة أن ذلك دأب الانجليز وطريقتهم .

أما نحن فلسنا « وهابيين » ولا « أهل الوهاب » ، إنما نؤمن برسالة محمد ﷺ ، وبأن طاعته واجبة وفيها النجاة ، ونرى أن الأئمة الأربعة أئمتنا ، وأن فقه الأربعة سواء ، ونقبل المسألة التي توافق الكتاب والسنة ، ونبتعد عن هذه الفرق كلها ، ونجتنب الوثنية وعبادة المرشد ونراها معارضة للكتاب والسنة ، ولا نرضى بالاحتفال لدى القبور والخانقاهات ، ونرى أن التجارة بالصلحاء وملء البطون بهذه الطريقة لئثم .

تصور الرسول ﷺ :

إن مسألة تصور النبي ﷺ في الصلاة أو عدم تصوره ليست من مسائل العقيدة ، ولذا لم ترد في كتب العقائد ، وفي الأغلب يوجد في المكتبات العامة من هذه الكتب : شرح العقائد النسفية ، والعقيدة الطحاوية ، وشرح العقيدة الأصفهانية ، والعقيدة الصابونية ، وحاشية النخيلي على شرح العقائد النسفية للتفتازاني ، مع حاشية عبد الحكيم السيالكوتي عليها ، وشرح مطالع الأنظار (على متن طوابع الأنوار للقاضي عبد الله البضاوي) لشمس الدين الأصفهاني ، ولكن لم تذكر هذه العقيدة في أحد منها . ولا نعرف من أين اتخذها علماء البريلوية ؟ والصحيح أن الصلاة يجب أداؤها بالخشوع والخضوع ، وأن يتدبر المصلي ما يقرؤه في صلاته ، ويحاول الابتعاد عن الأفكار

المضطربة ، ولو جاءت هذه الأفكار والوسوس فعليه أن يدفعها ويتعوذ ويحوّل في نفسه .

منشأ الغلط :

منذ نحو أكثر من قرن ظهر رجل صالح اسمه السيد أحمد البريلوى ، انه كان حنفى المذهب وبلغ الغاية فى الصلاح والتقوى ، وقد جاهد ضد الشيخ والانجليز ، وقد انضم تحت لوائه وتبعه كثير من كبار العلماء ، منهم الشاه اسماعيل بن عبد الغنى بن الشاه ولى الله ، والشيخ عبد الحى البدهانوى الحنفى ، وكان الشاه اسماعيل من أهل الحديث ، والسيد أحمد البريلوى حنفيا صوفيا ، وهذا الأخير قام بتأليف كتاب فى التصوف سماه « الصراط المستقيم » وهذا الكتاب باللغة الفارسية يتضمن أربعة أبواب ، قام بترجمة بابين منها الشيخ عبد الحى البدهانوى ، وفى أحد هذين البابين وردت عبارة انخدع بها البريلويون ، أنهم لم يفهموا هذه العبارة على وجهها الصحيح (وقريبا تأتى هذه العبارة) .

والذى ينبغى ملاحظته هنا أن السيد أحمد البريلوى والشيخ عبد الحى البدهانوى كلاهما من الحنفية . أما الشاه اسماعيل فليس مؤلفا لهذا الكتاب ولا مترجما له ، ولكن الناشرين استعملوا ذكائهم فوضعوا اسمه على الكتاب لاشتهاره ، فتعرض الشاه اسماعيل لجهل

البريلويين بدون ذنب ، وهكذا التصقت التهمة بجماعة أهل الحديث
لكون الشاه اسماعيل منهم ، مع أن هذه المسألة لم تذكر في أحد من
كتب أهل الحديث .

ولاشك في أننا نرى هؤلاء الكبار أبراراً صالحاء مع أننا
نختلف معهم اختلافاً فقهياً ، ولكن لا نعتبرهم أئمة متبوعين لنا . ولبعض
هؤلاء الصالحاء مؤلفات تضم أنواعاً من المسائل ، منها ما هو خطأ ،
ومنها ما هو صواب ، وإننا لا نقلد أحداً منهم ، ولكن نراهم علماء
صالحين . ولا نعلم لماذا يكذب البريلويون فيقولون إنهم أئمتنا ، ولكن
نحن نؤكد أن كتبهم ليست حجة لدينا ، وأن هؤلاء الصالحاء ليسوا
أئمتنا ، ولذا لا يجب علينا أن نشرح تلك العبارة أو نكشف عن وجه
المغالطة فيها ، ومع ذلك استحسن توضيح تلك العبارة ومعناها .

إن السيد أحمد البريلوى يقصد بتلك العبارة أن تؤدي الصلاة
بعناية بالغة ، بحيث لا تقترب منها الوسوس والأخيلة ، وخاصة
الأخيلة التي لا تناسب عظمة الله تعالى وجلاله ، فإن الشيء الأول
في العبادة حب الله تعالى وعظمته وعأوه ، والشيء الثاني فيها تضرع
الإنسان وعجزه وافتقاره .

فالأخيلة التي تقلل من هذين الشيتين ، ولا تناسب جلال الله
تعالى وعأوه ، أو يحسب الإنسان نفسه عظيماً ويتعالى ويتكبر [فإن
ذلك مفسد للعبادة] وإن جاء ذكر الرسول ﷺ بأنه عبد الله

ورسوله فإن ذلك لا بأس فيه ، لأنه لا يعارض عظمة الله تعالى ، وفيه اعتراف بعبدية الرسول ﷺ ورسالته ، وكذلك لا يعارض خيال المغضوب أو المنعم عليهم عظمة الله تعالى ، فإن الإنعام يرمز إلى الاحتياج ، وفي الغضب تحقير لذلك العصيان ، ومن هذه الناحية لا يعارض هذا الخيال عظمة الله تعالى .

أما إذا خطر خيال ولي أو صالح أو نبي فإن ذلك ، بالنظر إلى صلاحه وعظمته ، يعارض عظمة الله تعالى وجلاله ، ولا تستطيع أن تتعوز وتحوقل لذلك . وبالعكس من ذلك إذا خطر خيال ثور أو حمار أو شيء حقير فإنك تدفعه بالتعوز والحوالة ، ولا تتأثر به عظمة الله وربوبيته وعزته .

والسيد أحمد يقصد إلى أن جميع الوسوس ينبغي أن تبعد عن الصلاة ، وهناك بعض الوسوس تحدث في الصلاة خللا أكثر وبعضها أقل . ونسكتة السيد أحمد هذه عجيبة من ناحية التصوف ، ولكن البليد الذي لا يستطيع أن يصل إلى هذا التعمق يلتجئ إلى التكفير ، والحق أن المقارنة ليست بين ذات النبي ﷺ وبين الثور ، بل بين نقص الوسوس وضررها ، وذلك أن رجلا يقول : إن الحديد الحامي أضر من ناحية الاحراق من الماء الساخن ، فالمقارنة هنا ليست بين قيمة الحديد والماء ، بل في تأثير الحرارة في الحديد والماء .

والسيد أحمد قد كتب عدة صفحات لتفهم هذا الأمر اللطيف العميق ، ولكن نفسية العلماء البريلويين العدائية قد حالت دون فهم هذا الأمر ، ولو أحببت لأرسلت إليك كتاب الصراط المستقيم حتى تفهم قول السيد أحمد بكامله ، عسى أن يفتح الله عليك .

وقال السيد أحمد أيضا: إن أثر الوسوسة يختلف في طبيعة عن أخرى حسب الطبائع ، وذلك أن الصالح مثل عمر رضى الله عنه كان يجهز الجيش وهو في صلاته ، ولم يكن ذلك يؤثر في صلاته وخشوعه ، ولذا ينبغي أن لا يفسد العامة صلاتهم بتقليد الصالحاء وأهل الله .

والسيد أحمد قد قسم الوسوسة إلى قسمين : وسوسة ليس لها علاج ، وينبغي أن يدعو لذلك الله تعالى أو يقضى فترة في صبيحة مرشد كامل . والثانية وسوسة لها علاج ، وقد ذكر هذا العلاج فقال : والذي نقل عن عمر رضى الله عنه من أنه كان يجهز الجيش في الصلاة فلا يغتر أحد بذلك حتى يفسد صلاته :

« لا تقس عمل الصالحين على نفسك ، فإن كلمة (شير) تعنى الأسد والحليب بفرق بسيط في النطق ^(١) » .

(١) ترجمة بيت فارسي نصه :

کار پاکان از قیاس خود مگیر

هست مانند در نوشتن شیر شیر

ان الخضر استحق الاجر حينما كسر السفينة وقتل الغلام ،
ولكن غيره يأثم لو فعل ذلك . وكذلك عمر الفاروق وصل منزلة
لم يكن فيها تجهيز الجيش يخل في صلاته ، بل كان يكملها ، فإن الله تعالى
كان يلقى ذلك في قلبه . أما الذي يتوجه بنفسه إلى تدبير أمر ،
سواء كان دينيا أو دنيويا ، فأمره يختلف عن أمر عمر تماما . والذي
ينكشف له هذا الأمر فإنه يعلم ، نعم إن خيال الجماع مع الزوجة
أخف من وسوسة ، بمقتضى ظلمات بعضها فوق بعض ، وصرف الهمة
إلى الشيخ أو صلاحه مثله ، ولو كان محمدا ﷺ ، أقبح من الاستغراق
في صورة الثور والحمار ، لأن خيال الشيخ يأتي إلى الانسان بتكريم
وإجلال ويلتصق به ، أما خيال الثور والحمار فلا يتعلق به مثل
الالتصاق والتعظيم ، بل يكون حقيرا وذليلا ، وتعظيم الغير هذا يؤدي
إلى الشرك . والحاصل أن المقصود هنا بيان تفاوت الوسوس .
وأصل هذا الكتاب بالفارسية ، وقد نقلت هنا مترجما بقدر الحاجة .
والسيد أحمد يذكر هنا عظمة النبي ﷺ والصلاح ، ولكن
علماء البريلوية حوالوه إلى تحقير ، والفهم المعكوس ليس له علاج ،
ومن يضل الله فلا هادي له .

والمسلمون جميعا متفقون على أن الصلاة تؤدي بالإنابة

والخشوع ، والوساوس والأخيلة تورث نقصا في الصلاة ، والسيد أحمد قد ذكر هذه المسألة وقد وضّحها بأن خيال الأشياء الرديئة والحقيرة لا يضر كثيرا لعدم أهميتها ، والأشياء العزيزة والمحجوبة تضر أكثر ، لأن عزتها وجبها يسود ويسيطر على القلب .

وهنا نتساءل العلماء البريلويين عن رأيهم ، هل يورث تصور الثور وحده نقصا في الصلاة ، وتصور الصلحاء لا يحدث أثرا فيها ؟ أم يرون الخشوع غير ضروري للصلاة ؟ إنك لا تفرق بين تصور الكافر والمشرک واليهودي والنصراني والمجوسي ، بل تراهم سواء ، وسؤالك بجزئه الأخير يُظهِر أنكم ترون تصور المغضوب عليهم والمنعم عليهم والكفار والمشرکين والصالحين جائزا ، وليس لكم بد سوى ذلك .

والحاصل أن السيد أحمد يرى الخشوع واجبا في الصلاة ، ويكره الأخيلة والوساوس ، ويفرق بين الوساوس ، فضرر البعض أكثر والبعض الآخر أقل ، والمقارنة هنا ليست بين ذات النبي ﷺ والمباركة وبين الثور (نعوذ بالله) بل بين الوساوس الحسنة ، وبين الوساوس القبيحة ، وبين الوساوس الضارة أكثر وبين الضارة أقل .

نظير فقهي :

ولتجلية الذهن أودّ أن تفكروا في بعض ما صرح به فقهاء الحنفية ، رحمهم الله تعالى :

« لو نظر مصلّ إلى المصحف وقرأ منه فسدت صلاته ، لا إلى فرج امرأة شهوة ، لأن الأول تعليم وتعلم فيها ، لا الثاني^(١) » .

وكتب المولوى أحمد رضا خان : « لو طلق المرأة رجعيًا ولم تمض العدة ، وكان فى الصلاة إذ وقع بصره على فرج المرأة الداخل وتحققت الشهوة لم تفسد صلاته^(٢) » .

فهل يتساءل هنا المولوى صادق وغيره من علماء البريلوية أن الفرج أفضل من القرآن بحيث أن الصلاة تفسد بالقرآن ، ورؤية الفرج لا تؤثر فيها !!!

وتوجد هذه المسألة فى الشامى ومراقى الفلاح . فالتوجيه الذى يختاره رجالكم لهذا هو نفسه يعذر السيد أحمد أيضا .

المسألة الثانية :

« قال إمام بعد شهر: كنت مجوسيا ، فلا إعادة عليه ، ولو قال : صليت بغير وضوء أو فى ثوب نجس أعادها إن كان متيقنا^(٣) » .

وهنا يمكن أن يقال إنكم ترون المجوسى خيرا من مسلم غير متوضىء ، فهل يحبون ذلك ؟ إن تصويب توجيهات الفقهاء يدفعنا إلى

(١) الأشباه والنظائر ص ٧٢٠

(٢) الفتاوى الرضوية ٦٧/١

(٣) الأشباه والنظائر ص ٧٢٠

تصويب توجيه السيد أحمد أيضا . عليكم أن ترجعوا إلى علمائكم لمعرفة ذلك ، ولكنني أخاف أنكم تواجهون المقاطعة من جماعتكم بعد رغبتكم في التحقيق ، ويحرم عليكم دخول مسجدكم .

إننا كما نرى الأئمة الأربعة وفقهاء المذهب صالحاء ونستفيد بعلمهم ، فكذلك نرى السيد أحمد والشيخ عبد الحى ، مع كونهما حنفيين ، من صالحائنا ، ونقبل من أقوالهم ما يوافق الكتاب والسنة ، ونصرف النظر عما لا نفهمه ، ولكن لا نشتمهما ولا نسبهما ، ولا نرى وجوب طاعتها :

﴿ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا﴾^(١) .

وختاماً أشكركم على أنكم اجترأتم على التحقيق ، وفقكم الله تعالى للفهم ، آمين ؟



تم الكتاب

يعون الملك الوهاب

توضيح حول مبحث الحياة

عند ما نشر بحث المؤلف في مجلة صوت الأمة ، واطلع عليه الشيخ سعيد أحمد المدرس في دار العلوم بديوبند ، أرسل إلى تصرّح الشيخ محمد قاسم التالى ، وهو يوضح موقفه في حياة النبي ﷺ :
قال الشيخ محمد قاسم النانوتوى في رسالته إلى الشيخ محمد صديق المراد آبادى :

«أتذكر أن أكثر الأحاديث في باب الحياة ضعيفة ، ودون الاطالة أود أن أقول : مع أن هذه هي العقيدة ، وأعلم أنها تكون هكذا إن شاء الله ، ولكنى لا أرى هذه العقيدة من العقائد الضرورية ولا أقوم بتعليمها ، ولا أتخاصم مع منكريها ، ولا أبينها لأحد .
ولو سئلت عنها ولم أخش الفساد لبينتها دون مبالاة ، فمن الخير أن تراعوا هذا الأمر^(١) .»



(١) لطائف قاسمى ص ٥

١ - فهرس المصادر

(١) القرآن الكريم

الف

الآلوسی ، أبو الثناء ، شهاب الدین محمود بن عبد الله ، المعروف بالآلوسی

الکبیر ، (م - ١٢٧٠هـ)

(٢) «روح المعانی»

ادارة الطباعة المنيرية بمصر، ١٢٦٧هـ

ابراهيم بن علی بن محمد ، ابن فرحون برهان الدين (م - ٧٩٩هـ)

(٣) «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب»

دار التراث للطبع والنشر ، القاهرة

أحمد رضا خان بن نقي علی البریلوی (م - ١٣٤٠هـ)

(٤) «حاشية حياة الأموات»

(٥) «العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية»

رضا اکیدیمی ، بومبای ، ١٤٠٥هـ

(٦) «ملفوظات»

أحمد بن محمد الحنفى الجموى (م - ١٠٩٨ هـ)
(٧) « غمز عيون البصائر على محاسن الأشباه والنظائر »

طبعة نول كشور بلسكنو، ١٢٩٤ هـ

الأشعرى، أبو الحسن على بن اسماعيل (م - ٣٣٠ هـ)
(٨) « مقالات الاسلاميين »

مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٩ هـ

الالبانى، محمد ناصر الدين

(٩) « صفة صلاة النبي ﷺ »

ب

بحر العلوم، عبد العلى بن نظام الدين الأنصارى (م - ١٢٢٥ هـ)

(١٠) « فوائخ الرحموت فى شرح مسلم الثبوت »

طبعة نول كشور بلسكنو، ١٢٩٥ هـ

البخارى، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (م - ٢٥٦ هـ)

(١١) « الجامع الصحيح »

طبعة أصح المطابع بدهلى، ١٣٨٤ هـ

(١٢) « التاريخ الكبير »

دار الكتب العلمية، بيروت

(١٣) « علل الحديث »

البخارى، عبد العزيز بن أحمد (م - ٧٣٠ هـ)

(١٤) « كشف الأسرار »

(١٥) « شرح المنتخب الحسامي »

البزدوى ، أبو الحسن علي بن محمد ، نخر الاسلام (م - ٤٨٢ هـ)

(١٦) « أصول البزدوى »

البغدادي ، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد (م - ٤٢٠ هـ)

(١٧) « الفرق بين الفرق »

البقا ، محمد بن عبد الرحمن الغازيفوري (م - ١٣٣٤ هـ)

(١٨) « سر من رأى في بحث الجمعة في القرى »

البوصيري ، أحمد بن أبي بكر بن اسماعيل (م - ٨٤٠ هـ)

(١٩) « مصباح الزجاجية في زوائد ابن ماجه »

دار العربية ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ

البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (م - ٤٨٨ هـ)

(٢٠) « جزء القراءة »

ت

الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (م - ٢٧٩ هـ)

(٢١) « السنن الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذى »

التفتازاني ، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله (م - ٧٩١ هـ)

(٢٢) « التلويح إلى كشف غوامض التنقيح »

ابن تيمية ، شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام (م - ٧٢٨ هـ)

(٢٣) « مجموع فتاوى ابن تيمية »

ترتيب ، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدى الحنبلى

الطبعة الأولى بالرياض ، ١٣٨١ هـ

(٢٤) « منهاج السنة النبوية »

(٢٥) « اقضاء الصراط المستقيم »

طبعة العبيكان

(٢٦) « رد المنطق »

(٢٧) « نقض المنطق »

(٢٨) « القواعد النورانية »

ث

ثناء الله ، البانى بى ، القاضى (م - ١٢٢٥ هـ)

(٢٩) ارشاد الطالبين

ج

الجبلى ، حسن بن ابراهيم بن حسن الزيلعى الحنفى (م - ١١٨٨ هـ)

(٣٠) « الأقوال المعربة عن أحوال الأشربة »

الخصاص ، أبو بكر أحمد بن على (م - ٣٧٠ هـ)

(٣١) « أحكام القرآن »

الملاحيون ، بن أبى سعيد بن عبيد الله الأميثوى (م - ١١٣٠ هـ)

(٣٢) « نور الأنوار فى شرح المنار »

ح

- ابن حاجب ، عثمان بن عمر بن أبي بكر (م - ٦٤٦ هـ)
- (٣٣) « منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل »
الحاج خليفة ، مصطفى بن عبد الله الكاتب شلبي (م - ١٠٦٦ هـ)
- (٣٤) « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون »
مطبعة العالم ١٣١٠ هـ (نومرو) الطبعة الأولى
- ابن حجر ، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (م - ٨٥٢ هـ)
- (٣٥) « فتح الباري » المطبعة السلفية بمصر
- (٣٦) « تهذيب التهذيب »
مطبعة دائرة المعارف ، حيدر آباد ، ١٣٢٥ هـ
- ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد (م - ٤٥٦ هـ)
- (٣٧) « الأحكام لأصول الأحكام »
- (٣٨) « التعنيف »
- حسام الدين ، محمد بن محمد بن عمر الاخسيكي (م - ٦٤٤ هـ)
- (٣٩) « المنتخب في أصول المذهب »
- حسين أحمد المدني (م - ١٣٥٨ هـ)
- (٤٠) « مكاتيب »
- الحصكفي ، محمد علاء الدين بن علي (م - ١٠٨٨ هـ)
- (٤١) « الدر المختار شرح تنوير الأبصار » (علي هامش رد المختار لابن عابدين)
- المطبع المجتبائي بدهلي ، ١٢٨٧ هـ

ابن حنبل ، أحمد (م - ٢٤١ هـ)

(٤٢) « مسنده »

خ

الخنزرى ، الشيخ محمد بك

(٤٣) « أصول الفقه »

مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الخامسة ، ١٣٨٥ هـ

الخطيب ، أحمد بن على البغدادى (م - ٤٦٣ هـ)

(٤٤) « تاريخ بغداد »

دار السكتاب العربى ، بيروت

الخطيب ، ولى الدين محمد بن عبد الله التبريزى (من علماء القرن الثامن الهجرى)

(٤٥) « مشكاة المصابيح »

أصح المطابع ، دهلى ، ١٩٥٥ م

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (م - ٨٠٨ هـ)

(٤٦) « مقدمة ابن خلدون »

المطبعة البهية ، مصر

(٤٧) « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب

والعجم والبربر »

مطبعة النهضة ، بشارع عبد العزيز ، بمصر ، ١٩٣٦ م

د

الدارقطني ، علي بن عمر (م - ٣٨٥ هـ)

(٤٨) « سنن الدارقطني »

طبعة الانصاري بدهلي

الدارمي ، أبو محمد الدارمي ، (م - ٢٥٥ هـ)

(٤٩) « سنن الدارمي »

طبعة النظامي بكانفور

أبو داود ، سليمان بن أشعث السجستاني (م - ٢٧٥ هـ)

(٥٠) « سننه »

الدمشقي ، محمد بن محمد (م - ٨٨٣ هـ)

(٥١) « النشر في القراءات العشر »

ذ

الذهبي ، أبو عبد الله شمس الدين (م - ٧٤٨ هـ)

(٥٢) « تذكرة الحفاظ »

مطبعة دائرة المعارف النظامية بميدرا آباد ، الهند

الطبعة الثانية ، ١٣٣٣ هـ

ر

الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر

(٥٣) « مختار الصحاح »

الرويانى ، محمد بن هارون (م - ٣٠٧هـ)

(٥٤) « مسنده »

س

السبكى ، تقى الدين ، على بن أحمد ، عبد الكافى (م - ٧٧١هـ)

(٥٥) « شفاء السقام »

السهيلى ، أبو القاسم ، عبد الرحمن بن عبد الله (م - ٥٨١هـ)

(٥٦) « الروض الأنف »

السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد (م - ٩١١هـ)

(٥٧) « صون المنطق والكلام »

ش

الشعرانى ، عبد الوهاب (م - ٩٧٣هـ)

(٥٨) « الميزان الكبيرى »

أكمل المطابع بدلى ، ١٢٨٦هـ

الشوكافى ، محمد بن على (م - ١٢٥٥هـ)

(٥٩) « نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار »

ادارة الطباعة المنيرية فى مصر

الطبعة الثانية ، ١٣٤٤هـ

(٦٠) « تحفة الذاكرين »

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (م - ٥٤٨ هـ)
(٦١) «الملل والنحل»، بهامش الفصل في الملل لابن حزم

الشهيد، محمد بن اسماعيل بن عبد الغني (م - ١٢٤٦ هـ)
(٦٢) «إيضاح الحق الصريح في أحكام الميت والضرع»،

الشيبياني، أبو عبد الله محمد بن حسن (م - ١١٨٩ هـ)

(٦٣) «الجامع الصغير»

المطبع العلوي بلسكنو

ص

صدر الشريعة الأصغر، عبيد الله بن مسعود بن محمود البخاري
(م - ٧٤٧ هـ)

(٦٤) «شرح الوقاية»

الصنعاني، محمد بن اسماعيل الأمير السكحلاني (م - ١١٨٢ هـ)

(٦٥) «سبل السلام»

ط

طاشكبري زاده، أحمد بن مصطفى (م - ٩٦٨ هـ)

(٦٦) «مفتاح السعادة والسيادة»

مطبوعة دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، الهند، ١٣٢٩ هـ

الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد البغدادي (م - ٣١٠هـ)

(٦٧) «جامع البيان في تفسير القرآن»

المطبعة الميمنية ، مصر ، ١٣٠٦هـ ،

الطحاوى ، أحمد بن محمد بن سله (م - ٣٢١هـ)

(٦٨) «مختصر الطحاوى»

ع

ابن عابدين ، السيد محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الشامي (م - ١٢٥٢هـ)

(٦٩) «رد المحتار»

المطبع المجتبائي دهلي ١٢٨٧هـ

ابن أبي عاصم ، أبو بكر بن عمرو (م - ٢٨٧هـ)

(٧٠) «السنة»

ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله بن محمد (م - ٤٦٣هـ)

(٧١) «جامع بيان العلم وفضله»

عبد الحق الحقاني ، (م - ١٣٣٥هـ)

(٧٢) «النمى في شرح الحسامى»

طبعة المجتبائي ، دهلي

عبد الحق ، المحدث الدهلوى (م - ١٠٥٢هـ)

(٧٣) «أشعة اللغات»

المطبعة نول كيشور ، لكناؤ ، ١٢٩٠هـ

عبد الحى اللكهنوى ، (م - ١٣٠٤هـ)

(٧٤) « عمدة الرعاية على شرح الوقاية »

المكتبة الرحيمية ، ١٣٧٠هـ

(٧٥) « الفوائد البهية فى تراجم الحنفية »

المطبع المصطفائى ، دهلى ، ١٢٩٣هـ

الشاه عبد العزيز الدهلوى ، (م - ١٢٣٩هـ)

(٧٦) « الفتاوى العزيزية »

العظيم آبادى ، شمس الحق (م - ١٣٢٩هـ)

(٧٧) « عون المعبود شرح سنن أبى داود »

العقيلى ، أبوجعفر ، محمد بن عمر (م - ٣٢٢هـ)

(٧٨) « الضعفاء »

العينى ، بدر الدين ، أبو محمد محمود بن أحمد الحنفى (م - ٨٥٦هـ)

(٧٩) « عمدة القارى »

مطبعة دار الطباعة العامرة فى دار السلطنة السنية

غ

الغزالى ، أبو حامد محمد بن محمد (م - ٥٠٥هـ)

(٨٠) « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة »

ف

الفلافي، صالح بن محمد بن نوح العمري (م - ١٢١٨هـ)

(٨١) «إيقاظ همم أولى الأبصار»

إدارة الطباعة المنيرية بمصر

الطبعة الأولى، ١٢٥٤هـ

ابن فورك، أبو بكر محمد بن حسن بن فورك (م - ٤٠٦هـ)

(٨٢) «مشكل الحديث»

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقرئ (م - ٧٧٠هـ)

(٨٣) «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي»

ق

قاضي خان، حسن بن منصور بن محمود الأوزجندی (م - ٥٩٢هـ)

(٨٤) «فتاوى قاضي خان»

مطبع المنشي نول كشور بلسكهنو، ١٣٠٢هـ

ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم (م - ٢٧٦هـ)

(٨٥) «تأويل مختلف الحديث»

دار القومية العربية للطباعة والنشر بمصر، ١٣٨٦هـ

ابن القيم ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (م - ٧٥١ هـ)

(٨٦) «إعلام الموقعين عن رب العالمين»

تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

مطبعة السعادة بمصر - الطبعة الأولى ، ١٣٧٤ هـ

(٨٧) «شرح القصيدة النونية»

مطبعة الإمام بمصر

(٨٨) «زاد المعاد في هدى خير العباد»

المطبعة المصرية ، ١٣٤٧ هـ

(٨٩) «الطرق الحكيمة»

مطبعة السنة المحمدية

(٩٠) «بدائع الفوائد»

(٩١) «كتاب الروح»

لـ

الكاشغري ، سديد الدين (م - ٩٥٦ هـ)

(٩٢) «منية المصلي»

المطبع المجتبائي بدهلي ، ١٨٩٢ هـ

الكاساني ، أبو بكر بن مسعود بن أحمد (م - ٥٨٧ هـ)

(٩٣) «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع»

ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمر (م - ٧٧٤ هـ)
(٩٤) « البداية والنهاية »

مكتبة المعارف ، بيروت
الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ م

م

الإمام مالك بن أنس (م - ١٧٩ هـ)
(٩٥) « المدونة الكبرى »

مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٢٣ هـ

المباركفوري ، أبو العلي عبد الرحمن (م - ١٣٥٣ هـ)
(٩٦) « تحفة الأحوذى فى شرح جامع الترمذى »
جيد برقى پريس بدهلى

الإمام محمد بن الحسن الشيبانى (م - ١٨٩ هـ)
(٩٧) « الجامع الصغير »

الإمام مسلم بن الحجاج القشبرى (م - ٢٦١ هـ)
(٩٨) « صحيح مسلم »

المقرىزى ، تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر (م - ٨٤٥ هـ)
(٩٩) « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار »

المرغينانى ، برهان الدين (م - ١١٩٦ هـ)
(١٠٠) « الهداية فى الفروع »

المنذرى ، عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله (م - ٦٥٦ هـ)

(١٠١) « الترغيب والترهيب »

المطبعة الفاروقية ، دهلى ، ١٣٠٠ هـ

ن

ابن نجيم ، زين الدين بن ابراهيم المصرى الحنفى (م - ٩٧٠ هـ)

(١٠٢) « الأشباه والنظائر »

النسائى ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (م - ٣٠٣ هـ)

(١٠٣) « مدن النسائى »

النعمانى ، عبد الرشيد النعمانى

(١٠٤) « ما تمس إليه الحاجة »

النواب صديق حسن خان (م - ١٣٠٧ هـ)

(١٠٥) « اتحاف النبلاء المتقين باحياء مآثر الفقهاء المحدثين »

طبعة النظامى بكانفور ١٢٨٨ هـ

(١٠٦) « أجد العلوم »

المطبعة الصديقية ، بهوفال ١٢٩٦ هـ

(١٠٧) « الروضة الندية شرح الدرر البهية »

المطبع العلوى بلكهنؤ ، ١٢٩٠ هـ الطبعة الاولى

(١٠٨) «فتح البيان»

المطبعة الكبرى المنيرية بيوتلاق مصر المحمية
الطبعة الأولى ١٣١٠هـ

و

الشاه ولي الله، أحمد بن عبد الرحيم (م - ١١٧٦هـ)

(١٠٩) «حجة الله البالغة»

المكتبة الرشيدية، دهلي، ١٣٧٣هـ

(١١٠) «قرة العينين في تفضيل الشيخين»

المطبع المجتبائي بدهلي، ١٣١٠هـ

(١١١) «الخير الكثير»

(١١٢) «عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد»

طبعة مصر

(١١٣) «المصنف شرح الموطأ» (بالفارسية)

(١١٤) «التفهيمات الالهية»

مدنية برقي پريس، بجنور، الهند، ١٩٣٦م

(١١٥) «البلاغ المبين»

الشيخ ولايت علي (م - ١٢٦٩هـ)

(١١٦) «العمل بالحديث»

٥

الهيثمي ، أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان (م - ٨٠٧ هـ)

(١١٧) «تجمع الزوائد ومنبع الفوائد»

دار الكتب العربى ، بيروت ، ١٩٦٧ م

ى

أبو يعلى أبو الحسين محمد بن محمد بن الحسين الحنبلى (م - ٥٢٦ هـ)

(١١٨) «طبقات الحنابلة»

(١١٩) «مجلة فاران» كراتشى

رئيس التحرير: ماهر القادري

(١٢٠) «مجلة الاعتصام» لاهور

رئيس التحرير: الشيخ عطاء الله حنيف البهوجيانوي



٢ — فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مادة معروفة	٢
كلمة الطبعة الثانية	٤
تقديم الطبعة الأولى للكتاب	٧
توطئة	١١
الإسلام والحرية الفكرية	١٥
كلمة الناشر للطبعة الأردنية	٣١
مقدمة المترجم	٣٣
ترجمة المؤلف	٣٥
مقدمة المؤلف	٤٥
الفصل الأول في تطور حركة أهل الحديث	٤٩
عقول مختلفة	٥٠
حركات علمية للقضاء على الجمود	٥٢
نظرة على تاريخ المذاهب	٥٣
الحركات الإصلاحية	٥٤
الشاه ولي الله الدهلوي	٥٥

الموضوع	الصفحة
علمة الظاهرية	٥٩
طريقة القياس والفقه	٦٠
عظمة القرآن	٧٠
صحة الحديث	٧٣
مثال آخر: القراءة خلف الإمام	٧٤
ومثال آخر: الولاية في النكاح	٧٩
ومثال آخر: حرمة الرضاع	٨٢
منهج المحدثين نحو القياس	٨٥
أصول فقه الحديث	٨٧
حركة أهل الحديث حينذاك	٩٠
فتنة الاعتزال	٩٣
المتكلمون	٩٥
الطرق الثلاثة للتقليد	٩٧
طريقة أهل الحديث	٩٧
انهزام الفلسفة اليونانية وتراجعها	٩٨
موقف غريب نحو الإمام الشافعي	١٠٠
محاولة النيل من الإمام الشافعي	١٠٢
الإسلام في الهند	١١١

الصفحة	الموضوع
١١٦	كتاب تذكرة الحفاظ للذهبي
١١٩	فهرس الأئمة المحققين مع السنين
١٢١	نور في الظلمات
١٢٣	مكونات حركة الشاه ولي الله واتجاهها
١٢٤	نظرة إلى أهداف هؤلاء العلماء
١٢٥	نظرية أصحاب دهل
١٢٩	نتيجة هذا التصريح
”	هدف الشاه ولي الله
١٣٣	أصول الفقه
١٣٦	موقف الشاه ولي الله من الفروع
١٣٧	حديث القلتين
”	قراءة الفاتحة خاف الامام
١٣٨	رفع اليدين والوتر
”	شد الرحال لزيارة القبور
١٣٩	نواقض الوضوء
”	الوتر
١٤٠	القنوت
”	الجمع بين الصلاتين

الصفحة	الموضوع
١٤١	تسكيرات العيدين
١٤١	العشر في العشر من الماء
١٤٢	أربع مصلات
١٤٤	ماذا يريد الشاه
١٤٥	طريق آخر
١٤٧	منسلك الشاه ولي الله
١٥٠	مغالطة كبيرة وأهل الحديث
١٥١	مدرسة أهل الحديث
١٥٨	أهل الحديث والمتكلمون
١٦٢	الفقه وأهل الحديث
١٦٤	عصر تدوين الحديث
١٦٨	انفصال عن الشاه ولي الله

الفصل الثاني في الموقف التاريخي لحركة

١٧١	أهل الحديث وخدماتها
١٧٢	حركة أهل الحديث
١٧٤	أهل الحديث والحركات الأخرى
١٧٦	المتكلمون والمبتدعون

الموضوع	الصفحة
أقدم حركة	١٧٦
فتح الهند وأهل الحديث	١٧٧
استيلاء البدع	١٧٩
النتيجة	١٨٠
جماعة المجاهدين	١٨٢
النشاط الجدلى	”
الفصل الثالث فى نشاط الموحدين فى شبه	
القارة الهندية	
أمرة قرشية	١٨٥
حكم الأمة الشاه ولى الله	١٨٧
جنود إبليس	١٨٩
الفصل الرابع فى بيان حكم التقليد وتحقيق	١٩١
القول فيه	
ترك التقليد وأهل الحديث	١٩٣
اختراع كلمة « غير المقلد »	١٩٤
مصطلح « المقلد » و « غير المقلد »	١٩٦
	١٩٧

الموضوع	الصفحة
الدولة ونشر المذاهب	١٩٧
أين التقليد ؟	١٩٨
تعريف التقليد	١٩٩
متى استعمل لفظ التقليد ؟	٢٠١
الميل الطبيعي إلى التحقيق	٢٠٢
أهل الحديث أو معارضو التقليد	٢٠٣
حال القدماء والعلماء	٢٠٥
حقيقة الحاجة إلى التقليد	٢٠٦
مرونة في المعنى	٢٠٧
سهل وصعب	”
التقليد المطلق والشخصي	٢١٠
أمثلة التقليد المطلق	٢١٦
تقسيم الصحابي إلى فقيه وغير فقيه	”
التقليد الشخصي في عصر الصحابة	٢١٩
الدليل الأول	”
التماس مع احترام	٢٢١
الدليل الثاني	٢٢٣
الدليل الثالث	٢٢٤

الموضوع	الصفحة
قيد التقليد العام	٢٢٧
الفواحيش في باكستان	٢٣٢
مثال مضحك	٢٣٣
الشاه ولي الله والتقليد	٢٣٧
شبهات حول التقليد	٢٤١
الآية الأولى	٢٤٢
الآية الثانية	٢٤٥
خطبة الجمعة	٢٤٦
قيام رمضان	”
الأئمة يردون على التقليد	٢٥٠
الاعتدال أو الجود في التقليد	٢٥٢
هل الفقه قانون مصطنع ؟	”
المسألة الأولى : وضع الدين	٢٥٣
المسألة الثانية : رفع الدين	٢٥٦
الحديث الأول	٢٥٧
الحديث الثاني	٢٥٨
الخلاصة	٢٦١

الموضوع	الصفحة
المسألة الثالثة : جلسة الاستراحة	٢٦١
المسألة الرابعة : التورك في القعدة الأخيرة	٢٦٣
المسألة الخامسة : قراءة الفاتحة خلف الإمام	٢٦٤
المسألة السادسة : الركعتان الأخيرتان	”
المسألة السابعة : النية باللسان	٢٦٥
المسألة الثامنة : الأضحية قبل الصلاة	٢٦٦
المسألة التاسعة : زوجة مفقود الخبر	٢٦٧
الفصل الخامس في الائتمام بأهل الحديث	
ومناقشة آراء المعارضين له	٢٧٣
الائتمام بأهل الحديث	٢٧٤
الوهابي	٢٧٥
الدلائل	٢٧٧
طهارة الخمر	٢٨٩
المسح على العمامة	٢٩٦
وجوب الغسل	٢٩٧
المسح على الرجل	٢٩٨
نهاية القول	”

الفصل السادس فى الحركة المقدسة التى

تعرضت للمظالم

٢٩٩

٣٠٠

٣٠٤

٣٠٩

٣١٠

٣١١

٣١٢

٣١٤

٣٢٦

٣٣٥

٣٤٦

٣٥٧

٣٦٣

٣٦٤

أماراة أهل البدعة أنهم يسبون أهل الحديث

آثار التقليد والجمود

كيان الشوافع

مجال آخر للكلام

جبهة أخرى

طهارة أو وهم

أهل الحديث فى صفحات التاريخ المختلفة

رأى المؤرخين والمتكلمين

عصر التقليد والجمود

القواعد النورانية

التفقه والظاهرية

أهداف حركة الجهاد والتحرير

طريق البين

الفصل السابع فى مسألة حياة النبي ﷺ

فى ضوء الأدلة الشرعية

٣٦٧

٣٧٠

تطور الحركات الإصلاحية

الموضوع	الصفحة
حركة الهند الجديدة	٣٧٢
طبيعة الحركة	”
أهل ديوبند وأهل الحديث	٣٧٥
موقف الشاه ولي الله الدهلوي	٣٧٨
مسألة حياة النبي ﷺ	”
كيف يحسم النزاع	٣٨٠
الشاه محمد اسماعيل رحمه الله	”
موقف ثالث	٣٨١
فشل الحركة المعارضة للتوحيد	٣٨٢
محل النزاع	٣٨٥
أهل الحديث والفقهاء	”
عقيدة البريلوية عن حياة النبي ﷺ	٣٨٦
مواقف الديوبنديين للبريلويين	٣٨٧
نقاط للنظر والتدبر	٣٨٨
حياة الأنبياء النبوية ، مذهب أهل البدعة	٣٩٣
هل الموت مهانة ومذلة للأنبياء	”
الحقيقة لا تتغير بتغير العنوان	٣٩٦
كراهية الموت	”

الموضوع	الصفحة
دعوة النبي ﷺ للباهلة	٣٩٧
تحقيق حياة الشهداء ونوعيتها	٣٩٨
تحقيق الشاه عبد العزيز	٤٠٢
تصريح العلامة الآلوسى الحنفى	٤٠٣
تصريح الحافظ ابن جرير	٤٠٥
نظرة على الاحاديث المذكورة	٤٠٧
صلاة موسى	٤٠٩
إن الروح لها بالبدن خمسة أنواع	٤١٠
عقيدة الحياة ونتائجها	٤١٧
قصص وحكايات	٤٢٠
نظرة إلى محتويات رسالة حياة النبي ﷺ	٤٢٢
علم كلام البريلوية	٤٢٦
اخوان ديوبند	”
حل بعض الشبهات	٤٣١
آب حياة	٤٣٣
حياة النبي وأهل الحديث	٤٣٤
موقفى فى الكتابة	٤٣٥

الموضوع	الصفحة
نظرية المنشى محمد شفيق	٤٣٦
تحليل أدلة المنشى	٤٣٩
الفصل الثامن فى زيارة القبور	٤٤٥
الرؤية الجاهلية والاسلامية عن القبر	٤٤٦
اصحاب الكهف	٤٤٧
الانبياء السابقون رحمهم الله	”
تقاليد ما قبل الاسلام	٤٤٨
احاديث النبي ﷺ	٤٤٩
النواتر	٤٥١
المسجد عند القبور	٤٥٢
حفلات وأعياد على القبور	٤٥٣
زيارة الوثنيين	”
اصل الداء	٤٥٤
القبر المخصص	٤٥٦
الزيارة المسنونة	٤٥٨
الدعاء المسنون	٤٥٩
متى بدأت عبادة القبور	٤٦٠

الموضوع	الصفحة
إيقاد السراج	٤٦٢
تقديم الزهور إلى القبور	٤٦٣
الروضة النبوية « قبر النبي ﷺ »	٤٦٥
آداب الزيارة	٤٦٧
الكذب والافتراء	٤٦٨
احتفال أهل بدر	٤٧٠
شهداء أحد	٤٧١
المناجات والقصص	٤٧٢
نعش دانيال	٤٧٣
القاضي ثناء الله الباني بتي	٤٧٦

الفصل التاسع في أسئلة عن مذهب

أهل الحديث والإجابة عنها	٤٧٩
الأسئلة	٤٨٠
الإجابة	٤٨٣
سؤال حول تصور النبي في الصلاة وجوابه	٤٩٣
الجواب	٤٩٤

الموضوع	الصفحة
تصور الرسول ﷺ	٤٩٥
منشأة الغلط	٤٩٦
نظير فقهى	٥٠١
المسألة الثانية	٥٠٢
توضيح حول مبحث الحياة	٥٠٥
فهرس المصادر	٥٠٦
فهرس الموضوعات	٥٢٣



EDUCATION-13-1 MAR 19
AT-1881

1921-1922

1921-1922

1921-1922

1921

HARAKAT-UL-INTILAQUE AL-FIKRI

By

Allamah Mohd. Ismail Al-Salafi

Publisher

IDARAT-UL-BUHOOOTH-IL-ISLAMIA

JAMIA SALAFIA, VARANAS

INDIA